إخضاع النيل لإرادة الإنسان

السد العالي

بقلم توم ليتل

تعريب وتعليق خيري حماد

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

إخضاع النيل لإرادة الإنسان

السد العالي في أسوان

بقلم
توم ليتل

تعريب وتعليق
خيري حماد

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

HIGH DAM AT ASWAN

«The subjugation of the Nile»

By

TOM LITTLE

الغلاف : هدى سرور

مقدمة المعرب

قليلة هي الكتب التي وضعت بأقلام غربية عن السد العالي • وأقل منها تلك التي تناولت الموضوع ، وعالجته بتجرد وموضوعية ، مع ان هذا الموضـوع لا يمثل مجرد حادث عابر في حقبة من حقبـات الزمن يجوز اهماله ، أو المرور به مر الكرام ، في مقـال عارض أو رسالة صحفية عادية ، وانما يمثل حدثا ضـخما في تاريخ الجنس البشرى ، بل وفي الوضع الجغرافي للعالم •

ونحن لا نعرف عن كتـاب الغرب ، اهمـالهم الأحداث الهامة ، وتقاعسهم عن تسجيلهـا ، فهم لا يهملون حتى التوافه من المواضيع • لكن هذا الاهمال ، ولموضوع السد العالي بالذات ، قد يكون متعمـدا ، لأن موضوعه في تطلبه للعرض والتسجيل ، لا يروق لهم ، ولأنهم يحسون تجاهه بغصة شـديدة ، اذ ان الكثيرين منهم كانوا يتمنون لو ان السد العالي لم يقم دليـلا على ثورة الجمهورية العربية المتـحدة وتقدمهـا ، وسعيها لخلق المجتمع الاشتراكي من ناحية ، ورمزا خالدا للتعاون الدولي اللامشروط بينها وبين الاتحاد السوفياتي من الناحية الاخرى •

لكن هذا الكتاب الذي توليت تعريبه ، وتقديمه الى قارئنا العربي ، جاء مخالفا لهذه القاعدة العامة التي أشرت اليها ، وقـد لا يكون المخالف الوحيد لها • فقد اظهر ان في مكنة الفـكر ، وان شدته الاتجـاهات والمذهبيات الى ناحية معينة ، أن يتحرر من الاهواء والحزازات الذاتية ، ويخلص من الغصات والمرارات ويعالج المواضيع بكثير من الموضوعية ، وان لم تتحرر المعالجة من آثار الرواسب الفكرية عند كتـاب الغرب ، وانتماءاتهم السياسية والحزبية ، مهما حاولوا التحرر وتوخي الموضوعية•

فالسد العالى فى رأى مؤلف هذا الكتاب حدث من أبرز الأحداث التى شهدها العالم فى النصف الثانى من القرن العشرين . ولقد شهدت الدنيا بأسرها فى الرابع عشر من مايو من عام ١٩٦٤ ، تحول مجرى النهر العظيم الى مجرى جديد ، وتمكن العقل البشرى الخلاق من السيطرة على الطبيعة ، والتغلب على سيرها ، لتحقيق أجزى الفوائد للانسانية . وهو يقول ، ان ليس فى امكان أحد أن يغفل أو يتجاهل ، مثل هذا الحدث الضخم ، الذى حقق للانسان نصرا عظيما على الطبيعة . ولم يعد هناك ــ بعد أن قطع العمل مراحله المتتابعة ــ مجال للتشكيك فى امكان استكمال المراحل الباقية ، وما تعنيه لمصر ومستقبلها . ..

وهو يرى ان السد العالى ، أكثر من مجرد عمل هندسى ، فهو يمثل الفصل الاخير فى قصة نهر النيل الرائعة . كما ان بحيرة ناصر المنبثقة عنه ، ستغطى باستثناء الآثار التى سيتم نقلها وانقاذها ، وبينهـا آثار أبى سمبل التى تمت فى الأسبوع الأخير عملية نقلها مخلفات ألوف السنين من تاريخ الجنس البشرى . ومن هنا كانت الحملة لانقاذ آثار النوبة ، من أهم الحملات الثقافية والحضارية ، وأعظمها فى تاريخ العالم.

ويتميز الكتاب أول ما يتميز ، بالموضوعية ، وان لم تخل هذه الموضوعية من شطحات ، بعضها متعمد ، والبعض الآخر منهـا عن غير عمد ، وهى تنطلق من مجموعة من الرواسب الفكرية ، عند معظم كتاب الغرب ، ولا سيما من البريطانيين ، مهمـا كانـوا صادقين مع نزعتهم الموضوعية . فلا يستطيع الكاتب البريطانى أن ينسى بريطانيته عندما يتحدث عن تاريخ التفكير فى بناء السد العالى ، ولذا يحاول مؤلف هذا الكتاب ، أن يقول ، ان البريطانيين من ساسة وخبراء ومهندسين ، هم أصحاب الفضل الأول فى اقامة السد ، محاولا التدليل على ذلك بمشروع سد أسوان القديم ، وبفضلهم فى تحقيقه . وهو يتناسى هنا ان أهداف السد العالى ، هى غير أهداف سد أسوان ، اذ ان السد العالى ، يقلب الغاية التى كان يتوخاها الاستعمار دائما ، رأسا على عقب ، وهى الابقاء على مصر «هبة النيل» ، والبلد الزراعى الذى يؤدى دور البقرة الحلوب لمصانع يوركشاير ولانكشاير ، ويزودها بانتاج مصر من القطن لتصنيعه واعادته سلعا منسوجة تباع للشعب المصرى بأغلى الاثمان بعد أن حصلت بريطانيا على خاماتها بأقل الاسعار .

وهو لا يستطيع أن ينسى بريطانيته ، عندما يتحدث عن تاريخ مصر ، فيقول ان بريطانيا ، احتلت مصر فى عام ١٨٨٢ ، لتنقذها من خطر

الافلاس الذى كان يتهددها ، نتيجة اسراف الخديو اسماعيل وتبديده ، ثم يدعى ان بريطانيا عملت كل ما فى وسعها ، للنهوض بثروة مصر القومية لتسديد ديونها • ولكنه لا يذكر هنا ، ولو بشىء من التلميح دون التصريح ، ان بريطانيا ، هدفت من احتلالها لمصر الذى ظل جاثما على صدرها أكثر من سبعين عاما ، أشياء أخرى غير انقاذها من الافلاس ، وفى مقدمتها ضمان السيطرة على قناة السويس ، وضمان الأمن للمواصلات الامبراطورية مع الهند ، بالاضافة الى فتح أسواق جديدة فى مصر ، وغيرها من البلاد القريبة منها ، لابتزاز مواردها الاولية ، وبيع منتجاتها الصناعية فيها •

وبالرغم من موضوعية المؤلف فى الاعتراف بأن مصر كانت فى حاجة الى أكثر من الزراعة ، وبأن بريطانيا ، لم تفكر اطلاقا فى امكان تحويل مصر الى بلد صناعى ، الا انه لا يمضى فى موضوعيته هذه ، الى الحديث عن حقيقة الدوافع التى دعت بريطانيا الى عدم التفكير فى تصنيع مصر • فمثل هذا الاستطراد ، يتنافى مع الطبيعة الامبريالية للاستعمار ، وهو هنا ، لا ينسى بريطانيته ، عندما يدعى ان بريطانيا جعلت من مصر ، أخصب بلاد العالم ، وأكثرها انتاجا فى مجال الزراعة • ولعله نسى ، ان مصر ، كانت ، ومنذ ألوف السنين ، أخصب بلاد العالم ، وأكثرها انتاجا زراعيا ، وكانت هذه الحقائق سببا فى بروز الحقيقة التاريخية الكبرى ، وهى ان مصر ، مثلت مهد الحضارات فى العالم ، واعرقها ، وأبعدها فى عصور التاريخ القديمة •

وبالرغم أيضا من موضوعية المؤلف فى سرد القصة التاريخية لسحب عروض الغرب ، بتقديم القروض لتمويل مشروع السد العالى ، فى عام ١٩٥٦ ، ومن موضوعيته فى رواية التفصيلات الدقيقة المتعلقة بهذه القصة ، الا انه لم يستطع أن ينسى بريطانيته ، وهو يحمل الثورة العربية ، وقائدها العظيم جزءا من المسئولية عن سحب هذه العروض ، نتيجة السياسات التحررية التى اتبعتها الثورة ، والتى عرضتها لغضب دهاقنة الاستعمار العالمى •

ولكن بالرغم من كل هذا ، وكثير غيره من النقدات التى لا بد من توجيهها الى هذا الكتاب ، والتى عرضتها فى الهوامش المنتشرة فى تعريبى له ، الا ان فى الامكان القول ، بأن من أحسن الكتب التى صدرت فى الغرب عن موضوع السد العالى ، ان لم يكن أحسنها كلها • فهو يتميز بالموضوعية أولا ، وبمحاولة الانصاف وتقرير الحقائق ثانيا ، وبسعة

الاطـــلاع ودقة الاستنتاج ثالثا ، وبوفرة الحقــائق العلمية والمعلومات التاريخية والارقام رابعا • وهو بالاضافة الى هذه المزايا كلها ، سرد كامل لقصة السد العالى من أولها الى آخرها ، مع العرض التاريخى الشامل لتطورها ، والوصف العلمى الدقيق لمخططات السد ، والعمل الذى تحقق فيه ، والنتائج العظيمة المرتقبة منه • وهو فوق هذا وذاك ، سجل تاريخى دقيق لآثار النوبة ، والحملة الدولية لانقاذها ولما قدمته مصر من اسهام ضخم فى هذه العملية الحضارية العظيمة •

وليس المؤلف بالغريب عن مصر أو الوطن العــربى • فقـــد قضى ســنوات طويلة فى القــاهرة ، صحفيا يعمل كمدير عام لوكالة الأنباء العربية فى الشرق الاوسط ، وكمراسل يزود كبريات الصحف البريطانية كالايكونوميست والاوبزرفر بمقالاته عن المنطقة العربية • وهو ما زال يعمل حتى يومنا هذا مديرا لوكالة الانباء الاقليمية فى الشرق الاوسط ، التى اتخذت من بيروت مقرا لها ، بعد أن ابدلت اسمها من وكالة الانباء العربية الى الوكالة الاقليمية ، وبعد أن تم الاندماج بينها وبين جهاز وكالة رويتر للانبــاء فى المنطقة العربية • ولذا يعتبر توم ليتل ، من الخبراء البريطانيين فى الشرق الاوسط ، وشئونه ومشاكله ، اذ قضى فيه أكثر من عشرين عاما ، يتنقل فى غضونها بين ربوعه كلها • ولقد سبق له ان وضع كتابا ضخما عن « مصر » ضمنه عرضا لتاريخها بوجه عام ، ولتاريخ الثورة حتى صدور الكتاب فى عــام ١٩٥٨ بوجه خاص • وهو ما زال يوالى تزويد عدد من المجلات فى بريطانيا ، بمقالاته عن المنطقة العربية •

ويقع الكتاب فى مقدمة وأربعة أقسام ، يضم كل قسم منها ، عددا من الفصول • فهو يعرض فى مقدمته ، أهمية السد العالى ، وما يمثله لمصر ، بل وللعالم أيضا • وهو يؤكد أن السد يجب أن يعتبر واحدا من أعظم المشروعات التى شــهدها العــالم الحديث ، لا بســبب ضخامته ، والصعوبات التى زافقت انشاءه فحسب ، وانما لأنه يمثل ذروة جهود الألوف من السنين التى بذلها الانسان ، لاستخدام نهر النيل فى تحقيق الخير العظيم لعشرات الملايين من النــاس ، ولأنه يجد البــداية الفعلية لظهور مصر الحديثة • وهو هنا يربط بين السد وبين الثورة ، ويقول ان النصر الذى حققته فى انشائه ، يعتبر أيضا نصرا ضخما حققته الثورة على أعدائهــا داخل الوطن العربى وخارجه ، ولا ســيما على تلك الدول العظمى ، التى حاولت وقف المد الثورى الجارف • وهو ينتهى بعد ذلك الى القــول ، بأن استشفاف عبــد الناصر للمستقبل ، وصلابته فى تنفيذ

مخططاته ، كانا السبب الاول والرئيسى في قيام السد ، ونجاح المشروع ٠

ويقع القسم الأول الذى أسماه بالنبوءات والسياسات فى خمسة فصول ، تناول فيهـــا عظمة السد ، وأهميته فى حيـــاة مصر الجديدة وازدهارها ورخائها عن طريق التوسع الزراعى ، والتحول الصناعى ، كما تنـــاول جغرافية وادى النيل وتاريخه عبر العصور ، والجهود التى بذلت عبر القرون والأجيـــال للافادة من الماء لزراعـــة المزيد من الأرض ، وانتاج ما يكفى لاطعام الأعداد المتزايدة بسرعة من سكان البلاد ٠ وتحدث المؤلف في هذا القسم أيضا عن الثورة والأسباب التى أدت الى حتميتها ونجاحها ، وعن تفكيرها بمشروع السد العالى ٠ وعرض فيه أيضا المراحل الأولية والدراســـات التى رافقت المشروع من أوله ، والمناورات الغربية لفرض الضغط على مصر عن طريق تمويل السد العالى ٠ وينتقل بعد ذلك الى الحديث عن الاتفاق مع الاتحاد السوفياتى على تمويل المشروع ، وعن تصميم الرئيس عبد الناصر على تنفيذه ، وكذلك عن مشكلة الاتفاق مع السودان على تحقيقه ٠

ويتألف القسم الثانى من خمسة فصول أيضـــا عالج فيهـــا تطور العمل في السد سنة بعد أخرى ، أى منذ بدأ هذا العمل فى التاسع من يناير من عام ١٩٦٠ حتى انتهاء المرحلة الاولى منه فى الخامس عشر من مايو من عـــــام ١٩٦٤ ٠ ولا شك فى انه عالج هذا الموضوع معـــالجة موضوعية فيها الكثير من الدقة فى معلوماتها وحقـــائقها وأرقامها ٠ فهو يتحدث فى الفصل السادس مثلا عن موقع السد حديثا علميا هندسيا ، لحمته الارقام ، وسداه المخططات والرسوم البيانية ٠ وهو يشفع ذلك بالبحث بحثا مقارنا في المشروعات العديدة التى وضعت لبناء السد الى أن تم اختيار المشروع الاخير بعد أن تعرض لكثير من التعديلات ٠

وينهى المؤلف هذا القسم بالحديث عن المعجزة التى تحققت بفضل تحديد الهدف ، وتوافر الآلات والمعدات ، وزيادة عدد العمال الذين اربوا على الثـــــلاثين ألفا ، وتحسن أنظمة الصيانة والتصليح ، وقـــوة الروح المعنـــوية عنـــد العمال ، نتيجة التحسن العظيم فى أوضاعهم الحياتية ، واشتراك الطلاب والمتطوعين والجنود فى العمـــل ، والتضحيات العظيمة التى قام بها كل الذين اشتركوا فيه ٠

ويخصص المؤلف القسم الثالث من كتابه ، للحديث عن آثار النوبة والحملة الدولية لانقاذها ٠ وقد ضمنه خمسة فصول أيضا تناول فيها جغرافية بلاد النوبة وتاريخها ، واهتمام علماء الآثار بها ، ولغة أهلها .

وأصلهم ، وبيوتهم ، وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وطرق مواصلاتهم ، والمشاريع التي وضعت لتهجيرهم واعادة اسكانهم . وتحدث المؤلف في هذا القسم ، وبكثير من الاسهاب والتفصيل العلمي المستند الى الوثائق والسجلات التاريخية والتجارب الشخصية ، عن آثار بلاد النوبة، والجهود الدولية التي بذلت لانقاذها .

وينهي المؤلف كتابه بالقسم الرابع والأخير ، وهو يضم فصلا واحدا تحدث فيه المؤلف عن احتفالات الخامس عشر من مايو من عام ١٩٦٤ . وأقر المؤلف في هذا الفصل بأن انتهاء المرحلة الأولى ، مثل النصر العظيم للارادة والعزيمة على الزمن والطبيعة . وأكد ان الشعب المصري بالرغم من اعترافه بجميل الاتحاد السوفياتي ، ومعوناته الضخمة التي حاول المؤلف الانتقاص منها ، هو الذي حقق المعجزة ، وهو الذي انتصر على النيل ، والطبيعة ، والمؤامرات الاستعمارية .

ويتناول المؤلف في هذا القسم أيضا ، الحديث عما سيحققه السد لمصر من خير عميم ، وازدهار ورخاء ، وزيادة في الدخل القومي على الصعيد الزراعي والصناعي والكهربي . وينتقل بعد ذلك الى مشروعات مصر الاخرى ، كبحيرة ناصر ، والبحث عن المعادن ، والوادي الجديد ، ومنخفض القطارة ، ويصل في ذلك كله الى القول ، بأن مصر ستتغير تغيرا عظيما في غضون حقبة واحدة من الزمن ، وعندما تكون التطورات العظيمة الجارية فيها الآن قد أتت أكلها .

ويقول توم ليتل في نهاية كتابه .. « ولا شك في أن عبد الناصر، سيخرج بعد انتهاء هذه الحقبة ، وبعد التغلب على كل ما يعتور طريقه من عقبات ، أعظم من أنجبته مصر في تاريخها الطويل ، والباني لها . وسيسجل التاريخ ان السد العالي ، قد مثل نقطة التحول في تاريخ مصر الحديث » .

هذا هو الكتاب القيم الذي أقدمه الى قارئنا العربي والذي حاولت أن أفيه حقه من الاطراء والتقدير من ناحية ، والنقد والتقييم من الناحية الاخرى . ولا شك في انه من أحسن ما وضع عن السد العالي العظيم حتى اليوم ، وانه جدير بمطالعة كل قارئ عربي .

القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٩٦٧ **خيري حماد**

تقدمة المؤلف

من حق السد العالى أن يعتبر من أعظم المشروعات فى العالم · ولا يقوم هذا الاعتبار لمجرد ما يتميز به من حجم هائل ضخم ، ولا لصعوبة انشائه فى صحراء أسوان الصخرية الصلدة والقاحلة ، اذ ان الانسان أنشأ مثل هذه السدود الضخمة فى كثير من مناطق العالم الوعرة · فهو يقوم فى أرض قديمة وعريقة ، وعلى نهر سجل فيه الانسان الحضارى الاول ، أروع الصفحات وأكثرها جلاء · وهنا تبرز عظمته اذ مثل ذروة جهود الانسان ألوف السنين لاستخدام نهر النيل فى تحقيق أعظم الفوائد لخير أكبر قدر من الناس ، كما يبرز بصورة مؤكدة نقطة البداية العملية فى خلق مصر الجديدة ·

وكان السد أيضا معرضا للاخطار ابان الصراعات السياسية الاخيرة داخل مصر وخارجها ، كما كان تاريخه المعقد جزءا لا يتجزأ من الصراع الراهن حول ثورة عبد الناصر · فلقد ارتبط هذا التاريخ ارتباطا وثيقا بقدرة عبد الناصر على الصمود فى الصراع ضد أعدائه فى الداخل ومن القوى الكبرى فى العالم التى عملت على مقاومة أهدافه القومية الطموحة· ولو لم تكن هناك تلك المتطلبات المالية الكبيرة التى فرضها انشاء السد على الدولة ، لما حدثت قضية السويس ، أو لحدثت فى صورة مغايرة ، ولو لم يتوافر لعبد الناصر بعد نظره واصراره ، لما كان السد يقترب الآن من مرحلة النهاية ، بل ولما كان العمل فيه قد بدأ ، على الاطلاق ·

ولذا فقد تبينت انه لا يكفينى فى هذا الكتاب أن أتحدث عن السد وعن عملية انشائه · فهناك على أى حال سدود أخرى فى العالم تبنى فى الصخر ، وهى من الضخامة بحيث يمكن مضاهاتها بالسد العالى ، ولا

يختلف وصفها واحدا عن آخر • ولذا فقد حاولت عرض موضوع السد في محتواه الصحيح ، كجزء من الصراع الطويل الذى خاضه المصريون لاستخدام نهرهم العظيم ، كتطوير جذرى للنيل الأسفل ، وكثمرة من ثمار أفكار الكثيرين من بعيدى النظر ، وكعنصر من عناصر صمود عبد الناصر فى صراعاته الطويلة مع أعدائه • وأخيرا هناك موضوع النوبة وأهلها ، وتماثيلها وآثارها ، التى يجرى نقلها ، لانقاذها من الضياع •

ولا شك فى أن ايفاء موضوع السد حقه من البحث ، يتطلب أكثر من هذا الكتاب الذى خصصته له • فعلى المرء أن يتعمق بعيدا فى التاريخ المعاصر ليجد المعنى الكامل للسد العالى فى تطور السياسات داخل مصر وخارجها • ولا شك فى ان تصميم السد وما أدخل عليه من تعديلات ، قمت بشرحها فى هذا الكتاب ، بشىء من التفصيل ، يعنى الكثير للمهندسين ، كما ان تهجير النوبيين من بلادهم القديمة على النيل يؤلف دراسة ممتعة فى التاريخ الاجتماعى • وتؤلف حملات علماء الآثار فى بلاد النوبة ، مادة قيمة لعشرات المجلدات ، كما ان فى وسع عالم الاقتصاد أن يجد الكثير من المادة للحديث عن اثر السد على اقتصاد مصر المناضلة• وقد لا يكفى كتاب واحد لتناول جميع هذه المواضيع ، ولكنها محاولة قمت بها على أى حال •

وأنا أعرف ان ليس فى وسعى أن أنصف الكثيرين من الناس الذين لعبوا أدوارا هامة فى المشروع ، ولكننى على ثقة من اننى لو سردت أسماء المهندسين والفنيين الذين يعملون فى بناء السد ، والموظفين الذين أدوا واجبهم فى عملية تهجير النوبة ، والعلماء الذين اشتركوا فى انقاذ تاريخ النيل ، لتطلبت هذه الاسماء وحدها كتابا كاملا • واذا كنت قد ذكرت بعض الاسماء ، فلا يعنى هذا اننى لا أعترف بالفضل لغير أصحابه ، بل يعنى اننى أشيد أيضا بفضل جميع الذين اشتركوا معهم فى المشروع •

وقد يكون من العسير تحديد مراجع هذا الكتاب ومصادره • فلقد اعتمدت الفصول الاولى منه على نحو من مائة كتاب عن مصر ، بينما اعتمدت الفصول الاخرى التى تناولت بناء السد ، وتهجير النوبيين ، وعمليات البحث عن الآثار التى قام بها العلماء ، على زياراتى المتعددة للمنطقة ، وعلى أحاديثى مع كثيرين من الناس الذين يعملون فيها ، وعلى التقارير الرسمية التى كانت تسجل مراحل بناء السد ، سنة بعد أخرى• ومن المحتمل أن أكون قد أشرت فى بعض المواضع الى مراجع من هنا وهناك ، ولكن هناك مراجع ومصادر أخرى لا بد من الاشارة اليها • ولقد

أمدتني مؤسسة هوشتييف الهندسية ، بالوثائق الكاملة عن الأعمال الاصلية التى قامت بها فى اعداد تصميمات السد العالى ، والتى كان لابد من فهمها لفهم الناحية الهندسية فى المشروع • وأصدرت مصلحة الاستعلامات المصرية عددا من التقارير الهامة والنافعة عن المشروع ولقد اشرت الى بعضها وأنا أمر بها مر الكرام • ولكننى أشعر بأننى مدين بالفضل كل الفضل للسيد طه أبو الوفا ، وكيل وزارة السد العالى ، الذى شرح لى باسهاب التقارير المتعددة عن سير العمل ، وكثيرا ما أضاف اليها بخط يده فقرات ، ليجعلها متفقة مع آخر التطورات • وكانت السيدة سميحة توفيق مراسلة وكالة رويتر ، تزودنى بكل ما تنشره الصحف عن السد ، عندما أكون خارج مصر • ولا بد لى من شكر سيادة صدقى سليمان وزير السد العالى ، لما أتاحه لى من وقته الثمين لمناقشته فى بعض النقاط بالرغم من مشاغله الكثيرة ، وشكر السادة مهندسيه الذين كانوا يطوفون بى من وقت الى آخر ارجاء السد ، لأرى تقدم العمل فيه • ويشمل هذا الشكر أيضا المهندس جمال البطراوى كبير مهندسى المقاولين العرب (عثمان أحمد عثمان وشركاه) ، الذى كان يتكرم بمرافقتى شخصيا ليوضح لى سير العمل ابان الفترة العصيبة ، التى انقضت قبل أن يعود سير العمل الى المستوى المحدد فى الخطة • ولقد كان المهندس عثمان أحمد عثمان نفسه معينا لى فى عملى ، كما ساعدنى مهندسوه ولا سيما السيد ابراهيم فراج مدير العلاقات العامة آنذاك ، والسيد أحمد محرم ، والسيد حسين لطفى • ولقد تفضل المستر هربرت اديسون بقراءة مسودة هذا الكتاب • وجنبنى بخبرته الهندسية الواسعة وتجاربه فى الهندسة المدنية الوقوع فى كثير من الاخطاء •

وكان من العسير على أن أرى بنفسى جميع الآثار والحفريات فى بلاد النوبة ، كأبى سمبل والفيلة وبوهين وفاراس وقصر ابريم وكلابشه وأن أرى المعابد التى تولى المصريون نقلها من أماكنها الاصلية الى جزيرة الفيلة • ولقد ادرجت التقارير الرئيسية عن حملة جمع الاكتتابات للحفاظ على آثار النوبة فى تقارير منظمة اليونيسكو التى شملت بيانات

دائرتي الآثار في الجمهورية العربية المتحدة والسودان ، وبيانات الخبر الدوليين ونتائج دراسات المنظمة نفسها • ولا بد من شكر الآنسة ايفلي طبوشي الموظفة في مقر الهيئة في باريس لتزويدها اياي بصورة مستمر بهذه التقارير • وهناك أيضا عدد كبير من الكتب والتقارير التي اعتمد عليها في موضوع آثار النوبة • ولابد لي من شكر السيد ثابت حسن ثابت مدير دائرة الآثار السودانية ، لما قدمه لي من مساعدات في وادي حلفا •

ولا بد أخيرا من شكر السيدة بيجي بول من وايتشيرش ف اوكسفورد شاير ، لما بذلته من جهد في طباعة هذا الكتاب على الآ الكاتبة باتقان ومهارة •

ويتشير اوكسون **توم ليتل**

القسم الأول

النبوءات والسياسات

النبوءات

« وكان بعد مضى سنتين من الزمان ان فرعون رأى حلما كأنه واقف على شاطىء النهر. فاذا بسبع بقرات صاعدة منه وهى حسان المنظر وسمان الأبدان ، فارتعت فى المرج . وكان سبع بقرات أخر صاعدات وراءها من النهر وهى قباح المنظر وعجاف الأبدان ، فوقفت بجانب تلك على شاطىء النهر ، فأكلت البقرات القباح المنظر ، العجاف الأبدان ، السبع بقرات الحسان المنظر السمان . واستيقظ فرعون ، ثم نام ، فحلم ثانية ، فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت فى ساق واحدة ، وهى سمان جياد ، وكأن سبع سنابل دقاق قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل السمينة الممتلئة ، واستيقظ فرعون فاذا هو حلم ... فبعث فرعون ودعا يوسف ، فأسرعوا به من السجن، فاحتلق وأبدل ثيابه ، ودخل على فرعون .

« فقال يوسف لفرعون ، حلم فرعون واحد ، الذى سيصنعه الله أخبر به فرعون . السبع البقرات الجياد هى سبع سنين ، والسبع السنابل الحسان هى سبع سنين ، هو حلم واحد . والسبع البقرات الدقاق القباح الصاعدة وراءها هى سبع سنين ، والسبع السنابل الفارغة التى لفحتها الرياح الشرقية تكون سبع سنى جوع . هو الأمر الذى ذكرته لفرعون ، ان الله مكاشف فرعون بما هو صانعه . ستأتيكم سبع سنين فيها شبع عظيم فى جميع أرض مصر . وتأتيكم من بعدها سبع سنى جوع ..

ونصح يوسف فرعون بأن « يأخذ خمس غلة مصر فى سبع سنى الشبع ، ... وليجمعوا كل طعام سنى الخير الآتية ، ويخزنوا برها ، فيكون الطعام ذخيرة لها لسبع سنى الجوع .. »

سفر التكوين .. « الفصل الحادى والأربعون »

« لو قدر لى أن أحكم هذه البلاد ، لما سمحت باضاعة نقطة واحدة من الماء فى البحر » •

نابوليون بونابرت فى كتابه « مذكرات جزيرة القديسة هيلانة » •

❋ ❋ ❋

« وستثبت هذه المشروعات الضخمة انها ليست الا استهلالات لمشروعات أكبر منها وأعظم ، الى أن يتم بصورة ودية ومتكافئة تقسيم كل نقطة من المياه التى تسير فى وادى النيل بين شعوب النهر ، والى أن تنضب كل نقطة من مياه هذا النهر الذى يجرى مسافة ثلاثة آلاف ميل ، عن طريق الافادة منها ، فلا يصل منها الى البحر شىء » •

« ونستون تشرشل فى كتابه « حرب النهر » فى عام ١٨٩٩ عن مشروع سد خزان أسوان الأول » •

❋ ❋ ❋

« والسد العـالى أكثر من مجرد تمثال صامت من الصخر ، نكلل هامته بأكاليل الزهور • انه تمثال خلاق نابض بالحياة » •

جمال عبد الناصر فى عام ١٩٦٠

١ والله إنه جبل.!!

تحطمت صخور الجرانيت ذات صباح لطيف من أيام شهر مارس عام ١٩٦١ ، عند الشلال الأول الى الجنوب من آسوان ، عندما تفجر نحو من عشرين طناً من المتفجرات فى مكان عميق يقع على الضفة الشرقية من النهر ، واختفت الشمس المشرقة لحظات وراء سحب كثيفة من الصخور والتراب ، تصاعدت فى الجو الشفاف ، وراحت ثلاث حفارات اليه هائلة ، تزحف عابسة قبل عودة الصخور المتناثرة الى السقوط على الأرض ، نحو الصخر المهشم ، وقد انطلقت مقدماتها وكأنها رءوس حيوانات «الدينوصور» الخرافية ، خرجت من بطون عصور ما قبل التاريخ ، لتمد أعناقها الطويلة ٠

وكان الرئيس عبد الناصر ، قبل نحو من خمسة عشر شهرا ، وبحضور عدد من الشخصيات البارزة التى دعيت الى مصر للاشتراك فى احتفالات الشروع فى بناء السد العالى ، قد فجر أول تفجير رمزى ٠ لكن تفجيرات مارس من عام ١٩٦١ ، لم تكن رمزية ولا وسط احتفالات مهيبة ، وانما كانت البروز الأول والفعلى لحلم سنوات طويلة ، فى تلك الصحراء القاحلة ٠ ولم يشهد ذلك المنظر ، الا لفيف صغير من السائحين الذين عرت وجوههم الدهشة ، والا بعض الفضوليين من أبناء أسوان ، وقادة تلك الدينوصورات الهائلة ومساعديهم ٠

ومدت هذه الوحوش المرعبة خراطيمها الحادة الى الأرض التى ظلت هادئة لا يزعجها انسان أكثر من عشرين ألف عام ، ولكن انقضت أسابيع طويلة قبل أن يبدد الأثر الواضح لما أحدثته فى الأرض من حفر محموم ٠ وكانت الصخور المهشمة تتجمع فى أكوام متراصة ، وكأن حفارا معتوها من حفارى الكون الأزلى ، كان يعمل فيها من قبل ، ولم تعد جهود الانسان فى هذه الصورة من الصخور المعذبة ، أكثر من مجرد تشجيع للفوضى التى أحدثتها الطبيعة ٠ وسرعان ما توالت النجدات على الحفارات الآلية ، ليصبح عددها عشرا ، تعمل بجد على الشاطىء المرتفع للنهر ، ثم لا تلبث أن تغطس بعيدا عن الأنظار فى الحفر الغريبة التى أحدثتها ٠

وكان فى وسع المرء أن يطل من اكمة قريبة على مجهودها الشاق الكثير الضجيج ، وان يرى فى الجهة المقابلة ، مياه نهر النيل الهادىء ، وقد حصرها سد أسوان القديم على بعد أربعة أميال الى الشمال ٠ وكان الرجال والآلات يعملون فى حفر خندق عميق فى الهضبة الواقعة على الشاطىء الشرقى للنهر ، لتحول اليه مياه النهر ، وليؤمن بقاء الماء هادئا فى القناة الطبيعية لاقامة السد العالى ٠

وعندما ينتهى بناء السد ، سيكون مغايرا فى شكله لسد أسوان الذى يمثل جدارا من الاسمنت المسلح تتخلله فجوات اذ سيمثل جبلا صلدا عرضه أكثر من نصف ميل ، وطوله نحو من ميلين ، يمتد بين الجدار الجرانيتى لاحدى الضفتين الى التلال الرملية على الضفة الأخرى ٠ وستتكون وراءه بحيرة لا يقل طولها عن طول انجلترا ، وتضم من الماء ستة وعشرين ضعف ما يضمه خزان أسوان الحالى ٠ وفى وسع هذه البحيرة ان تغطى بالماء كل شبر من الأرض الزراعية فى العالم ، كما ان فى وسعها أن تستوعب مياه كثير من الخزانات فى العالم ٠ ولهذا يعتبر هذا المشروع من أعظم المشروعات التى فكر فيها الانسان ٠ وقد يكون فى وسع خزان كاريبا فى روديسيا أن يضم من الماء كميات تفوق ما تضمه بحيرة ناصر ، وقد يكون ارتفاع سد ميبورو فى اليابان وسد سيرا بونسون فى فرنسا وسد « جراند ديكسانس » فى سويسرا ، وبعض السدود الأخرى أعلى من ارتفاع السد العالى ، كما قد تكون هناك سدود أضخم فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى ، ولكن السد العالى يفوق جميع هذه السدود اذا نظرنا الى خصائصه مجتمعة ، أى الى مخزونه من الماء ، وطاقته على توليد الكهربا وضخامته ٠ ولقد سمعت نوبيا يقول وهو يقف وسط الصخور المهشمة ، وتعلقت عيناه بالجبال التى سيجد السد جذوره فيها على الجانب الآخر من النهر ٠٠ « انه سد هائل يا خواجه ! والله انه سد من الجبال ! » ٠

ولقد ناضلت حكومة الثورة من أجل بناء السد العالى ، قبل وقوع التفجر العظيم فى عام ١٩٦١ ، على جبهات عدة ٠ ولقد عانت الحكومة الكثير من المتاعب المالية ٠ لتحقيق الأموال اللازمة لبنائه ، وقد رهنت اعتماداتها لسنوات عدة لدى روسيا لاستكمال هذا

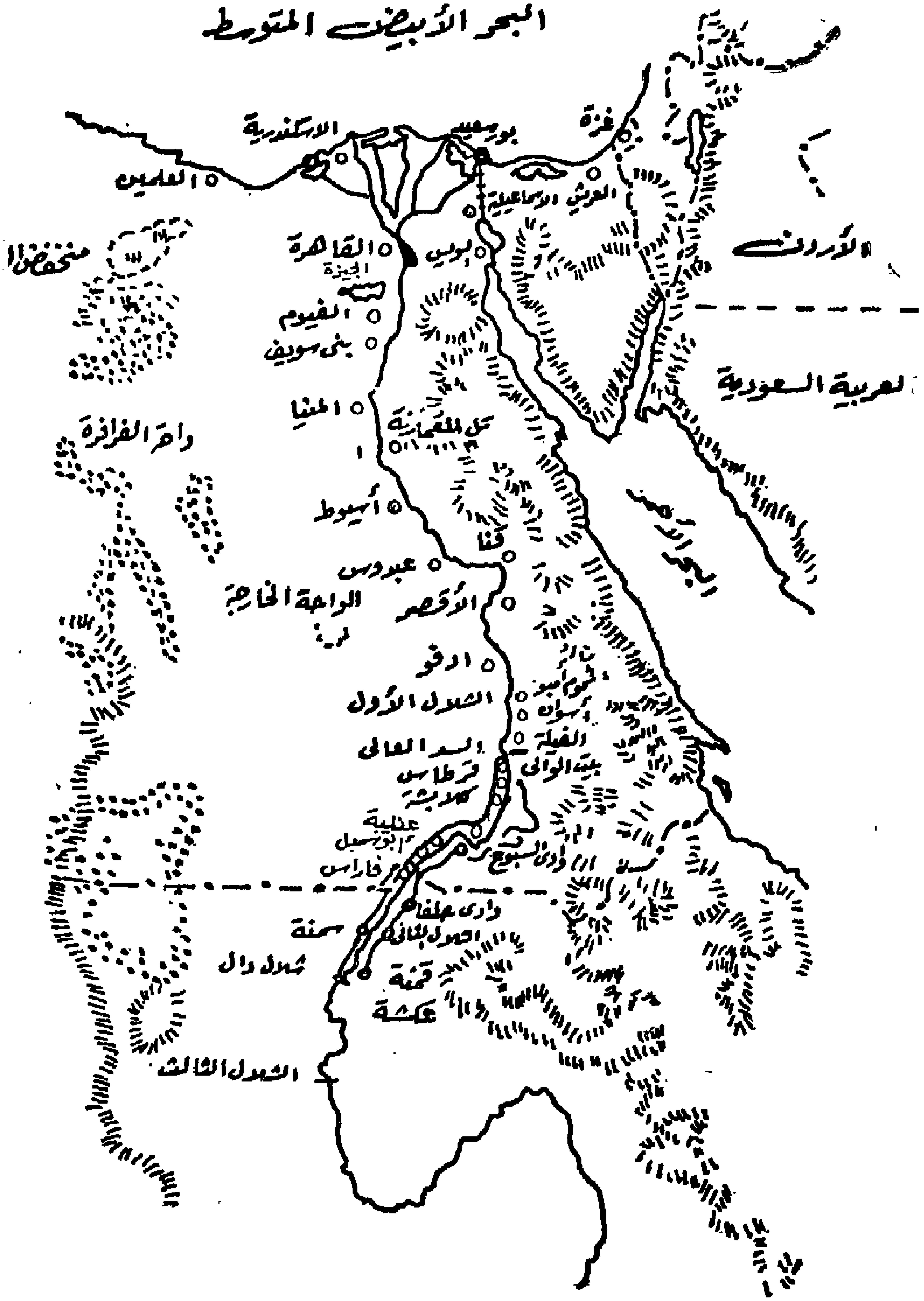

(موقع السد العالي وبحيرة ناصر)

البناء • (١) ولكن المغامرة والتكلفة الباهظة لا تقارنان بما يحققه بناء السد الذى يعتبر حجر الزاوية فى بناء مصر الحديثة • ويرى الرئيس عبد الناصر نفسه ان ازدهار الشعب المصرى ورخاءه ، وتنفيذ الخطط الصناعية والزراعية ، ونجاح النظام الاشتراكى نفسه الذى يمثل هدف الثورة ، كلها تعتمد على اكمال بناء السد العالى ، وبناء محطة توليد الكهربا العظيمة التى يحققها السد •

ولا شك فى ان تاريخ مصر وجغرافيتها يوضحان السبب فى كل هذا •

***

تمثل الزاوية الشمالية الشرقية من القارة الافريقية بيداء من الجبال والصخور والصحارى التى ينساب فيها نهر النيل العظيم بزهو واختيال ولقد رافق ونستون تشرشل مجرى النهر بصورة عكسية ، متجها الى الجنوب مع جيش كتشنر ، فرأى مياه النيل تعكس السماء الصافية الزرقاء فوقه ، ووصفه بقوله ••• «انه خيط من الحرير الأزرق ، ينساب فى قطعة هائلة من اللباد البنى اللون » • وليس ثمة أى رافد يغنى النيل بمياهه في الألف والسبعمائة ميل الأخيرة من رحلته الطويلة الى البحر • ولا تسقط أية كميات ذات قيمة من الأمطار فى أرض مصر كلها ، ولو لم يجر النهر فيها لتحولت هذه الأرض الى صحراء قاحلة ، يهجرها جميع سكانها الا الذين يستطيعون العيش على ملح الأرض •

ويمثل مجرى النيل فى الألف ميل الأخيرة عبر الأرض المصرية ، واديا ضيقا تكسوه الخضرة ولكن لا يزيد فى اتساعه على الستة أميال عرضا ، الى أن يصل الى القاهرة ، فيتسع هذا الوادى ليغطى أرض الدلتا كلها قبل وصوله الى البحر الأبيض المتوسط • ويمكن لأى مرصد دائر أن يرى فيه صورة شجرة النخيل الباسقة ، التى ترتفع بفروعها الخضراء الى السماء الزرقاء • ولو نظر اليه المرء من فوق جبل المقطم ، الواقع على مقربة من القاهرة ، لرآه يختفى باتجاه الجنوب ، نحيلا وهادئا وسط

(١) يبالغ المؤلف هنا فى رسم الصورة • فلم ترهن مصر اعتماداتها كلها لدى الاتحاد السوفياتى كما يقول • وانما هناك اتفاقات نصت على أن يقدم الاتحاد السوفياتى العون المالى والتقنى (التكنولوجى) فى بناء السد • وقد وفى الاتحاد السوفياتى بالتزاماته هذه كلها ، دون حاجة الى رهن أية اعتمادات • وها هو المشروع يدخل الآن فى مراحله الاخيرة التى ستأتى بالفيض والخير الى الشعب العربى فى مصر (المعرب)

ضفتين من التلال الرملية الصفراء التى لا حدود لآفاقها من الشرق والغرب حتى تصل البحر الأحمر من ناحيـــة والمحيـــط الاطلسي من النـــاحية الأخرى ٠

ولو بعدنا عن مجرى النهر ، لا نجد الا الرمال الفسيحة الممتدة ، بأستثناء بعض الواحات ، وبعض المساحات التى عملت يد الانسان فى اخضرارها على قناة السويس ، وبعض الخضرة الباهتة على السواحل التى تحظى بشيء من المطر من أبخرة البحر الأبيض المتوسط ٠ وبالرغم من ان مساحة مصر تبلغ ٣٨٦ الف ميل مربع من الأرض ، الا ان خمســة عشر الف ميل مربع ليس الا ، هى الصالحة منها لحياة الانسان ٠ هذه هى الحقيقة الكبرى عن مصر ، ولقد كانت كذلك منذ أكثر من ستة آلاف عام من تاريخها المدون منذ عهد « مينا » ، أول ملوك مصر وفراعنتها فلقد اعتمد الناس فى مصر على النيل وما يحمله من أتربة غرينية ، وعلى أسماكه فى طعامهم ، ومائه فى شرابهم ٠ ويقول ونستون تشرشــل ان المساحات الهائلة تضاعف من حياة القفر ٠ فلا حياة الا على النيل »٠

ويسير النيل الأبيض فوق هضبة يبلغ ارتفاعها ستة آلاف قدم ، الى الشمال من بحيرة تنجانيقا فى أواسط افريقيا ، بينما يسير النيل الأزرق ، ونهر عطبرة وسط جبال الحبشة ومرتفعاتها ٠ وتؤلف هـــذه الأنهار الثلاثة نهر النيل العظيم الذى يرتحل مسافة ٤١٦٠ ميـــلا من منابعه فى أواسط افريقيا ٠ ولا يفوق نهر النيل فى طوله الا نهـــر المسيسيبى – الميسورى فى الولايات المتحدة ٠ ويمر النيل الأبيض فى بحيرتي فكتوريا وألبرت ، وتتعزز مياهه برافدة « سوبات » ولكنه لايلبث أن يفقد الكثير منها فى مستنقعات السودان ، ليعود فيحافظ على منسوب مستقر من المياه يزود بها مصر طيلة أيام السنة ٠ أما النيل الأزرق فهو الذى يضع للنيل رتابة مجراه ٠ فالسحب الحاملة للأمطار من جنوب الأطلسى ، تصطدم بجبال الحبشة فى شهر مارس ، فتسقط ما تحمله من أمطار غزيرة ٠ ويفيض النيل الأزرق فى شهر يونيو ليصل هذا الفيضان الى نهر النيل الكبير فى شهر أغسطس ، حاملا التربة الغرينبة الغنية التى تصطدم بالضفاف الشرقية العميقة للنهر ، فتلقى ما تحمله على الضفاف الغربية الأكثر ضحولة ، وأقل عمقا ٠

وظل النيل يسير على هذا المنوال الوف السنين ، وما انفك يمثل لشعب الوادى المعجزة السنوية التى تأتى لهم ولأرضهم العطشى بالخصب والرى ، فيتقدمون بصلواتهم وابتهالاتهم الى رب النهر يسألونه الخير

والبركة . فعندما يأتى الفيضان ، وتغمر مياه النهر ضفتيه ، تلقى هذه المياه ما تحمله من « طمى » غنى ، لتؤلف طبقة أرضية خصبة ، قبل أن يعود النهر الى الانكماش ليتابع سيره الى البحر .

وعرف المصريون منذ أقدم عصور التاريخ طريقة بناء الأسوار الترابية الخفيضة ، لاختزان مياه الفيضان أطول مدة ممكنة فى الحياض الضحلة . وتغمر مياه الفيضان فى كل عام أرض الوادى ، باستثناء تلك المرتفعات الطبيعية أو الصناعية التى تنتشر فوقها القرى ، ويعيش عليها الفلاحون . ولقد ظل هذا النظام هو السائد حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، وما زال نحو من مليون فدان ، أو ما يمثل سدس الأرض المزروعة فى مصر ، ويروى عن طريق الحياض تماما كما كان الأمر فى أيام الفراعنة . وهناك كثيرون من الطاعنين فى السن من أهل القاهرة. ما زالوا يذكرون كيف كانت مياه الفيضان تغطى الضواحي القريبة للقاهرة فى كل عام ، لتؤلف بحيرة ضحلة ، تبرز منها أشجار النخيل ، وتطل فوق سطحها بيوت القرى المنتشرة فى المنطقة .

وكانت الحاجة الى استخدام مياه النيل فى تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من الناس ، السبب الرئيسى فى ابتكار مصر لأول نظام من أنظمة الحكم المركزى فى العالم . ومرت بتاريخ مصر ، عهود ، شهدت بعض الفراعنة الأقوياء وهم يقومون بتنظيم شئون الرى على نطاق واسع . وكانت هناك أقنية شقها الانسان منذ عهد بعيد موغل فى القدم من وادى تميلات الواقع بين الدلتا وبين برزخ السويس ، الذى كان الطمى الغنى يرسب فيه بعد انحسار الفيضان . ولا شك فى ان هذه الاقنية تقيم الدليل على مساعى الانسان منذ أقدم عصور التاريخ للافادة من النهر . وتم توسيع القناة الطبيعية الممتدة من النهر الى بحيرة قارون فى واحة الفيوم الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الجنوب من القاهرة ، وتعميقها منذ أكثر من أربعة آلاف عام ، وقام أحد الفراعنة بعد نحو من خمسمائة عام فبنى جدارا حول البحيرة ليجعل منها خزانا للمياه التى يستخدمها فى رى خمسين ألف فدان من الأراضى المحيطة بالبحيرة . ولا شك فى ان البحيرة كانت تتولى « تنظيم » الفيضان بشكل يشبه الأسلوب العصرى فى الحد من ارتفاع مناسيبه ، وتأجيل هبوط هذه المناسيب . ولقد أمرت حكومة الثورة باقامة تمثال قديم « لامحوتب » عند موقع السد العالى ، لأن هذا الفرعون هو أول من أوصى باستخدام البحيرة فى خزن المياه ، فكان بذلك أول نبى من أنبياء خزن مياه النيل .

وكان الاشراف على نظام الرى ، يتم فى الغالب وعبر الشطر الأكبر من تاريخ مصر ، عن طريق بعض مجموعات فى القرى ، يعمل أبناؤها متحدين فى تقوية السدود والشواطىء ، وفى حفر خنادق تتفرع من الوادى ، حسب اهوائهم أو حسب ما تمليه عليهم طبيعة الأرض • وكانت مياه الفيضان التى يجيش بها النهر فى رحلته الطويلة الى البحر تنتشر فوق الأراضى المنخفضة ، وكان على القرويين أن يحملوا مناسيبها على البقاء أطول مدة فوق أراضيهم لتغمر حقولهم • وهكذا نجد أنهم ركزوا جماع عبقرياتهم فى تأمين الافادة من المياه الى أقصى حد ممكن ، اما بجرها عبر الحقول الى أبعد مسافة ممكنة ، أو بتصريف المياه المتجمعة من حوض الى آخر ، قبل دفع بقاياها الى النهر ثانية • وكان عليهم ليزيدوا من مساحات الأراضى المزروعة الى أبعد من حدود الفيضان الطبيعى ، ان يدفعوا المياه بأسلوب أو بآخر ، الى المناطق التى ترتفع عن مستوى النهر •

وتمكنوا من تحقيق هذا الهدف منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام ، عن طريق أداة اخترعوها اسمها « الشادوف » وهى تتألف من قضيب طويل مركز على عمودين متوازيين ، وفى طرفه وعاء كبير لحمل الماء ، وفى الطرف الآخر وزن ثقيل • وكان الفلاح يقوم بخفض الوعاء فى النهر ليمتلىء بالماء ، ثم يعمل مستعينا بالثقل فى الجانب الآخر على رفعه حاملا الماء ، ليصبه فى حفرة ، يسقى عن طريقها مساحة ثمينة من الأرض ، يعمل ليل نهار كادحا على ريها • وتم اختراع وسيلتين أخريين لرفع الماء فيما بعد • فهناك لولب يعمل وفقا لنظرية أرخميدس ، وهو يتألف من اسطوانة تضم دولابا فى داخلها ، وتقوم بين عمودين على ضفة النهر ، ثم تنصب بحيث يؤلف طرفها الأسفل زاوية قدرها ثلاثون درجة مع النهر ، فاذا ما أدار الفلاح يد الاسطوانة ، دارت هى ، حاملة الماء ليصب من الجانب الآخر على الارض • وفى وسع رجلين يتناوبان على العمل أن يرويا ثلاثة أرباع الفدان فى اليوم فى أى مكان • وهناك أيضا الساقية وهى تمثل دولابا يحمل صفائح توضع عمودية فى الماء ، ويشد الى دولاب خشبى آخر ، يوضع بصورة أفقية فوق الأرض • ويقوم جاموس أو بقرة أو أى حيوان بتدوير الدولاب الأفقى ، فيدور الدولاب الآخر ، وتمتلىء الصفائح بالماء الذى تصبه فى قناة قبل أن تعود ثانية الى الماء • وفى الامكان رى خمسة أفدنة فى اليوم بهذا الأسلوب •

ولا يزال المرء يرى هذه الأدوات البدائية عاملة على نهر النيل ،

لتقيم الدليل على حاجة الفلاح المصرى الماسة الى استخدام أكبر قدر من مياه النهر • فهى تمكن الفلاح من رفع الماء فوق مستواه العادى ، والحصول على محصول ثان من شطر من أرضه على الأقل • وهكذا مثلت الحلول البدائية لحاجات الزراعة المصرية الأساسية ، ونواة نظام من الرى الدائم ، الذى وضعه المهندسون البريطانيون قبل نحو من ستين عاما • ولا شك فى أن هذا الشادوف الذى نهزأ ببساطته الآن مثل فى حينه ، ابتكارا مهما وعجيبا لا يقل عما تمثله ابتكارات اليوم وبينهما السد العالى من أهمية •

***

وعندما أصبح محمد على واليا على مصر نيابة عن السلطان العثمانى فى عام ١٨٠٥ ، كانت مصر فى وضع محزن ، فراح يدفع الشعب الى المبادرة الى تنظيف الاقنية القديمة ، وشق أقنية جديدة • وكانت مطامحه تتطلب وجود صناعات رفيعة وجيش كبير وهما فى حاجة الى أموال لا تستطيع الزراعة القائمة آنذاك تأمينها • وعندما أثبت المستشارون الفرنسيون الذين استدعاهم محمد على ان فى وسع مصر أن تزرع قطنا ممتازا تحتاج اليه أوروبا وتبتاعه ، قرر محمد على أن يشرع فى زراعة القطن ، فخلق بقراره هذا حافزا دائما لفكرة الرى الدائم ، وذلك لأن القطن يحتاج الى الماء فى أواخر الربيع وأوائل الصيف ، عندما يكون الفيضان منحسرا •

وكان فى حاجة ليضمن زراعة كميات كافية من القطن الى أكثر من الاقنية والسواقى وأدوات رفع المياه البدائية • وتمكن مهندسان أحدهما بلجيكى والآخر فرنسى ، من اقناعه بضرورة بناء قناطر عند قاعدة الدلتا الى الجنوب من القاهرة تؤمن ارتفاع مستويات المياه الى الحد الذى يكفى لتزويد الاقنية والترع فى الشمال • وبالرغم من ان محمد على لم يعش حتى يرى اكمال المشروع الذى بنى على أى حال ، بصورة خاطئة أدت الى اهماله حتى مجىء البريطانيين ، الا أنه رسم صورة الزراعة الحديثة فى مصر بقراره هذا ، وبادخاله زراعة القطن فى البلاد وقام الخديو اسماعيل ، يدفعه طموحه من ناحية ، والحاف الدائنين عليه من الناحية الأخرى ، وارتفاع أسعار القطن فى أوروبا نتيجة نشوب الحرب الأهلية فى أمريكا ، بتحسين أنظمة الرى التى ورثها عن جده • وعندما هبطت أسعار القطن فى أوروبا راح يشق ترعة الابراهيمية من أسيوط فى مصر الوسطى ، باتجاه الشمال محاذية للضفة الغربية الى الدلتا ، وأدخل زراعة قصب السكر فى البلاد •

واحتل البريطانيون مصر فى عام ١٨٨٢ ، وكانت مفلسة عندما تنازل اسماعيل عن العرش • ودفعهم الحاف الدائنين الدوليين ، وكانوا يتميزون بالقوة والجشع وكثرة العـدد ، الى تركيز اهتمامهم فى الحقبة الأولى من احتلالهم على رفع مستوى الدخل القومى ، ليتمكنوا من سداد هذه الديون • (١) وكانت ادارة نظـام الرى الذى أدخله محمد على وتوسيعه بصورة فعالة ، الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الهدف • وقام السير كولين سكوت ـ مونكريف ، الذى جاءت به بريطانيا من الهند البريطانية مع غير من المهندسين ، بتولى شئون الرى والأشغال العامة ، وبادر الى تحسين العمل الذى كان محمد على قد شرع فيه ، باصـلاح تلك الأخطاء الموجودة فى القناطر ، والتى حالت دون استعمالهـا مدة تربو على الأربعين عاما ، وباعادة تصميم الترع وأقنية الرى التى يمكن استخدام المياه التى تحتجزها القناطر عن طريقها ، فى رى أرض الدلتا• وأصبح فى امكان هذه القناطر فى عام ١٨٩٠ أن تحتجز من المياه مايزيد عمقها على ثلاثة عشر قدما ، وهو رقم يتجاوز ما كان موضوعا فى حيز التقدير عند تصميم القناة لأول مرة •

وراح المهندسـون يبتكرون بعد ذلك المخططات لتخزين بعض الفائض من مياه الفيضان لاستخدامه فى فصل الصيف ، وكان خزان أسوان الأول ، ثمرة هذا الابتكار •

وكانت أوضاع النيل تتطلب منشئات لم يكن يعرفها العالم حتى ذلك الوقت ، وذلك لأن هذا النهر يتميز بالفيضان فى فصل الصيف الشديد القيظ والحرارة والجفاف ، وفى الوقت الذى تكون فيه المناطق الجافة القاحلة ، مهجورة ، كمنطقة أسوان التى تحيط بالوادى الضيق، وصمم خزان أسوان بشكل يضمن العبور الحر واللا مقيد لمياه الفيضان الأولى المحملة « بالطمى » لاثراء التربة واغنائها ، على أن يعود فيختزن

---

(١) لم يستطع المؤلف هنا أن ينسى طبيعته البريطانية ، فهو يذكر الاحتلال ، دون أن يبين دوافعه الاستعمارية الجشعة ، وهو يتحدث عن مساعى بريطانيا لرفع مستوى الدخل القومى . لتمكين البلاد من سداد ديونها ، ناسيا أن هذه الديون انما كانت بفوائد عالية ، فرضها الاستعمار ومصالحه الاحتكارية ، لضمان السيطرة الاقتصادية على البـلاد تمهيدا لتبرير احتلالها ، وفرض الاستعمار عليها • ولعل أبرز مثل على ذلك أن الحكومة البريطانية اشترت بأربعة ملايين جنيه ليس الا ، حصة مصر من أسهم شركة قناة السويس التى تبلغ مئات الملايين من الجنيهات •

(المعرب)

المياه التالية النظيفة من « الطمى » لاستخدامها بعد بضعة أشهر . وكان هذا الأسلوب يحافظ على ما يؤديه الفيضان من نفع لمناطق « الحياض » فى فترة الزراعة الحالية ، كما يوفر الماء لزراعة محصول آخر أو محصولين فى فصل هبوط مناسيب المياه . وهكذا جمع المشروع الجديد بين ناحيتين فى وقت واحد ، أولاهما اقامة سد هائل من الأسمنت المسلح ، وثانيتهما ، أن يمثل عن طريق فتحاته المتعددة ، الحاجز القادر على الابقاء على المياه فى حالة تدفق ، على النقيض من الحواجز العادية الأخرى التى تدفع المياه فى مناسيب منخفضة .

ومثلت اقامة الخزان بداية عهد جديد . فقد امتد السد مسافة ميلين عبر الوادى ، وارتفع الى علو تسعين قدما فوق قاعدة النهر ،وكان بذلك على حد وصف دى جبرفيل له فى كتابه « مصر الحديثة » ، جبلا حقيقيا وهائلا من الجرانيت . وتم رص مليون ونصف المليون من الاقدام المكعبة من الاسمنت المسلح فوق أرضية من الجرانيت الصلب ، يبلغ سمكها ثلاثين قدما ، مما شكل مشكلة أساسية من مشاكل اقامة « الأساس » ، حاول التصميم الأول تجنبها باختيار المناطق الصخرية فى ثلاثة قطاعات متفرقة لتشكل حرف « S » الانجليزى ، ولتؤلف الجسر فوق الاقنية الخمس الممتدة فى شلال أسوان . ولكن لجنة الخبراء الدولية التى انتدبت لدراسة التصميم الأول ، قررت ان من الأفضل اقامة سد مستقيم وغير متقطع ، وازالة الزوايا الثلاث من المشروع الاصلى ، ليصبح السد ذا منظر رائع . وقد أثبتت الأيام اللاحقة ان هذه التعديلات لم تلحق ضررا بقوة السد ومتانته ، كما منحت مصر سدا قادرا على خزن ضعف ما كان مقدرا من الماء فى الماضى ، وعندما استقبل العالم بالتهليل هذا العمل العظيم ، كان ويليام ويلكوكس ، مدير دراسات الرى فى الحكومة المصرية ، المتألم الوحيد ، لأن محاولاته العنيدة لاقناع الخبراء الدوليين باقامة كورنيش على السد تزخرفه الزخارف الفرعونية لتجميله، باءت بالفشل .

ولم يكن فى وسع هذا السد الذى أغنى مصر حقبة من الزمن ، ان يزيل معالم الفاقة كلية من البلاد ، وذلك لأن ما يحدثه تزايد عدد السكان من ضغط ، قد فرض وضع التصاميم لتعلية الخزان ، حتى قبل الانتهاء من بنائه . وأوصى السير بنيامين بيكر ، المهندس الحجة ورئيس هيئة الخبراء الدوليين ، بعد دراسة أوضاع النهر لاقامة سد جديد ، قبل أن يموت فى عام ١٩٠٧ ، بتعلية السد الأول ، عن طريق رفع بنائه .

وأثبتت تقارير المهندسين اللاحقين ، أن أسس السد الأول ، قوية الى الحد الذى يضمن نجاح هذه التعلية • وتمت العملية في عام ١٩١٢ ، ولكن التعلية الأولى ما لبثت أن الحقت بتعلية ثانية فى عام ١٩٣٣ ، ليستطيع الخزان جمع مليون ونصف المليون من الأميال المكعبة من الماء الاضافى • وهذا هو الخزان القائم الآن فى أسوان •

وكانت اقامة خزان أسوان هى التى طبعت نظام الرى الحديث فى مصر بطابعها • فالبحيرة التى أقامها السد وراءه ، تخزن مياه الفيضان لتزويد الوادى بالماء فى فصل « الهبوط » • وكانت قناطر محمد على فى قاعدة الدلتا قد رفعت مناسيب المياه فى النهر الى مستوى الترع الثلاث الرئيسية التى تسير ترعتان منها بشكل مواز لفرعي رشيد ودمياط ، وتسير الثالثة فى مجرى باتجاه الشمال ، يعبر وسط المثلث • وكانت هذه الترع الثلاث الرئيسية مزودة بجهاز من « منظمات » الرى ، يؤمن دفع المياه الى شبكة حسنة التنظيم من أقنية الرى ومجاريه •

وكانت عمليات التطوير تسير فى ضوء هذه الخطوط • ولو رحنا نسير مع النهر شمالا ، مبتدئين بخزان أسوان لوجدنا أنفسنا نمر بقناطر اسنا ونجع حمادى وأسيوط التى تخرج منها الترع لرى مناطق الشمال وقد استعيض عن قناطر محمد على بعد نصف قرن من العمل ، بقناطر متعددة على فرعى دمياط ورشيد ، وهى تمثل بالاضافة الى جليل فائدتها فى مشاريع الرى ، جسورا للطرق البرية التى تخترق فراديس مصر الجميلة • وهناك قناطر كثيرة على فرعى النهر ، تبلغ نهايتها فى قناطر ادفينا القريبة فى مصب فرع رشيد •

وتقوم مديرية شئون الرى التى أخذ المهندسون المصريون وحدهم يتولون شئونها منذ سنوات طويلة ، بادارة مشاريع الرى فى البلاد ادارة تتميز بالخبرة والفاعلية والمهارة • ويتولى هؤلاء المهندسون الاشراف على سير النهر ابتداء من خزان أسوان وانتهاء باقنية الرى الصغيرة ، التى تروى الواحدة منها خمسة وعشرين فدانا أو ثلاثين • وتشتد الحاجة الى الماء بين نهاية شهر يوليو وشهر أكتوبر وهى الفترة التى تزرع فيها الأراضى الصيفية « المراحة » بالذرة ، وتكون المنطقة كلها مزروعة • ولكن هذه الفترة نفسها هي فترة فيضان النيل ، حيث يكون القيد الوحيد المفروض على تزويدها بالمياه ، هو قدرة الترع المفعمة بالماء ، وما يقوم عليها من « منظمات » الرى ، على تحديد توزيع مياهها على القنوات والاقنية الصغيرة • وتهبط الحاجة الى الماء فى أكتوبر ، عندما

تصبح معظم الأراضي مزروعة بالحبوب الشتوية والقطاني والبرسيم ، وعند ما تحل نهاية شهر فبراير ، ويهبط منسوب المياه في النهر بسرعة هائلة ، تزداد حاجة الحقول الى مزيد من الماء عن الحد الذي تستطيع الحصول عليه بصورة طبيعية من النهر • ويشرع خزان أسوان ، في اطلاق مخزونه • ويتم حصاد المحاصيل الشتوية ، وتجرى زراعة نصف الأراضي الصالحة للزراعة بالقطن والأرز ، معتمدة على مياه خزان أسوان • وكثيرا ما يستبد القلق بالزارعين ، اذ يكون منسوب المياه في النهر منخفضا للغاية ، ويكون استهلاك مياه الخزان في ذروته • ويكون التوزيع محصورا في هذه الفترة على المناطق المزروعة فعلا ، ولا تشرع مديرية الري باطلاق الماء للأرض « المراحة » استعدادا لزراعة الذرة ، الا بعد وصول الانباء من أعالي النيل مبشرة بالفيضان الجديد • وتكون هناك في هذه الفترة رقابة صارمة على استخدام المياه في الحقول وذلك لأن جميع البلاد تعتمد في الزراعات الصيفية ، باستثناء منطقتي أسيوط وجرجا اللتين تعتمدان على ضخ المياه من الآبار للري الصيفي ، على مياه الخزان ، مما يتطلب الحرص في توزيعها • ولا شك في ان رخاء الفلاح الذي يعيش على ما يزرعه في فدانه من الأرض في أطراف الوادي يعتمد على القدر الذي يحصل عليه من ماء خزان أسوان •

وظلت مناطق الحياض لا تنتج الا محصولا واحدا في السنة ، بالرغم من ادخال الاساليب المحسنة وتطويرها في القرن الحالي في استخدام الفيضان الطبيعي • وتعتمد بعض الحقول المرتفعة التي لا تستطيع الحصول على الماء من مجراه الطبيعي ، في ريها على الاقنية التي تزودها المضخات والسواقي بالمياه ، وذلك بالنسبة الى محصولاتها التي تزرع في شهر أغسطس • ولكن ما زال مزارعو الحياض ينتظرون حتى شهري أكتوبر ونوفمبر ، عندما تهبط مياه الفيضان لزراعة محصولاتهم من الحنطة والشعير والعدس والفول والبازلاء ، والبرسيم • ويتم حصاد المزروعات في مارس أو ابريل ، ثم تراح الارض حتى الفيضان التالي •

***

وليست هناك منطقة في العالم تعادل منطقة وادي النيل في مصر في كثافة زراعتها وبراعة فلاحيها • فمنذ أيام محمد علي ، وبعد احتلال بريطانيا لمصر في عام ١٨٨٢ ، بذلت كافة الجهود لتأمين المياه اللازمة لزراعة مزيد من الأراضي ، أو لزراعة محصولين أو ثلاثة محاصيل في كل عام في الأراضي المنزرعة ، وأدت هذه الجهود الى تضاعف اعتماد البلاد على نهر النيل ، وأصبحت رياح الاطلسي المحملة بالأمطار أكثر قدرة من

الانسان على تقرير ما اذا كانت مصر ستتمتع بسنة خصبة أو سنة ماحلة. فالوضع الزراعى يتقرر سنويا وبصورة مستمرة ، فالفيضان وحده هو الذى يأتى بالوفر الذى يضمن للحقول ، كميات كافية من الماء ، كما أن انخفاض مناسيبه هو الذى يعرض الناس الى نقص فى الغذاء . وليس ثمة سبيل لخزن ماء السنة الطيبة للسنة الماحلة .

وقام الدليل فى النصف الأول من القرن الحالى على ان نظام الرى فى البلاد بالرغم من دقته لا يؤمن لمصر حاجاتها . فالنيل الاسفل يعتبر من أكثر مناطق العالم ازدحاما بالسكان ، وهناك طفل يولد فى كل دقيقة فى هذه المنطقة . فعدد السكان الذى لم يكن يتجاوز العشرين مليونا عند قيام الثورة فى عام ١٩٥٢ ، أصبح خمسة وعشرين مليونا بعد حقبة واحدة ، وسيصبح ثمانية وثلاثين مليونا فى عام ١٩٨٢ . ولا شك فى أن نعم الحضارة الانسانية ، وما تتميز به رسالة هذه الحضارة من خدمات انسانية ، قد أدت كلها الى تفاقم المشكلة . ولقد جهد الاطباء فى تقليل نسبة الوفيات بين الأطفال فى مصر . بعد أن كانت نسبة عالية ، فكافحوا الأمراض والأوبئة المستوطنة كالسل والبلهارسيا والرمد الحبيبى . وعندما اجتاحت الحمى الصفراء (الكوليرا) أرض مصر فى عام ١٩٤٧ ، هبت الأجهزة الصحية كلها ، مدعومة بالخدمات الصحية فى العالم لانقاذ السكان من الفناء . وبالرغم من ان نتائج هذه الجهود كانت محدودة فى مداها ، الا ان أية نظرة عجلى نلقيها على الحقب السابقة من أجل المقارنة ، تظهر انها كانت بارزة الى حد كبير . ومع ذلك فقد كانت تمثل بالنسبة الى ضيق المساحات المنزرعة بالنسبة الى تزايد السكان ، انقاذ الانسان من الموت شنقا ، ليموت متضورا من الجوع .

ولقد كان ازدهار البلاد يقاس حتى نصف قرن خلا ، بعدد الناس الذين يعيشون فى الوادى . وكان فى وسع هذا الوادى ، لو ترك وشأنه معتمدا على سواعد الفلاحين وجهودهم وحدها . أن يؤمن القوت لسبعة ملايين من الناس ليس الا ، وهو العدد الذى أقام فى مصر فى أزهر عهودها ، سواء فى أيام الفراعنة ، أو أيام الاغريق أو الرومان أو العرب . وعندما غزا نابوليون مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ، لم يكن عدد السكان فى مصر يربو على المليونين ونصف المليون ، وذلك نتيجة قرون طويلة من سوء الحكم ، والصراع الداخلى ، والمجاعات والأوبئة . ولم يتجاوز هذا العدد عند مجىء محمد على الثلاثة ملايين . ووصل هذا الرقم سبعة ملايين فى سبعينات القرن الماضى .

وظهرت مشكلة مصر المستعصية فى المدة التى انصرمت بين عهد محمد على وتنازل الخديو اسماعيل • فلقد فاقت سرعة تزايد السكان قدرة الحقول على تأمين الغذاء لهم ، ولذا فقد هبطت نسبة الأرض المنزرعة للفرد الواحد من الفدان الى ثلاثة أرباعه • وقد يقال ان ادخال نظام الرى السنوى فى هذا العهد وتمكين الارض من انتاج خمسة محاصيل فى كل سنتين فى هذا العهد ، قد خفف من حدة المشكلة ، ولكنه لم يحلها على الاطلاق •

ولقد جعل البريطانيون من مصر بلدا من أكثر بقاع العالم خصبا وانتاجا زراعيا (١) ، ولكن جهودهم لم تكن مضاهية لقدرة المصريين على الانجاب • فعندما احتلوا البلاد فى عام ١٨٨٢ ، أتوا بمهندسى الرى الذين تمرسوا بالخبرات فى أنهار الهند ، وراحوا يديرون النظام الذى وضعه محمد على بمهارة وفاعلية ، ويوسعون حدوده ومجالاته • ولقد قال اللورد كرومر ، أول الحكام الانجليز فى مصر ان من واجب البريطانى المتحضر « أن يمد يد الاخوة الى المصريين ، وان ينتشل ماديا ومعنويا ملايين الفقراء منهم الذين يقبعون فى ذيل السلم الاجتماعى من أوضاعهم المهينة الذليلة » (٢) ولقد عمل الكثير من أجلهم ، ولكنه لم يستطع تحسين أحوالهم نظرا لزيادة أعدادهم • وعندما أحيل الى التقاعد فى عام ١٩٠٧، كانت مصر تنعم بازدهار أدهش العالم ، وحقق الثروات لكبار الملاك ولتجار القاهرة والاسكندرية ، وأصبحت البلاد التى تزايد عدد سكانها الى الاثنى عشر مليونا بالرغم من ان مساحة الأراضى المنزرعة فيها ظلت تقل عن الثمانية ملايين فدان ، أكثر ثراء من أى وقت مضى •(٣) ولقد

---

(١) ينسى المؤلف بسبب انجليزيته ايضاح الدوافع الحقيقية لهذه الجهود البريطانية التى يتحدث عنها ، وهى أن تصبح مصر البقرة الحلوب التى تعتمد مصانع بريطانيا على منتجاتها الزراعية ولا سيما من القطن ، لتسلب هذه المنتجات بأدنى الاسعار ، ولتعيد تصديرها الى مصر كسلع مستصنعة من المنسوجات بأغلى الاسعار •

(٢) لم تكن جهود كرومر وأمثاله من المستعمرين البريطانيين هادفة الى الرفع من مستويات الفلاحين المصريين كما يدعى المؤلف • واذا كان النفع قد أصاب أحدا من المصريين فى عهد الاحتلال فانما أصاب أفراد طبقة النصف فى المائة ، الذين جعل منهم الاستعمار ركائز لسياساته ، وأعوانا ليستخدمهم فى التحكم فى مقدرات البلاد •

(٣) وبالرغم من اعتراف المؤلف بأن الثروات تحققت لكبار الملاك والتجار ، الا انه يعود فيقول أن مصر أصبحت أكثر ثراء من أى وقت مضى • لكن هذه الثروة لم ينتفع منها شعب مصر ، صاحب الحق الوحيد فى البلاد ، وانما انتفع منها المستعمرون وأذنابهم من أفراد طبقة النصف فى المائة •

(المعرب)

نبع هذا الثراء من خزان أسوان ، ولكن عندما تمت تعلية هـــذا الخزان في عام ١٩١٢ ، كانت فترة الازدهار قد انقضت • ولم يكن فى وسع كل ما بذله البريطانيون من جهود ان يجارى زيادة عدد السكان ،وعندما تمت تعلية الخزان للمرة الثـــانية فى عام ١٩٣٣ ، وأمنت هـــذه التعلية مساحات أخرى من الأرض المنزرعة • كان عدد السكان قد ارتفع خمسة ملايين أخرى ، وأصبحت نسبة الارض للفرد الواحد نصف فدان ليس الا • وبالرغم من ان الكثير من التقدم المـادى الذى تحقق فى مصر فى غضون الثمانين عاما الأخيرة كان بفضل البريطانيين ، الا ان هنـــاك مفارقة كبرى تظل قائمة ، وهى أن الشعب المصرى كان أكثر فقرا عند ما حقق استقلاله فى عام ١٩٣٦ ، منه عندما وقع الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ • (١)

ولم تحقق مصر فى عهد فاروق أى تقدم يذكر • وبالرغم من أن مساحة الأرض المنزرعة زادت بنسبة ثمانمـــائة الف دونم (نحو ربع فدان) قبل عام ١٩٥٢ ، الا ان عدد السكان عاد فارتفع خمسة ملايين آخرين يعيشون عليها ، وأصبحت النسبة فدانين لكل سبعة أشخاص بعد أن كانت لثلاثة فى نهاية القرن الماضى ، وبات هناك فائض خمسة ملايين من الفلاحين • وكانت البلاد ستتعرض حتما الى الكارثة بسبب النقص فى الأراضى الصالحة للزراعة ، لولا ما تحقق من زيادة فى الانتاج من مناطق الرى الدائم ، ولكن هذه الزيادة بلغت حدهـــا الأقصى ، ولم يعد فى وسع هذا الحد ان يجارى نسبة التزايد فى الســـكان • وبدأ الهبوط فى مستويات الانتاج ، اما نتيجة العجز عن استخلاص المزيد من الأرض الكريمة ، أو نتيجة ما لحق بها فى اجهاد ، أو بسبب الاضطرار الى وقف عمليات « الصرف » اللازمة ، نظرا لاستمرار الرى • وعنى هذا انفاق نسبة متزايدة من الدخل القومى فى تأمين الأسمدة للابقـــاء على حيوية الأرض وقدرتها على الانتاج • وبات من العسير فى الربع الأخير من القرن ، توسيع شقة الأرض المنزرعة أو زيادة طاقتها الانتاجية الى حد ملحوظ •

---

(١) يصر المؤلف على نسبة الفضل فيما حققته مصر من تقـــدم زراعى الى البريطانيين مع أن الشطر الاكبر من هذا الفضل يعود الى سواعد الفلاحين المصريين، ومع أن هذا التقدم ، كان يهدف أولا وآخرا ، من جانب الاســـتعمار الى ابتزاز خيرات مصر ، لمصالحه الاحتكارية • (المعرب)

وتبين ان مصر فى حاجة الى أى شيء آخر أكثر من الزراعة ، ولكن احتمالات التقدم الصناعى ظلت طيلة هـذا الوقت بعيدة كل البعد • وكان محمد على قد حاول دون أى نجـاح بارز ارسـاء أسس بعض الصناعات ، ثم جاء اسماعيل ، فوضع المتطلبات الأوليـة لقيام دولة صناعية كانشاء الطرق والجسور وأعمدة البرق والموانيء والبواخر ، قبل أن يقـود البلاد الى الافلاس • وحاول البريطانيون تشجيع قيـام بعض المصانع الصغيرة لسد الحاجات العسكرية فى غضـون حربين عالميتين • ولكن جميع هـذه الجهـود والمحاولات لم تكن لتفي بحاجات البـلاد ومتطلباتها • ولم يتصور البريطانيون قط ، قيام بلد صناعى فى مصر، ولم تحاول الحكومات المصرية المتعاقبة التى يسيطر عليها الاثرياء المحافظون الذين يؤثرون الاستثمار فى الأرض وفى العقار ، بالرغم من عدم انتفـاع البلاد بهذه الاستثمارات ، أن تخلق الصناعة فى مصر • وكان السبب فى هذا الاهمال واضحا • فلقد كانت البلاد تفتقر الى المواد الاوليـة اللازمة للصناعة ، باستثناء القطن والسكر ، وكان الناس على درجـة كبيرة من الفقر لا تمكنهم من شراء السلع الصناعية • وكان هناك بالاضافة الى ذلك افتقار الى القوة المحركة • (١)

وكان ما بدا فى القاهرة والاسكندرية من رخاء مصطنع ، أشـبه بفقاعات الزبد الفارغ على سطح المجتمع المصرى ، اذ ظل هـذا المجتمع خارج حدود هاتين المدينتين ، يتألف فى غالبه من فلاحين يتزاحمون على العمل فى الحقول المفرطة فى اكتظاظها بالنـاس • والأرض موجودة ، فهناك مساحات شاسعة منها تحيط بالوادى ، ولكن الماء مفقود فيها • ومع ذلك كانت مياه النيل ، التى تفوق الذهب فى قيمتها ، تمضى فى كل عام الى البحر ، لتضيع فيه ، ولا يستطيع خزان أسوان أن يحول دون هذا التبديد •

يضاف الى هذا ، ان الخزان لم يكن قادرا على اختزان اكثر من شطر من مياه الفيضان ، ولذا فقد ظل عاجزا عن حماية البلاد من الـكوارث

---

(١) أثبتت الايام اللاحقة وفى عهد الثورة ، تفاهة هذه المبررات التى يتقـدم بها المؤلف لتبرير عدم اقبال مصر على التصنيع فى عهد الاحتلال البريطانى وأعوانه من الاقطاعيين وكبار الرأسماليين • فلقد ازدهرت الصناعة فى البلاد • ولو شاء المؤلف الانصاف لقـال أن الاستعمار ، توخى أن تظل مصر ، عن طريق الزراعة ، ومنع التصنيع البقرة الحلـوب لابتزازه •

(المعرب)

التى يسببها ارتفاع مناسيبه فى بعض السنوات • وقد يكون صحيحا ان النيل ، اذا ما قورن بغيره من الانهار الشريرة ، أقل ضررا وأحسن سلوكا فهو يخلف عنفوان صباه وراءه فى مضايق الجبال الافريقية وجنادلها ، كما يخلف نزوات شبابه وراءه فى مستنقعات السودان ، وفوران كهولته فى شلالات النوبة • ولا يتجاوز النهر اسوان متخطيا الشلال الاول الذى هو الاخير فى جريانه ، حتى يكون قد اتسم بهدوء الشيخوخة • ولكن اذا اتسمت امزجة الشيوخ بالهدوء فى معظم الاحايين ، فانها قد تثور احيانا، مؤدية الى جرائم تحمل طابع العنف • ولا تكون المجاعة هى التى تهدد المصريين فى غضون هذه الثورات ، وانما تدفق مياه الفيضان على المناطق المحيطة بالنهر على طول امتداده الى البحر •

ولقد وقعت أربع من كوارث الفيضان الخطيرة بين عامى ١٨٦٠ و ١٨٨٠ وكان أشدها فى عام ١٨٧٩ • وبالرغم من ان الحواجز والسدود كانت قد رفعت مترا آخر عما كانت عليه قبل فيضان عام ١٨٧٤ ، الا ان المياه حطمتها وارتفعت فوقها عند القاهرة ، واجتاحت جميع المناطق المزروعة بين المنيا والقاهرة ، ثم عادت لتنضم الى فروع رشيد فى الدلتا ، بينما تفجر فرع دمياط فاجتاح جميع الاراضى المحيطة به حتى وصوله الى البحر • وفزع الناس هاربين من الوادى والدلتا الى الاراضى المرتفعة ، ولكن المياه اغرقت الكثيرين من الرجال والنساء والاطفال مع مواشيهم ، بينما شاهد الكثيرون بيوتهم وهى تتهدم وتذوب فى المياه التى جرفتها معها • ولقد حال الحرص دون تكرر الكارثة فى عام ١٨٨٧ ، عندما تحول الوادى الى بحيرة هائلة ، ومع ذلك فقد اضطر الناس الى الرحيل بمواشيهم ومتاعهم، اذ كانت نذر الفيضان قد وصلتهم مسبقا الى اكناف الصحراء ، ليروا بيوتهم وقد جرفها الفيضان •

ولم تقع أية خسائر خطيرة فى الارواح من جراء الفيضان منذ عام ١٨٨٠ ، وان كان نظام الرى بالترع والاقنية ، قد جعل مصر أكثر تعرضا لاخطاره من قبل ، وذلك لان حواجز الترع قد حلت محل حواجز الحياض وسدودها ، وهى عادة لا ترتفع أكثر من ياردة واحدة عن مستوى الارض المحيطة بها ، وتقل عن مستوى النهر • لكن امر الدفاع بات أكثر سهولة من جراء وسائل النقل الحديثة التى تمكن السلطات من نقل الرجال والمعدات الى نقاط الخطر لتعلية الحواجز والسدود فيها • ويتم تجميع كتل ضخمة من الصخور والأخشاب والمعدات فى مناطق متباعدة على شاطىء النهر ، ويكون هناك مهندسون مسئولون عنها ، ومعهم سياراتهم

على استعداد للعمل فى تقوية السدود فى المناطق المعرضة للخطر ، للتقليل من خطر الانسياب والتدفق •

ويقـوم خزان أسوان وأنظمة الرى المتفرعة عنه بالتخفيف من الخطر النابع عن ارتفاع الفيضانات ، وذلك عن طريق اختزان الماء لفصول هبوط المناسيب • ولكن قدرة هذا الخزان محدودة ، ومن هنا كانت الاحتياطات الدائمة ، الدليل على القلق الذى يحس به المسئولون عن السـيطرة على مياه الفيضانات • ولا شك فى ان الخسائر فى عدد السكان التى انزلهـا فيضانا عامى ١٨٦٣ و ١٨٧٨ ، سـتكون أكبر الآن من جراء التزايد فى عدد السكان ، وليس فى وسع أى مهندس أو عالم من علماء الرى ان يقول ان مصر قد نجت بصورة كاملة من الخطر • ولقد ايد النهر هذه الشكوك مرتين على الأقل فى غضون العشرين عاما الأخيرة ، ولا سيما بعد أسابيع من تحويل مجرى النيل فى عام ١٩٦٤ • عندما راح يهدد عملية بنـاء السد العالى نفسها •

ولما كانت السـنوات الأربعـون الأولى من القرن الحالى قد خلت من فيضانات تماثل فى طغيانها تلك التى شهدتها السنوات الاربعون السابقة لها ، فقد ساد شعور من التهاون بتعزيز وسائل الدفاع ضد الفيضان • وحذر السير مردوخ ماكدونالد فى المحاضرة التى ألقاها فى القاهرة فى عام ١٩٤٣ من هذا التهاون مؤكدا ان الخطر لا يزال ماثلا ، وقد ثبتت صحة اقواله بعد ثلاث سنوات ليس الا ، عندما راح الفيضان يتجاوز حدود مصر الجنوبية باتجاه الشمال ، متثاقلا فى خطوه ، هادرا فى صخبه • وكتب أحد الخبراء الذين شهدوا المنظر يقول (١) •• « كان حقا منظرا مرعبا على ضفاف النيل فى مستهل شهر سبتمبر • فلقد وصلت المياه عند احدى الضفتين الى مستوى الارض ، بينما ارتفعت عند الضفة الاخرى ، فوق هذا المستوى بعلو يتردد بين عشرة أقدام واثنى عشر قدما » • وتم حشد جميع موظفى الرى بقيادة الوزير عبد القوى أحمد الذى جعل مقر قيادته عند قناطر محمد على ، وراح يدير عملية الدفاع وكأنها عملية عسكرية، فينقل الرجال والمعدات بسرعة الى النقاط الأكثر تعرضا للخطر •

وبالرغم من ان فيضان عام ١٩٤٦ ، لم يحطم السدود والحواجز ، الا انه ذكر مصر ، بأن اخضاع النيل لم يتم بعد • ودفع مهندسى الرى الى المجازفة المدروسة ، باختزان كميات أكبر من مياه الفيضان عند أسوان

---

(١) كتاب « النيل » لاشى • أى هيرست •

تفوق قدرة الخزان العادية • ولقـــد واتاهم الحظ لأن النيل فاض فى السـودان بين الخرطوم وعطبرة ، وغمرة الضفتين على مسافات تمتد أميالا عدة من الارض • وادى هذا الحادث الى تأخر وصول الفيضان الى أسوان ، مما اتاح لسلطات الرى فرصة الاستعداد لمواجهته ، اذ ان الوقت جد ثمين فى مثل هذه الظروف • ولا يمكن تقدير وضع الفيضان تقديرا صحيحا ، الا بعد سقوط الامطار فى الحبشة • ويستغرق وصول الفيضان الى اسوان منذ صدور الانذار الاول من مقياس الروصيرص الواقع على بعد سبعين ميلا من الحدود السودانية ، نحوا من عشرة أيام ، تتلوها خمسة أيام أخرى قبل وصول الفيضان الى القاهرة •

واحتمل خزان أسوان وطأة المجازفة ، ولكن لو قدر لها أن تمنى بالفشل ، لكانت الكارثة من الطراز الذى لايطاق ولا يقدر • ولقد غطى فيضـــان عام ١٨٧٨ أراضى تتعـــدى فى مساحتها مساحة مدينة لنـــدن وضواحيها بارتفاع قدمين على الأقل ، ولو قدر لمثل هذه الكمية من الماء أن تحـــطم السدود والحواجز هذه المرة ، لأغرقت الوادى والدلتا حيث يعيش خمسة وعشرون مليونا من الناس •

***

ولقد ظلت مشكلة مصر واضحة كل الوضوح طيلة هذا القرن ، فهى فى حاجة الى مزيد من الماء لزراعة مزيد من الارض تكفى لاطعام الاعداد المتزايدة من سكانها ، وليس فى الامكان خزن المياه التى تضيع بددا فى البحر ، وتوفيرها للســـنوات العجاف • وليس فى امكان خزان أســـوان ومتفرعاته ، انقاذ البلاد بصورة مؤكدة من كوارث الفيضان • والافتقار الى القوى المحركة الكافية ، أحد الأسباب الرئيسية فى الابطاء فى تنمية الصناعة • ولقد اقتربت مصر من الحد النهائى للتنمية الزراعية على ضوء المعايير التقليدية ، وما لم يجر ادخال أسلوب جذرى فى التنميـــة ، فان البلاد ستظل فى فقرها ، وعلى اكتظاظها بالسكان •

وكان السد العالى الذى يجرى بناؤه الآن فى اسوان هو المنفذ من هذه المشكلة ، وهو يمثل التطور الجذرى فى السيطرة على مياه النيل •

الذى استهل فى بناء خزان اسوان • وكان البريطانيون قد فكروا منذ عام ١٩٠٢ فى مشروع يهدف الى انهاء اعتماد مصر الكامل على الفيضان السنوى عن طريق اختزان كميات من المياه تفوق ما تحتاج اليه البلاد فى سنة واحدة • وظل هذا الحلم يراود المهندسين البريطانيين منذ مستهل القرن الحالى ، اذ أن أعمالهم وتجاربهم على ضفاف النيل ، جعلتهم يدركون ما تتعرض له الزراعة المصرية من اخطار ، وما فى المشروعات التى يتولون ادارتها من عيوب • وجاء السد العالى بعد ستين عاما ، الرد الكامل على ما كان يساورهم من قلق •

٢ روادمنسيون

كان النيل دائما يمثل أقصى حدود الخيال الانسانى • ولقد صنع المصريون القدامى ، آلهتهم على صورة النهر • فهو يصل اليهم بصورة غامضة من ذلك الخواء القاحل ، لعالم مجهول لديهم ، لا تصل اليه حدود معرفتهم ، متفجرا من شلال اسوان الاول ، ليمضى الى حقولهم مضاهيا فى قدسيته وفى حاجتهم اليه الشمس فى شروقها ومغيبها • واثار النهر فى ونستون تشرشل وهو يكتب عنه ، مشاعر صوفية من الاجلال والتقديس • ومثل لاميل لودفيج ، أروع انهار العالم ، بل صورة الانسان وقدره •

وصعد هيرودتس(١) فى القرن الخامس قبل الميلاد ، مع النهر الى ان وصل الى أسوان ، ليرى ان النهر قادم من أماكن بعيدة من الجنوب • لم يستطع أى انسان لقيه هناك أن يحدثه عنها ، أو عن المكان الذى يبدأ النيل رحلته منه • واضطر رسل الامبراطور نيرون الى العودة ناكصين على اعقابهم بعد ان وصلوا الى مستنقعات السودان ، ولم يستطع أى انسان من الشمال • فى غضون الثمانية عشر قرنا التالية ، أى حتى أواسط القرن الماضى ، ان يصل الى ابعد من تلك النقطة • ولم يجرؤ احد طيلة ذلك الوقت على تحدى الخريطة التى رسمها بطليموس(٢) ، والتى صور فيها نهر النيل ممتدا من البحر الابيض المتوسط ، الى بحيرتين تختفيان

---

(١) هيرودتس (٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق٠م) ـ ويسمى أحيانا « أبو التاريخ » • ارتحل فى معظم أنحاء العالم المعروف فى عصره • وكان بين مازاره بلاد اليونان ، وسواحل البحر الاسود وفارس ولبنان وفلسطين ومصر وايطاليا وصقلية • يعتبر كتابه من المصادر التاريخية الموثوقة .

(٢) بطلميوس ـ عالم فلكى وجغرافى كان من مواليد الاسكندرية وعاش فيها فى النصف الاول من القرن الثانى قبل الميلاد • وله كتاب فى الجغرافيا يقع فى ثمانية مجلدات •• وقد جمع فى كتبه عن الفلك كل معلومات الاغريق ، وظل المصدر الوحيد حتى ظهور كوبرنيكس • (المعرب)

فى « جبال القمر » • وظل منبع النيل المجهـــول ، مصـــــدر التكهنات والتصورات للجغرافيين والمكتشفين • وكتب الآن مورهيد(١) فى كتابه « النيل الأبيض » يقول ••• « ولقد أصبحت تلك النقطة المجهولة فى أواسط القارة • مصدر آلاف القصص الخيالية الرهيبة التى يتحدث فيها واصفوها عن الاقزام وعن الرجال من ذوى الاذناب ومن اكلة لحوم البشر، وعن الحيـوانات العجيبة كالعنقاء والضفادع المذنبة وعن البحـار الداخلية الضخمة وعن الجبال السامقة التى تتحدى الطبيعة ، فتحمل على قممها حتى فى تلك الاجواء الاستوائية الحارة حللا بيضـــاء من الثلوج الدائمة التى لا تذوب » •

وتمكنت سلسلة متعاقبة من المكتشفين فى الربع الثالث من القرن الماضى من الوصول الى هذه المجاهل من ساحلى افريقيا الشرقى والغربى، ليجدوا مناطق تضم بالفعل البحيرات الواسعة والجبال العالية ، وليكتشفوا احجية النهر العظيم • وانقضت حقبتان من المناكفات والمنافسات ، ومن قصص النيل واحتمال العناء ، ومن الطهر والخطيئة بلغت ذروتها فى رحلة ستانلى(٢) الحقودة للتأكد من اكتشاف سبيك(٣) لمنابع النيل • وخرج المستكشفون بعد هاتين الحقبتين من الادغال ليصلوا الى هضبة مرتفعة ، وليواجهوا فى النهاية « جبال القمر » التى تحدث عنها بطليموس • وبدا وكأن مصراعى نافذة فتحا ، ليطل الانســـان منها على رقعة من مجاهل افريقيا •

وقام ستانلى برحلته فى عام ١٨٧٦ • وجاء المبشرون والمستعمرون المستوطنون فى اعقاب المستكشفين • لفتح أواســـط افريقيا ، وتمكين المستوطنين من اقامة مزارعهم فى ارض الاساطير والخرافات • ولم يتجاهل الانسان ما فى النيل الادنى من روعة ومن تحد • فلقد كان هناك آخرون من المهندسين الذين جاءوا من انهار الهنـــد يمخرون عبـابه بمراكبهم

---

(١) فى كتابه « النيل الأبيض » •

(٢) السير هنرى موتلون ستانلى (١٨٤١ — ١٩٠٤) — مكتشف بريطانى • قام برحلات بحرية الى الهند الغربية ، وايطاليا واسبانيا وكذلك قناة السويس وفلسـطين وتركيا وايران والهند • اشترك مع ليفنجستون فى كشف بحيرة فكتوريا نيانزا ونهـــر الكونجو •

(٣) جون هايننج سبيك (١٩٢٧ — ١٨٦٤) — مكتشف جغرافى انجليزى • دخل الجيش الهندى • اكتشف بحيرة فكتوريا نيانزا ومنابع النيـــل • وضع عدة مؤلفات جغرافية •

(المعرب)

الشراعية ، ويستقلون الجياد والحمير على ضفافه الرطبة يمسحونها ، ويحددون مواقعها بأناة وبراعة ، وظهرت لهم من دراساتهم العميقة ، رؤى جديدة • وكتب ويليام ويلكوكس يقول •• « وعندما نمعن النظر فى ماعاناه اولئك الذين حققوا اكتشافاتهم العظيمة لمنابع النيل ، من متاعب وما بذلوه من جهود ، فقد لا تكون مكافأتنا لهم بتحويل اكتشافاتهم الى خرائط تفصيلية ، بالشيء المجزى • ولكن المكافأة العظمى التى تعتبر نصرا لهم ، تمثل فى قدرة العلم الحديث ، ان تحققت على استخدام هذه البحيرات العظمى والافادة منها ،وفى اقامة منشئات مناسبة تضمن تأمين المياه بصورة غزيرة ودائمة ، لوادى النيل فى اشهر الصيف ، عندما يشح الماء ، ويصبح معادلا للذهب فى قيمته » •

وكان الوقت الذى انقضى بعد انتهاء تلك القرون الطويلة من الصمت والجهل ، قصيرا الى حد يثير الدهشة • فلم تنقض أكثر من خمس عشرة سنة على قيام ستانلى بالتأكد من منابع النيل ، حتى كان خيال ويلكوكس يعمل على تحويل تلك البحار الداخلية الواسعة التى تحميها « جبال القمر» الى خزانات اليفة • فقد اقترح استخدام هذه البحيرات فى خزن هذه المياه كما اقترح ، شق مجرى ممهد للنيل الابيض عبر مستنقعات جنوب السودان ، مضيفا ان مثل هذا العمل ، سيؤدى ، وبمنتهى البساطة الى سد كل حاجات مصر • وتجاهل فى كل ما كتبه المتاعب الاخرى التى تواجه تحقيق مشروعه ، ونسى ان جيوش الدراويش كانت قد عزلت السودان عن مصر وعن بقية ارجاء العالم ، وان رماحهم كانت قد قضت قبل ست سنوات على الجنرال جوردون وهو على عتبات قصره فى الخرطوم•

وكان ويلكوكس وهو يسطر الملحق الثالث من التقرير السنوى الذى قدمه الى الحكومة المصرية فى عام ١٨٩٤ ، يمر بالعقبات العسكرية مرورا عابرا ، ويكتب نثرا يصل حدود الخيال الشعرى أحيانا فى تحديد المخططات الهندسية • ولكن كان على بريطانيا اولا ، ان تضمن قدرة مصر على الوفاء بالتزاماتها ، وكانت الادارة البريطانية راغبة فى وضع مخططات تحول بين النيل وبين جرف كل ما فى حقول البلاد من محصولات زراعية مرة فى كل بضع سنوات ، كما فعل اربع مرات فى غضون الحقبتين السابقتين ، وتؤمن المياه الكافية من النهر لمحصولين او ثلاثة محاصيل فى السنة ، ومن اوسع بقعة ممكنة من الارض الزراعية • وكان فى وسع ويلكوكس ان يعيش مع احلامه ، ولكن مهمته تتمثل فى مجابهة الواقع وتأمين العيش وكان خزان أسوان ثمرة هذه المجابهة •

ولكنه رأى منذ البداية أن هذا الخزان لا يكفى لتأمين ما تحتاج اليه مصر فى كل سنة من الماء والطمأنينة • وكانت مخططات السيطرة على النيل ترتكز على المعدل السنوى للفيضان ، ولكن ويلكوكس لم يعجبه هذا السلوك وكتب فى عام ١٩٠٣ يقول ان سنوات الجفاف يجب ان تكون المعيار فى الحسابات والتقديرات • اذ ان السنوات العادية تصبح فاقدة الاهمية ، اذا لم يوفر الفائض من سنة الى السنة التالية • وهكذا عبر مع بداية علم الرى الحديث عن الحاجة الماسة الى الخزان الذى يختزن الماء من سنة الى أخرى •

ولم يحل خزان أسوان دون استمرار الحقيقة ، وهو ان فى وسع الامطار المتساقطة على مرتفعات افريقيا ان تجرف فى السنوات غير العادية قرى مصر واحدة اثر أخرى ، أو ان تعجز على ملء الخزان الذى تستنفد فى كل عام مافيه من مخزونات المياه لرى مزارع القطن واراضى الزراعات الصيفية « المراحة » • وكتب ويلكوكس فى كتابه « خزان النيل وبعده » يقول ••• « وهكذا تقف كل سنة على أساس أوضاعها ، ولن يكون فى الامكان تحقيق تنمية مستقرة لأى شبر من الاراضى التى تعتمد على الرى ، الا اذا توافرت جميع الاحتمالات للخلاص من اخطار الجفاف والنقص فى المياه » • وراح هو وغيره من المهندسين البريطانيين ينادون باستخدام البحيرات الاستوائية كخزانات للمياه وكمنظمات للرى • وكتب ويلكوكس فى عام ١٩٠١ يقول •• « وفى وسعنا عن طريقها أن نفرض يد العملاق ، أكثر مما تستطيع الشلالات كلها أن تفعله » • وظلت فكرة استخدام البحيرات الاستوائية حية أكثر من نصف قرن ، لتكون موضوع الدراسات والمناقشات ، ولتصبح المخطط الأول لخزن المياه بصورة تعدو متطلبات سنة واحدة •

ولقد سد خزان اسوان حاجات مصر بصورة مؤقتة ، ولكن معظم الخبراء قرروا أنه كان قد وصل الى الحد الأعلى من طاقته عندما تمت تعليته للمرة الثانية • وأدى ضغط تزايد السكان المستمر والملحف ، وتعطش البلاد المتواصل الى المزيد من الماء للوصول الى محصولات أكبر وأفضل ، والرغبة العرمة فى الحصول على مزيد من المال للانفاق على شئون التعليم والصحة والاسكان ، الى ظهور عزم على البحث المتواصل عن مناطق جديدة لتخزين المياه فى ثلاثينات القرن الحالى • وجاءت الحرب العالمية الثانية فأوقفت هذه البحوث ، ولكن السير مردوخ ماكدونالد ، راح يخطب فى عام ١٩٤٣ ، وعندما كان خطر الحرب قد انحسر عن مصر نهائيا فى

اجتماع عقده الاتحاد المصرى ــ الانجليزى فى القاهرة ، ويعلن أن فى الامكان تعلية الخزان للمرة الثالثة ، وان هذه التعلية ستكون قادرة على وقف اخطار الفيضان . وكان هذا الرجل أكثر الناس صلاحا للحديث فى هذا الموضوع، اذ أنه كان أعظم رجال الاختصاص فى موضوع الخزان، من الذين ظلوا على قيد الحياة ، اذ ارتبط بالخزان منذ بدايته بصورة أو بأخرى . وطلبت الحكومة المصرية من ماكدونالد أن يعيد التصميم اللازم، وعندما قدمه فى السنة التالية ، عاد موقع اسوان الى احتلال الصورة من جديد .

وجاء فيضان عام ١٩٤٦ العالى . والذى نجت منه البلاد باعجوبة ، فمثل حافزا جديدا للدعوة الى مزيد من الماء والطمأنينة . وصدرت الأوامر الى مديرية الرى، بأن تبحث عن جميع الاساليب الممكنة لتأمين الماء اللازم « لتوسيع الزراعة المصرية الى أقصى حد ممكن » . وكان الدكتور هيرست والمستر بلاك والسيد يوسف سميكة ، وهم من خبراء هذه المديرية ، قد قطعوا أشواطا بعيدة فى دراساتهم العظيمة عن حوض النيل ، وعرضوا فى المجلد السابع من تقاريرهم مشروعا للنيل كله. يستند الى الطاقة التخزينية فى بحيرات المنابع . وكان الدكتور هيرست ، الذى ارتحل مع النيل من مصبه الى منابعه أكثر من مرة فى غضون الستين عاما التى قضاها مرتبطا بالنهر ، والذى يعتبر أكبر حجة فى قوة النهر المائية ، قد قضى اثنى عشر عاما فى تقييم الطاقة التخزينية اللازمة لتأمين ما تحتاج اليه مصر من الماء فى كل عام ، مهما كانت التقلبات فى كميات المياه التى يدفعها النهر سنويا الى البلاد .

وتحتاج مصر الى نحو من ثلاثة وستين ألف مليون من الياردات المكعبة من الماء فى كل عام . وقد يبلغ الفائض فى بعض سنوات الوفرة كعام ١٨٧٨ ــ ١٨٧٩ مثلا نحوا من مائة وثلاثين ألف مليون تضيع بددا فى البحر ، بينما قد تحل سنوات أخرى ، ينعدم فيها هذا الفائض تماما، أو تكون كميات الماء التى يدفع بها النهر الى مصر ، أقل من حاجاتها ، كما حدث فى عام ١٩١٣ ــ ١٩١٤ ، عندما لم تزد كميات المياه التى حملها النهر الى مصر على أربعة وخمسين ألف مليون . وهناك حالات يكون فيها النهر متقلبا حتى فى السنة الواحدة نفسها . ففى الاشهر الحرجة بين فبراير ويوليو ، وهى التى تحتاج فيها مصر الى تسعة وعشرين ألف مليون ، قد يصل ما يحمله النهر الى سبعة وأربعين ألف مليون كما حدث فى عام ١٨٧٩ ، وقد يهبط الى تسعة آلاف مليون كما حدث فى عام ١٩١٤ .

وأخذ الدكتور هيرست على عاتقه مهمة تحويل هذا السلوك المتقلب للنهر الى أرقام وحسابات منطقية ومعقولة. وراح يصف فى كتابه « نهر النيل » ما قام به من عمل فى هذا الصدد فقال ..

« وكانت أمامى طريقتان للعمل. وكانت أولاهما تقوم على الحسابات التجريبية ، بجميع ما تحمله الانهار الاخرى من كميات المياه ، وحساب طاقاتها التخزينية ، لتعديل نسبة المحمول بصورة سنوية . اما الطريقة الثانية فحسابية وتقوم على أساس نظريه الاحتمال ، وهى ترتكز على أساس الافتراض بأن اختلاف كميات محمول النهر مشابه لاختلاف الاحداث العارضة . وكانت الطريقة الاولى تقود الى قدر هائل من التعداد والحساب ، اذ أن معالجة أى موضوع احصائيا ، تتطلب قدرا ضخما من تجميع الارقام والمعلومات . وتتطلب هذه الطريقة ، سجلات احصائية كاملة لا لسنة واحدة بل لعدة سنوات ، وهذه لا تتوافر فى مجالات الانهار ، ولذا فقد اتسع نطاق الدراسة ليشمل احصاءات الامطار التى بدت متشابهة فى خصائصها . وكانت هناك أيضا ضرورة اجراء دراسات عن الضغوط الجوية والقياسات البارومترية والحرارية ولعل من أهم الخصائص التى تشترك فيها هذه الدراسات انها ذات ذبذبات توزيعية متشابهة . وفكرة الذبذبة التوزيعية فى منتهى البساطة ، وفى الامكان تطبيقها على مواضع كثيرة تتعلق بعلم الحياة وعلم الاجتماع والهندسة .. ويعنى استعمال القياسات الحرارية أو غيرها من الاحصاءات اننا نمر بنفس العمليات الحسابية التى لا بد من المرور بها فى حالة درس كميات المياه ، ونصل الى رقم يمثل الطاقة التخزينية المطلوبة بالنسبة الى الماء . وهذا يعنى أيضا، اننا نستخدم احدى الخصائص التى تشترك فيها جميع مجموعات الارقام ، وهو اجراء مألوف لدى علماء الرياضة والفيزياء . ولا ترجع سجلات النهر أو سقوط الامطار باستثناء سجلات مقياس الروضة ، الى أكثر من مائتى عام. وينطبق هذا أيضا على قياسات الضغوط ودرجات الحرارة . وكان لا بد للحصول على سلاسل أطول من الارقام ، من الافادة من دراسات الدكتور دوجلاس عن قياس محيطات الاشجار العملاقة فى أمريكا أو تلك التى قام بها البارون دى جرير عن كثافة الالياف فى قاع البحيرات . وتمثل الدراسات الاخيرة الطبقات السنوية من الطمى المتراكمة فوق بعضها على قيعان البحيرات القديمة .. وترجع احصاءات محيطات الاشجار الى أكثر من ألف عام ، بينما تعود احصاءات كثافة الالياف فى بعض الحالات الى نحو من أربعة آلاف عام . وتم حساب وتحليل نحو من

خمس وسبعين ظاهرة طبيعية ، كما اجريت الحسابات لستمائة وتسعين حالة من حالات الطاقة التخزينية » .

ولم يكتف الدكتور هيرست بدراسة هـذه الاحصاءات التى يعود بعضها الى عمر الاهرام ، وراح يبـادر الى دراسة « العوامل المتغيرة » ، والمتعلقة بعنصر المصادفة العارضة ، لحاجته اليها فى حساب سنوات الخير والسنوات العجـاف ، اذ كان قد تبين بصورة واضحة أن النيـل يميل دائما الى تجاهل قوانين المعدلات وراح هو وزميله الدكتور بلاك يسجلان فى التقرير الذى قدماه عن الدراسات المائية ، للحد الاقصى لحجم الماء فى النيل الذى يمكن استخدامه فى أعمال التنمية فى مصر والسودان ، ان ليس ثمة « معـدل صحيح وصادق فى أية ظاهرة طبيعيـة صحيحة » . ووجد الدكتور هيرست نفسه فى النهاية « يتثبت من صحة القاعدة التى وضعها عن معدل التغييرات فى الحوادث العارضة عن طريق الحدس أكثر من ألف مرة ، والتـكهن ألف مرة أخرى ، وعن طريق اسـتخدام الوف الارقام العارضة التى جمعها من احصاءات أنقذها من خطر الضياع » .

واذا كان سلوك عالم الميـاه البارز هذا ، يبدو شـاذا فى عين أى متطلع ، فان هذا السلوك قد ترك أثره فى النهـاية فى تمـكين مصر من اهتبال فرصتها على أساس دراسات محسوبة . وعندما طلب اليـه والى الدكتور بلاك فى عام ١٩٥٥، تحرى السبل القادرة على توفير الحد الأقصى من الماء لمصر والسودان، راحا يقدمان تقريرهما المؤيد لانشاء السد العالى. لكن دراساتهما الحسابية السـابقة لم تكن قد تنـاولت السد العـالى فى حينه ، اذ أن هذا السد لم يكن موضع التفـكير . وكان كل ما نشداه ، هو الوصول الى نقطة البداية العلمية لأى مشروع للتحكم فى نهر النيل وقد توصلا الى الاسـتنتاج بأن هذا المشروع لا بد وأن يستند الى احصاءات تتعلق بقرن كامل من الفيضانات . وهكذا ابتكر هيرست وبلاك وسميكة فكرة « التخزين لقرن كامل ». وعادوا بعد ذلك وبصورة عامة الى مشروع القرن التاسع عشر عن استخدام بحيرات فكتوريا والبرت وتانا ، وشق ترعة عبر السد ومستنقعات جنوب السودان التى يضيع فيها نصف مياه الفيضان . ودعوا الى اعتماد بحيرة فيـكتوريا كالخزان الرئيسى ، وبحيرة البرت كخزان أصـغر ومنظم للرى ، وقد اعربوا عن أملهـم أيضـا فى استخدام بحـيرة تانا فى الحبشة فى تخزين الميـاه أيضـا . وضموا الى موضوع اسـتخدام البحيرات وشق الترعة فى المستنقعات سلسلة كاملة من الاقتراحات عن مشروعات عملية على نهر النيل فى كل من السودان ومصر .

وتوصلت البلاد المعنية ، وفى مقدمتها مصر وبريطانيا الى اتفاق على المشروع الشامل ، وقدر المختصون ان الاعمال الانشائية فى حاجة الى عشرين عاما لاستكمالها • وهناك كثيرون ما زالوا يعتقدون ان هذا المشروع ما زال أحسن السبل لحفظ مياهالنيل والتحكم فيها • ولقد بنى سد شلالات اوين على بعد ميل ونصف الميل من خروج النهر من بحيرة فيكتوريا التى غدت نتيجة ذلك أكبر مخزن للماء فى العالم ، ومصدرا لتوليد القوة الكهربية ــ المائية لاوغندة •

وبينما كان موضوع التخزين لمدة سنة قيد الدرس ، راح المهندس الزراعى اليونانى ادريان دانينوس ، يضع مشروعا جديدا كل الجدة لأسوان • وكان النقاش يدور آنذاك على أشده بين الخبراء ، حول الحكمة فى اقامة محطة توليد للكهرباء فى خزان اسوان القائم والرائد الطليعى للافادة من النيل ، الذى لم يكن قد استنفد كل طاقات نفعهبعد • واقترح دانينوس بناء محطة التوليد عند سد جديد ، قال ان من الواجب بناءه على بعد أربعة أميال الى الجنوب من السد القديم • ولكن مشروع دانينوس لم يلق استجابة على نطاق واسع ، ومضت الحكومة المصرية فى تبنيها لمشروع التخزين لمدة قرن كامل ، جاعلة منها سياستها الرسمية فى عام ١٩٤٨ •

وكان ادريان دانينوس مواطنا مصريا ولد من أبوين يونانيين فى الاسكندرية فى عام ١٨٨٧ ، وما زال يعيش مغمورا فى شقة متواضعة فى قلب القاهرة ، حيث يعمل عقله الخصب فى الدعوة الى مخطط لاقامة طراز جديد من المجتمع الزراعى ، يضمن كما يقول حل مشكلة انقاذ العالم من الجوع • وكان والده دانينوس (باشا) من رجال البلاط الخديوى ، وقد عمل فى بعض الحفريات للكشف عن تماثيل الاميرة نفرتيتى والامير راحاتبو من الأسرة الثالثة • ودرس ادريان الهندسة الزراعية فى كلية الزراعة فى الجيزة ، ثم عاد فدرس الحقوق فى جامعة باريس • وتزوج من سيدة انجليزية من بنات ويلز هى الآنسة ويليامز • وكان واسع الخيال منذ حداثة سنه ، وقد عنى عناية فائقة بمشروعات تنمية النيل فى مصر ، وارتبط اسمه منذ عام ١٩١٢ ، بالمشروع الذى اقترحه الاونورابل وولتر تريفوسيس ، لاقامة محطة لتوليد الطاقة الكهربية عند خزان أسوان الجديد • ويدعي ادريان ، انه رائد فكرة تصنيع مصر ، عن طريق القوة الكهربية • وتضمن مشروعه لعام ١٩١٢ ، مخططا لاقامة مصنع لانتاج الاسمدة الكيماوية فى اسوان ، كما تضمن هذا المشروع الذى اخضعه

للتطور عبر السنين ، اقامة مشاريع لاستصلاح الاراضى نادى بها منذ الثلاثينات وأخرى للرى والملاحة النهرية ، وعاد فاقترح فى الاربعينات انتاج الصلب من خامات الحديد عن طريق القوة الكهربية. واقترح توزيع الاراضى التى يتم استصلاحها على الفلاحين الذين لا يملكون الارض ، كما اقترح توزيع الأسمدة الكيماوية على صغار الفلاحين عن طريق التعاونيات الزراعية . ولا شك فى أن الكثير مما هو جار الآن فى مجالات التنمية ، باستثناء مشروع الملاحة النهرية ، يضاهى ما تصوره دانينوس .

واقترح فى عام ١٩٢٢ ، فكرة كانت تعتبر ثورية آنذاك وهى أن يكون مصنع الاسمدة الكيماوية مؤمما ، وأن توفر الحكومة السلفيات الصغيرة لصغار الفلاحين والمزارعين . ولقد شرع فى تسليف المزارعين بعد وقت قصير ، وعندما بدأت محطة كهرباء خزان اسوان عملها بعد نحو من أربعين عاما ، كانت الثمرة الاولى لها اقامة مصنع الاسمدة الكيماوية . وتقرر أن تعتمدتنمية مصر الصناعية كلها بما فيها صناعة الصلب على القوة الكهربية من اسوان . كما جرى توزيع الاراضى الجديدة المستصلحة على صغار الفلاحين وتوزيع الاسمدة عليهم كسلفيات عن طريق التعاونيات الزراعية .

وليس ثمة من شك فى أن دانينوس ، تصور مشروع السد العالى. ولا شك فى أنه باقتراحه فى عام ١٩١٢ ، بناء محطة لتوليد الكهربا فى اسوان ، والتى لم يكن فى الامكان انشاء السد العالى ، لو لم توجد ، وضع الخط الاول للتنمية التىأدت بعد أربعين عاما الى فكرة السد العالى، ودفعت الحكومة الى انشائه .

وطلب دانينوس وتريفوسيس فى عام ١٩١٢ ، الحصول على امتياز يسمح لهم باستغلال محطة لتوليد الكهربا فى اسوان لاستصلاح نحو من مليون ونصف المليون فدان من أراضى الدولة على مدى خمسة عشر عاما ، أى بمعدل مائة ألف فدان فى السنة الواحدة . وقدرت تكاليف المشروع كله ، بما فيه أعمال الانشاء بنحو من ثلاثين مليون جنيه مصرى ، تعهد الرجلان بتأمينها ، اذا التزمت الحكومة المصرية بوفائها بفائدة قدرها خمسة فى المائة فى غضون ثلاثين عاما . وكشف السير ويليام جارستين عن اهتمامه بالمشروع فى رسالة بعث بها الى دانينوس ، بينما وصفه السير مردوخ ماكدونالد وغيره من الخبراء باللاواقعية ، واللاعملية. وعاد دانينوس الى جى . توفانى ، المستشار الفنى لمصانع سيمينز المشهورة، يطلب مشورته، كما طلب النصح من المهندس راتى، الاخصائى

فى التوربينات » ، ثم راح يتقدم بطلب مباشر الى اللورد كتشنر ، الذى زعم فيما بعد انه حصل منه على التأكيد له ولزميله اما بأخذ الامتياز أو بالاشراف على تنفيذ المشروع نيابة عن الحكومة المصرية • ولا شك فى أن هذه الوعود التىاعتبرها دانينوس وزميله تريفوسيس•• حقوقا مكتسبة هى التى دفعتهما الى اقامة الدعوى على الحكومة المصرية بعد نحو من ربع قرن (١) •

وحال نشوب الحرب العالمية الاولى بين اللورد كتشنر وبين المضى فى دراسة هذا المشروع ، ولكن لم تكد الحرب تضع أوزارها حتى كان دانينوس ورفيقه يعاودان الهجوم بدراسة جديدة وأكثر تفصيلا • ودعتهما الحكومة المصرية فى عام ١٩٢٠ ، الى الاشتراك فى مناقصة عامة، للحصول على حق تنفيذ المشروع وراحا يشتركان فيها بالرغم من اعلانهما عزمهما على الاحتفاظ « بحقوقهما المكتسبة » وعادت الحكومة قبل سبعة أيام من موعد فض «مغلفات» المناقصة فسحبت المشروع كلية • ولمتعترف الحكومة المصرية فى الحقب التالية بأية حقوق لدانينوس وشريكه، ولاشك فى أن تطور أساليب توليد الكهربا من الماء فى هذه الفترة ، لم يترك للرجلين سوى الفكرة الاولى • وعادت الحكومة فأعلنت فى عام ١٩٣٢ عن مناقصة عامة جديدة ثم سحبتها ، وراح وزير المالية يعلن فى عام ١٩٣٦ أن الحكومة قررت أن تعهد الى شركتين اختارتهما دون مناقصة بدراسة المشروع وتنفيذه • وواصل دانينوس احتجاجاته العنيفة على اجراءات الحكومة ، وراح يقدم مشروعه الى مجلس من المستشارين الدوليين ، كان قد دعى الى ابداء النصح • وسرعان ما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، قبل أن تنتهى هذه المرحلة الأولية •

واستأنف دانينوس فى عام ١٩٤٥ حملته ، بمذكرة نشرها عن « الاستغلال الكلى لموارد مصر » ادعى فيها أن فى الامكان وصول الأراضى الزراعية فى مصر الى رقم الثلاثة عشر مليونا فى الأفدنه ، وهو رقم لم يؤيده أحد من قبل ولا من بعد ، ونادى بالغاء جميع المصارف العامة التى تحرم مصر من نحو من عشرة فى المائة من مجموع أراضيها الزراعية، كما

---

(١) طبعا لم تكن لدانينوس ورفيقه أية « حقوق مكتسبة » ، اذ أن اللورد كتشنر ، لم يكن يملك فى عام ١٩١٢ ، صلاحية منح الامتيازات ، بالرغم من تمثيله لسلطة الدولة البريطانية المحتلة • فلقد كانت السلطة الاسمية لا تزال فى أيدى السلطان العثمانى • أما السلطة الشرعية فكانت لا تزال من حق الشعب المصرى ، الذى لم يكن كتشنر يمثله •
(المعرب)

دعا الى اقامة مصنع للصلب . ولكن الحكومة طرحت للمناقصة مشروعا أعده المهندس المصرى عبد العزيز أحمد بمعونة مؤسسة كنيدي ودونكين البريطانية، وراح دانينوس ورفيقه تريفوسيس يرفعان قضية على الحكومة أمام المحاكم المختلطة ، وعندما عرضت القضية على المحكمة فى دورة نوفمبر من عام ١٩٤٧ ، كان تريفوسيس قد مات ، وناب عنه ولده شومبرج تشارلز تريفوسيس ، والمهندس البريطانى هارولد هاملتون ويليامز ، وهو فى الوقت نفسه ابن اخت دانينوس . وطلب المدعون بالاستناد الى الحقوق المكتسبة تأجيل طرح مشروع أحمد ـ دونكين على المناقصة ، وهو ما حدث بالفعل دون أى تدخل من المحكمة .

وراح دانينوس أثناء عرض القضية أمام المحاكم ، يقضى الشهور الطويلة فى زيارة سدود أوربا وأمريكا ومشروعات توليد الطاقة الكهربية فيهما ، وفى ابلاغ الصحافة العالمية عن طريق وكالات الانباء بأن الحكومة المصرية تعمل على عرقلة تقدم بلادها . ولم يدع بعد عودته الى القاهرة فى شهر ابريل من عام ١٩٤٧ للمثول أمام هيئة الخبراء الدوليين التى كانت تتولى تقديم النصح فى موضوع مشروع أحمد ـ دونكين ، الا فى اليوم الاخير الذى سبق رحيلها عن البلاد ، ليكتشف أثناء المقابلة ، ان أعضاءها لم يسمعوا قط بمشروعه . ولا شك فى أن اصراره على حقوقه المزعومة ، وتقداته الى الحكومة المصرية ، ومطاردته لكل واحد من رجالها ، ابتداء من رئيس الوزراء ، وانتهاء بأصغر مهندس ، ورفعه للقضية أمام المحاكم ، كلها أمور جعلت منه مصدر ضيق وتبرم للحكومة المصرية .

وتقدم فى هذه الآونة بمشروع جديد لاقامة خزان جديد فى اسوان لاختزان ثلاثة عشر مليار ياردة من الماء، مع الاحتفاظ بمنفذ مغلق فيه يسمح بمرور سفن الملاحة التى لا تتعدى حمولتها الالفى طن ، على أن يتم العمل فى غضون ثلاث سنوات وبتكلفة لا تتجاوز اثنى عشر مليونا من الجنيهات، وان يصحب هذا العمل باقامة محطة توليد للكهربا تولد ١٢٥ ألف كيلو واط فى الساعة على ثلاث مراحل وبتكلفة لا تتجاوز ١٥ مليونا من الجنيهات ، وانشاء مصنع للاسمدة الكيماوية تبلغ طاقته الانتاجية ستمائة الف طن فى السنة وتكلفته ستة ملايين جنيه ومصنع للصلب تبلغ طاقته الانتاجية مائة ألف طن من الصلب وتكلفته مليونى جنيه ، ومد شبكة لخطوط الكهربا الى الدلتا . وتمكن من اقناع مجموعة من الشركات البريطانية بتقديم عرض الى الحكومة المصرية لتنفيذ هذه المشروعات .

ولم تكن هذه المشروعات ذات علاقة بمشروع السد العالى • وكانت هذه الفترة حافلة بالمناقشات الحادة بين الخبراء عن حكمة انشاء محطة لتوليد الكهربا فى الخزان القديم ، اذ ذكر بعضهم أن هذه المحطة ستدمر من الذبذبات التى تخلقها التوربينات القديمة • وبدا وكان دانينوس يحاول استغلال هذا الاختلاف فى الرأى لبعث مشروعاته من جديد • ووافق محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء على مجىء ممثل عن مجموعة هذه الشركات الى القاهرة ، ولكن عندما جاء هذا الممثل ، لم يستقبله أحد فى القاهرة ، وأعلن المستشارون الدوليون أن مهمتهم لا تتناول البحث فى مشروع هذه المجموعة •

ولكن دانينوس لم يتراجع ، وراح بالتعاون مع ويليامز ، يتفق مع المهندس الايطالى لويجى جاليولى ، صاحب المرسم الفنى ايجنيجبورى جاليولى ، لاعداد تصميمات مشروع محدد يعارض به مشروع الحكومة • وكان دانينوس قد توصل الىالاستنتاج القائل بأن فى الامكان خزن المياه وراء اسوان بكميات كبيرة تفوق كل ما كان فى حيز التصور من قبل ، وراح يحمل جاليولى معه الى اسوان لدراسة نظريته على الطبيعة • وعادا من اسوان يدعوان الى مشروع دانينوس ــ جاليولى ، زاعمين انهما اقاما الدليل على امكان بناء قناطر وخزان فىاسوان وأن فى وسع هذا الخزان أن يختزن وبمنتهى السهولة ، كل فيضان النيل فى الاوقات العادية الى ما يبلغ مجموعه ١٨٦ مليار ياردة مكعبة • مع دفع مستمر للمياه قادر على توليد ستة عشر مليار كيلواط ساعة من الكهربا فى السنة الواحدة • وقدم دانينوس فى الثانى عشر من يناير من عام ١٩٤٨ ، الى المجمع العلمى المصرى فى اجتماعه السنوى الاول ، تقريرا عن « الاستخدام الكلى لمياه حوض النيل » ، فتولت هذه الهيئة العلمية ذات المكانة العالية ، والتى كان نابليون قد أنشأها لاول مرة عند فتح مصر ، دراسة هذا التقرير وأعلن دانينوس أن فى الامكان بناء أكبر خزان فى العالم فىاسوان ، وانه سيكون أربعة اضعاف سد بولدار الذى يملك خزانه الطاقة على خزن ٥٢ مليار ياردة مكعبة • وأضاف ان هناك حقيقة رائعة اكتشفها وهى أن فى الامكان عن طريق وجود حوض طبيعى هائل فى منطقة اسوان اختزان مياه الفيضان لسنتين متعاقبتين عن طريق بناء سد واحد •

وهكذا ولد مشروع السد العالى • ولم يكن تقدير طاقة التخزين للخزان بمائة وستة وثمانين مليارا ، أى بزيادة أربعين مليونا على الخزان الذى سبق اقتراحه ، الا تقديرا واقعيا يمكن تحقيقه اذا ظهر لزومه ،

وتوافرت الاموال اللازمة له . وقدم دانينوس الى المجمع الحجيج العلمية التى عادت حكومة الثورة فتبنتها تأييدا للمشروع . وتصورت افتراحاته لأول مرة منشئات يمكن القيام بها على أرض مصر وحدها، وتحت السيادة المصرية الكامله ، وأضاف آن فى الامكان الشروع فى العمل فورا ، بينما يتطلب المشروع لتطوير النيل لله ، اتفاقات دوليه عدة ، وحل الكثير من المتاعب والمشاكل . وعلى ضوء تقديره للطاقه التخزينية بمائة وسته وثمانين مليارا ، قدر أن المعدل السنوى لما يقذفه النيل من مياه بمائة وعشرة ملايين، وهذا يمكن الخزان من تخزين جميع مياه الفيضان ، وحماية البلاد حماية كاملة من خطر مياهه ، وتأمين طاقة كهربية تفوق كل ما قدرته المشروعات السابقة من طاقات . وقدر دانينوس أن فى الامكان استصلاح مائتى ألف فدان فى وادى الريان ومليونين وسبعمائة وخمسين ألف فدان في منخفض القطارة ، وأن في الامكان استصلاح ما مجموعه خمسة ملايين فدان، وتحويل نحو مليون أخرى الى الرى الدائم من أراضى الحياض (١) . وقدر دانينوس أيضا أن في الامكان بناء السد بأربعين مليونا من الجنيهات ومحطات التوليد الكهربية بثلاثين مليونا .

ولعل الشيء المدهش في موضوع اقتراحات دانينوس ، لا يمثل فى أن بعض أرقامه لم تكن دقيقة ، بل فى أنه بالرغم من افتقاره الى الفرص الكافية لأعمال المسح ، كان قادرا على تحقيق درجة كبيرة من الدقة فى هذه الأرقام . ولقد انفقت مئات الالوف من الجنيهات فيما بعد على أعمال المسح هذه المتعلقة بمشروع السد العالى ، وجاءت فى النهاية مطابقة الى حد ما الى تلك التى قدمها دانينوس . ولكن المشروع النهائى لم يتضمن على أى حال اقتراحه باقامة قفل يفتح ويغلق فى السد لمرور السفن التى تزيد حمولتها على الفى طن ، وما زال دانينوس يواصل نقده للمشروع حتى اليوم لاغفاله هذا الاقتراح . ولعل من الغريب أيضا ، انه لما كان قد ناقش منذ أكثر من ربع قرن موضوع اقامة مصنع للاسمدة الكيماوية فى اسوان فوصفه بأنه لن يكون اقتصاديا اذا لم تتوافر له الكهربا ، فانه كان جاهلا للحقيقة وهى أن من المستحيل إقامة السد الجديد الا اذا توافرت القوة الكهربية اللازمة من السد القديم ، اذ كانت فكرته تقوم على أن تحل محطة التوليد التى اقترحها فى السد الجديد محل مشروع أحمد ـ دونكين .

---

(١) الفدان هنا هو الفدان الانجليزى ، وهو يقل عن الفدان المصرى .
(المعرب)

وراح دانينوس بعد مزيد من الدراسات التي أجراها بالتعاون مع ويليامز وجاليولى ، يضع مشروعه بكثير من التفصيل ، وأطلق عليه اسم مشروع دانينوس لعام ١٩٤٩ ، وقدمه الى مجموعة دولية كان قد الفها فى عام ١٩٤٨ دون اشراك أى من المصريين لوادى النيل • وتمكن من الحصول على التعاون من الاستاذ الفرنسي اوبرت ، والاستاذ الانجليزى سى•ام • وايت ، والاستاذ الايطالى جى دى ماشى ، وألف منهم مجموعة من المستشارين الدوليين • وكتب اليه المستر بلاك ، زميل هيرست وسميكة رسالة فى شهر مايو من عام ١٩٥٠ يقول انه قد « مهد السبيل بصورة صحيحة لاجراء مسح يقرر ما اذا كانت هناك طاقة فى الوادى الى الجنوب من اسوان لاختزان المياه على أساس مبدأ الخزن القرنى » • وكان الدكتور هيرست قد أوشك على الانتهاء من وضع كتابه « النيل » ، عندما قرأ تفصيلات مشروع دانينوس • وراح يضمن كتابه العبارات التالية ••

«ولو أمكن تحقيق هذه الفكرة لأمست حلا بسيطا لكثير من المشاكل المعقدة ولأوجدت السبيل لتجنب الكثير من المشاكل السياسية • ولكن هذا الحل فى تجنبه لبعض المتاعب ، يواجه كالعادة متاعب أخرى • ولا شك فى أن رسالة دانينوس تماثل الى حد ما البرنامج التكهنى الذى تضعه احدى الشركات ، والذى تبالغ فيه فى الحديث عن الفوائد ، وتتجاهل الكثير من المتاعب • ولا شك فى أن تقديم المشروع فى صورة نهائية ، ما زال بعيدا كل البعد فى هذه المرحلة، اذ أن هذه الصورة لابد أن تحسب المكاسب والمخاسر حسابا دقيقا، وان ترفق حساباتها بتصميمات تفصيلية عن المشاريع الانشائية • » ولكن هيرست انهى عباراته على أى حال قائلا بأن المشروع « يستحق الدرس والفحص ، لرؤية ما اذا كانت المتاعب بالغة الهول كما تبدو للوهلة الاولى » • وبعث جون لوسيان سافيج ، المهندس الامريكى البارز ، والذى أدى دور المستشار لعدد كبير من المشاريع الضخمة ، بينها مشروع وادى تينيسى فى الولايات المتحدة ، برسالة الى دانينوس فى عام ١٩٥١ ، يعرض عليه فيها العمل كمشاور شخصى له • ووافق على القيام بزيارة اسوان ابان جولة عالمية كان يعتزم القيام بها •

وعاد دانينوس الى أوربا فى عام ١٩٥١ وأعلن فى مؤتمر صحفى عقده هناك فى الثلاثين من مارس، حسب رواية وكالة رويتر، ان خبراءه الدوليين قد أكدوا فكرته بامكان اقامة خزان ضخم وراء السد القديم فى مصر • وأضاف انهم مع تقديرهم لاهمية المشروع فى تطوير النيل كله ، بينوا أن المشروع يعتبر تكملة لا بد منها لأية مشروعات أخرى ، وانه

يستحق ايلاءه الاولوية نظرا للنتائج الفوريه التى يضمنها . وقال دانينوس أيضا ، ان هناك مجموعه دوليه من المؤسسات الصناعيه على استعداد للتقدم بعرض شامل لتنفيذ المشروع كله ، بما فيه بناء السد ومحطة التوليد الكهربية واستصلاح الاراضى الجديدة ، واقامه عدد من المشروعات الصناعية المرتبطة به . واقترح دانينوس عند عودته الى مصر اشراك شركة مصرية فى هذه المجموعة على أن يقوم بتأسيسها مع محمد طاهر من أبناء الاسرة المالكة ، ورئيس الجمعية الزراعية المصرية الملكية . وراح ينشد العون الفنى والمالى أيضا من الأمم المتحدة والبنك الدولى ، والنقطة الرابعة الامريكية .

وبالرغم من اتصالات دانينوس المستمرة برئيس وزراء مصر ووزير ماليته ، الا أن الحكومة المصرية لم تبد أى اهتمام بمشروعه ، ولم يكن فى وسعه أن يحقق أى تقدم فى طريق التنفيذ دون تأييدها الكامل . وكان الخبراء الدوليون قد بينوا وجهات نظرهم فى مشروعه وأرقامه ، ولكن دعمهم لم يكن ليعدو فى هذه المرحلة مجرد الموافقة على أن هناك قضية أولية تستحق الدراسة كما ذكر الدكتور بلاك . ولم يكن فى وسع المجموعة الدولية أن تفعل شيئا سوى الموافقة على دراسة امكان القيام بالمشروع . ولم يكن فى وسع المنظمات الدولية أن تقدم أى عون لاقتراح يقدمه مجرد فرد واحد .

وكانت مصر تمر على أى حال ، فى هذه الآونة بفترة شديدة الاضطراب . فقد جاء مشروع دانينوس متزامنا مع حرب فلسطين . واغتيل النقراشى فى عام ١٩٤٨ ، وبدأت حكومة الوفد فى عام ١٩٥١ ، حرب العصابات ضد البريطانيين فى منطقة القناة ، ووقع حريق القاهرة فى عام ١٩٥٢ . وسقطت حكومة الوفد . وكانت مصر تتعثر فى سيرها فى ظل حكامها ، ولم يكن فى وسع ما ساد البلاد من انحلال ، أن يوفر الجو لخلق أعظم تمثال حى فى تاريخ مصر الطويل ومن اعظم التماثيل الحية فى تاريخ العالم كله . وهكذا حالت الاحداث . بين دانينوس ثانية وبين أى أمل فى حمل الحكومة على تبنى مشروعه . ومرت فكرة احداث تبدل شامل فى مستقبل البلاد كلها ، دون ان يلحظها احد ، لا فى العالم ولا فى مصر نفسها . ومع ذلك فقد ظل هناك عدد من المهندسين الذين ألهب المشروع خيالهم ، وعندما قامت حكومة الثورة ، وتوافر لاعضائها الشبان الوقت بعد انقضاء الاشهر الأولى من تسلمهم الحكم ، للتفكير فى مستقبل البلاد ، كان مشروع دانينوس ، هو الذى استبد باهتمامهم .

ولكن لم يكن هنـاك الآن أى مكان لعجوز النيل القـــديم ادريان دانينوس . وها هو الآن يواصل الحديث فى القاهرة عن مشروعه لاقامة المجتمعات الزراعية الجديدة الهادفة الى انقاذ العالم من المجاعة . وبالرغم من انه تخلى فى النهاية عن مشروعاته لتطوير النيل للآخرين ، فانه مازال يبحث عن فرصة فى اقامة نظامه الجماعى على مساحات شاسعة من الارض على الشاطىء الغربى لمصر . واذا ما ذكر السد العـالى امامه ، فان عقل هذا الرجـل العجوز لا يلبث أن ينشط ، ويوجه النقـد لاهمال موضوع فتح السد واغلاقه للملاحة (١) ولكنه يتطلع الى المشروع كمتفـــرج ، لا يعدو مكانه فيه مكان أى رجل فى التاريخ .

وكثيرا ما تسمعه يقول ... « لست فى حاجة ـ وقد بلغت الثانية والسبعين من عمرى ـ الى أى مال أو طموح » .

---

(١) فسر المختصون فى وزارة السد العالى هذا التناقض بأنه لم يكن نتيجة اهمال ، وانما كان نتيجة دراسات عميقة أثبتت لا عملية الفكرة التى نادى بها دانينوس .

(المعرب)

٣ القرار والصراع

كانت مصر فى عام ١٩٥٢ تخلو من الحوافز الخلاقة • وكان ثمة احساس طاغ من التشاؤم يسود البلاد ، وكان الشعب وقد مل حياة القصر الملكى والباشوات ، كثير التشكك فى مستقبله ، وكثير اليأس منه • وكانت الحماسة الوطنية التى ألهبتها الحرب الفدائية ضد البريطانيين فى الخريف الماضى قد ذابت فى اجواء المؤامرات السياسية الشريرة التى تحاك بين الساسة والملك • وأدى استشهاد عدد من رجال البوليس الاضافى الذى غررت بهم ادعاءات الساسة عن الحرب الوطنية ، ضد المستعمرين(١)، الى اشعال نيران التذمر على الصعيد الشعبى فى شهر ينـاير ، وراحت القاهرة تحترق بأيدى أبنائها فى سورة من سورات الغضب • (٢) وعندما خرجت القاهرة تنضو عن نفسها آثار الحريق ، عاد الزعمـاء السياسيون الى لعبتهم المفضلة • وراحوا يعدون الشعب بعهد جديد ، تطهر فيه البلاد من الفاسدين والعجزة ، ويعاقب فيه المرتشون أشد العقاب • ولكنهم مالبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى ، بعد أن شملت عمليات التطهير حفنة من الموظفين الذين لم يتعرض أى منهم لأى عقاب • وعندما سقطت الحكومة فى الصيف ، لم يكن من السهل على الملك الذى أقالها أن يؤلف حكومة جديدة تحل محلها • ويبدو أن السياسيين أنفسهم كانوا قد ملوا من لعباتهم •

وكانت القدرية العميقة التى سيطرت على البلاد والتى تناولت مستقبلها سببا واضحا فى حالة عامة من السخط سادت الشعب كله •

---

(١) لم يكن موقف رجال البوليس فى الاسماعيلية والذى أدى الى استشهاد عدد كبير منهم نتيجة التقرير كما يقول المؤلف ، وانما كان ثمرة الوطنية اللاهبة التى سيطرت على الشعب المصرى والتى دفعته الى محاربة الاستعمار بجميع الوسائل .

(٢) أثبتت الايام اللاحقة أن حريق القاهرة ، كان متعمدا • وانه كان بفعل العناصر المدسوسة التى كان همها مجرد خلق حالات من الفتنة ، والاضطرابات لا تخدم أغراض ثورة منظمة ، وانما تخدم أغراضا مشبوهة •

(المعرب)

وكان جميع المفكرين المصريين يعرفون خطورة الفاقة الشريرة التى كانت تزحف على البلاد طيلة النصف قرن الأخير ، ويعرفون أن الحكومات المتعاقبة لم تبذل أى جهد فعلى لوقف هذا الزحف • وبدت البلاد وكأنها تجتر مخزونها قبل أن تتضور جوعا ، ولم يظهر هناك أحد يضع مشروعا أو مجموعات من المشروعات لانقاذها •

وكان الأمل الوحيد الباقى معلقا على الجيش • وبدت قوة هذا الجيش وانه السلاح الوحيد الذى اعتمدت عليه الدولة ، عندما شب حريق القاهرة فى يناير ، وخيم الصمت الذاهل على المدينة • وسرعان ما انتشرت الشائعات التى لم تستطع أية رقابة الحد من انتشارها ، بأن الجيش يقف الى جانب الشعب • وسمع بعض الصحفيين الموثوقين بوجود حركة للضباط الأحرار ، وان لهذه الحركة مخابراتها الخاصة التى تواصل تزويدها بكثير من الأسرار ، وامتلأت الصحف ببعض الاشارات الغامضة التى تتحدث الى أولئك الذين يستطيعون قراءة مابين السطور • وسمع الملك بأن هناك مؤامرة تحاك ضده ، ولما كان قد عجز عن استخدام الجيش ضد نفسه ، فقد بادر الى تأليف منظمة سرية تضم بعض الضباط الذين تعهدوا له بتدمير أعدائه والقضاء عليهم •

ولكن الملك فشل فى تدبيره ، وقامت الثورة فى الثالث والعشرين من يوليو ، وتسلم الضباط الأحرار مهمة الحكم فى البلاد • وانهارت الدولة التى كان التعفن قد استبد فى لبابها ، دون أية مقاومة ، وتحت وطأة الضربة الأولى • وأبحر الملك السابق فاروق وأسرته بعد ثلاثة أيام من الاسكندرية الى المنفى الذى يستحقه • وهكذا بدأت ثورة مصر •

وغمر الفرح شعب مصر ، وان لم تكن الأحداث قد أحدثت أى تبدل فى أوضاعه فى البداية ، وكان يجهل كل شىء عن قادة الثورة(١) • وراح أولئك الذين استبد بهم التفكير فى صبيحة يوم الثورة يتساءلون عما تستطيع هذه الحفنة من الضباط الذين لا خبرة لهم فى شئون الحكم أن تفعله تجاه مشاكل ظلت تتحدى الحكماء طيلة أكثر من قرن من تاريخ

---

(١) لا أدرى ما الذى يقصده المؤلف بقوله أن أحداث الثورة لم تحدث أى تبدل فى أوضاع الشعب فى البداية • فأى تبدل فى الوضع الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها • ولكن الثورة ، بخلاصها من نظام الحكم الفاسد القائم ، أوجدت الجو الصالح لخلق الثورة الاجتماعية التى تضمن حدوث التبدل الثورى والجذرى فى حياة الشعب المصرى ، عن طريق تصفية الطبقات المستغلة الحاكمة • وقيام حكم من الشعب وبالشعب والى الشعب •

(المعرب)

مصر الحديث(١) • ولكن الضباط الأحرار حزموا أمرهم منذ البداية ، والتزموا بفكرة سيطرت عليهم ، وهى ان لابد من رفع مستويات الحياة فى مصر ، وان فى الامكان رفعها • ولقد صدر هذا الوعد منذ البداية دون دراسة للحقائق ، ونتيجة الايمان بالعقائد الوطنية المصرية التى تقول بان فى الامكان انقاذ المصريين العاديين من حياة الفقر التى يحيونها ، بمجموعة من اجراءات التنمية الصناعية والاصلاح الزراعى •

ولقد أطلق الضباط الأحرار على هذا الوعد ، عن حق ، اسم الهدف، اذ لم تكن لديهم فى البداية أية سياسة مقررة متكاملة ، أو برنامج مدروس لتحقيق هذا الهدف • ولم يكن يربط قادة الثورة الى بعضهم أكثر من مجرد تطرف عام • وكانت هناك مجموعات متعددة الصور والأشكال من النظريين والمثاليين الملتزمين بأهداف وضعوها لأنفسهم ، دون أن يحددوا بجلاء ووضوح طرق تحقيقها ، وهم يجمعون بين الاخوان المسلمين الذين يعملون على اقامة دولة دينية اسلامية تتنـــافى مع مقومات العصر وبين العنـــاصر المشايعة للشيوعية ، الذين يسيرون على منحى عصرى فى المجال الوطنى ، والذين يريدون تحطيم « التقوقع » الدينى لخلق دولة اشتراكية علمانية . وبين نواة من الذرائعيين الذين تهمهم الآلات أكثر من النظريات المذهبية • وكان جمال عبد الناصر ، قائد الثورة والأول بين رجالها فى مجلس القيادة ، يمت الى فئة المتطلعين الى اقامة دولة عصرية حديثة •

وكان أول ما قامت به الثورة ، اصدار قانون الاصلاح الزراعى ، الذى حدد الملكية الزراعية بمائتى فدان • ولقد أيد جميع الوطنيين هذا المخطط للاصلاح ، ولكن بالرغم مما قد يحققه من منافع لبعض المصريين فانه ما كان ليغنى البلاد كلها ويثريها • فلقد كانت مصر فى حاجة الى الماء لزراعة المزيد من الأراضى ، وكانت فى حاجة الى المزيد من القوة المحركة ، لادارة المزيد من الآلات ، والى المزيد من هذه الآلات التى تدار ، ومن المواد اللازمة لتشغيل هذه الآلات • أجل كانت مصر فى حاجة سريعة الى كل هذه الأمور وفى وقت واحد • وعادت الى ذاكرة الضباط الأحرار الأنباء التى كانوا قد سمعوها عن مشروع ضخم يؤمن سد هذه المتطلبات كلها • وراحوا دون أن يعوقهم الافتقار الى النقد أو المكانة السياسية ، يخرجون

---

(١) لكن هؤلاء الحكماء كانوا يفتقرون الى الاخلاص للشعب ، نظرا لمصـــالحهم الطبقية ، ولأن حل هذه المشاكل حلا جذريا ســليما ، كان يعنى الاضرار بمصـــالحهم الذاتية •

(المعرب)

من خزائن الوزارات التى يعلوها الغبار كل مافيها من بحوث عن الحلول لمشاكل البلاد ، والتى كان الخونة والمخربون قد خلفوها هناك . على ضوء ما اعتقدوه ، لتتعفن وتبلى ، وراحوا يخرجون على الفور بمشروع السد العالى · وكان هذا المشروع مغرق الطموح فى أبعاده وفى متطلباته الهندسية وفى تكاليفه ، حتى ان اسراعهم فى الاقبال عليه كان نتيجة الايمان أكثر من الدراسة · ولكن الأمل كان يغمر نفوس هؤلاء الشبان الذين يبادرون الى العمل أكثر من مبادرتهم الى الابتهال · وقد عنى المشروع انفاق أكثر من اربعمائة مليون جنيه لاقامة أعظم سد فى العالم على نهر النيل ، على أرضية من الرمل والصخر تبلغ ثلاثمائة قدم فى عمقها · كما عنى المشروع أيضا بناء أكبر محطة لتوليد الكهربا فى العالم وتطوير الصحارى والحقول تطويرا شاملا ·

وكان هناك كثيرون فى العالم من المتشائمين الذين يقولون ان السد لن يبنى ولا يمكن أن يبنى · فقد بدا فى ذلك الوقت وكأنه طموح جرىء من حكومة كانت لا تزال على الصعيد الدولى على شفير الافلاس المالى ، وتقودها جماعة من العسكريين الذين لم يكن الرأى العام الدولى يوليهم الكثير من الاحترام · وكان الكثيرون فى العالم يقولون ان تفكير الحكومة فى بناء هذا السد ينبع من خداع النفس والانوية ، اذ هل يعقل أن يقام سد فى منطقة تعتبر من أكثر مناطق العالم حرارة وجدبا ، بينما هناك مشروع التخزين القرنى فى البحيرات الافريقية ، لا يزال قائما ، وقد أقر الخبراء مخططاته ، واعتبروها السبيل الأمثل للسيطرة على النيل من منابعه الى مصبه فى البحر ؟ وعندما أعلن عبد الناصر أن مصر لن تسمح لأى شىء بأن يقف حائلا فى طريق بناء السد العالى ، راح هؤلاء الناقدون فى الخارج يقولون ان عبد الناصر يريد أن يقيم «هرما» ، يبز به جميع الاهرام السابقة التى أقامها الفراعنة · وقد استند هؤلاء الشانئون فى دعاواهم هذه على العبارات الملتهبة التى استخدمها فى وصف المخطط ، ولكن الحقيقة ان مثل هذا المشروع العظيم كان كافيا لالهاب خيال كل من يحس بأن فى قدرته أن يقيم مثله · ولا شك فى أن ما حفز عبد الناصر وصحبه على بذل الجهود الضخمة لتحقيق المشروع ، كان نابعا من الرغبة الساعرة فى أن يخلفوا لمصر هذا الأثر العظيم الخالد لثورتهم ·

يضاف الى هذا أن مايسود البلاد من فاقة ، وما يسيطر عليها من طموح ، كان الحافز الأقوى لبناء السد ، ولعل هذا هو الذى دفع آخرين أقل تطلعات من قادة الثورة الى الايمان بضرورة بناء السد · فلقد ذكر

عبد الجليل العمرى ، وزير مالية حكومة الثورة فى عهدها الأول ، والذى عمل كثيرا على انقاذ البلاد من الافلاس ، ان بناء السد العالى أمر حيوى لمصر ، وان أسواق مصر وحوانيتها ستخلو عند الشروع فى بناء السد من سيارات أمريكا الفارهة وثلاجاتها الضخمة ، ومن منسوجات باريس وروما الحريرية المترفة ، ومن أجواخ انجلترا وأصوافها • وكان كوكيل لوزارة المالية قبل الثورة قد شاهد تبديد الثروات المصرية فى الخارج ، وانفاق الملايين من الجنيهات الاسترلينية والعملات الصعبة الأخرى ، ورأى ان على أثرياء مصر أن يؤمنوا نفقات السد بطريق أو بآخر ، وقال الدكتور العمرى للمؤلف أن بناء السد يعلن بداية عهد قاس لهؤلاء الأثرياء ، ولكن أوضاع جماهير الشعب ستتحسن منذ البداية أى من الأجور التى سيتقاضاها العاملون فى اقامة السد •

وحزم قادة الثورة أمرهم على الشروع فى العمل الجدى لاقامة السد العالى ، بعد أقل من شهرين من وصولهم الى الحكم • وراحت أفكارهم تقفز عبر السنوات اللازمة للانشاء ، لتتصور ذلك اليوم الذى سيمثل فيه السد الحل المبسط المدهش لمشاكل مصر القديمة والطويلة ، والمخرج لها من ورطاتها والخطوة العظيمة الأولى فى طريق مستقبل زاهر كانت الثورة قد وعدت به شعبها • وعندما نشر الاستاذ وولت ويتمان روستو فى عام ١٩٦٠ نظريته فى صحيفة الايكونوميست والقائلة بانفى الامكان عن طريق استثمار بعض الرساميل الكافية نقل أية بلاد الى مرحلة « المبادرة الاقتصادية » التى تستطيع الانتقال منها الى مرحلة الخلاص من عيش الكفاف ، راح المسئولون فى مصر يؤكدون ان هذه النظرية تمثل تجسيدا لما تحاول الثورة القيام به • فالسد نفسه لن ينقل مصر من حالة الفاقة الى الثراء ، وذلك لأن الزيادة فى عدد السكان فى الحقبة التى ستنقضى ابان بناء السد ستكون كافية لاستنفاد فوائد الأرض الجديدة التى ستتحول الى الزراعة وامتصاصها • ولكن أهميته تبرز فى انه سيوفر الوقت والامكانات للتنمية ، وذلك لأن مصر فى حقبة الانشاء ، ستخلص ولأول مرة فى تاريخها منذ بداية القرن الحالى ، من خطر الافقار المستمر على صعيد الانتاج الزراعى • يضاف الى هذا ان السد سيؤمن القوة المحركة لبرنامج التصنيع الذى سيسير جنبا الى جنب مع التوسع الزراعى والذى سيؤدى الى رفع المستويات الحياتية فى البلاد • وستكون أية تنمية والحالة هذه ربحا صافيا للسكان • وهكذا بدا لقادة الثورة ان بناء السد العالى سيحول المستحيل الى ممكن •

ورفض هؤلاء القادة ، ولو لفترة آنية مشروع التخزين فى البحيرات

الافريقية • وبالرغم من اقرارهم بأن هذا المشروع قد يكون صالحا لمصر فى عالم يسوده النظام ، الا انهم كانوا يرون من الناحية العملية ان هذا العمل يعتمد على التعاون والتنسيق بين مصالح وأولويات قومية متعددة • فلقد انقضى أكثر من نصف مدة العشرين عاما التى استغرقتها مشاريع تطوير النيل عند شلالات اوين قبل أن يبدأ العمل فعلا فى هذه المشاريع• ولم يكن فى وسع مصر ولا فى قدرتها أن تسمح بانقضاء السنوات دون عمل ، اذ أن سكانها ـ وكانوا يزدادون بمعدل نصف مليـــون فى كل عام ـ فى حاجة الى التغذية • بينما فى وسعها أن تكون وحدها المسيطرة على مخطط اقامة السد العالى فى مدة محدودة على أراضيها •

وسيؤمن بناء السد للمصريين احساسا بالطمأنينة لم يكونوا قد عرفوه من قبـل • وكان اعتمادهم الكامل على انسياب المياه من الجبـال الافريقية الى بلادهم عبر نهر النيل ، يجعلهم فى خـــوف دائم من أى تدخل فى مجرى النهر • وكان السير ويليام ويلكوكس قد أكد هـذا الخطر فى نهاية القرن الماضى عندما بين ان سد منافذ بحيرة فيكتوريا ، سيرفع مستوى البحيرة بمعدل عشرين بوصة فى السنة ، ويجعل من السهل حرمان مصر من مياه الصيف لعشر سنوات أو خمس عشرة سنة متعاقبة • وكتب ويلكوكس يقول : « وتعتبر بحيرة فيكتوريا مفتاح النيل، وكل من يمسك بيده هذا المفتاح ، يتحكم فى مصائر مصر » • ولقـد تعرض السير ويليام نفسه للمحاكمة فى القاهرة عندما اتهم السير مردوخ ماكدونالد بتزوير مقاييس النيل ليبرر مشروع تنمية زراعة القطن فى السودان على حساب حاجات مصر من المياه • وكانت هذه المحاكمة نفسها ذروة أربع سنوات طويلة من شكوك المصريين فى ان بريطانيا تعد العدة للتضحية ببلادهم لحساب السودان • وفى وسع أى انسان أن يقول ان روح العصر ، لا تسمح ببقاء العالم صامتا وهو يرى المحاولات لتجـويع مصر ، ولكن قادة الثورة كانوا يقولون دائما ان البلاد لا يمكن أن تتهاون فى أمر سلامتها الحيوية اعتمادا على افتراض الفضيلة الدولية(١) • ووجد هؤلاء القادة تصديقا لرأيهم فى عام ١٩٥٦ ، عندما راح أحـــد أعضـاء

---

(١) أثبتت الاحداث اللاحقة أن قادة الثورة كانوا عـــلى حق فى رأيهم • فلقـــد حاولت الدول بمختلف السبل والوسائل تجويع الشعب المصرى بعـــد عدوان ١٩٥٦ ، وبمختلف أساليب الحرب الاقتصادية • ولو كان سلاح استخدام النيل لتجويع مصر سهلا فى ايدى هذه الدول لما تورعت عن استخدامه •

(المعرب)

مجلس العموم البريطانى يقترح ارغام عبد الناصر على الاستسلام فى موضوع تأميم شركة قناة السويس عن طريق تحويل مجرى نهر النيل من منابعه . وكانوا يرون ان بناء السد العالى ، سيزيل هذا الخطر ، اذ ان ما فى الخزان من مياه سيكون كافيا لتأمين المياه اللازمة لمصر الى أن يكون الرأى العام العالمى قد أجبر أولئك الذين يحاولون الاضرار بمصر على العدول عن تحويل النيل .

ورأى قادة الثورة ، بعد أن حزموا أمرهم على اقامة السد ، ان الحاجة ماسة للحصول على معونة خارجية فى موضوع تصميمات السد . وجاءت مشكلة فلسطين فى هذه الفترة العصيبة ، كعامل مساعد لهم ، بعد ان كانت فى عام ١٩٤٧ قد صرفت الأنظار عن مشروع دانينوس . فلقد وافقت حكومة ألمانيا الغربية فى شهر سبتمبر على دفع ثلاثة آلاف مليون مارك ألمانى الى اسرائيل كتعويضات على ما أنزله هتلر باليهود ، وعندما احتجت الدول العربية بشدة على هذا الاتفاق على اعتبار انه يدعم عدوتهم اسرائيل ويقويها ، راحت ألمانيا تتعهد كاجراء مضاد ، باعداد مشروع السد العالى .(١) وعهدت الحكومة الألمانية الى اتحاد هوشتيف ودورتموند بالقيام بالمهمة . (٢) وراح الاتحاد فى الثامن عشر من أكتوبر، وبعد أقل من ثلاث سنوات من قيام الثورة يقدم اقتراحاته الى الحكومة المصرية ، لاعداد المناقصات اللازمة للتصميم والتنفيذ ، ولتمويل بناء السد . ولم تضع الحكومة المصرية أى وقت ، فوجهت الدعوة فى الثانى والعشرين من نوفمبر الى الاتحاد لايفاد خبرائه الفنيين الى أسوان لاعداد المخططات .

***

واستغرق هذا العمل التحضيرى نحـوا من سنتين ، أعد الاتحاد ابانهما مخططين بالفعل . وأقر مجلس من المستشارين الدوليين فى شهر نوفمبر من عام ١٩٥٤ المخطط الثانى أو الملحق ، وعلق عليه بأن السد المقترح سيكون « أسلم ما يمكن بالنسبة الى تربة المنطقة ، والى السدود

---

(١) لا يمكن وصف هذا الوعد بالاجراء المضاد للتعويضات الالمانية لاسرائيل ، وذلك لأن تكاليف مثل هذه الدراسات والاعداد لا تعادل شيئا بالنسبة الى قيمة التعويضات الالمانية التى بلغت ألوف الملايين ، والتى كانت السبب المباشر فى دعم كيان اسرائيل الاقتصادى المنهار .

(٢) كان هذا الاتحاد يمثل شراكة بين مؤسستين هما مؤسسة هوشتيف اكتنجلشافت فى ايسيين ومؤسسة ايتشتال فلى دورتموريند . وقد ضمت الشراكة عددا كبيرا من خبراء المؤسستين فى الدراسات المائية والكهربية ، وفى التوربينات والمولدات، والمنشآت الصلبية . وكانت الشركة تعمل توجيه من مؤسسة هوشتيف .

(المعرب)

التى تملؤها الصخور والتى تستند الى الرواسب » • وكانت الحاجة ماسة الآن الى المال الذى كان ثمة افتقار شديد اليه • فلقد نضب ما كان لمصر من حسابات جارية بالاسترلينى ، والتى كانت تعتمد عليها فى مشترواتها من الخارج • وكانت الطبقات الحاكمة السابقة قد استنزفت ما كان لمصر من أرصدة استرلينية قدرت بأربعمائة مليون جنيه من أيام الحرب فى لندن ، فى بذخها وترفها ورحلاتها فى الخارج ، واتضح للحكومة المصرية ان ليس فى وسعها أن تبادر الى بناء السـد دون الحصول على معونة خارجية •

وكانت هذه المعونة على النطاق الذى يستلزمه بناء السد تعتمد على الثقة الخارجية التى لم تكن متوافرة ، فلقد نظرت الدول الكبرى الى رجال الثورة عند مستهلها والى المتحكمين فى مصير مصر بعين الحذر والشك ، اذ كانوا لا يمثلون فى نظرها حتى تلك اللحظة أكثر من جماعة انقلابية من ضباط الجيش • وكانت الثقة بالملك السابق وباشواته معدومة فى الخارج ، وكان خلفاؤهم يكثرون من الحديث عن الثورة ، وأثار هذا الحديث مخاوف الدول الكبرى من أن تكون وراء هذه الأحاديث سياسات خطرة • يضاف الى هذا ان الدوائر المالية ألفت أن تنظر الى النظم الثورية نظرة التشكك فى قدرتها على الاستقرار •

وأثبتت أحـداث السـنتين الأوليين من عهد الثورة ، ان الحكومة المصرية لم تكن استثناء لهذه القاعدة • ولقد ظهر عبد الناصر منذ بدء الثورة فى الصورة الصحيحة كقائد لها ، ولكن الجناحين المتطرفين من الحركة والممثلين فى اليساريين من ناحية والاخوان المسلمين اليمينيين من الناحية الاخرى مالبثا أن حاولا الانتفاض على قيادته • وبالرغم من ان انتفاضة اليساريين انتهت بسرعة وسهولة ، الا أن تحدى الاخوان المسلمين كان أكثر خطورة ، ونظرا لما كان للحركة من انتشار داخل مصر وخارجها فى البلاد العربية ، ولما كان لها من أجهزة ارهابية كانت تضم عددا من الخبراء فى أعمال القتل والتدمير • وطالب قادة الاخوان المسلمين الذين ادعوا لأنفسهم الفضل فى توليد الثورة ، أن يكون لهم حق « النقض » فى جميع القرارات التى تصدر عن الحكومة ، وعندما رفض عبد الناصر أن يعطيهم ذلك ، انتقلوا الى معارضة الحكومة بكثير من الشدة والعنف • وبلغت معارضتهم ذروتها فى الاضطرابات التى وقعت فى عام ١٩٥٤ ، والتى أدت الى قتل عدد من الناس •

وكان عبد الناصر ، يعرف كل المعرفة ميل الاخوان المسلمين الى العنف

والتدمير ، وكان يعرف أيضا ان لديهم مخزونات هائلة من الأسلحة والمتفجرات • ولكنه حزم أمره على ضرب الحركة لميولها التدميرية ، وكان يدرك خطورة خطوته هذه ، لما تتميز به حركة الاخوان من اقدام على محاولات الاغتيال • وجرت المحاولة فعلا على حياة الرئيس فى السادس والعشرين من أكتوبر فى الاسكندرية • ولكن فشل المحاولة ، قرر مصير الحركة • ولم يطل فجر ذلك اليوم حتى كانت غالبية قادة الحركة في السجن ، ولم ينقض أسبوع آخر حتى انضم اليهم المئات ، واعتقل الكثيرون قبل انتهاء حملة التطهير •

وأدت هزيمة الاخوان المسلمين الى استبعاد العناصر المغرقة في يمينيتها من الحكم ، لمعارضتها لقرارات مجلس قيادة الثورة ، ولاعتقاد هذه العناصر ان الثورة لا يمكن أن تمضى فى طريقها بدونها • وكانت هذه العناصر قد جعلت من نفسها أدوات مسخرة فى أيدى المعارضة •

واستتب الأمر أخيرا لقائد الثورة الفعلى ، جمال عبد الناصر • وقد جاء هذا التطور فى الوقت الذى كان فيه الخبراء الدوليون قد أعطوا قرارهم فى موضوع السد العالى • وأصبح أمر تقديم المعونة الخارجية لتمويل السد متوقفا والحالة هذه على تقييم الدوائر المالية العالمية لعبد الناصر ، لاسيما وان بعض الجهات دأبت على توجيه الاتهام اليه بالشيوعيةوبالتعصب الخطر والشديد • لكن تيار الرأى العام ، كان قد بدأ فى التحول الى مصلحته • فلقد عزز النصر الذى حققه على المتطرفين مكانته فى داخل البلاد وفي خارجها • وأدت الاجراءات التى قام بها ضد الشيوعيين الى بعث الطمأنينة لدى الدول الغربية الكثيرة الشكوك • وكان تصرفه فى النزاع مع بريطانيا حول موضوع قاعدة قناة السويس فى عام ١٩٥٤ دليلا على ما يتمتع به من نزاهة سياسية مشجعة •

وكان هذا النزاع مفتاح الثقة الدولية ، اذ كان من الواضح أن بريطانيا وأصدقاءها لن يقدموا المعونة لبناء السد طالما أن هناك احتمالا قائما فى نشوب نزاع مسلح حول موضوع منطقة السويس • وكان عبد الناصر حتى عام ١٩٥٣ يهدد « بهدم المعبد فوق رءوس الجميع » اذا لم يجل البريطانيون عن القاعدة ، وكان المتطرفون ينادون باستخدام القوة • ولكن عبد الناصر عاد فى عام ١٩٥٤ ، فاستأنف المفاوضات المنقطعة مع بريطانيا ، وتمكن بالرغم من معارضة الاخوان المسلمين الذين جعلوا من سياسته الجديدة المبرر لمحاولتهم الاعتداء على حياته ، من الوصول بها الى نتيجة ناجحة فى شهر أكتوبر • ولهذا كان في موقف ممتاز عندما

طلب المعونة الخارجية بعد اقرار مشروع السد العالى فى شهر نوفمبر • وكان مصير السد العالى معلقا فى كفة القدر أثناء صراعات العامين الأولين من الثورة ، اذ لم يكن فى وسع أى من معارضى عبد الناصر ، أن يحظى بالثقة الدولية اللازمة لتمويل المشروع •

وكان عبد الناصر شديد الاعتداد بنفسه والثقة بها • وكان موسم القطن ناجحا فى ذلك العام كل النجاح ، كما كان موسم الاشتاء فى مصر العليا قد بدأ • وعندما كان الادلاء يتولون ارشاد السائحين عند أسوان ، ويشيرون الى الخطوط البيضاء التى تحيط بضفتى النهر عند شلال أسوان كانوا يقولون لهم أن جبل السد العالى سيبنى هناك • وكان عبد الناصر قد أمر برسم هذه الخطوط ، حتى تغرق خيالات الناس فى تلك العظمة التى كان على ثقة من أن السد سيحققها للبلاد •

وليس ثمة من شك فى ان الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية وقد تابعت موضوع مرحلة التصميمات باهتمام زائد ، كانت تفكر فى موضوع تقديم المعونة ، وراح البنك الدولى يوفد خبراءه ، ليقرروا ما اذا كان السد سيؤمن لمصر المنافع الاقتصادية المتناسبة مع القروض التى تتطلبها عملية البناء • ولكن التقرير النهائى الذى أعده البنك لم يكتمل الا فى شهر فبراير من عام ١٩٥٦ ، وان كانت الآراء التى سادت ابان فترة الدراسة مشجعة الى الحد الذى ساعد على تشكيل شراكة دولية فى شهر سبتمبر من عام ١٩٥٥ ، هدفها القيام ببناء السد (١) وراحت الحكومتان البريطانية والامريكية تبلغان مصر انهما على استعداد لتقديم القروض للقيام بالمرحلة الأولى ، اذا جاء تقرير البنك الدولى فى صالح بناء السد •

وعندما صدر هذا التقرير ، تبين انه يعلن صلاح السد من الناحية التقنية (التكنولوجية) ، وانه سيمثل الظاهرة الطاغية على التنمية الاقتصادية المصرية فى غضون الحقبة التالية • وتقدم كل من البنك الدولى والحكومتين الامريكية والبريطانية بمذكرات الى الحكومة المصرية وعد البنك فيها باقراض مصر مائتى مليون دولار ، ووعدت الولايات المتحدة باقراضها خمسة وخمسين مليونا وبريطانيا خمسة عشر مليونا • وكان الهدف من هذه القروض كلها تمويل المرحلة الأولى من بناء السد ، وكانت مترابطه

---

(١) تألفت الشراكة الدولية من مجموعة من الشركات البريطانية والالمانية والفرنسية. (المعرب)

مع بعضها • وواصل اتحاد هوشتييف ودورتموند والمؤسسات الفرنسية فى المجموعة الدولية مفاوضة الحكومتين الفرنسية والألمانية لتأمين مساعدات مالية اضافية •

ونقل يوجين بلاك مدير البنك الدولى الى الدول المعنية بعد اجتماعه بالرئيس عبد الناصر ، انه تم الاتفاق على قضايا مهمة وذلك فى التاسع من فبراير • وخيل الى العالم لوقت ما انه تم تذليل الصعوبة المالية • ولكن الرئيس عبد الناصر مالبث أن تردد فى هذه المرحلة الدقيقة ، فقد خشى أن يكون العرض الامريكى ـ البريطانى مقتصرا على تمويل المرحلة الأولى ليس الا ، ثم تبادر الحكومتان الى فرض ضغطهما السياسى على مصر، عن طريق التهديد بوقف تمويل المراحل التالية ، فطالب بتعديل المذكرات المقدمة الى مصر بشكل يضمن تعهد الدولتين بالالتزام بعملية التمويل الى أن يتم بناء السد • ورفضت الدولتان اجراء هذا التعديل ، وانقضى ربيع عام ١٩٥٦ كله ، دون أن يعلن عبد الناصر قبوله أو رفضه للعرض •

وكان هذا القيد الذى فرضته الدولتان على الترتيبات المالية نابعا من هبوط الثقة بين الدولتين الغربيتين وبين مصر فى غضون عام ١٩٥٥(١) فلم يتحقق التعاون الذى كانت الدولتان تتوقعان نموه نتيجة اتفاق الجلاء لعـــام ١٩٥٤ ، ولم يكد العام ينقضى حتى اتضح للدولتين ان سياسة عبد الناصر فى الشرق الأوسط تتعارض مع مصالح بريطانيا التى كانت ترى ان على عبد النـــاصر أن يحصر اهتمــــامه فى الشـــئون المصرية ليس الا • (٢)

وكان السبب المباشر فى النزاع موضوع « الحزام الدفاعى » ، الذى يضم أربع دول هى تركيا والعراق وايران وباكستان ، والذى كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تشجعانه (٣) • وكانت فكرة هذا الحزام قد ولدت كجنين فى حلف عسكرى أقيم بين تركيا وباكستان حتى قبل توقيع اتفاق الجلاء عن مصر ، وقبل أن تظهـــر معارضة عبد النـــاصر العنيفة

---

(١) كانت الدولتان الغربيتان تريدان من مصر التبعية لهما ، ولكن سياسة الثورة الاستقلالية التى قامت على أساس اللاانحيـــاز أثارت حفيظتهما على مصر ، وجعلتهما تفقدان مايسميه المؤلف بالثقة فى الحكم المصرى .

(٢) اعتراف واضح من المؤلف بأن سياسة بريطانيا تقوم على معارضـــة الفكرة القومية العربية التى تجعل من مصر جزءا من الكل العربى ، وذلك لان مصالحها تتعارض مع أية وحدة عربية .

(٣) لم تكن بريطانيا وأمريكا تشجعان الحلف فقط وانما كانتا الموحيتين بعقده.
(المعرب)

لاشتراك العراق فيه • وكان عبد الناصر يأمل فى أن يكون الاتفاق الذى عقده مع بريطانيا نموذجا لتطوير العلاقات بينها وبين العراق ، بحيث يظل العراق خارج نطاق الحلف العسكرى ، ولكن هذا راح يشترك مع تركيا فى شهر يناير من عام ١٩٥٥ فيما عرف بحلف بغداد والذى مثل نواة نظام « الحزام الدفاعى الشمالى » •(١)

وكان عبد الناصر على حق عندما توصل الى الاستنتاج بأن ماتهدف اليه بريطانيا والولايات المتحدة هو الحد من نفوذه فى المنطقة • ورأى ان ما يحتاج اليه من سلاح للدفاع عن مصر ضد مطامع اسرائيل ، سيتحول الآن من الدول الغربية الى العراق بقصد استخدامه فى محاربة الاتحاد السوفياتى • وأدرك ان ميثاق الضمان الجماعى العربى الذى أراد أن يجعل منه أداة الدفاع عن المنطقة العربية سيظل مشلولا بسبب الافتقار الى المعونة فى السلاح • وراح يشن حملة ناجحة فى الوطن العربى على الحكومة العراقية ، بدت ابانها شكوكه ومخاوفه من بريطانيا •

وبادرت اسرائيل الى محاولة استغلال هذا الخصام لمصلحتها • وكانت حدودها مع مصر ومع قطاع غزة الذى تشرف عليه مصر ، قد نعمت بالهدوء منذ وقت طويل ، ولكنها راحت فى الثامن والعشرين من فبراير تشن هجوما بقواتها النظامية على مقر قيادة القوات المصرية فى غزة ، فقتلت عددا من المدافعين ، ومن النجدات التى هرعت لتقديم المساعدة • وكان هذا الهجوم سببا فى ازدياد الحاجة الملحة الى الأسلحة والى تجدد طلبات مصر التى كانت قد قدمتها منذ عام ١٩٥٢ الى الدول الغربية للحصول عليها • وراح عبد الناصر ينذر الغرب بأنه سيتجه الى الاتحاد السوفياتى لطلب الأسلحة اذا لم تلب الدول الغربية تلك الطلبات • واعتبرت كل من بريطانيا والولايات المتحدة هذا الانذار مجرد « تهويش » ، ولكن بريطانيا بادرت بعد هجومين آخرين ، قامت بهما اسرائيل ، الى تزويد مصر بكمية صغيرة من الأسلحة الممتازة بينها دبابات « الجلادييتور » ، وكانت حكومة ماقبل الثورة قد طلبتها فى عام ١٩٥٠ ، ودفعت قيمتها • ولم تكن هذه الكمية طبعا لتفى بمتطلبات عبد الناصر ، وراح يفاجىء الدول الغربية فى شهر سبتمبر باعلانه عن عقد صفقة السلاح التشيكى التى تم التفاوض عليها عن طريق الاتحاد السوفياتى •

---

(١) انضمت باكستان وايران وبريطانيا الى الحلف ، كما أصبحت الولايات المتحدة شريكة فيه •

(المعرب)

وكانت علاقات مصر بالاتحاد السوفياتي تسير في طريق التحسن المستمر منذ أمد ما • وكان عبد الناصر قد عقد صفقة بترولية مع روسيا في عام ١٩٥٤ ، وارتفعت نسبة ماتستورده هذه ودول الكتلة السوفياتية من القطن المصري • ووافق شواين لاي ابان انعقاد مؤتمر باندونج في شهر مايو من عام ١٩٥٥ على أن تبتاع الصين ماقيمته عشرة ملايين جنيه من القطن • وتضايقت الدول الغربية من هذا الاتجاه ، واعتبرت صفقة السلاح أمرا في منتهى الخطورة ، اذ مثل بداية مرحلة جديدة في رأيها من التعاون والنفوذ السوفياتي في المنطقة • (١)

وتمت صفقة الأسلحة في وقت كانت فيه بريطانيا والولايات المتحدة، قد عرفتا بأن خبراء البنك الدولي سيقدمون تقريرهم في صالح تمويل السد العالي ، وكان عليهما والحالة هذه أن تقررا ما اذا كانتا لا تزالان على استعداد للاسهام في تمويل المشروع في ظل هذه الظروف الجديدة • ولم يكن الرأي العام في أي من البلدين مؤيدا لمثل هذا الاتجاه ، اذ أصبح الناس في الغرب يعتبرون عبد الناصر أقوى مؤيدي روسيا في الشرق الأوسط وعملائها • (٢) وكانت هناك من الناحية الأخرى أهمية سياسية كبرى لتمويل السد ، كضربة مقابلة لصفقة السلاح التشيكي ، وكان هناك كثيرون يؤيدون ضرورة الاستمرار في العملية • وهكذا قدم العرض في الوقت المناسب ، ولكن الدوافع الغيرية التي كانت وراءه في الماضي ، اختفت الآن تماما • وهكذا أصبح السد العالي من مشاكل صراعات الحرب البـاردة •

ولم يتجاوب عبد الناصر مع الايماءة الجديدة ، كما دلل على ذلك رفضه للمذكرتين الغربيتين في شهر فبراير • وازدادت علاقاته بالسفير السوفياتي ودا في غضون ذلك ، كما حل التباعد والجفاء بينه وبين سفيري بريطانيا والولايات المتحدة • وكانت بريطانيا تواصل اجلاء قواتها عن منطقة القناة طبقا لاتفاق عام ١٩٥٤ ، ولكن هذا الاجلاء ، لم يترك أي أثر

---

(١) كان الادعاء بأن صفقة السـلاح التشيكي مثلت بداية مرحلة من النفـوذ السوفياتي في المنطقة العربية ، تعبيرا حقودا ومضللا عن غضب الدول الغربية على تحطيم احتكار السلاح الذي كان يهدف دائما الى تقوية اسرائيل على حساب العرب ، وعـدم تمكينهم من الدفاع عن أنفسهم •

(٢) ظل هذا الاتهام الكاذب يسيطر على أجهزة الاعلام في الغرب أمدا طويلا • ولقد جرى العرف في الدول الغربية دائما على اعتبار كل من لا يشايع الغرب في سياساته ، عميلا للاتحاد السوفياتي •

(المعرب)

فى تيار العلاقات المتوترة بين مصر وبريطانيا • ولم يحل شهر مايو حتى كان الرئيس عبد الناصر يعترف بالصين الشعبية •

وقد أغضب هذا العمل الرأى العام فى الولايات المتحدة ، وأثار سخط المستر دالاس وزير خارجية أمريكا القوى • ورأى هذا أن عبدالناصر تصرف بصورة متعمدة ، تصرفا يتعارض مع المبادىء الأساسية للسياسة الامريكية فى آسيا ، وأكد بذلك الرأى السائد فى دوائر الكونجرس والحكومة الأمريكية بأن أمريكا لن تكسب شيئا من مصانعته • ولاحظ أحمد حسين سفير مصر فى واشنطون هذا التيار الجديد المعادى لمصر ، فأسرع الى القاهرة محاولا اقناع عبد الناصر بأن يقبل عروض القرض للسد العالى على الفور ، وقبل أن تضيع الفرصة •

وأبطأ عبد الناصر فى اعلان قبوله ، (١) ولكنه راح أخيرا وبعد أن تأكد من يوجين بلاك مدير البنك الدولى من أن العروض لا تزال قائمة ، يعلن موافقته فى شهر يوليو ، وأمر أحمد حسين بالعودة الى واشنطن ليعلن قبول المذكرتين السابقتين دون أية اشتراطات جديدة • ولكن الوقت كان قد فات على ذلك ، اذ أعلن دالاس سحب العرض الأمريكى ، وأضاف أن التطورات التى وقعت بعد اصداره لم تعد مواتية لنجاح المشروع • ولما كانت العروض كلها مرتبطة ، فقد بادرت بريطانيا والبنك الدولى الى سحب عروضهما •

وهكذا لم يعد المال متوافرا لبناء السد العالى •

***

ورد عبد الناصر المتألم على هذا بتأميم شركة قناة السويس ، معلنا ان عائدات القناة ستستخدم فى بناء السد • وكان هذا مستحيلا فى الظاهر ، اذ حتى لو كانت العائدات كافية ، لم يكن ثمة احتمال فى أن تجازف أية مجموعة من المؤسسات الهندسية الدولية بمواردها فى مثل هذا المشروع الضخم ، فى بلاد صورت آن حقا وان خطأ على انها مشايعة للشيوعية • وسرعان ما انحلت الشركة الدولية التى كانت قد ألفت لبناء السد ، وذلك نتيجة سحب عروض التمويل من الدول الغربية •

---

(١) يحاول المؤلف القول بأن تباطؤ السيد الرئيس فى اعلان قبول العرض هو الذى دفع أمريكا الى سحب عرضها ، مع أن جميع الذين كتبوا فى الموضوع وبينهم أنطونى ايدن نفسه فى مذكراته ، اعتبروا أن خطوة دالاس كانت متعمدة ومدروسة ومقررة منذ أمد ما وذلك كوسيلة للضغط على مصر ، والتشفى الحاقد منها •

(المعرب)

وأدى تأميم القناة بدوره أيضا الى أزمة السويس التى انتهت بالعدوان الانجليزى ـ الفرنسى على مصر . (١)

وهكذا رأى عبد الناصر ان الحرب قد حلت محل المساعدات الغربية. ولكن الحقيقة تظل قائمة وهى ان احتياجات السد العالى لم تكن لتبرر غضبه (٢) ولا الضربة القوية التى وجهها دالاس . فمصر لم تكن فى حاجة فورية الى القروض الغربية التى تم سحب عروضها ، وذلك لأن برامج البناء كانت تعتمد على اقامة محطة التوليد الكهربية فى أسوان اللازمة للبناء ، وكان العمل فى اقامتها لم يستكمل بعد .

وكان مخطط اقامة هذه المحطة ، الذى استنفد الكثير من وقت ادريان دانينوس وتفكيره فى الماضى ، قد ظل يمثل الشغل الشاغل لمؤسسة كنيدى ودونكين الهندسية ومؤسسة فى.بى.بى السويدية ، دون أن تصل فيه الحكومة المصرية الى أى قرار . وكانت المؤسستان منذ عام ١٩٥٠ قد اختارتا أحد التصميمات ، وعرضتاه فى مناقصة علنية ، ثم قبلتا أدنى هذه العروض تكلفة ، دون أن تؤمنا له الأموال اللازمة . وعادت هيئة الخبراء والمؤسسة المصرية لتوليد الطاقة الكهربية بعد قيام الثورة، فاختارت عرضا جديدا أقل تكلفة من العرض السابق ، وأقرت حكومة الثورة هذا العرض فى الثانى من نوفمبر . وتم التعاقد على الأعمال الهندسية . والبناء فى شهر فبراير ، ولم تحل نهاية عام ١٩٥٥ حتى كانت الأعمال الأولية فى المشروع قد انتهت بنجاح . وكان لابد من استكمال اقامة المحطة ، عندما سحبت عروض التمويل، وهكذا كان لابد من انقضاء بضع سنوات أخرى قبل الشروع فى الأعمال الضخمة فى المرحلة الأولى من بناء السد .

وكان من الصعب تقدير الوقت الذى كان فى استطاعة عبد الناصر ان يؤجل فيه بناء السد العالى ، وذلك لان مشكلة السويس نفسها

(١ ، ٢) يحاول المؤلف هنا أن يحصر العدوان فى الدولتين الغربيتين دون أن يربطه بالعدوان الاسرائيلى ، ليستبعد بصورة لامباشرة وجود التآمر على العدوان الثلاثى الغادر ، مع أن جميع الادلة التى تكشفت فى السنوات الاخيرة ، بينت بمنتهى الوضوح والجلاء ، ان المؤامرة الثلاثية هى التى قامت بالعدوان الآثم تماما كما حدث فى عام ١٩٦٧ وان اختلفت بعض الدول المشتركة فى العدوانين .

(المعرب)

فرضت عليه بعض التأجيل . وكانت المؤسسات الفرنسية والبريطانية والالمانية والسويدية والسويسرية والايطالية تعمل فى مشروع اقامة محطة التوليد الكهربى فى اسوان . وبادر الفرنسيون الى سحب عمالهم من المشروع . واستمر العمل ، وحل المهندسون المصريون محل الفرنسيين . ولكن بريطانيا وفرنسا قطعتا علاقاتهما التجارية والمالية مع مصر ، ورفضتا شحن المعدات الضخمة اللازمة للعمل ، كما وجدت مصر صعوبة بالغة فى الحصول على قطع الغيار اللازمة من بريطانيا . وفرضت هذه العقبات تأخيرا فى العمل لم تقل مدته عن سنة كاملة . ومع ذلك فان القوة المحركة اللازمة لبناء السد ، ما كانت لتتوافر قبل عام ١٩٦٠ حتى ولو لم يقع ذلك التأخير .

٤ روسيا تبادر إلى النجدة

مثل عام ١٩٥٧ ، سنة من التصريحات الجريئة والخزائن الخاوية في مصر ، وارتفعت اصوات التهليل بالنصر عالية فى البلاد ، معلنة اذلال بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، التى كانت قبل بضعة اسابيع ، قد بادرت الى الهجوم بجرأة للاستيلاء على القناة ، وللاطاحة بحكم الرجل الذى سخر من الدول الكبرى • وانسحبت القوات البريطانية والفرنسية، قبل ان تستقبل العام الجديد فى مصر ، بينما كان الاسرائيليون ينسحبون متبرمين الى حدودهم الصحراوية السابقة • وكانت الأمم المتحدة فى نيويورك مشغولة فى وضع الخطط لاعادة فتح القناة التى كان المصريون قد اغلقوها ، وهكذا كسبت مصر الحرب على بعد خمسة آلاف ميل من ميدان القتال ، وظل الرئيس عبد الناصر ، يقف بثبات فوق منطقة القناة •

ومع ذلك فقد ظل العالم الجديد الذى وعد به شعبه قابعا فى عالم الخيال حتى تلك اللحظة • واذا كانت الجراح التى خلفتها الحرب بمعاييرها المادية قليلة ، فقد كانت الجراح العاطفية التى نزلت بمصر كثيرة ، اذ ظلت البلاد مفتقرة الى الاصدقاء • وبالرغم من اسهام الولايات المتحدة فى تحقيق النصر لعبد الناصر فى الحرب التى اشتركت فى اشعال نيرانها ، فانها ظلت تتذكر كرهها لعبد الناصر ، ولذا فلم تكن راغبة فى استئناف العلاقات الاقتصادية السابقة مع مصر • وكانت بريطانيا وفرنسا اللتان انقطعت علاقاتهما الدبلوماتية مع مصر ، واللتان احستا بالألم من كل ما وقع ، غير مستعدتين لتقبل الهزيمة بهذه السهولة ، ولذا راحتا تتمسكان بالقيود الاقتصادية التى كانتا قد فرضتاها على مصر عندما كانت الازمة فى ذروتها ، والتى أملتا الآن فى استخدامها كاداة للضغط فى المساومة على تعويضات شركة القناة • وهكذا انقطعت مصر من الناحية الاقتصادية عن جميع الدول الكبرى ، ووجدت من العسير عليها ان تتعامل بنقدها فى الاسواق الحرة على اساس الاسترلينى،

ولقد دام هذا الصراع الاقتصادى مدة فاقت مدة الحرب نفسها • واضطر الرئيس عبد النـاصر ابانها الى توزيع الجاز وهى مادة الوقود للشـعب المصرى بالبطاقات ، والى خفض خانة الانفاق بنسبة عشرة فى المائة ، والى مصادرة مخزونات الارز لمنع الاحتكار والتلاعب بالاسعار ، والى اعتقال المســتغلين ووقف جميع مســتوردات الدوائر الحكوميـة • وتخفيض المستوردات الاخرى ، ومنع السفر الى الخارج • وارتفعت تكاليف الحياة فى البلاد •

ولم يكن المجال متاحا للتفكير فى السـد العالى الذى كان لا يزال مشروعا على الورق ، وكان السبب فى كل ما حـدث • وظلت قنـاة السويس التى كانت عائداتها ستحول الى تمويل السد مغلقة نحو ستة اشهر ، ولم يكن من المتوقع ان تسهم فى التمويل الى مدة طويلة اخرى• وهكذا كان المال بعيدا عن متناول الايدى • وأوضح الروس الذين كانوا قد أوحوا فى الماضى باستعدادهم لتمويل المشروع ، انهم لا يستطيعون ان يفعلوا الآن اكثر من الاسهام الذى يقومون به فى تمويل برامج التنمية الصناعية • وراح الرئيس عبد الناصر يوفد مبعوثيه الى اليابان يطلب المال اللازم لتمويل المشروع ، ولكنهم عادوا صفر اليدين • وبدأت الخطوط البيضـاء على صخور اسـوان تشحب تحت وطأة الشـمس الحارقة • واصبحت صورة السد العالى فى عيون الجماهير ، اقل بروزا نتيجة هذه الاحداث المتلاحقة • وفقدت هذه الصورة لألاءها الآن ، بعد تعذر الحصول على المال ، واصبحت اسطورة من اساطير المسـتقبل لا الماضى • وكان الرسميون لا يزالون يتحدثون عن السد ، كما كانت الصحف تشير اليه، والموازنات تخصص لبعض اعماله ، ولكن الناس باستثناء اولئك المحيطين بالرئيس ، ما عادوا يحلمون ببنائه • ولم تكن المشكلة مقتصرة على المال وحده ، وانما كانت هناك مشكلة السودان ايضا ، وهو البلد المجاور الذى سـيفقد أحد مدنه الرئيسـية ومسافة مائة ميـل من الأراضى التى ستغمرها مياه الخزان • وبدا الآن ان موافقة الخرطوم التى كان المصريون يعتقدون انها مضمونة ، لم تعد ممكنة • وكثرت التسـاؤلات فى هذه الآونة واعلن الدكتور عبد العزيز احمد رئيس لجنـة القـوة الكهربيـة المصرية ، واحد كبار المهندسين ، فى شهر اغسطس ان اقامة سد فى وادى الريان على بعد ستين ميلا الى الجنوب الغربى من القاهرة ، ستكون اقل تكلفة • او لم يكن مثل هذا الاعلان ، اشـارة من عل الى ان فكرة السد العالى اخذت فى الاختفاء • وكانت البعثة المصرية فى هذه الآونة تجس نبض اليابانيين للحصول على تمويل للسد ، ولكن ألم تكن هذه

الرحلة الى آخر اطراف الارض ، رحلة يائسة الى نهاية حلم من الاحلام ؟

وتولدت بعض هذه الشكوك نتيجة الرأى العام الغربى الذى تعززت احقاده على مصر نتيجة النصر الذى حققته فى قضية السويس • وكان هناك كثيرون فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الامريكية يرجون الفشل للمشروع ، وكان همهم ان يبالغوا فى اظهار المصاعب التى ستواجهه حتى ولو قدر للعمل أن يبدأ فى تنفيذه • ولو استثنينا بعض الصحف ، لرأينا انها كلها ، كانت تتجاهل الحقيقة الواقعة وهى ان المؤسسات الالمانية كانت قد وضعت تصميمات المشروع وان الخبراء الدوليين كانوا قد اقروها ، وتمضى فى ادعاءاتها بان المشروع لا يستند الى اسس سليمة • وكانت هذه الصحف نفسها تصور الصعاب العادية التى تواجه مشروعا على هذا القدر من الضخامة ، على انها عقبات لا يمكن تذليلها •

وليس ثمة من شك فى ان وقوع أى خطأ فى التصميم قد يؤدى الى تصدع فى السد اما من جراء ضغط الماء أو من جراء انفجار قنبلة ذرية سيقود الى كارثة اعظم من اية كارثة واجهها الجنس البشرى فى تاريخه • وقد تؤدى مثل هذه الكارثة الى اختفاء مصر من عالم الوجود ، اذ لا يبقى من اهلها الا البدو وأولئك الذين يعيشون فى الواحات النائية ، وفى منطقة القناة ، وأولئك من ابناء الوادى الذين يكونون قد نجوا باعجوبة وفروا الى الصحارى من الكارثة • وقد لا يبقى من مدينة القاهرة الا ذلك الكازينو المقام فوق جبل المقطم ، براقصاته اللائى يرقصن على انغام الدفوف والطبول ، أو بأولئك الذين شاء لهم حسن طالعهم ان يكونوا فى صالة اللعب فى الكازينو • ولم يتوان الخبراء عن الاقرار بأن تفجر قنبلة ذرية فى موقع السد دون انذار مسبق قد يؤدى الى مثل هذه الكارثة ، ولكنهم كانوا يردون على ذلك بان هذه الضربات النووية ستؤدى الى نهاية العالم كله لا مصر وحدها •

ولكن فكرة الكارثة التى يسببها الفيضان كانت اقل انتشارا لدى الرأى العام الغربى من الانتقادات الاخرى التى توجه الى المشروع • فقد كان معظم الناس على استعداد للافتراض بان المهندسين العالميين ومهندسى الحكومة المصرية ، لم يكونوا من المجانين الذين يعرضون انفسهم لمثل هذا الدمار• وكانت الفكرة المضادة وهى ان الخزان الجديد لن يستوعب كميات كافية من الماء أكثر شرا وانتشارا • وراح هناك من يزعمون ان الماء سيتسرب الى الجو عن طريق التبخير ، وان بعضه ستمتصه الرمال لتدفع

به الى الصحراء الغربية ، أو يتسلل عبر فجوات فى التلال الغربية الى البحر الاحمر . وانتشرت مثل هذه الآراء الشريرة فى معظم الصحف الغربية وبينها النيوز كرونيكل اللندنية التى راحت تزعم ان الجغرافيين الذين درسوا موضوع حوض النيل الى الجنوب من اسوان ، كانوا من الحمقى الذين عجزوا عن قراءة الارقام والمعلومات التى وفرتها تسهيلات العلم الحديث ، ووضعتها تحت تصرفهم ، وكانت اقوالهم من شطحات الخيال الناقد .

وكانت بعض الاقوال الاخرى التى تتحدث عن الفشل تعتمد كل الاعتماد على التفصيلات والحسابات الرياضية والفنية ، بحيث كان من المتعذر على الرجل العادى ان يفهمها وان كانت قد اثرت عليه حتما . واستند الزعم القائل بأن النهر سيخسر ماء كثيرا يضيع فى الصحراء ، على الارقام التى تبين ان مياه النيل فى السنوات الخمسين الاخيرة ، من هذا القرن ، كانت اقل منها فى النصف الثانى من القرن الماضى . ويضيف هذا الزعم ان الهبوط لم ينشأ عن تناقص كميات المطر فى الجبال الافريقية وانما نشأ عن هبوط فى مياه الينابيع الجوفية . وكان الدكتور جون بول قد ذكر فى عام ١٨٩٨ ان كميات كبيرة من المياه الجوفية فى الصحراء تصل الى نهر النيل بين اسوان ووادى حلفا ، وان هناك نحوا من ٣٧٥ الف ميل مربع من الصخور الرملية تمتد من مصر والسودان الى ليبيا ، وتضم نحوا من ٢٢ فى المائة من حجمها من الماء الذى يصل اليها من جبال تشاد . ويقول الدكتور عبد العزيز احمد ان هذه البحيرة الجوفية ظلت تمول النيل بمياهها حتى عام ١٩٠٢ ، أى حتى بناء الخزان الاول ، اذ توقف هذا التمويل ، بل وانعكس اتجاهه ، واصبحت مياه النيل تتسرب الى الواحات الليبية. ودللت حساباته على ان خسارة النيل السنوية من المياه بين عامى ١٩١٢ و ١٩٣٣ ترددت بين ستة ملايين ونصف المليار والثمانية مليارات من الياردات المكعبة ، وان هذه الفترة نفسها شهدت زيادة متشابهة فى الماء المتوافر فى واحات ليبيا . وقد عنى بذلك ان الخزان اجبر النهر عن طريق الضغط الذى يفرضه على مجراه على خسارة هذا القدر من الماء فى الوقت الذى لم يرب فيه مايخزنه الخزان على كميات تتردد بين الثلاثة مليارات والستة مليارات والنصف .

واعرب الدكتور عبد العزيز عن اعتقاده بان قدرة الصخر تحت الصحراء على الاحتفاظ بالماء لا حد لها ، وان السد العالى سيترك اثرا مماثلا لذلك الاثر الذى خلفه الخزان الاول ، وسيدفع الماء الى الصخر .

على نطاق أوسع ، وقال ان النيل سيخسر بعد العشرين سنة من بنـاء السد قدرته على دفع مائة وعشرة مليارات من الماء • وسيغطى الطمى فى غضون هذه المدة شاطئى النهر ، وتبلغ الخسارة السنوية فى العشر سنوات التالية نحوا من واحد وخمسين مليارا • وسيصبح فى قدرة مصر والسودان بعد هذه الحقبة ان تنتفعا من خمسة عشر مليارا ونصف المليار من الماء بالاضافة الى ما تحصلان عليه الآن • ويعنى هذا ان خسارة الماء ستستمر ثلاثين سنة للحصول بعدها على كسب ثانوى •

وكان بين الانتقادات الشائعة التى وجهت الى المشروع ، ان البحيرة التى ستتكون بعد قيام السد ، ستقوم فى منطقة من اكثر مناطق العالم حرارة وجفافا ، وان ما ستفقده البحيرة نتيجة ذلك عن طريق التبخر ، لا يبرر ما ستؤمنه البحيرة من فوائد • وذكر بعض النقـاد على ضـوء الحسابات التى اجروها للبرك والاحواض فى اسوان ان البحيرة ستخسر عن طريق التبخر نحوا من ثلاثة عشر مليارا ، ولكن نقادا آخرين رأوا ان هذا التقدير اقل من الحقيقة• وكان الدكتور عبد العزيز احمد بين هؤلاء . فلقد ذكر ان اشتداد سرعة الريح نتيجة ارتفاع مستوى الماء فى البحيرة بعد امتلائها ، سيؤدى الى زيادة التبخر السنوى بنحو من خمسة مليارات، بحيث تصبح المياه ألتى تخسرها البحيرة عن طريق التبخر نحوا من ثمانية عشر مليارا •

وكان الدكتور عبد العزيز احمد ، لا يزال مصرا على تأييده لمشروع استخدام البحيرات الافريقية كلها للتخزين ، وشق قناة عبر مستنقعات السودان • وقال ان ميـاه الامطار ستعوض على البحيرات ما تفقده عن طريق التبخر ، وان القناة عبر المستنقعات ستطلق كميات اكبر من الماء لمنفعة مصر والسودان • واعتمد الرجل على خبرته كمهندس كهربى — مائى ، فاقترح ان تدفع الميـاه عبر المسـتنقعات عن طريق المضخـات الكهربية •

وايد الدكتور احمد مشروع وادى الريان القديم ، كوسيلة جعلتها الاساليب الفنية الحديثة صالحة للتخزين السنوى • وكان قد اقترح منذ امد طويل وصل وادى الريان الذى يمثل منخفضا متصلا بواحة الفيوم وعلى بعد ستين ميلا من القاهرة • بنهر النيل ، عن طريق ترعة ، تصبح منفذا لمياه الفيضان الزائدة• وقال ان فى الامكان تخزين مليارين ونصف المليار من الياردات المكعبة من الماء عن طريق هذا الوادى ، لاستخدامها فى الرى عندما تهبط مناسيب المياه فى النهر • وذكر الدكتور عبدالعزيز

احمد فى عام ١٩٤٧ ان قوة محطة التوليد الكهربى التى ستقام فى خزان اسوان القديم ، ستستخدم مع قوة الدفع الطبيعية فى النهر لتأمين نحو من عشرة ملايين ونصف المليار من الياردات المكعبة بين شهرى فبراير ويوليو ، وهى الفترة التى يمكن استخدام القوة الكهربية فيها • وكانت هذه الكمية تقدر آنذاك بانها المطلوبة لتوسيع الزراعة الصيفية فى أراض مساحتها سبعة ملايين ومائة الف فدان (١) •

وقد لا يكون ثمة داع لمناقشة اقتراحات الدكتور عبد العزيز احمد عن انشاء وادى الريان ومشروع مستنقعات السودان ، اذ سيكون للمشروعين حتما مكانهما فى التطور المقبل لنهر النيل • ولكن الدكتور عبد العزيز فى دعوته الى وادى الريان فى عام ١٩٥٧ ، كان يحاول معارضة مشروع السد العالى ، متنبئا له بالفشل • وكان يرى فيه فكرة خيالية ، غريبة على مصر ، ويؤلف انعكاسا كاملا لسياسة الرى فى مصر ، وان اقامته ستؤلف خطورة بالغة • ولو صحت حساباته حقا ، لكان على حق فى رأيه ، ولمثل السد العالى كارثة على مصر • ولكن حساباته لم تكن صحيحة ، وقد اعترف هو فيما بعد بخطئها •

ولم تكن معارضة مشروع السد العالى بالشىء الشاذ أو غير المألوف، اذ ان جميع المشروعات العظيمة تتعرض دائما لمثل هذه المقاومة • ولقد روى السائح الفرنسى ، المسيو دى جويرفيل ، انه عندما وصل الى اسوان فى عام ١٩٠٤ ، وراح يتطلع الى خزانها بكثير من الاجلال ، راح أحد خبراء طبقات الارض المشهورين يقول له ••

« انها غلطة ، بل غلطة رهيبة •• فالمهندسون البريطانيون لا يرون أى احتمال فى اقامة أى حاجز أو سد الا اذا كان مقاما على اساس من الصخر • ولهذا فقد آثر هؤلاء المهندسون الموقع الحالى ، اذ ان «ارضية» النهر فى هذه النقطة صخرية • ولكن صخور اسوان ليست صلبة الا على

---

(١) يعتبر الدكتور عبد العزيز أحمد اخصائيا فى توليد القوة الكهربية من الماء ، وكان المهندس المسئول عن بناء محطة توليد الكهربا فى أسوان التى برهنت على أهميتها فى بناء السد العالى • وكان هذا المهندس أحد الذين عارضوا مشروع السد العالى فى البداية ، وقدم تقريرين الى جمعية المهندسين فى لندن فى شهر نوفمبر من ١٩٦٠ بعنوان «التطورات الاخيرة فى السيطرة على نهر النيل» و «دراسة تحليلية لخسائر الماء فى حوض النيل مع الاشارة الى سد أسوان »

ولكن الدكتور عبد العزيز مالبث أن تبين خطأه ، فعاد الى القاهرة وأعلن أن آراءه السابقة كانت خاطئة •.

(المعرب)

السطح ، نتيجة عمل الميـاه ، أما الصخور الواقعـة تحتها فهشة ، بل ومتآكلة • ولا بد ان يهوى هذا الصخر بعد عامين من الضغط المستمر ، وسيهبط السد نفسه نحوا من ثمانية اقدام • وانى لارى ان السد لن يصمد ، وما لم يقرر المسئولون التخلى عنه ، ويقيموا عوضا عنه عددا من السدود الصغيرة ، فان العالم سيشهد فى احد هذه الايام جائحة من اعظم الجوائح » •

ولكن هذا العالم المحترم ، الواثق من ارائه ، قد حمل معـه هذه النذر بالخراب الى قبره ، اذ ان السد قد صمد هادئا لكل الضغوط التى فرضها النهر عليه • واذا كانت نبوءته تبدو الآن مضحكة ، فانه لم يكن وحده الذى انطلق بها فى تلك الايام ، وكان هناك عدد آخر من العلماء الذين أكدوا فى كل تعلية لاحقة للسد ، انها ستسبب كارثة • ولم تخل الحقبة الاخيرة من مناقشات حادة بين الخبراء والمهندسين حول بناء محطة التوليد الكهربى فى اسوان ، اذ ذكر بعضهم ان الذبذبات التى ستسببها هذه المحطة ، ستحطم السد القديم وتمزقه شذر مذر • وكان لا بد على ضوء هذه التجارب القديمة ، من اعتبار النبوءات الجديدة عن السد العالى مخطئة كسابقاتها • لا سيما وان البراهين التى قدمها ناقدو السد ، قد درست من الخبراء الذين خلقوا المشروع واقروا تصميماته • ولكن هذه النقدات كانت تعبيرا عن الشكوك الهدامة ، وعن الافتقار الى الايمـان بالسد العالى ، وكانت مبررا للدعوة الى سدود بديلة •

ولكن الرئيس عبد الناصر ، وهو الصعيدى ، المتميز كابناء شعبه بالعناد وطول الاناة ، كان على ثقة من ان السد العالى سيبنى ، ولا بد ان يبنى • وبالرغم من الضائقة المالية التى نزلت بالخزانة المصرية فى الصيف الاول الذى تلا أزمة السـويس ، فقد رصـد مبلغ مليونين وسـبعمائة وخمسين الف جنيه للقيام بالاعمال التحضيرية فى السد ، مع انه لم يكن يتوقع اية معونات مالية للمشروع لا من الشرق ولا من الغـرب • وبدأ العمل فى شق طريق نحو الجنوب من اسـوان ، تصـل الى ارض قفر تمـلؤها الصخور ، وتخلو من كل شيء الا من الامل وعنـدما كنت فى اسوان فى ذلك العام ، قال لى الدليل ••• « اسمع يا خواجه ، سيبنى هنا عما قريب سد عظيم ، انه سد كالجبل » • وكانت هذه العبـارات شبيهة بالتعاويذ المتصلة بقصص رمسيس الثانى وامجاده التى تلاها على مسامعى •

ولم يتخل الرئيس عبد الناصر عن أمله فى الحصول على المعـونة

من خارج نطاق الكتلة السوفياتية ، وان كان قد اسقط بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا من حسابه • وكان قد رأى فى السد منذ البداية رمزا مجسدا للتعاون الدولى ، وتجسيدا لذلك الشكل من الحياد فى القضايا الدولية الذى اصبح على النحو الذى فسره هو ، اساسا مبدئيا لسياسته الخارجية • واتجه الى اليابان دون ان يتوقع كثيرا النجاح ، ولذا فلم تكن خيبة الأمل التى اصيب بها من رفضها قاسية ، وراحت مجموعة من الصناعيين الايطاليين تبدى اهتمامها فى المشروع لفترة معينة • وكان الاقتراح التجريبى الذى تقدمت به شركة المانية غربية تضم عددا من المؤسسات بالاسهام بقرض قدره سبعة عشر مليونا من الجنيهات اكثر عروض المساعدة التى قدمت حتى الآن اغراء • وكانت العلاقات قد بدأت في التحسن فى هذه الآونة بين مصر والولايات المتحدة ، وراحت وزارة الخارجية الامريكية ، تحاول اعادة اهتمام حكومة المانيا الغربية بالسد الذى كان مهندسوها هم الذين وضعوا تصميماته ، ولكن المعونة التى ظهرت من الغرب لضمان بناء السد ، لم تكن كافية على أى حال •

وكان الاقتصاد المصرى ، يتجه فى غضون ذلك وباستمرار نحو روسيا ، بسبب الحصول على السلاح الذى تدفع مصر ثمنه بما تبتاعه دول الكتلة السوفياتية من القطن المصرى الذى فرضت الدول الغربية قيودها على مشترياتها منه • واصبحت الكتلة السوفياتية تمثل فى عام ١٩٥٧ نحوا من خمسين فى المائة من تجارة مصر الخارجية أى خمسة أضعاف ما كانت عليه فى عام ١٩٥٦• وكان الرئيس عبد الناصر فى لهفته على اقامة السد ، راغبا فى الحصول على المعونة السوفياتية ، ولكن الحكومة السوفياتية ، لم تكن بعد مكتفية بما وقع من تصدع فى العلاقات بين مصر والولايات المتحدة ، ولم تكن راغبة فى اتخاذ خطوة حاسمة لدفن ترددها فى علاقاتها مع مصر مرة واحدة ، ولذا فلم تكن على عجلة من أمرها في تقديم عرض المعونة • وحصل المشير عامر فى شهر نوفمبر على قرض من موسكو بمبلغ ٦٢ مليونا من الجنيهات وبفائدة ٢ر٥ فى المائة ، يدفع بعد السنة الخامسة على اقساط سنوية ، ولكن البيانات التى صدرت عن موسكو فى ذلك الحين اوضحت ان اهتمام الكرملين بتنمية مصر الصناعية لا تصل الى حدود السد العالى •

وكانت قد انقضت خمس سنوات الآن على الطلب الذى وجهه قادة الثورة الى المانيا لاعداد تصميمات السد وثلاث سنوات منذ فتح اتفاق

الجلاء بين مصر وبريطانيا الباب ممهدا لتقديم المعونة المالية ، ولكن كان تحقيق المشروع لا يزال بعيـدا كشـأنه فى أى يوم مضى • واكتسبت المحادثات التى تدور وراء الكواليس فى موسكو والقاهرة طابع السرعة فى هذه الآونة • فلن يكون هناك كبير فائدة من برامج التصنيع التى وافق الاتحاد السوفياتى على دعمها بالمال والخبراء التقنيين والتى كانت الشحنات الاولى من معداتها قد بدأت فى الوصول الى الاسكندرية ، اذا لم تتوافر لها مصادر الطاقة الكهربية التى سيولدها السد العالى • ولم تعد مصر تطلب من ناحيتها المعونة الكافية لاكمال بناء السد قبل الشروع فيه ، كما لم تعد تطلب شركة دولية لتنفيذ العمل •

وليس ثمة من شك فى ان الحكومة السوفياتية كانت راغبة فى تقديم المساعدة لبناء السد اذا كان يحقق نصرا سـوفياتيا ، واذا كان المهندسون السوفيات هم الذين سيتولون تنفيذه وبمعدات سوفياتية • وكلما اشتدت حاجة مصر الى السد كلما زاد ميل الرئيس عبد الناصر الى قبول الشروط التى وضعتها روسيا للاسهام فى المشروع (١)• وكانت هذه الشروط من الطراز الذى لم يكن الرئيس عبد الناصر قط راضيا لقبولها من الدول الغـربية ، ولكن ضغط الوقت والاحـداث وتصرفات الدول الغربية نفسها هى العوامل التى فرضت عليه قبولها • وليس ثمة من شك فى ان بعد نظر الرئيس عبدالناصر ، قد بين له نتيجة سياساته ، كما سيسجل التاريخ أن السياسات الانجلو ـ امريكية لم تكن السبب فقط فى تحول هذا الانجاز العظيم الى الاتحاد السوفياتى ، وكل مايعنيه ذلك للمناطق النامية فى افريقيا وآسيا ، بل انها هى التى فرضت على عبد الناصر قبول الشروط التى جعلته قريبا من الانحياز والالتزام (٢)•

وعرضت الحكومة السوفياتية فى شهر اكتوبر من عام ١٩٥٨ على

---

(١) لاشك فى ان المؤلف هنا يتساق مع طبيعته الغربية ومع كرهه للاتحـاد السوفياتى فهو يحاول القول بأن مساعدات الاتحاد السوفياتى لتمويل مشروع السد العالى كانت مشروطة • لكن هذا القول ، يخالف الحقيقة والواقع • وجسد العمل فى السد العالى ، صورة رائعة للتعاون الدولى اللامشروط مع الاتحاد السوفياتى •

(٢) لم يحد الرئيس عبد الناصر عن سياسة عدم الانحياز لحظة واحدة ، ولم يؤد اتفاق السد العالى الى قبول أية شروط • وقد ظهر هذا واضحا فى الخلاف اللاحق الذى وقع بين مصر والاتحاد السوفياتى فى عام ١٩٥٩ بسبب مشكلة العراق فى عهد قاسم • ولم يؤد هذا الخلاف مطلقا الى وقف المعونات السوفياتية للسد العالى ، كما دلل على ان مصر لم تخرج عن سياسة اللاانحياز •

(المعرب)

مصر استعدادها لتمويل السد العالى ، وتم الوصول فى شهر ديسمبر الى اتفاق مبدئى بين الحكومتين ، تعهدت فيه الحكومة السوفياتية بتقديم اربعمائة مليون روبل (نحو ٣٣ مليون جنيه) كقرض يسدد فى غضون اثنى عشر عاما تبدأ بعد عام ١٩٦٤ وبفائدة قدرها ٢٫٥ فى المائة. وكان هذا المبلغ مقررا للمرحلة الاولى من العمل . وهى تشمل شق القناة على الضفة الشرقية لتحويل مجرى النهر ، ولبناء السدين المؤقتين الامامى والخلفى بحيث يضمنان تخزين المياه الى ارتفاع ١٤٠ ياردة . واعطى نص الاتفاق للحكومة السوفياتية حق النقض فى موضوع استخدام المتعهدين الاجانب اذ ذكر ان تنفيذ العمل سيعهد الى متعهدين بطريقة يتم الاتفاق عليها بين الجانبين وعلى اساس استخدام المعدات السوفياتية . ولقد حرم هذا النص المؤسسات الايطالية والالمانية الغربية من الاشتراك فى العمل لو كانت راغبة فيه ، اذ انه حرمها من استخدام معداتها المألوفة لديها. وهكذا تمكنت روسيا من السيطرة على المشروع فعلا (١) ، ولم يعد احد يسمع شيئا عن أى اسهام خارجى فى المرحلة الأولى من اقامة السد ، بعد الزيارة التى قام بها ممثلو الشركة الألمانية الغربية لموقع اسوان فى شهر يناير من عام ١٩٥٩ .

وكانت لجنة السد العالى المصرية قد رصدت وقبل توقيع الاتفاق، وقبل قبول الروس التصميم الذى وضعه اتحاد هو تشيف ــ دورتموند، مبلغ سبعمائة الف جنيه ، للبدء بشق الطرق والسكك الحديدية ، وشبكات توصيل الكهربا الى الموقع . ولم يكد يوقع الاتفاق ، حتى نقل التصميم الذى وضعه الألمان الى موسكو لاعادة دراسته ، وتبين بعد اعادة التصميمات الى القاهرة فى شهر مايو من عام ١٩٥٩ ان الخبراء السوفيات ادخلوا عليها تعديلات جوهرية . وكان التغيير الاساسى ان تقام محطة التوليد الكهربى الرئيسية فى الانفاق الوسطى لقناة التحويل بدلا من انفاق تقام خصيصا لهذا الهدف على الشاطىء الآخر من النهر . وادى التصميم السوفياتى ايضا الى تقصير طول السد من الشمال الى الجنوب.

---

(١) يواصل المؤلف هنا اتجاهه الذى بينه فى الحديث عن اتفاق السد العالى ، وكان السوفيات أصبحوا يسيطرون عليه ، مع أن الحقيقة والواقع أن المشروع ظل عربيا وتنفذه ايد عربية . وكان تعاون الاتحاد السوفياتى فى بناء السد ، نموذجا للتعاون الدولى الصادق والاصيل ، والذى لايرتبط بأية قيود أو شروط . أما القول باحتمال عمل المؤسسات الايطالية والالمانية ، فهو خيالى أكثر منه واقعى ، لان مثل هذا المشروع بضخامة تكاليفه لاتقوم به مؤسسات خاصة .

(المعرب)

واقترح الخبراء السوفيات ايضا الاسراع فى عملية تجميع الرمل باستعمال اسلوب كان الروس قد استخدموه بنجاح فى سدودهم التى تملؤها الصخور والرمال ، وهو يقضى بغمر الموقع بالرمال . ويتمثل هذا الاسلوب باختصار فى ملء حوض من الرمل بالماء ثم ضخ معجون الرمال عبر انابيب الى موقع بناء السد .

ونصح مجلس الخبراء الدوليين الذى قام بدراسة المخططات السوفياتية فى الاسبوع الثانى من شهر يونيو من عام ١٩٥٩ ، بعدم قبول الاقتراح باقامة محطة التوليد فى انفاق قناة التحويل ، وطالب باقامة انفاق خاصة على الضفة الغربية للنهر . واقر المجلس فكرة تقليل طول السد من الشمال الى الجنوب ، ولكنه اقترح ان تقام الحواجز الصخرية فى وسط قناة التحويل والتى ستقام فيها الانفاق . على ان يزداد طولها من مائتى متر الى ثلاثمائة متر . واعترض المجلس اخيرا على استخدام الاسلوب الروسى فى غمر الموقع بالرمال . واثار هذا التقرير الكثير من المصاعب فى وجه سلطات السد العالى المصرية ، ولكن الحكومتين المصرية والسوفياتية لم تنتظرا حل الخلافات التقنية فى وجهات النظر ، وراحتا توقعان الاتفاق النهائى الذى نص على ان يؤمن الاتحاد السوفياتى المعدات والمعونة الهندسية والآلات للمرحلة الاولى . ورفض الروس بعد هذا قبول أى نصح من مجلس الخبراء الدوليين .

وغادر موسكو ثمانية من المهندسين الروس على الفور الى اسوان ، وشحنت المعدات السوفياتية الثقيلة الى ميناء الاسكندرية . ومثل هذا التطور نصرا سياسيا ضخما للرئيس عبد الناصر ، يماثل النصر الذى حققه فى قضية السويس . وهكذا بدأ المال فى الانسياب ، وبدأت العجلات تدور أخيرا لتحقيق أعظم مشروع انشائى فى بلاد اشتهرت بالمشروعات الانشائية الضخمة منذ اقدم عصور التاريخ .

وظلت هناك على أية حال ، عقبة اخرى وهى موضوع السودان . ولقد تحققت نهاية البداية فى مشروع السد العالى فى مدينة الخرطوم .

٥ تحية عسكرية

بالرغم من بناء السد العالى على بعد مائتى ميل الى الشمال من حدود مصر والسودان داخل الأراضى المصرية ، الا أن مياهه ستصل الى نقطة تبعد مائة ميل ، داخل اراضى السودان ، وستغمر منطقة النوبة السودانية المأهولة بكاملها ، وبينها مدينة وادى حلفا الواقعة على الحدود . وكان من المقرر ان يفقد نحو من خمسين الفا من النوبيين مساكنهم وحقولهم قبل اكتمال بناء السد الرئيسى ، وذلك لأن بناء السد الامامى المؤقت ، سيؤدى الى رفع منسوب المياه ، فوق وادى النيل فى بلاد النوبة فى السودان . ولم يكن من المعقول منذ البداية أن تعمد مصر الى اغراق جاراتها . وكانت مصر والسودان تقتسمان على أى حال مياه النيل طبقا لاتفاق تم الوصول اليه فى عام ١٩٢٩ ، ولم يكن فى الامكان احداث أى تبدل فى الحقوق المكتسبة الا عن طريق اتفاق مشترك جديد . وكان لابد للسد العالى من ان يحدث تبدلا جذريا فى الوضع القائم .

ويتضح من هذا انه كان للسودان رأيه الخطير فى موضوع السد وكان العرض الانجليزى ـ الامريكى بتقديم المساعدة المالية قد تضمن النص على وجوب وصول مصر الى اتفاق مع السودان قبل بدء التمويل . ولا شك فى ان العرض السوفياتى ، تضمن شرطا مماثلا ، ولكن عندما تم توقيع الاتفاق بين روسيا ومصر ، لم يكن السودان فى حالة نفسية تجعله على استعداد لقبول المشروع ، ولم يكن على استعداد حتى للاعتراف باتفاق عام ١٩٢٩ ، على اعتبار انه كان قد وقع بين مصر وبريطانيا ولم يكن يضمن توفير أى ماء لتوسيع الزراعة فى السودان . ولم تكن الحكومة المصرية من الناحية الاخرى ، راغبة فى البحث فى عقد أى اتفاق جديد مع السودان ، الا اذا اعلنت الحكومة السودانية اقرارها بوجود الاتفاق الأول . وهكذا لم يكن ثمة أمل فى المفاوضات ولا فى الوصول الى أى اتفاق .

ويبدو ان الحكومة السودانية كانت قد استاءت من تصرف الحكومة

المصرية ، فلقد ذكر المصريون لها شيئا عن مشروع السد العالى فى عام ١٩٥٢ ، ثم عادوا فتجاهلوا الحديث اليها عن المشروع وعن سير العمل فى تنفيذه مدة سنتين بينما كانوا يواصلون الحديث علنا عنه • ولم تكن الحكومة السودانية مقتنعة بما تقوله مصر من ان التفصيلات لا يمكن ان تقدم عن أى مشروع لم يوضع فى صيغته النهائية بعد • وأحست بأنها تعامل على اساس التجاهل لمصالحها ، واثار هذا الاحساس مركبا لديها لم يكن من السهل اختفاؤه بسرعة • ويبدو ان هذا التجاهل كان ناتجا عن شعور بالغرور ، فقد كان المصريون يؤمنون بأن سيادتهم على السودان شيء طبيعى وحتمى ، وان السودانيين يرغبون فيها وان أى رفض من جانب السودان لمشروع السد العالى ، أمر غير معقول ، وغير متوقع (١) •

وكانت السودان تخضع عند قيام ثورة مصر ، من الناحية الصورية للحكم الثنائى الذى تمارسه بريطانيا ومصر ، وكان هذا الشكل قد ظل قائما بصورة رمزية منذ عام ١٨٩٨ ، عندما رفع كتشنر العلمين البريطانى والمصرى على الخرطوم بعد انتصاره على جيش الدراويش فى ام درمان • وكانت بريطانيا هى التى مارست فعلا حكم السودان منذ ذلك التاريخ عن طريق حكامها العامين وعن طريق سردارها الذى يتولى قيادة الجيش ، وعن طريق موظفيها فى السودان الذين يلقون كل عون من ممثل بريطانيا فى القاهرة • وكان المصريون يرون ان الاحتلال المصرى ـ الانجليزى للسودان قد اعاد السيادة المصرية الى السودان ، وكانت المفاوضات بين مصر وبريطانيا لاعلان استقلال مصر تتحطم على صخرة مطالب مصر بالسيادة على السودان • وكانت حكومة الوفد قبل الثورة ، قد اعلنت فى عام ١٩٥١ فاروق ملكا على مصر والسودان ، دون مشاورة بريطانيا • وقد استقبل المصريون هذا الاعلان بالابتهاج ، وان احسوا بالألم لعجزهم عن وضعه موضع التنفيذ • وكانت حكومة الثورة اكثر واقعية ، عندما

(١) ينساق المؤلف هنا مع الدعايات التى كانت تنشرها بريطانيا فى السودان عن السيادة المصرية والتحكم المصرى ، لايغار صدور السودانيين على مصر ، وأحداث الفرقة بين البلدين الشقيقين ، اللذين يؤلفان جزأين من الوطن العربى الكبير • وهو يحاول هنا تصديق هذه الدعايات التى نشرتها بريطانيا التى ينتمى اليها • وبالرغم من صحة النتيجة التى توصل اليها ، وهى ان رفض السودان لمشروع السد العالى أمر غير متوقع وغير معقول الا أن الفرضية التى اعتمد عليها فى الوصول الى هذه النتيجة خاطئة • أما الحقيقة فهى ان ليس من المعقول أن ترفض السودان وهى بلد عربى مشروعا يعود بالخير والنفع اليها والى بلد عربى آخر هو مصر •

(المعرب)

تخلت عن ادعاءات حكومة الوفد السابقة ، وتمكنت من الوصول الى اتفاق مع بريطانيا والسودان ، يضمن استقلال الاخيرة ، وكانت تأمل بأن يؤدى هذا الاستقلال ، الى تمهيد السبيل لوحدة وادى النيل برضا الشعبين . وكان لهذا الأمل ما يبرره ، لا سيما وقد اسفرت الانتخابات الأولى عن وصول اسماعيل الازهرى الى الحكم ، وقد قضى حياته مناديا بالوحدة ، ولكن عندما اعلن الاستقلال فى عام ١٩٥٥ ، كان الازهرى هو الذى اكد ضرورة الاستقلال . وكانت الحكومة القائمة فى السودان فى عام ١٩٥٨ ، حكومة انفصالية معادية للوحدة ، ويقودها عبدالله خليل.

ولقد عكس موقف مصر من السودان فى المراحل الاولى من تخطيط السد العالى باختصار الاعتقاد بان مصر والسودان بلد واحد ، ولكن عندما اصبحت تصميمات السد جاهزة ، واضحى موضوع تأمين الاموال اللازمة للتنفيذ يمثل الامر الملح ، اتضح لمصر ان السودان لن تصبح مقاطعة مصرية ، وان من الضرورى الوصول الى اتفاق معها حول موضوع السد (١) .

وكانت حكومة الازهرى على استعداد للتفاهم مع مصر عندما بدأت المفاوضات الاولى حول موضوع السد فى عام ١٩٥٤ ، وكان كل ما ضايقها ان مصر رصدت فى موازنتها بعض الاعتمادات للمشروع دون ابلاغ السودان شيئا عن نواياها . ولم تطلع حكومة السودان على المخطط التفصيلى لاول مرة الا عندما بدأت المحادثات فى شهر سبتمبر، ولما كانت قد رأت فيه مشروعا اعده المصريون لمصر وحدها ، فقد ضايقهم ان يسمى بالمشروع المشترك . وراحت وزارة الرى السودانية تعلق على الموضوع بقولها ..

« كررت الحكومة المصرية المرة تلو المرة الاعلان عن عزمها على بناء السد العالى ، وكان للحكومة السودانية الحق كل الحق فى الاحساس بالاستياء من ان مصر اعلنت عن نواياها دون مراعاة متطلبات الكياسة فى استشارة السودان ... فللحكومة السودانية الحق المطلق بموجب

(١) طراز من الدس الغربى المألوف . فالمعروف أن حكومة الثورة لم تفكر فى يوم ما فى أن تجعل من السودان مقاطعة مصرية ، وانما تنظر الى مصر والى السودان كجزأين من وطن عربى واحد هو الوطن العربى الكبير . ولكن الغربيين كانوا ينظرون دائما ، رغبة منهم فى معاكسة أية وحدة عربية صحيحة الى أية اتجاهات وحدوية من جانب مصر ، وكأنها تعبير عن الرغبة فى السيطرة .

(المعرب)

القانون الدولى فى ان ترفض مشروع السد العالى ، وستستخدم هذا الحق الا اذا ضمنت جميع مصالحها ضمانا صحيحا قبل الشروع فى العمل » (١)

ولما كانت مصر لم تناقش ضرورة التعويض على النوبيين فقد انحصرت المصالح السودانية فى حماية مطالبها المقبلة في مياه النيل ، وحقها فى انشاء اية مشروعات للسيطرة على النهر للافادة من مياهه • فالسودان يستخدم نحوا من خمسة مليارات ياردة مكعبة من الماء فى كل سنة مقابل ثلاثة وستين مليارا تستخدمها مصر ، وكانت هذه هى الحقوق المكتسبة والمقررة فى جريان سنوى متفق عليه ويقاس عند اسوان بمائة وعشرة مليارات • وكان هدف المحادثات اعادة توزيع المائة والعشرة مليارات هذه بنسب تؤمن الاحتياجات الضرورية المقبلة للبلدين ، ولكن كان ثمة تناقض بين أسس هذه الطلبات المتقابلة • وكان الخبراء السودانيون يقولون ان العامل الذى يحد من تنمية بلادهم هو الماء لا الاراضى ، وان من حق السودان اذا قررت حاجاتها على ضوء مساحتها أو عدد سكانها بالنسبة الى مساحة مصر وعدد سكانها ان تحصل على ثلث الجريان السنوى المألوف • وكان هؤلاء الخبراء يقرون بان سنوات كثيرة ستنقضى قبل ان يصبح السودان قادرا على استعمال هذا القدر من الماء ، ولكنهم كانوا يريدون تحديد حصة بلادهم سلفا حتى لا تؤمن مصر لنفسها بفضل طاقاتها العظيمة على الافادة من مياه النهر حقوقا مكتسبة على حساب السودان • واختلف رأى الخبراء السودانيين ايضا عن رأى زملائهم المصريين فى موضوع كميات المياه الاضافية التى سيوفرها السد • وقال الخبراء المصريون ان السودان تبالغ فى طلباتها الى حد يتطلب من مصر ان تضحى ببعض ما تحصل عليه من ماء فى الوقت الحاضر ، لا سيما وان السودانيين يريدون من مصر ان تقتطع من حصتها كل ما ستفقده البحيرة بالتبخر ، أى نحوا من ثلاثة عشر مليارا من الياردات المكعبة • وعاد الخبراء الى الاجتماع فى شهر ابريل من عام ١٩٥٥ ، وعرضت مصر على السودان اربعة عشر مليارا ونصف المليار من الياردات المكعبة ، فرفضت السودان هذا العرض •

وتأزمت العلاقات بين البلدين فى سنة ١٩٥٨ الحاسمة الى الحد الذى أدى الى التهديد بنشوب الحرب بينهما • وفشلت فى شهر يناير محاولة اخرى للتفاوض على اتفاق حول موضوع السد ، وكانت الخلافات

---

(١) كتاب «مشكلة مياه النيل» الذى أصدرته وزارة الرى والقوة الكهربية المائية فى السودان فى عام ١٩٥٥ •

السابقة فى وجهات النظر هى السبب فى فشل المحاولة . وعادت مصر بعد نحو من شهر فطالبت بنحو من عشرة آلاف ميل مربع من الحدود الصحراوية ، واعلنت حكومة السودان التعبئة العامة . وهدأت الأزمة بعض الشيء ، ولكن مصر لم تتخل عن مطالبها الا فى شهر يونيو . واشتد غضب الحكومة المصرية عندما قام السودانيون بملء أقنية المناجيل الجديدة بالماء لايصاله الى منطقة قطن الجزيرة ، دون استشارة مصر ، مما اعتبر تعبيرا عن نقض السودان من جانب واحد لاتفاق عام ١٩٢٩ .

وكانت وزارة الرى السودانية تؤيد الاتجاه الى تطوير حوض النيل كله كوحدة واحدة ، ابتداء من البحيرات الافريقية ، ولذا فانها شرعت فى اعداد صورة جديدة من مشاريع هذا التطوير ، وطلعت بها فى عام ١٩٥٨ ، وفى نفس الوقت الذى كانت مصر توشك فيه على الوصول الى الاتفاق مع الاتحاد السوفياتى لتمويل السد العالى .

ويبدأ المشروع السودانى عند سد شلالات اوين على بحيرة فكتوريا، والقائم بالفعل ، وينص على اقامة سدود اخرى على بحيرتى البرت وكيوجا وعلى بحيرة تانا فى الحبشة ، مع اقامة نفق يصل بين تانا وبين اعالى رافد بالاس ، لتقصير جريان النيل الازرق نحو السودان ، ولتأمين مجرى قوى للماء لتوليد الكهربا . واقترح المشروع السودانى اقامة قناة جونجليبى لتحمل مياه النيل الابيض عبر المستنقعات ، وبناء سد آخر عند الروصيرص ، لاستكمال سيطرة السودان على النيل الازرق . وهى السيطرة المعتمدة على سد سنار وعلى الرى عند خشم الجربا على نهر عطبرة . واقترح المشروع أخيرا اقامة ثلاثة سدود على نهر النيل نفسه بين الخرطوم ووادى حلفا ، واقامة سد كبير ، وان كان لا يؤمن التخزين لاكثر من عام عند اسوان .

وادعت وزارة الرى السودانية ان مشروعها هذا ، سيؤدى الى اضافة نحو من اثنى عشر مليارا من الياردات المكعبة من الماء الى الجريان السنوى المقدر بمائة وعشرة مليارات ، عن طريق منع المياه من الضياع فى الطريق ، وانه سيؤمن بعد اقتطاع خمسة عشر مليارا ونصف المليار للتبخر ونحو من ميلونين للرى فى شرق افريقيا نحوا من مائة وخمسة مليارات للتخزين فى الخزانات القائمة والمقترحة ، وزيادة نحو من ستة وثلاثين مليارا ونصف المليار من الماء المتوافر للاستعمال . واضافت الوزارة فى ادعاءاتها ان المشروع سيؤمن توليد قوى كهربية ضخمة فى

الحبشة وأوغندة ، ومليون كيلواط في السودان وخمسمائة الف كيلواط في مصر عند اسوان ·

وكان تنفيذ هذا المشروع يتطلب اول ما يتطلب ، كما تطلبت المشروعات السابقة له ، الاتفاق بين الممتلكات البريطانية في شرق افريقيا والحبشة ومصر (١) · ورأت بريطانيا ، وان لم يكن لرأيها أي وزن عند مصر بعد ازمة السويس مباشرة ، ضرورة عقد مؤتمر فنى لجميع الدول المعنية · وكان هذا الرأى مبررا كافيا لمصر لرفض المشروع ، وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة في التفاوض حتى قبل ان يبدأ العمل في تنفيذ المشروع · ولم يكن ثمة أمل ، في مثل هذه المرحلة المتأخرة ، في ان تتخلى مصر عن مشروع السد العالى الذى يؤمن لها السيطرة على مياهها ، والذى سيمكنها بعد تأمين الاموال اللازمة لتمويله من وضع مخططها الزمنى لتنفيذه · وكان من الواضح ان المشروع السودانى انما نبع من الرغبة في معارضة مصر ، ولكن كان في وسع السودان ان توقف مصر وتمنعها من انشاء السد العالى · وهكذا نشأت الأزمة ووقع التوقف ·

بينما كانت مصر والاتحاد السوفياتى تدنوان من الاتفاق على المرحلة الاولى من السد ، كانت العلاقات بين مصر والسودان في اسوأ حالاتها ، وكانت غالبية الحكومة الائتلافية في السودان معادية لمصر · ولكن كانت هناك عناصر اخرى في هذه الحكومة مشايعة لمصر ، وبدت علامات الافتقار الى الاستقرار تظهر في البلاد · وشرعت اذاعات القاهرة في شهر سبتمبر في حملة عنيفة على حكومة الخرطوم ، وزعم رئيس وزراء السودان ان المعلومات المتوافرة لديه تشير الى ان الحكومة المصرية تؤيد بعض وزرائه الذين يخططون للقيام بانقلاب عليه· وكان لا بد من سقوط حكومة عبدالله خليل ، ليصبح للاتفاق بين مصر والاتحاد السوفياتى اية قيمة · ولكن عبدالله خليل اراد احباط أى انقلاب ضده بانقلاب يقوم به ، فاتخذ قرارا عجيبا سرعان ما ندم على اتخاذه · وراح يدعو بعض الضباط الموالين له لتسلم الحكم ، ووقع انقلاب « سلمى » في شهر نوفمبر ، ادى الى مجىء الفريق عبود الى الحكم ·

ومثل هذا التطور حظا حسنا للرئيس عبد الناصر لم يكن يتوقعه

---

(١) هذه هى التسمية الاستعمارية السابقة لهذه الاجزاء من القارة الافريقية ولكن جميع هذه الاجزاء ، تحررت من النير الاستعمارى البريطانى بعد عام ١٩٥٨ ، واصبحت تؤلف دولا مستقلة ، هى تانزانيا واوغندة ، وكينيا .

(المعرب)

فلقد كان الجيش السودانى يضم عناصر متطرفة مشـــابهة فى اتجاهاتها لتلك العنــاصر التى كانت موجودة فى الجيش المصرى عند وقوع الثورة فى عام ١٩٥٢ ، ولذا فلم يكن من المتوقع ان يسير أى نظام يسيطر عليه العسكريون فى السودان على سياسة معادية لمصر تمام العداء • يضاف الى هذا انه كان هناك عدد كبير من الضباط السودانيين الذين تشدهم أواصر الصداقة الى قادة مصر ، وهى الاواصر التى توثقت اثناء سنوات الزمالة فى العمل العسكرى ، ومن الاحاسيس المشتركة بالعداء لبريطانيا، وكان تقييم الرئيس عبد الناصر السريع للوضع صحيحا كل الصحة ، ولذا فقد بادر الى الاعتراف بحكومة الفريق عبود قبل غيره ، وكان جزاؤه على هذه المبادرة ، رسالة تلقاها من الفريق تقول ان السودان لا يعارض من ناحية المبدأ مشروع السد العالى •

واستؤنفت المفاوضات فى الوقت المناسب ، وفى ظل ظروف افضل من تلك التى دارت فيهــا المفاوضات الســابقة ، وسرعــان ما تعرضت الخلافات الحسابية ، الى عملية من التعديل ، حتى فى عقول اولئك الذين خلقوها فى البداية • وبالرغم من ان الحكومة السودانية كانت لا تزال مصرة على الحصول على مزيد من الماء فانها لم تكن عازمة الآن على مواصلة معارضتها لمشروع السد العالى ، ولذا فقد عمدت الى عملية من المساومات الطويلة التى استغرقت عدة شهور قبل الوصول الى نهاية موفقة • ولم يكن فى الامكان الوصول الى الاتفاق النهائى الا فى الثامن من نوفمبر من عام ١٩٥٩ ، عندما اتفق على ان تنال الجمهورية العــربية المتحدة اثنين وسبعين مليارا من الياردات المكعبة من الماء ، وان تنال السودان اربعا وعشرين مليارا • واتفقت الحكومتان فى الواقع على اقتسام الثلاثة عشر مليارا من الياردات المكعبة التى ستضيع فى التبخر • وحققت السودان لنفسها الحق فى ان تقوم ببرامجها للسيطرة على النيل ، ووافقت الجمهورية العربية المتحدة على ان تدفع الى السودان خمسة عشر ميلون جنيه لاعادة اسكان النوبيين وتأهيلهم • وتم بناء ســد خشم الجربا الذى نص عليه المشروع السودانى ، ليؤمن منطقة مروية لاعادة اسكان النوبيين على نهر عطبرة ، كما مضت الحكومة السودانية قدما فى تنفيذ مشروعها فى سد الروصيرص (١) •

---

(١) وافق البنك الدولى واتحاد التنمية الدولى والوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة فى عام ١٩٦١ ، على اقراض السودان مبلغ ٣٢٫٥ مليون دولار لتمكينها من بنــاء سد الروصيرص على النيل الازرق ، وعلى بعد ستين ميلا من حدود الحبشة • وسيؤدى هذا الخزان الى مضاعفة كميات مياه الرى فى السودان ابان فترة الانحسار السنوية •

ومثل اتفاق مياه النيل فى الثامن من نوفمبر لمصر ، خطوة حاسمة فلقد تم التوقيع عليه بعد احد عشر يوما من توقيع اتفاق تمويل السد العالى وانشائه مع الاتحاد السوفياتى • وادى الى ازالة آخر عقبة فى طريق الشروع فى العمل •

وراح الرئيس عبد الناصر فى التاسع من ينـاير من عام ١٩٦٠ وبعد ثمانى سنوات من الثورة ، وبعد ان كان سكان مصر قد زادوا بنسبة اربعة ملايين ، يضع الحجر الاساسى للسد عند الشلال الاول الى الجنوب من مدينة اسوان• وكان الرئيس المصرى قد اصبح الآن رئيسا للجمهورية العربية المتحدة ، وقد تمرس بالنضال ضـد المؤامرات التى تعرض لها حكمه ، ونجا من المحاولات التى دبرت على حياته ، وانتصر على المؤامرات لغزو بلاده • وسجلت لوحة بسـيطة منقوشـة تقع على رابية تطل على النهر ، هذه المناسـبة التاريخيـة ، لتؤكد النصر الذى حققه الرئيس عبد الناصر تماما كما سجلت النقوش انتصارات المصريين القدامى على ضفتى نهر النيل منذ اقدم عصور التاريخ •

القسم الثاني

العمل يسير قدما

٦ كيف يصمد البناء على الرمل

يسير بناء السد العالى على نهر النيل بين واديين قصيرين احدهما يدعى خور عجمة والثانى خور كوندى ، والاخير ينحدر عند الضفة الشرقية على زاوية مستقيمة مع النهر على مقربة من رأس الشلال الاول الذى يبعد ستمائة وثمانين ميلا الى الجنوب من البحر وخمسمائة وتسعين ميلا الى الجنوب من القاهرة واربعين ميلا الى الشمال من مدار السرطان. ويرتفع الشاطئان ارتفاعا عموديا الى مسافة ١١٠ اقدام فوق سطح النهر ، وقد اكتسى الشاطىء الغربى بالرمل الاصفر الذى يمتد من هناك عبر افريقيا كلها ، واكتسى الشاطىء الشرقى بالجرانيت الاصفر والبنى اللون ، وهو المكان الذى دار فيه معظم العمل حتى الآن .

ولا ماء فى المنطقة الا فى النهر . فامطار المحيطين الاطلسى والهندى وامطار البحر الابيض المتوسط ، وكلها تثرى العالم النائى بالماء ، لا تصل الى اسوان مطلقا . ولا ملجأ ولا مأمن طيلة أيام السنة من الحرارة الرهيبة التى تبعث بها قبة السماء الزرقاء التى لا تبعث بأى ظلال ، ولكن السنة تشهد عبر دوران فصولها ليالى دافئة ساكنة يسطع فيها القمر ، وتتلألأ النجوم .

والموقع قاحل للغاية . وتمثل صخور الضفة الشرقية للنهر ، وهى من بقايا العصور الجيولوجية القديمة جمرات لاسعة لا مثيل لها فى العالم ، وكانت قبل الشروع فى العمل فى المكان اشبه بالارض الميتة الرهيبة . وكان الناس فى هذه البقعة التى عرفها التاريخ الانسانى قبل غيرها . يمرون مرور الكرام بهذه الارض الخالية المهجورة التى لا يعيش فيها أى انسان الا اذا كان مرغما على ذلك ، وكان يطمع فى ان يجد فيها المأمن من حياة العالم القاسية التى يتعرض فيها الى العبودية .

وتم اختيار هذا الموقع لبناء السد ، على ضوء حاجات مصر للمياه لتكون فى غنى عن الفيضان السنوى . وكان خزان اسوان القديم قد وصل بسيطرة البلاد على النيل الى حدها الاقصى ، دون ان يحدث أى

تبدل فى اعتماد البلاد على الفيضان ، وكانت الطريقة الوحيدة لتجاوز هذا الحد ، والتحرر من نزوات النهر ، تخـزين مقـادير كافية من الماء لسنوات عدة • وكان دانينوس قد بين وجود حوض طبيعى ضخم للغاية الى الجنوب من اسوان ، يستطيع تأمين « التخزين القرنى » ، اذ امكن اغلاق الفجوة التى أحدثها النيل عند حافته الشمالية • وأدت عمليات المسح الجـوى التى اعتمـدت على اصدق الحسـابات الى تأييد ادعـاءات دانينوس ، ولم يبق الا اختيار احسن المواقع لاقامة السد ضمن المنطقة المتفق عليها •

وكان النيل قد احتفر خندقا عميقا عبر المنطقة الجافة التى لا امطار فيها ، والممتدة من الخرطوم الى اسوان • فمجراه هنا يسـير فى هضبة واسعة من الصخور الرملية التى تصلبت عبر العصور ، واصبحت متجمدة فى طبقـات ارضية قاسـية ، وتؤلف هذه الفواصل المسننة فى البيداء الصخرية الرملية شلالات أو منافذ طبيعية ، يضيق عندها الوادى بين الصخور والجزر الصخرية المهشمة ، حيث يتعثر عندها النهر • ويبحث المهندسون عن الواقع لاقامة سدودهم عند هذه الجنادل ، حيث تضيق الوديان وتقسو الصخور • ولذا انحصر اهتمامهم الى الشمال من حدود مصر الجنوبية دائما عند نقطتين : احداهما اسوان ، والاخرى على بعد اربعين ميلا الى الجنوب منها عند كلابشة •

وكان باب كلابشة ، وهو منفذ من الصخر القاتم ، يضيق عنده الوادى اكثر من ضيقه عند اسوان ، يستهوى المهندسين دائما كموقع طبيعى للسد ، ولكنهم لا يلبثون ان يرفضوه للسد العالى ، كما سبق لهم رفضه للسد القديم • فاختيار هذا الموقع ، يؤدى من الناحية الأولى الى تضييق طول الخزان داخل اراضى مصر ، مسـافة اربعين ميلا • وكانت الارض تمتد عند الشاطئين من الناحية الثانية الى مسافات شاسعة عند كلابشة ، بحيث تتطلب مد الجناحين الى مسافة اربعة اميال عبر اراضى صخرية رملية غير صلبة على كل من الشاطئين ، بينما لا يتجاوز طول الوادى عند اسوان اربعة اميال ، من التلال التى تقوم على هذا الجانب ، الى تلك على الجانب الآخـر ، وفى الوقت الذى تتألف فيه الضـفتان من صخور صلبة قاسية • وكان لاختيار اسوان مزايا اخرى ، منها اتصالها بالقاهرة والموانىء المصرية بواسطة طريق السـيارات والسـكة الحديدية واعمدة البرق والهاتف ، ومنها وجود محطة التوليد الكهربية عند سد اسوان الاول ، التى تعتبر ضرورية للغاية كمصدر للقوة المحركة لبناء السد الجديد ، وكان مجلس الخبراء الدوليين قد اختار الموقع عند اسوان

نهائيا في عام ١٩٥٤ ، وذلك بعد استدعائه لتقييم المشروع ، وأقر ان متاريس السد التى يعتبر بناؤها ضروريا لنجاح المشروع كله ، يمكن ان تبنى بشعور من الأمن والطمأنينة عند اسوان ، يفوق ما يحس به المهندسون تجاهها اذا بنيت فى منطقة كلابشة غير المستقرة ٠

وكانت الحكومة المصرية قد طلبت منذ عام ١٩٥٢ من مؤسسة هوتشييف وشركاه ، وضع تصميم لسد يضمن للبلاد السيطرة الكاملة على مجرى النيل ابان الفيضان وفى المواسم الاخرى ، ويؤمن توليد طاقة كهربية ضخمة على مدار السنة ٠ وكان الهدف الواسع للمشروع والحالة هذه ، اغلاق الحافة الشمالية للحوض الطبيعى بسور يكون من الضخامة ، بحيث يضمن الاحتفاظ بالفائض من مياه الفيضان السنوى ، لاستخدام هذا الفائض فى اية سنوات تالية ، عندما تهبط مناسيب الفيضان ، وبحيث يختفى النيل على حد تعبير ونستون تشرشل قبل نحو من خمسين عاما ولا يصل الى البحر مطلقا ٠ ويمكن عن طريق هذا الخزان ، ومهما كانت مناسيب الفيضان السنوى ، اطلاق ثلاثة وستين مليارا من الياردات المكعبة من الماء فى كل سنة ، لتصل عبر خزان اسوان القديم ، وغيره من القناطر ومنظمات الرى على النيل الى حقول مصر ومزارعها ٠

وكان المخطط لملء الخزان ببطء فيضانا اثر فيضان ، أقل وضوحا، وذلك لان سلوك النيل الذى يفتقر الى النظام والرتابة فى حساب مايدفع به من الماء سنة أثر أخرى ، يؤلف لغزا أو أحجية ٠ وكانت لدى الخبراء الألمان عندما شرعوا فى اعداد الدراسات فى عام ١٩٥٢ ، سجلات عن النهر تعود الى أيام الفراعنة ، كما توافرت لهم الدراسات التى قام بها هيرست وبلاك وسميكة واسلافهم ٠ وكانت حسابات الدكتور هيرست تقول ، ان المرء اذا اخذ بعين اعتباره المتطلبات الاضافية من الماء لمصر والسودان ، فان البرنامج الذى وضع قبل نحو من عشرين عاما ، لتطوير النيل وللتخزين القرنى ، قد لا يفى بجميع هذه المتطلبات مدة تسعة وعشرين عاما من كل خمسة وسبعين ، وان التوفير الجذرى والكلى فى استخدام المياه ، مهما تشدد سيبقى على أقل من سبع سنوات تتميز بالعجز عن تأمين المياه ٠ ويتبين من هذا انه وافق النبى يوسف على وجود السنوات العجاف السبع ، ولم يستطع التنبؤ مطلقا بان هذه السنوات قد لا تفد متعاقبة ٠ وقد لا تتعاقب هذه السنوات ، ولكن قد يتعاقب بعضها ، بحيث تنضب مياه الخزان وتعجز عن تأمين الرى السنوى ٠ ودلت الحسابات الاولى ، فى الواقع على ضرورة وجود خزان يضم ٤٣٠

مليار ياردة مكعبة من الماء ، ولكن لا وجـود لحـوض طبيعى يستطيع استيعاب مثل هذا القدر من الماء وراء اسـوان أو فى أى مكان آخر على النيل الرئيسى ، وتبين بعد حسـابات احصـائية ورياضية ودراسـات استغرقت امدا طويلا ان وجود طاقة استيعابية لمائة وسبعين مليار ياردة مكعبة قد يكون كافيا • وسيؤمن مثل هذا الخزان تخزينـا حيـا لاثنين وتسعين مليارا من الماء الذى يمكن استخدامه بحرية فى الرى ، وقدرة استيعابية لتسعة وثلاثين مليارا اخرى لحماية البلاد من الفيضـانات ، وتخزينا لتسعة وثلاثين مليارا أخرى ، تستخدم كشرك للطمى الذى يحمله النهر معه من الجبال الافريقية • وقدر الخبراء ان تخزين تسعين مليارا عند اسوان ، سـيكون كافيـا للرى ولتوليد الطاقة الكهربية ، وسيقى البلاد شر القلق من الوفرة او من الشح فى ايام الفيضـان السـنوى • وهكذا فسرت نصيحة يوسف النبى للفرعون ، بتخـزين الميـاه بدلا من الحنطة لمواجهة السنوات العجاف • وكانت مهمة مؤسسة هوتشيف ـ دورتموند ، وضع المخططات لسـد يكون من الضخامة بحيث يستطيع تخزين هذا القدر من الماء فى موقع حددته الجغرافيا سلفا ، على بعد ميل او ميلين من اسوان •

وكان من المعروف ايضا أن « أرضية » النهر لزجة وغير مستقرة الى اعماق بعيدة ، فى البقعة التى تقرر بناء السد فوقها ، ولم يكن ثمة أى خط من الصخر الجرانيتى الصلب يصلح كأساس لها • ولذا كان لابد من ان يكون السد العالى من الطراز الذى يملأ بالصخور ، والذى بات ممكنا من جراء التقدم الحديث فى علم آليات التربة • وقد عنى هذا فى الواقع ضرورة بناء قشرة ارضية صلبة واصطناعية ، على صورة ربوة تقوم باغلاق الوادى ، ولا يكون لها أى اساس ثابت او متحرك ، يعود ما يحمله النهر من رمل وطمى فيكون فوقها طبقات طبيعية • وسيصب السد على الارض صبا يضمن توزيع ثقله على مساحة كبيرة من الارض ، ولا يمثل فى أية نقطة من النقاط جبهة عمودية تقف فى وجه الفيضان •

وتعهدت مؤسسة هوتشيف ـ دورتموند باعداد تصميم أولى قبل الأول من ابريل من عـام ١٩٥٣ ، وتمكنت بعمليـة مستعجلة كعمليات الصاعقة من تجميع الحقائق والمعلومات الطوبوغرافية والجيولوجية اللازمة قبل منتصف يناير • وكان لا بد من استكمال هذه الحقائق والمعلومات من جميع النواحى ، ولذا فقد واصلت المؤسسة مسح المنطقة من الجو ، واجراء تجارب جيولوجية على الضفتين الصخريتين بينما راح المهندسون المصريون بالتعاون مع الخبراء الفرنسيين يسبرون اغوار «ارضية» النهر ،

ليجدوا العمق الحقيقى وتركيب « الفرشة » الجرينيـة التى تغطى هذه الارضية . واتم الخبراء الألمان بالتعاون مع اللجنة المصرية ، واثناء استمرار هذا العمل ، وضع التصميم الاول قبل نهاية شهر فبراير ، وتسلمت الحكومة المصرية المخطط الاول من مؤسسة هوتشيبف — دورتموند فى الموعد المحدد .

وبالرغم من وجود تباينات واضحة فى المخطط الاولى ، ومن ان فى الامكان احداث بعض التغييرات فيه ، الا انه كان فى الامكان رؤية ما ستكون عليه صورة السد للمرة الاولى ، فستكون هذه الصورة على شكل ربوة مؤلفة من طبقات تملؤها الصخور والرمال ، ويتسع عرضها نحوا من نصف ميل ، تقوم فوق ارضية النهر ، وتلقى جناحيها ، على الصخور الجرانيتية لمسافة ميل ونصف الميل على الضفة الشرقية ، ونصف ميل على الضفة الغربية . وستتم السيطرة على جريان النهر عن طريق نفقين تحويليين يمران تحت الجناح الشرقى واربعة انفاق مثلها تمر تحت الجناح الغربى ، بينما تؤمن الانفاق الثمانية تحت الضفة الشرقية قوة المياه الدافعة لمحطة التوليد الكهربية المقترحة . وتضمن المخطط الاول الذى تم اعداده بسرعة الصورة الاساسية للسد على النحو الذى يتم فيه بناؤه الآن .

وكان الهدف من انفاق التحويل سحب مياه الفيضان من قناة النهر فى الوقت الذى يجرى فيه رفع البناء الاساسى للسد فوق ارضية النهر . وكان لا بد لتحقيق هذا التحويل من بناء سدين مؤقتين احدهما امامى والآخر خلفى على المحور الرئيسى للنهر . وتتم ازالة مثل هذه السدود المؤقتة عند اقامة سدود الاسمنت المسلح من الطراز التقليدى على النحو الذى يمثل فى سد اسوان القديم ، بعد اتمام السد الرئيسى ، أما فى هذه الحالة ، فقد اقترح ادماج السدين الامامى والخلفى فى السد الرئيسى ، مع تغطيتهما بغطاء من الاسمنت المسلح ليؤلفا الوجهين الشمالى والجنوبى للسد .

وسيتألف هذان السدان على الغالب من حشد مضغوط من الصخور والرمال ، وتجمعهما الى بعضهما طبقات من الصخور والصلصال . وستشيد النواة المركزية للسد الثابتة ثباتا قويا وسط تلك الطبقات التى يصنعها الانسان من الصلصال وتقوى بدعامة افقية من الاسمنت المسلح والبلاستيك تكون تحت القمة وعلى الجانب الامامى للنهر ، لتقى السد من اخطار الصحراء والنهر ومن القصف الجوى . وسيرتكز الجزء الذى يبلغ

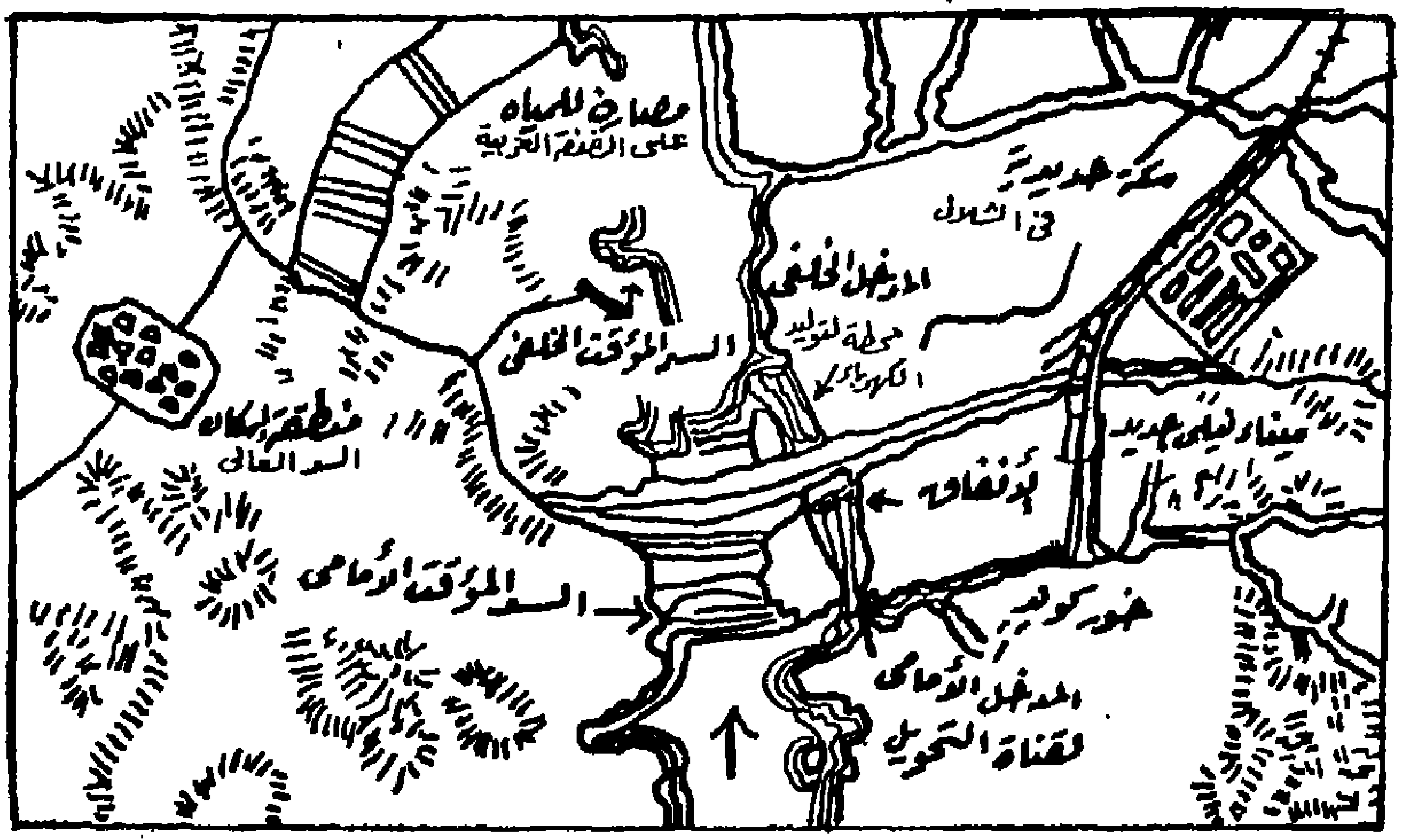

(مسقط للسد العالى مع مقارنته بالسد القديم)

طوله نصف ميل من السد فى النهر الى بســاط كثيف من الرمال التى تشد الى بعضها لتصل حد الصلابة عن طريق نظام من انظمة الاهتزاز · وهكذا وقف السد عاريا على الورق كمارد جبار يبدو امامه السد القديم كقزم ضئيل مع انه مثل اعجوبة من اعاجيب العــالم قبل نصف قرن ، وبالرغم من المنظر الرائع الذى يبــدو فيه حتى الآن · وسيمتد جناحا السد الى مسافات بعيدة على الضفتين بحيث يبلغ مجموع طوله نحوا من ميلين ونصف الميل ، ويرتفع بصورة متدرجة فوق منسوب مياه الخزان القديم ، ليعود فيصعد بصورة قائمة ، ويبلغ عند قمته نحوا من ٣٥٠ قدما ثم يعود فينخفض بصورة متدرجة باتجاه النهر على بعد نصف ميل الى الشمال ·

وسيتحدى الســد الأمثلة التى تضربها التوراة ، اذ سيشيد على الرمال ، ومع ذلك فسيبقى ويصــمد ويقــاوم ما يفعله النهر بالرمال · وتتألف « ارضية » النهر عند هذه النقطة من الحصى ومن الصخور المهشمة والحجارة الى عمق ثلاثمائة قدم واحيانا الى اربعمائة · ولم يكن هناك أى اقتراح بوضع اسس فوق هذا الحطام لتصــل الى الصخر فى الطبقــات الســفلى ، ومع ذلك فقد كان من الواضح منذ البــداية ان الخطر الاكبر الذى يهدد استقرار السد يمثل فى هذه الأرضية غير المســتقرة والتى تتخللها المياه · ففى وسع النهر الذى يجرى من الجنوب ان يرشح عبر

هذه القاعدة الرملية الى ان يجد منفذا له ، وعندما يفعل ذلك ، لا بد وان يسبب « انابيب » طبيعية مجوفة ، تؤدى الى تقويض السد مع مرور الزمن ٠

ويكون السد العادى التقليدى جدارا من الاسمنت المسلح ، يرتفع بصورة عمودية من الارضية التى تغطيها الصخور ، ويغلق النهر ، ولكن السد العالى ، سيكون افقيا ، اى انه سيمتد على الارض تحت غطاء من الاسمنت المسلح ٠ وارتكز التصميم على الفطرية التى تقول بان الماء سيتسلل عبر التربة الجوفية فى زاوية تعتمد على حجم حبات الرمل او الحصى ٠ وفى وسع طبقة كثيفة من الرمل الخشبى توضع تحت السد ، ولا سيما فى المنطقة التى يبدأ عندها الرشح ، ان تغير طبيعة محتويات الماء عند رشحه بطريقة تحول دون عمله على تقويض السد ٠

وليس فى وسع احد ان يرتكب أى خطأ فى هذا الطراز من التصميم ، او فى الحقائق التى سيعتمد عليها فى اسوان ، اذ ان ثبات البناء كله يتوقف على هذه الحقائق ٠ وادى هذا الى اجتماع مجموعة صغيرة من الناس فى اسوان فى عام ١٩٥٢ ، ومهمتهم حل مشكلة « أرضية » النهر ٠ ولا شك فى ان السائحين الذين ارتحلوا بالباخرة بين اسوان ووادى حلفا ، قد لاحظوا « دارة » اشبه « بالبنجلة » ، ومركبا صغيرا ، يبدو اشبه بالجرار المائى الواقف ذاهلا وسط النهر ، ومحركاته تدور ٠ ولكن مثل هذا المنظر التافه وسط الرؤى الرائعة التى يشاهدها السائح ، لا تجتذب اهتمامه على الاطلاق ، والمعروف ان هذه « البنجلة » هى مختبر السد العالى ٠ وتقوم فى داخلها مجموعة من الاخصائيين المصريين والفرنسيين بتحليل عينات من ارضية النهر ، بينما يضم المركب آلات الحفر التى تقوم باستخراج تلك العينات ٠

وكانت هذه البنجلة تقوم وحدها فى ذلك المكان فى عام ١٩٥٢ ، وقد توهج خشبها تحت شمس اسوان الحارقة ، وهى تطل على الموقع المقترح للسد العالى من الضفة الغربية ٠ وسرعان ما توسعت هذه الدارة مع مضى السنين ، واصبحت فى غضون حقبة واحدة جزءا من مجموعة من الابنية والمنشئات المتصلة بالسد ، مع انها كانت فى البداية صغيرة ومنعزلة فى الارض القفر ٠ ولم يكن المهندسون والكيماويون الذين يعملون فيها ، يتمتعون بالمكيفات واللطائف الاخرى ٠ وكانوا فى كل يوم يفدون بسياراتهم ، خارجين من مدينة اسوان ، فيمرون برأس السد القديم ، ثم يلفون كرات من الدخان الاصفر فوق الارض الترابية

القذرة عبر الصخور ان يختفوا وراء المنحدر الذى يخفى « البنجلة » .
وكان هؤلاء الناس منعزلين بارواحهم كانعزالهم فى شكوكهم العلمية ، اذ كانوا يمثلون فى ذلك الوقت مجموعة قليلة من الناس تتحدث عن السد الذى لم يكن قد اشتهر امره بعد لا فى عالم السياسة ولا فى عوالم المال والهندسة والطموح . ولم يكن الا القليلون يعرفون شيئا عنهم وعن أعمالهم ، وكانت الصحف المصرية تشير اليهم أحيانا اشارات عابرة وخاطئة . ومع ذلك فقد كانوا طلائع ذلك الجيش اللجب والضخم من الناس العاملين فى بناء السد الآن ، وكانت مهمتهم الحيوية متصلة بأن يقيموا الدليل على ان فى الامكان الاطمئنان الى اقامته على الرمل .

وكان فى امكان المرء اذا وقف على شرفة « البنجلة » المتمددة الى جانب النهر ، وتطلع الى ذلك المركب الوحيد الذى يبدو قميئا فى ذلك المحيط الضخم الرائع ، ان يتصور العمل الذى يقوم به المختبر فى صورته الصحيحة والمهمة . ومع ذلك فان هذه الصورة تبدو متواضعة وبطيئة. فهناك مجموعة من الفتيان ، بل ومن الصبيان يقفون امام زجاجات تشتعل نيران المصابيح تحتها ببطء ، وهناك آلتان تمدان ذراعيهما الحديديتين بهدوء ، لتحطما الصخر وتختبرا درجة تهشمه ، بينما هناك مصابيح أخرى تشتعل باستمرار ، وليس أمامها انسان وتتولى ترشيح الماء من الرمل والصخر لقياس قوة الرشح فيهما . وهناك حول الجدران ، جرار متشابهة ملأى بالطمى المحبب فى اشكال مختلفة منها الأخضر ومنها الأصفر ، وقد حملت لوحات مكتوب عليها باليد لتمييزها عن بعضها ، وكانها مجموعة من جرار « المربى » المنزلية ، وهناك فى باحة الدارة وعلى شرفتها صناديق طويلة وضيقة من الخشب ، وكأن المكان مأهول برجل من تجار الروبابيكا ، هوايته جمع طراز واحد من الفضلات .

ويرجع تاريخ هذه الجرار كلها الى نقطة البداية فى عام ١٩٥٢ ، وقد وضعت عليها اوراق كتب عليها ما تضمه كل جرة منها ، والموقع المحدد الذى اخذت منه العينة ، والعمق الذى استخلصت العينة منه . وكانت الصناديق الخشبية تضم عينات اسطوانية من « الارضية » الغرينية للنهر ، بحيث يرى المرء الرمل الرخو على رأس العينات السطحية ، وتدرجات هذا الارتخاء الى ان يصل حدود الصلابة فوق الطبقة الجرانيتية من صخر الأرضية فى قعر الصندوق . وتم رسم ذلك القطاع من النهر الذى سيقام السد فوقه ، وكان المركب يسبر اغوار هذا القطاع بحفارات فارغة تدفع فى اسطواناتها العينات لاجراء التجارب المخبرية لتأمين صورة حقيقية ومتدرجة عن ارضية النهر .

وتنتشر بين هذه الصناديق الخشبية فى صورة تبدو فوضويه للعين غير الخبيرة ، عينات اخرى من الصخر الصلد من قمتها الى سافلها٠ وهذه الصخور اصطناعية ، تم صفها على غرار ما فى النهر باشراف الخبراء وعلى ضوء ما استخلصوه بحفاراتهم ٠ وروى ويليام كامل شنوده، الذى عمل فى المختبر منذ انشائه ، كيف دفعوا انابيب الحفارات الصلدة الخاوية ، عبر السطح الرملى لارضية النهر ، الى ان وصلت الى طبقة اكثر كثافة من الحطام والغرين ، لتضرب احيانا جنادل ضخمة من الجرانيت ولتصل الى صخور الارضية ٠ واضاف انهم دفعوا فى انبوبة الحفارة الخاوية تحت الضغط مزيجا يضم ثمانين فى المائة من صلصال اسوان وعشرين فى المائة من الاسمنت ، لينبثق من الثقوب وليقوم بتقوية وتصليب ما يحيط به من رمل وغرين ٠ وقد افلحوا فى ان يستخلصوا من المواقع التى اجروا فيها هذه العملية عينات من الصخور الصناعية الصلبة والقاسية الرمادية فى لونها والمحتوية على مركبات من الحجارة الرملية ٠ وقال السيد شنوده ان هذه العينات تثبت ان فى وسعنا ان نجعل أرضية النهر صلدة وصلبة ولا ينفذ منها الماء ٠

وراح وهو يقف على الشرفة ويرسم على قطعة من الورق اخرجها من جيبه ، يشرح لى ما سيحدث ٠ فسيقوم المهندسون بتقسيم الموقع الى قطاعات ، يحفرون فى كل منها ، ويشكلون فيها ذلك المزيج الذى يولد الصخر الصناعى ، على خط يبعد عشرة ياردات الى الجنوب من محور السد ، ويقيمون حاجزا صخريا او كما يسميه المهندسون ستارا من الاسمنت يبلغ عرضه سبعة وستين ياردة ويمتد من ضفة الى اخرى ، ولن يمثل هذا الستار ، أساسا للسد ، وانما سيمثل وسيلته الدفاعية المركزية ضد ترشيح المياه ٠ وواصل السيد شنوده رسم الصورة اللفظية الى ان تحدث عن قيام السد العملاق ، مرتفعا فى الخيال ، فوق النهر ، ومختلطا مع الارضية الرملية ، بصخور اصطناعية من ذلك الطراز الذى كان يضع عليه الورقة التى يرسم عليها ٠ وهكذا يتبين لى ماتمثله تلك «البنجلة» المتواضعة بغرفها العارية ، وبجرارها الزجاجية ، وبعصابيحها وقدورها وصناديقها الخشبية ، ورجالها العاملين باستمرار٠ انها طليعة الطموح الجبار ٠

ولم يكن المختبر قد وصل بعد الى هذه المرحلة المتقدمة من الدراسات عندما قدمت مؤسسة هوشتييف ــ دورتموند مخططها الأول ، وعندما شرع خبراؤها فى اجراء دراساتهم التفصيلية التى تتناول كل ناحية من نواحى العمل الانسانى ، والتى تتردد بين التجارب على المواد التى

ستستخدم فى الانشاء وبين تحليل الارض التى سيقف عليها السد ٠ وتم رسم خريطة طوبوجرافية للمنطقة المباشرة ، كما تم الفحص الجيولوجى للصخور والتربة فى الموقع ، بمنتهى الدقة والخبرة الفنية المتوافرة للعلم الحديث ٠ ووسع المختبر الذى تعزز بالخبراء من مؤسسة جوهان كيلر الالمانية فى فرانكفورت من أعمال الحفر عموديا فى أعماق النهر وعلى مستويات مائلة ، كما استكملت تجارب هؤلاء الخبراء بالاساليب المرجافية (الاهتزازية) التى تستخدم فى التنقيب عن البترول ٠ وتقوم هذه الاساليب على اساس النظرية القائلة بان الصخور والطبقات الارضية ذات التركيب والبنيان المختلفين تتجاوب بصورة متباينة مع الانفجارات ، فلو قسنا بكثير من الدقة التجاوب الجوفى (الدوثروى) مع التفجيرات التى تتم تحت الرقابة ، كان فى وسعنا . اذا كنا من الخبراء أن نحصل على صورة عامة للتركيبات الجيولوجية العميقة ٠ وتمت التفجيرات التى وضعت موضع الاختبار فى ثقوب حفرت فى أرضية النهر وعلى ضفتيه الجرانيتيتين ٠

وواصل المهندسون الألمان هذه الدراسات فى الميدان وفى المختبرات فى المانيا واسوان بين شهرى ابريل من عام ١٩٥٣ واكتوبر من العام الذى تلاه ، بينما واصل غيرهم من مهندسى المؤسسة العمل فى الدقائق التفصيلية الاخرى من المخطط الأولى ٠ وبالرغم من ان هذا المخطط نفذ للحكومة المصرية كل متطلباتها على تنوعها ، فان وضعه تم بسرعة هائلة ، بحيث لم يوفر الثقة المطلقة بأنه سيؤمن الحد الاقصى من السلامة بأقل النفقات ٠ وتم اعداد ثلاثة مخططات اخرى تختلف عن الاول ، وكلها تؤمن مبدأ « التخزين القرنى » ومحطة التوليد الكهربية ، ولكن كل واحد منها حل مشكلة استقرار « الارضية » بطريقة تختلف عن حل المخطط الآخر لها ٠

واقترح المخطط الأول اغلاق النهر عموديا عن طريق اقامة جدار من الاسمنت المسلح يمتد حتى أرضية « النهر » ، وعنى هذا امكان الاكتفاء بقاعدة للسد اقل عرضا من الشمال الى الجنوب ٠ واعتمد المخطط الثانى من ناحية السلامة على قاعدة عريضة جدا من الطراز المقترح الذى تملؤه الصخور ٠ وجمع المخطط الثالث بين الحلين عن طريق اقتراح حاجز من الاسمنت المسلح فى « ارضية » النهر ، وعرضا متوسطا للسد لاغلاق النهر بصورة افقية ٠

وتم تقديم هذه الأقتراحات الثلاثة فى شهر اكتوبر من عام ١٩٥٤ الى فريق من الخبراء الدوليين الذين عهدت اليهم الحكومة المصرية بدراسة

مخططات اتحاد هوشتييف ــ دورتموند ، والى مؤسسة السير اليكزاندر جيب وشركاه البريطانية ، التى كانت تمثل دور مستشارى الحكومة • وهو رائد علم تركيب التربة ، وضم فى عضويته الدكتور سى جى ستيل والدكتور لورينز جى ستراوب ، الامريكى ، والدكتور ماكس بروس الالمانى والاستاذ اندريه كوين الفرنسى • وقبل المجلس الحل الثالث « المركب » لانه عرض خطين للدفاع عن السد ضد خطر رشح المياه ، وأولهما طبقة افقية واسعة من الرمل المضغوط تقوم بتحويل اية مياه تبدأ فى المرور عبر « انابيب » طبيعية تحت السد ، وثانيهما ، اقامة حاجز عمودى تحت البناء الاساسى لاغلاق الارضية •

وكانت هناك على اية حال شكوك جدية منذ البداية فى صلاح الجدار المسلح بالاسمنت المقترح ، كحاجز فى ارضية النهر • فلا بد من ارتفاع هذا الجدار مسافة ثمانمائة قدم فوق الأرضية الصخرية ، وعبر حمأة النهر ، حتى صلب السد نفسه ، ولا يمكن بناء مثل هذا الجدار فوق الأرضية الا بتجميد الرطوبة فيها مرحلة اثر مرحلة حتى أعماقها • وعندما يتم تجميد قطاع من الحمأة ، يبنى من جدار الاسمنت المسلح ، بحيث يصل فى النهاية الى الأرضية الصخرية عبر قطاعات متصلبة • ولم يكن هذا الاسلوب قد طبق من قبل على أى جدار يبلغ فى حجمه ذاك المقترح الآن فى أسوان ، ولا فى أية منطقة تبلغ درجة الحرارة فيها ما تبلغه فى أسوان • ولا شك فى ان فكرة التجميد على هذا النطاق الواسع وفى مثل هذا الجو الاستوائى فكرة غريبة •

وأجل المستشارون دراستهم للمخططات الثلاثة ، الى ان يتم استدعاء الاستاذ موهر الخبير الالمانى فى هذه الطريقة • ورأى هذا الخبير ان فى الامكان بناء الجدار ، وان الاسلوب قد تقدم من الناحية العلمية ، بصورة تمكن العلماء من استخدامه فى اسوان ، وان تجاربه التطبيقية السابقة لم تؤد الى أية كارثة • وقبل الدكتور بروس الذى كان مصرا على رأيه فى ان اقامة مثل هذا الجدار من الاسمنت المسلح هى وحدها التى تكفل سلامة السد ، رأى الاستاذ موهر ، ولكن غيره من اعضاء المجلس لم يقتنعوا به ، وكانوا يرون ان نظرية بناء الجدار ، يمكن ان تضطرب من جراء ما تواجهه هنا من متاعب بالغة لم تسبق مواجهتها فى استعمال اسلوب « التجميد » ، يضاف الى هذا ، انهم لم يكونوا على ثقة مطلقة من ان الجدار سيكون وسيظل سليما حتى ولو تم بنجاح بناؤه فوق ارضية النهر • وقالوا ان الجدار سيكون متينا من الناحية العمودية ، بينما سيكون من الناحية الافقية أشبه باللوحة الكثيفة المطاطة ، التى تتأثر

بالضغوط القوية والمتباينة من النهر ، وبالرواسب التى يحملها والتى يواجه بها الجدار • وسيتحرك صلب السد فى هذه الحالة باتجاه سير النهر وفى المرحلة الأولى من امتلاء الخزان ، ولا بد فى هذا الوضع من انحناء سطح السد • وكان واضعو التصميمات قد توقعوا مثل هذه المتاعب ، ولذا فلقد اقترحوا انفاقا للتفتيش داخل الجدار ، ونظاما شاملا لاجراء اية تصدعات قد تحدث تحت تأثير الضغط ، ومفصلا عند السطح يسمح بالحركة تحته دون ان يتشوه شكل السد نفسه • ورأى الدكتور بروس ان هذه الوسائل الدفاعية ستكون كافية ، ولكن غيره من المستشارين لم يكونوا على ثقة من اداء مثل هذا الجدار الكثيف من الاسمنت المسلح وفى ظل هذه الاوضاع المقصورة ، وراحوا يعلقون على ذلك بقولهم ان التجارب قد بينت ان نتائج العمليات التى لا سابقة لها ، قد تكون متباينة كل التباين مع التوقعات الاولية •

وأيد الخبراء باستثناء الدكتور بروس الذى خالفهم ، اقامة حاجز لا ينفذ منه الماء تحت صلب السد ، طبقا لاسلوب « التثبيت بالاسمنت » الذى طبق بنجاح فى مختبر السد العالى ، أى عن طريق « تصليب » ارضية النهر ، بدفع المزيج من الاسمنت وصلصال اسوان الى تلك الارضية وفقا لما شرحه السيد شنوده • وبالرغم من قلة عدد المؤسسات القادرة على القيام بمثل هذه العملية المتخصصة ، الا انها طبقت بنجاح فى رواسب نهرية أكثر صعوبة من تلك الموجودة فى اسوان • واخيرا رأى هؤلاء الخبراء ان عامل السلامة الذى يؤمنه الحاجز المثبت بالاسمنت اكثر من ذاك الذى يؤمنه جدار الاسمنت المسلح ، اذ ان فى وسعه ان يصمد فى وجه الطبقات التى تغطى الاسمنت المواجه لجريان النهر ، وفى قدرته عن طريق منع رشح الماء تحت السد على ان يحول دون خراب السد نفسه • وهكذا تم الوصول فى النهاية الى قرار بأن التصميم الثالث ، القائم على اساس بناء حاجز مثبت بالاسمنت ، هو المقبول بدلا من بناء جدار من الاسمنت المسلح •

ولا شك فى ان سلامة أى سد هى الهم الأول الذى يواجه جميع المصممين والمستشارين ، ولكن هذا الهم كان اكثر ضغطا بالنسبة الى موضوع السد العالى منه بالنسبة الى أى سد آخر • وكانت سلامة البلاد كلها تعتمد على الحل الصحيح للمشاكل المتعلقة بالسد ، اذ لو حدث انهيار للسد ، لغطت مياه الخزان جميع الأراضى المأهولة فى مصر • ولاشك

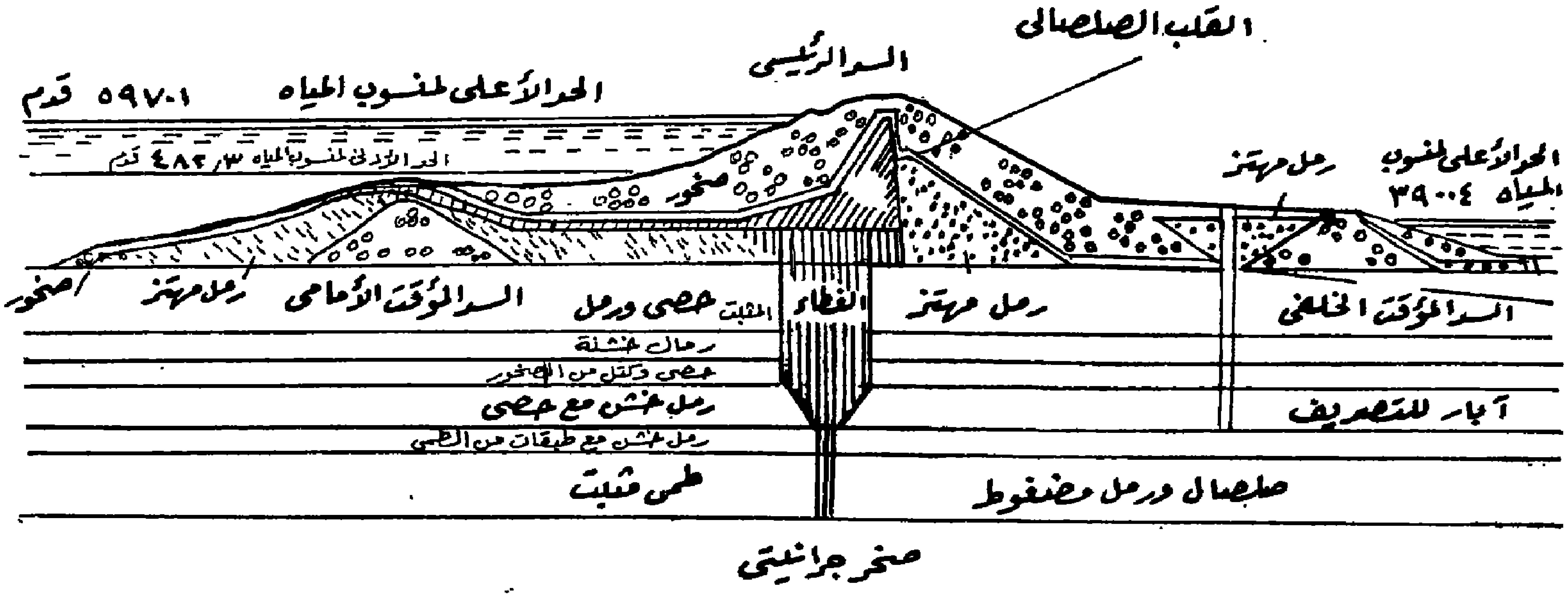

صورة قطاعية للسد تظهر ارضية من الرمل المتحرك
والصلب الصلصالي الذى تضمه طبقاته الصخرية

فى ان العمل الجارى فى السد العالى الآن يعتمد على الاعتقاد بأن موضوع السلامة قد حل نهائيا باستثناء حالة واحدة ليس الا ٠

وتتمثل هذه الحالة الواحدة المستثناة فى خطر الهجوم النووى ٠ فلم يكن فى وسع خبراء اتحاد هوشتييف ـ دورتموند او المستشارين الذين عينتهم الحكومة المصرية ان يؤمنوا اية حماية مؤكدة من الهجوم النووى ٠ ولقد طلبت الحكومة المصرية من واضعى التصاميم ضمان الحد الاقصى من الدفاع ضد الغارات الجوية ، وكان الاسناد البلاستيكى من الاسمنت المسلح لسطح السد ، حماية انشائية مهمة ٠ ولعل اهم وسيلة دفاعية فى حالة الحرب هى خفض مستوى المياه فى الخزان بنحو من تسعين قدما بحيث لا يفيض الخزان حتى ولو لحق الضرر بصلب السد٠ ولو تضرر الغطاء الافقى من الاسمنت المسلح عند السد الأمامى ، وأدى الى رشح الماء عبر التربة فى الخزان فان الحاجز المثبت بالاسمنت وترتيبات الرشح عند السد الخلفى ، سيظلان سليمين ، ويحميان السد من الهبوط والترسب ٠ ولكن جميع هذه الاجراءات الاحتياطية صالحة وفعالة للدفاع فى حرب تقليدية تستخدم فيها القذائف الموجهة من النوع الذى استخدم فى الحرب العالمية الثانية ، وذلك باستثناء قنبلة هيروشيما الذرية ٠ وذكر الخبراء المستشارون ان فى وسع القنبلة النووية ان تحطم أى سد فى العالم ، وان ليس فى الامكان وقاية أى سد من خطرها ٠

وقبلت الحكومة المصرية المجازفة٠ فلقد كانت تفكر أولا وقبل كل شيء فى خطر اسرائيل والهجوم من ناحيتها ، ولم تكن هذه آنذاك فى عداد الدول النووية المحتملة ، اذ ذكر العقيد حلمى ممثل الحكومة لمجلس الخبراء ان خطر الهجوم النووى بعيد وغير محتمل ٠ وهناك فى مصر من يقول بأن من المجازفة الاقدام على تقبل مثل هذا الخطر ، ولكن الرئيس عبد الناصر ، ظل يقول دائما ان مثل هذا الخطر يهدد كل بنيان خلاق فى العالم كله ، وانه لو افترضت جميع الحكومات ان العالم سيجن ويلجأ الى الحرب النووية ، لما اقامت أى مشروع على الاطلاق ٠

واقر مجلس الخبراء الدوليين فى شهر نوفمبر من عام ١٩٥٤ ان فى الامكان بناء السد طبقا للتصميم، ولذا فقد بادرت مؤسسة هوشتييف الى وضع مخطط البناء ٠ وكان التصميم الذى اقر فى عام ١٩٥٤ هو الاساس وان مر بسلسلة متعاقبة من التغييرات التى الحقت بالمشروع الاصلى الذى استكمل وضعه فى شهر أغسطس من عام ١٩٥٥ ٠ وتم تعديل مشروع هذا العام بدوره طبقا للتوصيات التى تقدم بها المستشارون

لاقامة حاجز اعمق مثبت بالاسمنت ، ولمزيد من العمل فى ضغط ارضية النهر ، ولمزيد من ملء الجانب الأمامى من صلب السد بالحصى ، ولاحداث تغييرات تمكن المصممين من تقليل عرض السد من الشـمال الى الجنوب بنحو من تسعمائة قدم ولتقصير طول الانفاق على ضفتى النهر • ولاشك فى ان هذه التعديلات كانت فى منتهى الاهمية لضمان المزيد من السلامة للسد وللتقليل من نفقات المشروع • وتم فى النهاية تغيير تصميم محطة التوليد الكهربية لتؤمن توليد ٢٢٠٠ ميجاوات بدلا من ١٥٠٠ • ولكن جميع هذه التغييرات كانت تعـديلات ادخلت لتحسـين المشروع وتقليل تكاليفه ، ولم تؤثر على القرار الاصلى الذى اتخـذه المستشارون بان فى الامكان بناء السد العملاق الذى تملؤه الصخور والذى يمثل اعظم مشروع من نوعه فى العالم كله • ولم تكن البلاد فى عام ١٩٥٦ فى حاجة الا الى المال والى القوة الكهربية المحركة للشروع فى العمل ، عندما جاء العدوان على مصر ، فأوقف عملية التخطيط والتصميم •

٧ ١٩٦٠ سنة التمهل

فجر الرئيس عبد الناصر فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر التاسع من يناير من عام ١٩٦٠ ، عشرين الف طن من الجرانيت ، ليرمز الى الشروع فى العمل فى السد العالى. ومثلت هذه الساعة لحظة اليقين للرئيس العربى من انه سيحصل على الأموال اللازمة للمضى فى العمل فى المشروع حتى نهايته . ولم يكد الشهر الأول ينقضى على الشروع فى العمل، حتى كان السوفيات يوقعون اتفاقا جديدا مع مصر ، كان مكملا للاتفاق الأول ، وتعهدوا بموجبه بتقديم مبلغ تسعمائة مليون روبل (نحو من ٨١ مليون جنيه استرلينى) كقرض للمرحلة الثانية من العمل .

وعهدت الحكومة السوفياتية الى مؤسسة الصادرات التقنية بمسئولية الحصة السوفياتية فى المشروع ، وقامت هيئة السد العالى المصرية بتسليم هذه المؤسسة ، التصميمات التى اعدها اتحاد هوشتييف ـ دورتموند ومجموعة نتائج البحوث التى اجريت عند الموقع . ولم يكن المهندسون الروس على استعداد لبناء السد وفق التصميم الالمانى بالرغم من التعديلات التى أدخلها فريق المستشارين العالميين وموافقتهم عليه ، وراحوا على الفور يجزئون تلك المجموعة الضخمة من الخرائط التى ألفت التصميم وبرنامج العمل . وادى هذا الى نوع من الاختلاف مع فريق المهندسين المصريين الذين اشتركوا فى اعداد التصميمات ، والذين راحوا يناقشون التغييرات التى اقترح الروس ادخالها . ولذا لم تكن هناك مخططات نهائية عندما بوشر فى العمل فى شهر يناير .

وكان هدف التغييرات السوفياتية ، تبسيط عملية البناء ، وتقليل المدة اللازمة لها ، وتخفيض التكلفة ، والتأكد من عدم تجاوز حدود المعونة

المقررة • ورحبت الحكومة المصرية بهذه الاهداف ، وذلك لان التكاليف كانت تمثل عبئا ثقيلا ، ولانها كانت تحس بالابطاء الذى حدث فى بناء السد الذى يعتمد عليه نجاح البلاد النهائى فى برامج تصنيعها • ولهذا فقد ظل الخلاف محصورا فى المستوى التقنى ، اذ راح المهندسون المصريون يعيرون كل تعديل مقترح على ضوء المعايير التى وضعها المستشارون الدوليون •

ولم يقبل المهندسون المصريون ، الاقتراح السوفياتى بالتخلى عن الحاجز المثبت بالاسمنت تحت المحور الرئيسى للسد ، اذ كان المستشارون الدوليون قد اصروا عليه اصرارا كاملا • وكان بناء هذا الحاجز يعنى توسيع قاعدة السد من الشمال الى الجنوب طبقا لاحد المشاريع الثلاثة التى تقدمت بها مؤسسة هوشتييف ــ دورتموند والذى رفضه المستشارون بالاجماع وان اختلفوا على شيء واحد فقط وهو الفضائل النسبية للاسمنت المسلح ، ولتثبيت الحاجز بالاسمنت • وراح الروس على ضوء ذلك يجرون تجاربهم الخاصة على ارضية النهر واقروا بضرورة الحاجز فى النهاية لضمان سلامة السد •

وتم الاتفاق على تغييرات كبيرة فى التصميم• وراح الروس يناقشون بكثير من المنطق ، بأنه ما دام السد عاجزا عن الصمود للهجوم النووى ، فلا ضرورة على الاطلاق لاحتمال تكاليف تحويل مجرى النهر كلية عن طريق الانفاق• واقترحوا تبعا لذلك ان يتم تحويل النهر عبر قناة واحدة واسعة عند الضفة الشرقية يربو طولها على الفى ياردة ، ويزيد عرضها عند مستوى الارضية على ست وستين ياردة ، وتهبط نحوا من مائتى قدم عن سطح الهضبة • واقترحوا ايضا ان تنشأ محطة التوليد الكهربى على الضفة الشرقية للنهر بدلا من الضفة الغربية ، وان يكون موقعها عند الطرف الخلفى من الانفاق التى ستؤلف القطاع المركزى لقناة التحويل • وهكذا سيسير النيل الى قناة مفتوحة طولها ١١٤٨ ياردة عند الجانب الامامى من السد ثم يختفى فى انفاق طولها ٣١٢ ياردة ، ليعود فيخرج منها الى مجراه الاصلى عبر قناة طولها ٥٤٧ ياردة •

وبالرغم من ان المستشـارين الدوليين وبعض المهندسين المصريين عارضوا خطة اقامة محطة التوليد الكهربية عند قناة التحويل ، الا انه كانت لهذه الخطة منافعها الانشائية الواضحة • فلقد ادى التقليل من عدد كثير من الانفـاق الطويلة الى حد كبير ، والتى يتطلب بناؤها التقـوية والتعزيز بالاسـمنت المسلح ، الى توفير الكثير من النفقات ومن الايدى العاملة الفنية • يضاف الى هـذا ان هذه الخطوة ادت الى تركيز عمليـة التحويل كلها عند ضفة واحدة بحيث يمكن تجميع القوة العاملة والآلات كلها ، ومثل هذا عاملا مهما للغـاية فى الاسراع فى العمـل والتقليل من نفقاته فى منطقة يتمثل الاتصال الوحيد فيها بين الضفتين فى مجموعة من الطرق تتصل ببعضها على بعد أربعة أميال الى الشمال وفوق سطح السد القديم نفسه •

ونقل الروس لتحقيق التغيرات التى ادخلوها على التصميم المحور المقترح للسد ستمائة ياردة الى الجنوب من الخطوط البيضاء التى ظلت عدة سنوات مصـدر التكهنات للمسـافرين فى النيل • واعتبروا خور كوندى كمدخل طبيعى الى قناة التحويل ، وأفادوا من منخفض فى الهضبة يمتد الى الشمال الغربى من الخور ، كخط للقناة نفسها ، تعود فتتحول فى شكل قوس لتعود الى الانضمام الى النهر شمال السد •

ولم تحدث هذه التغييرات فروقا اساسية فى تصميم السد ، وان فرضت منحنى على الجناح الطويل على الضفة الشرقية • ولم يحدث تبديل فى التركيب الطبقى للصخور والرمال التى تملأ النهـر تحت غطاء من الاسمنت المسلح على النحو الذى وضع الألمان تصميمه ، ولا شك فى ان الانسـان العادى لا يرى كبير فرق بين السـد الحالى وبين ما كان الالمان يعتزمون بناءه •

وتألفت المرحلة الاولى من العمل الذى بدأه الرئيس عبد الناصر ، والتى انتهت من حفر قناة التجويل وانفاقها ، ومن اقامة بوابات السيطرة

على المياه عند الجانب الداخلي للانفاق ، ومن بناء السدين المؤقتين عند الطرفين الخلفي والامامي للسد • وكان لا بد من ان يتم بناء السدين المؤقتين في موقعهما في الوقت المعين ، وذلك لترتفع مياه النيل فوق السد الأمامي ، وتتجه بعد ذلك شرقا عبر قناة التحويل ، وتعود بعد ذلك الى مجراها الطبيعي الى الشمال من السد المؤقت الخلفي الذى تنحصر مهمته في منع انسياب المياه الى الخلف الى موقع السد • وسيظل النهر بعد ذلك بين السدين خاليا من الحركة وهادئا للمرحلة الثانية ، وهي بناء السد الرئيسي وادماجه بالسدين المؤقتين •

ولا شك في ان المرحلة الأولى كانت مهمة للغاية للبرنامج كله • وعندما قدم المستشارون الدوليون تقريرهم حول تصميم مؤسسة هوشتييف ـ دورتموند ، ذكروا فيه ما نصه « يعتمد تحقيق مشروع بناء السد ، على ما اذا كان في الامكان تحويل مياه النيل الى انفاق التحويل ، دون المجازفة بانهيار السد المؤقت الذى يحمى موقع السد من خطر الفيضان اثناء فترة البناء » • وكان من الاسباب الرئيسية التي بررت لهم بناء السد في أسوان ، هو ان عمق النيل وقوة جريانه في تلك النقطة تجعل في الامكان بناء السد المؤقت الامامي • وكان لا بد من المحافظة على البرنامج الزمني بدقة نظرا لسلوك نهر النيل نفسه • ولقد تقرر ان تنتهي المرحلة الأولى في صيف عام ١٩٦٤ ، وألا يتجاوز هذا الموعد على أى حال ، ذلك اليوم من شهر يوليو الذى يصل فيه فيضان النيل الى اسوان • ولو وقع هذا التجاوز ، لتعرض العمل في انفاق التحويل وفي السدين المؤقتين لخطر التهدم ، ولتأخر استكمال العمل بصورة نهائية سنة كاملة • وسيكون مجموع ما ستخسره مصر من هذا التأخير في عملها وفي انتاجها نحوا من مائتي مليون جنيه •

ولقد كان انجاز هذا العمل العملاق في اربع سنوات ونصف السنة ، بالرغم من التخطيط المنظم المسبق ، أمرا رائعا للغاية • فلقد تطلب شق قناة التحويل ، حفر نحو من اثنى عشر مليون ياردة مكعبة ، من الجرانيت الصلب • ولكن هذا الحفر لم يكن كل شيء في العمل • فلقد

وضعت خطة البناء على اساس استخدام ما يخرج من هـذا الحفر من الجرانيت ، فى ملء السد بالصخور المختلطة بالرمال المتوافرة عند الضفة الغربية وفى مواجهة خور كوندى ، وعند الصحراء القريبة من الشلال ، والتى تبعد بضعة اميال الى الشمال • وكان لا بد والحالة هذه من خزن الاثنى عشر مليون ياردة مكعبة من الصخور التى انتشلت من موقع القناة فى اماكن معدة ، وان تنقل مرة ثانية لتوضع بصـورة دقيقة فى مواقعها وكمياتها فى النهر • وتطلب السدان المؤقتان نحوا من ستة ملايين ونصف مليون ياردة مكعبة ، كما تطلب السد الامامى نحوا من خمسة ملايين ياردة مكعبة من الرمل •

ولم يكن فى الامكان استكمال العمل فى الوقت المحدد الا اذا جرى الحفر فى وقت واحد فى الجانبين الامامى والخلفى من قنـاة التحويل وفى الانفاق ايضـا • وكان من المستحيل والحالة هذه الانتظار حتى يصـل الطرفان المفتوحان للقنـاة الطول والعرض المطلوبين للعمـل فى القطاع الجوفى ، وعنى هذا ان لا بد اولا من حفر نفق للنقل ، عند جانب النهر وفى زوايا قائمة مع القناة ، وبصورة منحدرة الى مستوى الانفاق ، وذلك ليكون فى الامكان القيام بالحفر شمالا وجنوبا فى كل من الجانبين • وكان لا بد ايضا للوصول الى نفق يؤمن مرور صفين من الشاحنات الثقيلة فى وقت واحـد ، ان يكون طول هذا النفق ٦٦٠ ياردة وان تكون مسـاحة فوهته ٩٠ ياردة مربعة ، وبذلك يصبح مجموع كميات الصخر التى لا بد من حفرها اربعة عشر مليونا من الياردات المكعبة •

وما كان مثل هذا العمل الضخم ليؤلف تحـديا غير عادى لو كان هناك جيش لجب من العمال ، المسلحين بالآلات اللازمة على استعداد لشن الحرب على صخور الجرانيت من قاعدة معدة ، ولكن مثل هذه القاعدة لم تكن موجودة فى شهر يناير من عام ١٩٦٠ ، كما لم يكن هناك الا عدد قليل من العمال ، واقل منه من الآلات ، كما لم تكن هناك قوة كهربية كافية لإدارة الآلات حتى ان وجدت • وهكذا اصبح التاريخ البراق لمولد

السد العالى معتمدا على الايمان وحده لاستمراره ، وبدا لوقت طويل ان هذا الايمان بدوره غير كاف لصنع المعجزة •

ويتطلب بناء اى سد ضخم ، شق الطرق واقامة المواصلات اللازمة للموقع قبل كل شيء ، كما يتطلب اقامة مدينة صناعية صغيرة ، وحشد جميع القوى العاملة فيها قبل تحقيق أى تقدم بارز • وكان لا بد فى بناء السد العالى ، من اقامة هذه المدينة بمصانعها ومشاغلها فى صحراء صخرية خالية من كل شيء الا الماء اللازم لاستمرار حياة الناس والآلات ، وتعيش فى جو لا يرحم ، تحرق فيه معادن اية آلة من الآلات ، الايدى التى تلمسها اثناء قيظ النهار • وكان لا بد من تجميع العمال من جميع انحاء مصر ، ومن استيراد الآلات والشطر الاكبر من المواد المصنوعة من روسيا عن طريق البحر الى الاسكندرية لتنتقل منها بالمراكب النهرية أو الشاحنات أو السكة الحديدية الى اسوان • وكان لا بد من وجود اربعين مليون قدم مكعب من المواد وخمسة وتسعين الف طن من الحديد ، والوف المساكن ومئات الشاحنات والرافعات والحفارات والمضخات التى تزن عشرات الالوف من الاطنان• ولكن شيئا من كل ذلك لم يكن موجودا فى شهر يناير من عام ١٩٦٠• وكانت الشحنة الاولى من روسيا فى طريقها فى تلك الآونة من الاسكندرية الى اسوان •

ولا يقع اللوم فى ذلك على مصر ، الا اذا شئنا ان نلومها على افتقارها الى الاناة والصبر فى اعداد الموقع اعدادا بطيئا ومتدرجا • فلقد تأخر تنفيذ مشروع السد امدا طويلا بسبب اقحامه فى الاحداث السياسية ، ومنع التمويل الاجنبى اللازم عنه ، وعندما جاءت الروبلات الروسية فى النهاية ، صدر الأمر فورا بالشروع فى العمل • وكانت البداية الصغيرة قد تحققت فى عام ١٩٥٥ عندما اقر مجلس المستشارين الدوليين مشروع هوشتييف ــ دورتموند ، وعندما كان ثمة امل فى الحصول على التمويل اللازم من بريطانيا وامريكا • وكانت مجموعة صغيرة من النوبيين قد خرجت آنذاك من بلدة اسوان ولا يحمل افرادها اكثر من عضلاتهم لمساعدتهم ، للشروع فى شق طريق الى الموقع ، وراحت معاول النوبيين وهى توجه اولى ضرباتها الى صخر الجرانيت فى صحراء اسوان ، تعلن بدء العمل فى المشروع العظيم • وأوقف العدوان على السويس فى عام ١٩٥٦ وما تبعه من قيود اقتصادية هذا الجهد الضئيل المتواضع ،

وذلك لأن الحكومة المصرية وجدت نفسها مضطرة الى الحرص بالنسبة الى ما تنفقه من اموال فى صحراء اسوان ، قبل ان تعرف اذا كان في امكانها الحصول على المعونة الاجنبية اللازمة لشراء الآلات والمعدات اللازمة من الخارج • ولم يستأنف العمل الا بعد ان عرضت روسيا المساعدة فى أواخر عام ١٩٥٨ ، وذلك طبقا لما قاله الدكتور حسن زكى رئيس هيئة السد العالى • ولكن هذا العمل ظل محدودا أيضا بسبب الافتقار الى المعدات اذ لم يكن فى الامكان الحصول عليها قبل توقيع الاتفاق مع الاتحاد السوفياتى • وقبل ان يكون المهندسون السوفيات قد تولوا فحص مخططات المشروع واقروها • وكان العمل الوحيد الذى يجرى فى هذه الآونة استئناف شق الطرق الفرعية الموصلة الى الموقع وبينها طريق تؤدى الى موقع ميناء جديد ومؤقت ، يجعل فى الامكان استخدام النهر كطريق للتموين • وتم شق نحو من ثلاثين ميلا من الطرق السطحية على شكل دائرى ، باتت تمكن الرجال والمعدات من الوصول الى الموقع والرجوع منه ، وبعد استخدام سطح السد القديم كجسر للانتقال بين ضفتى النهر • ولم تكن كل هذه الاعمال مثيرة بالنسبة الى السنوات التى انقضت منذ وضع تصميم السد ، ولكنها ضمنت على الاقل ان تكون هناك خطوط للتموين عندما تبدأ أولى المعدات السوفياتية فى الوصول الى الموقع •

وكانت اسوان عبر عصور التاريخ ، مدينة من مدن الحدود تقع على ضفاف النهر واكناف الصحراء ، ويصلها النهر بالبحر الابيض المتوسط، بينما يتآمر عليها مع الصخور والرمال ، لسد طرق اتصالها بالجنوب • وكان عبور الشلال الأول حتى نهاية القرن الماضى • عندما انشئت أولى السكك الحديدية لتعبره الى ميناء الشلال النهرى ، ومنها ينتقل الناس بالمراكب الى وادى حلفا فى السودان يستغرق يومين أو ثلاثة • وكان هذا العبور خطرا كل الخطورة عندما تنخفض مناسيب المياه فى النهر ، كما يتطلب سحب المركب عبر الجنادل والشلال نحوا من خمسين الى مائة رجل • وامتدت الطريق والسكة الحديدية مسافة ميلين اخرين الى الجنوب من أسوان ، عندما تمت اقامة سد أسوان الأول ، وأصبح السد نفسه أول جسر على النهر فى تاريخ هذه المنطقة•ولم يكن موقع السد العالى الا خطوة أخرى فى الطريق الطويلة الممتدة الى الجنوب ، ولكنها خطوة فى بيداء مقفرة • وكان مهندسو السد القديم قد أقاموا واحة غنية بأشجارها وازهارها لتأمين الظلال لداراتهم ، ولكن لايكاد المرء ينطلق بضع ياردات من هذه الواحة الى الجنوب ، حتى تطبق عليه تلال البيداء ، ويختفى عالم

الانسان ، ويصبح المرء وكأنه قد ابتعد الوف الاميال عن أية حياة . وهكذا بني السد العالي وراء هذا الخط الحاد الذى يفصل بين الحياة والموت . ولكن لم يكن فى الامكان الشروع فى العمل ، قبل ان تتخلل الطرق هذه الفجوة المهجورة تماما .

وتنتهي هذه الطرق الحيوية فى الوقت الحاضر فى الصحراء ، فى نقطة يعمل فيها المهندسون والعمال كطلائع لجيش لجب ، فى اعداد موقع السد . وكان العمال النوبيون ، يقضون اوقات راحتهم ، فى بداية المشروع فى خيام أو اكواخ مصنوعة من خشب الصناديق ، أو يأوون الى الكهوف فى الهضبة الصخرية ، ويطعمون أنفسهم مما يذبحونه من ماشية، ويروون ظمأهم من مياه النهر . وكان لابد فى البداية من نقل كل نقطة من الماء النقى بالسيارات الناقلة للماء من اسوان .

وتم فى عام ١٩٦٠ بناء سكة حديدية طولها عشرة اميال تبدأ من ميناء الشلال النهرى . وكان لهذه السكة هدف بعيد المدى فى تصميم السد العالى ، اذ كان المقصود منها ان تخدم ميناء نهريا دائما تقرر بناؤه فى خور كوندى ليمثل حلقة الاتصال الجديدة مع السودان . ولكن اهميتها الفورية انها أمنت خط التموين لحمل ملايين الياردات المكعبة من الرمال من الموقع لتستخدم فى تعبئة السد . وكانت هذه السكة الحديدية ، تمثل انجازا رئيسيا فى حد ذاتها ، اذ كان لابد من قطع كل ياردة من الطريق اما من الصخر ، أو من وضعها فوق جدار من الجرانيت الصلد اقيم لهذه الغاية .

وتحقق شيء من التقدم ايضا ، فى بعض المنشآت السطحية فى تلك السنة ، فقد اقيم مشغل ميكانيكى ضخم لاصلاح المعدات ، كما جرى العمل فى اقامة منشآت كثيرة أخرى لازمة للعمل . وأوشك بناء صهريج كبير لماء الشرب على الانتهاء فى ذلك العام ايضا ليمون العمال والمشاغل ، وكان يشرف على الموقع اشرافا كاملا . وتم بناء عدد قليل من البيوت ، وبالرغم من ان معظم العمال كانوا لايزالون يعيشون فى الخيام فى نهاية ذلك العام ، الا ان المهندسين الروس نزلوا فى « شقات » مكيفة الهواء تم اعدادها جديثا فى مصنع كيما للاسمدة الكيماوية فى اسوان .

ووقع بعض الاضطراب فى العمل فى السنة الأولى ، اذ اصر الروس على ان يمثل البناء الرائع فى السد ، نموذجا واضحا من نماذج عمل الجهاز الحكومى . ولم تكن لدى وزارة الاشغال العامة أو هيئة بناء السد العالى أية تجارب سابقة فى عمليات ضخمة من هذا الطراز ، ولذا فلم تتوافر

لديهما الاجهزة الادارية أو التنظيمية القادرة على مواجهة هـــذه الاعباء بدقة كاملة • وافتقرت عملية تشغيل العمال وادارتهم فى الاشـــهر الستة الاولى الى النظام الكامل ، ولذا فقد عدل الروس بعد هذه المدة عن اصرارهم العقائدى على ضرورة اقتصار العمل على الجهزة الدولة ، وراحوا يطالبون بتسليم قطاعات من العمل الى المتعهدين • وكان كبار المهندسين المصريين الذين رأوا المنشآت السابقة على نهر النيل تتم على ايدى المتعهدين ، يؤيدون هذا الاتجاه ، ولذا فقد عرضـــت الحكومة فى شهر اغسطس من عام ١٩٦٠ على المناقصة اعمال الحفر فى قناة التحويل وفى الانفاق • واعمال البناء بالاسمنت المسلح ، واقامة الســـدين المؤقتين • وكان هذا القرار فى منتهى الاهمية ، واثبتت الاحـــداث ان المشاريع الخاصة كان لابد من استدعائها للعمل فى السد العالى فى وقت سابق لمنفعة العملية كلها • (١)

وتعرض المهندسون الروس والمصريون لضغط شديد من جـــراء الجدول الزمنى للعمل ، طبقا للبرنامج الذى أعلن للعالم كله • وكانت مؤسسة هوشتييف ــ دور تموند قد قدرت عشر سنوات لاســـتكمال العمل ، وبنـــاء المنشـــآت وشق قنـــاة التحويل ، وانفاق توليد القوة الكهربية ، وبناء السد الرئيسى ، وذلك على مراحل متلاحقة • ولو أن المصممين السوفيات اصروا على تطبيق هذا البرنامج الزمنى ، لسار كل شىء طبقا للخطة الموضوعة ، بل ولسبق الانجاز التخطيط ، ولكنهـــم اعتقدوا ان ما احدثوه من تغييرات فى التصميم وفى اساليب العمل ، سيمكنهم من تقليل فترة البناء • ولذا فقد أعلنوا ان لابد من بناء السد فى ثمانى سنوات ، وان المرحلة الأولى التى تنتهى بتحـــويل النيل ، ستتم فى عام ١٩٦٤ •

ويبدو انه وقع بعض الخطأ فى الحسابات المتعلقة بالعمل • فلقد ذكر المهندس حسن زكى رئيس هيئة بناء السد العالى فى كتيب رسمى ان العمل فى قناة التحويل سيتم فى صيف عام ١٩٦٣ ، وقدر ان عدد العمال اللازمين فى ذروة عمليات الانشاء سيكون ستة آلاف ، بينمـــا

---

(١) يحاول المؤلف هنا التقليل من قدرة القطاع العام على العمل ، ولعله نسى أن شركة المقاولين العرب «عثمان أحمد عثمان وشركاه» التى أشرفت على عملية بناء الســـد ومنشئاته ، هى جزء من القطاع العام ، وقد برهنت هذه الشركة عن نجاحها الكلى فى العمل فى السد العالى •

(المعرب)

تبين بعد انقضاء نحو من عام على البرنامج الزمنى ، ان من المستحيل استكمال القناة فى عام ١٩٦٣ ، كما تبين ان اكثر من خمسة وثلاثين الف عامل كانوا يعملون فى السد قبل انتهاء المرحلة الأولى فى عام ١٩٦٤ ٠

وكان البرنامج الروسى يتطلب ان تسير عمليات الحفر وبناء القاعدة فى وقت واحد ، ولكن تنفيذ هذا البرنامج كان مستحيلا فى عام ١٩٦٠ لسبب بسيط واحد وهو ان القوة الكهربية لم تكن متوافرة ٠ فالآلات التى تستخدم وقود الزيت هى وحدها العاملة آنذاك ، وكان لابد من نقل كل لتر من البترول الى الموقع من سيناء او من الخارج ٠ وهكذا لم يكن فى الامكان انجاز القدر الكافى من العمل فى الموقع فى هذه الاوضاع ٠ ولم تكن عمليات التفجير لتعنى الكثير اذا لم تتوافر الآلات القوية للحفر ورفع الانقاض ، ولذا فلم تتزايد عمليات التفجير فى النصف الاول من ذلك العام ٠

وكانت محطة التوليد الكهربية فى سد اسوان القديم هى المصدر الوحيد الكافى للقوة ، ولكن العمل فى هذه المحطة لم يكن قد تم بعد ٠ وقام الرئيس عبد الناصر فى العاشر من يناير أى بعد يوم واحد من تدشين بدء العمل فى السد العالى ، بادارة مفتاح أول توربين فى محطة التوليد ، ولكن أهمية هذا العمل الذى يفوق الاحتفال بالشروع فى بناء السد لم تسترع انتباه الجماهير آنذاك ٠ فلقد كان المقصود أن تستخدم القوة التى يولدها هذا التوربين فى مصنع كيما للاسمدة الكيماوية ، ولم تكن له اية علاقة بالسد ٠

وكان دانينوس قد اقترح انشاء محطة التوليد هذه قبل الحرب العالمية الأولى ، وكان تصميمها النهائى توافر قبل الثورة وقبل الشروع فى دراسات السد العالى ٠ وكان العمل قائما فى انشائها على قدم وساق عندما وقع العدوان على السويس ، فتوقف ، ولحق به الابطاء ، بالرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان بناء المحطة يعتبر أهم عمل تمهيدى لاقامة السد العالى ٠ ولو لم تتوافر القوة المحركة من هذه المحطة ، لما كان فى امكان أية حكومة ، لا من ناحية المال ولا من ناحية التصميم ، ان تقوم ببناء السد العالى ، فى ذلك الجزء الجنوبى النائى عن مصر ٠ نظرا لعدم وجود القوة اللازمة للمشروع ، ولكثرة تكاليفه ، بالاضافة الى استحالة نقل الوقود البترولى الكافى لمثل هذا المشروع الضخم ٠ وعندما عرض دانينوس بناء السد العالى كبديل عن مشروع المحطة الكهربية ، كان كمن يضع بغباء

العربة امام الفرس ، اد لو لم تكن محطة التوليد موجودة في اسوان ، لكان من الضرورى أولا بناؤها ، قبل الشروع في بناء السد العالى •

ولم يكن من المستطاع أن يمضى العمل بقوة فى بناء السد العالى الا بعد ان شرع « توربين » المحطة الاخيرة فى الدوران ، وهذا لم يتحقق الا فى الخامس من ابريل من عام ١٩٦١ • وكان في امكان المحطة التى بلغت تكاليفها ٢٨ مليونا من الجنيهـات ان تولد آنذاك نحوا من١٫٨٦٠٠ مليون كيلو واط ساعة فى السنة ، وهو قدر كاف لتأمين الكهربا اللازمة لعدد من المدن • وتقرر تخصيص نحو من عشرين فى المائة من القوة التى تنتجها المحطة بصورة مؤقتة الى السد العالى ، وان يوزع الباقى على مصنع الاسمدة الكيماوية ، ومدينة اسوان ، ومصنع السكر فى كوم امبو • وتم مد اسلاك كهربية طولها ثمانية اميال ذات ضغط عال بين المحطة وموقع السد • كما اقيمت محطتان فرعيتان لتحويل شحنة المائة والثلاثين ألف فولت الى ستة الاف فولت فى عام ١٩٦٠ ، استعدادا لتأمين القوة الكهربية اللازمة للسد • وهكذا امنت المحطة القوة المحركة لكل عملية فى السد باستثناء عمليات السيارات والشاحنات والسكك الحديدية وبينها عمليات الحفارات الميكانيكية الضخمة التى مثلت مفتاح برنامج الحفر الضخم • وهكذا بدأ السباق مع الزمن بصورة جدية فى بناء السد ، عندما شرعت توربينات محطة كهربا اسوان فى الدوران •

ولم يكن هذا قد حدث في التاسع من يناير من عام ١٩٦١ ، عندما احتفل رسميا وبكثير من الاهتمام ، والحماسة ، بالذكرى السنوية الاولى للشروع فى بناء السد العالى • ولم يكن قد تم حتى تلك اللحظة الكثير من العمل • فلقد كانت المنشئات العمرانية لم تكتمل بعد ، كمـــا كانت المخازن غير ملأى ، وكان خط التموين مضطربا ، واليد العاملة قليلة للغاية، والهضبة الصخرية التى تمثل التحدى العملاق لجهود الانسان سليمة لم تكد تخدش بعد • وهكذا انقضت سنة واحدة من بين أربع سنوات ونصف السنة ، كان من المقرر ابانها تمزيق الهضبة ليمر منها مجرى النيل الجديد وهكذا مثل احتفال ذلك العام ، بداية أزمة فى أسوان •

٨ سنة الأزمة ١٩٦١

اقتصر العمل فى عام ١٩٦١ فى السد العالى على الحفر وعلى رفع الاتربة والصخور ، اذ كان هذا هو الجزء الاول من المرحلة الاولى . فلم يكن فى الامكان الشروع فى صب الاسمنت أو تعزيز الاعمال الانشائية أو تسليحها بالاسمنت ، كما لم يكن فى الامكان ايضا البدء بانشاء محطة التوليد الكهربية الجديدة قبل أن يكون العمل فى القناتين وفى الانفاق قد وصل الى مرحلته النهائية . وكان فى وسع المهندسين فى هذه الآونة الشروع فى حفر طرفى قناة التحويل الامامى والخلفى ، والنزول بحركة المرور الواسعة من جانب النهر الى مستوى الانفاق الوسطى .

وحملت لوحة اعلامية نصبت عند طرف الهضبة المطلة على النهر ، صورة محور السد واعلنت انه سيكون الهرم الحديث فى مصر . وذكر مهندس مصرى كان يقف الى جانب هذه اللوحة فى شهر يناير ان حجم السد سيكون معادلا فى حجمه ست عشرة مرة حجم أكبر الاهرام وأضخمها. واضاف وهو يتطلع الى المكان النائى ... « سيكون كل شىء هنا ضخما . وسيشهد هذا العام أضخم عملية رفع للتراب والصخور شهدها العالم كله فى أى عصر من العصور . وعليك ان تستبعد من مخيلتك أى تصور للسد العالى على ضوء ما سبق لك رؤيته من قنوات وترع . فعلينا أن نشق اخدودا ضخما وسط هذه الهضبة لنصل الى مستوى النهر . وسيمر نهر النيل كله فى النهاية عبر هذا الاخدود وانفاقه ، بمعدل ثلاثمائة ألف ياردة مكعبة فى الثانية الواحدة ، وهو رقم يتجاوز ما يحمله أى مجرى نهر أو قناة شقها انسان فى أى مكان فى العالم . وعليك ان تتذكر ان هذه الهضبة التى نقف عليها ، من الصخر الصلد . ولا بد من تهشيمه ونقله . وسنقوم بهذا العمل ، بل علينا أن نقوم به ، وستكون القناة من الضخامة بحيث يأتى السائحون من كل مكان لرؤية الاخدود الذى سنشقه » .

وكانت تبدو عند الطرف الشمالى الشرقى الاعمال الانشائية فى

خزانات مياه الشرب وفي المشاغل اللازمة • وكان النشاط هناك يفوق ما هو حادث فوق الهضبة ، اذ لما كانت القوة المحركة لم تتوافر بعد من محطة التوليد الكهربية في اسوان لآلات الحفر ، فقد مضى العمل قدما فى اقامة المنشئات • وكان لابد أيضا فى منطقة بلدة أسوان من اجراء الكثير من عمليات الحفر والتسوية ، لشق الطرق واقامة أسس الابنية • وقال لى المهندس ••• « تصبح الاعمال السهلة هنا شاقة ، اذ علينا لفتح أى طريق أن نشق الصخر ، وأن نغطى الطريق بعد ذلك بسطح ممهد اذ ان شظايا الصخر تخرق دواليب السيارات • ويكاد كل انسان ، بل وكل شيء يشوى في الشمس معظم أيام السنة ، وقد لا تكون الحرارة شاقة الآن ، اذ اننا في فصل السياحة ، عندما يأتى الناس من كل مكان الى أسوان طلبا لأشعة الشمس ورغبة فى التمتع بالمناظر • لكن الحرارة لاتطاق معظم أيام السنة ، ويكفى انتتصور أن الحرارة تبلغ فى الظل١٣٥ درجة فهرنهايت • ولقد خبرنا هذه الحرارة فى السنة الماضية ، ولم يكن فى وسع حتى أولئك الذين الفوا العمل فى مصر العليا ان يحتملوا مثل هذه الحرارة التى لا تطاق • وليس فى وسع أحد ان يعمل فى النهار فى مثل هذا الجو ، ولساعات طويلة على الاقل » •

وكانت مشاكل الصخر والحرارة وضخامة الهضبة معروفة كلها للقائمين على المشروع ، حتى قبل وضع الجدول الزمنى ، ولكن سنة مضت على بداية العمل دون أن تكون القوة المحركة قد توافرت ، ولم يكن الموقع يضم الا القليل منالمعدات الثقيلة ونحوا منسبعين فنيا «سوفياتيا» ومهندسا وثمانين مهندسا مصريا والفى عامل ، وكانالشطر الاكبر من هذه القوة يعمل فى النواحى الثانوية الفرعية فى القاعدة • ولم تمض أكثر من بضعة أسابيع على الاحتفال السنوى الاول ببدء العمل فى السد العالى حتى كان الدكتور فازيل كوكانابييف ورئيس المهندسين ايفان فاسيليفشى كومزين ، يدعوان أعضاء الهيئة العليا للسد العالى الى اجتماع ، ليعلنا فيه رأيهما فى أن العمل لا يسير فى السد سيرا مرضيا •وقال كومزين بصراحة ان من الضرورى اعادة النظر فى الخطة لضمان الاسراع فى العمل ، وطالب بصورة خاصة باتخاذ الاجراءات اللازمة لتدريب ألف من المصريين فى موقع السد على استعمال المعدات الثقيلة • واحتج المهندسون المصريون بأن المعدات السوفياتية الثقيلة ليست متوافرة ، وان الاسراع فى العمل لا يمكن أن يتحقق بدونها • وهكذا أصبحت العملية كلها تدور فى حلقة مفرغة ، فلا فائدة من تجنيد العمال اذا لم تتوافر الآلات ، ولا فائدة من المجىء بالآلات ، قبل أن تتوافر القوة المحركة لتسييرها • وعندما انطلقت القوة

الكهربية الجديدة من محطة اسوان الجديدة ، فى شهر ابريل لم تكن هناك الا ثلاث حفارات ضخمة من طراز أولانشيف ، على استعداد للعمل ، أى بمعدل واحدة فى كل قطاع من قطاعات القناة .

وكانت انباء الابطال فى العمل قد وصلت الى الصحافة الاجنبية ، قبل ان يدير السيد زكريا محيى الدين وزير الداخلية ورئيس الهيئة العليا للسد التوربين الاخير فى محطة توليد اسوان الجديدة لتأمين الكهرباء للسد العالى .. وراح بعد انتهاء الاحتفال ، يطوف بالموقع ، وبصحبته السيد موسى عرفة والسيد حسن زكى وكبار المهندسين الروس ، وأعلن بعد انتهاء طوافه ان القوات المسلحة ستستدعى لتأمين الفنيين والميكانيكيين لتأمين الاسراع فى العمل » . وراح الوزير بعد ذلك يرد على الدعاية المغرضة » فى الصحافة الاجنبية، ويؤكد ان تقدما كبيرا قد تحقق ولاسيما فى العمل الرئيسى ، وانه تم انشاء ٩٥ فى المائة من قناة التحويل بالرغم من كل المتاعب التى واجهها العمل . ورد الدكتور موسى عرفة على الدكتور فيتورينو فيرونيز المدير العام لمنظمة اليونسكو فقال ان العمل يسير دون ابطاء ، وطبقا للخطة المرسومة . وكان الدكتور فيرونيز الذى يقود حملة عالمية لانقاذ آثار النوبة التى ستغرق وراء السد قد صرح فى الخرطوم فى شهر مايو ، بان اكمال بناء السد سيتأخر نحوا من أربعة عشر شهرا عن الموعد المقرر . وراح السيد كومزين يعلن للصحافة أيضا ، التغلب على جمع المصاعب بنجاح .

لكن هذه البيانات المطمئنة لم تبدل من واقع الامر شيئا فى ذلك الحين . فلم يكن عدد العمال فى الموقع يزيد على ألفين يقودهم نحو من ١٢٠ مهندسا مصريا وثمانين مهندسا روسيا ، ولم تكن جهودهم قد حققت تقدما ضخما . ولم تكن عمليات الحفر قد شملت أكثر من تسعمائة ألف ياردة مكعبة من مجموع أربعة عشر مليونا ، وان كانت التقديرات السابقة قد أكدت ان ستة ملايين ونصف المليون من الياردات المكعبة سيتم حفرها فى عام ١٩٦١ . وكان الحديث لا يزال يدور عن ان الحد الاقصى لعدد العمال سيكون ستة آلاف .

ووقع فى هذه الآونة ، تدهور فى العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتى . ولو كان خروشوف قد أمل حقا فى أن تحيل مساعدات السوفيات للسد العالى ، الجمهورية العربية المتحدة الى دولة تابعة ، فان هذا الأمل قد زال الآن نتيجة اصرار الرئيس عبد الناصر على سياسة الحياد الايجابى . وبالرغم من الدول ان الغربية كانت ترى

على ضوء اقتراعات الجمهورية العربية المتحدة في الامم المتحدة، ومعارضتها العنيفة لجميع السياسات الغربية فى الشرق الاوسط وافريقيا ، ان هذه الجمهورية مشايعة لروسيا ، الا ان الحكومة السوفياتية لم تر انها كثيرة المشايعة لها • وكان الاتحاد السوفياتى منضايقا من صداقة عبد الناصر وتيتو ، اذ كان الاخير في تلك الآونة من أكثر رؤساء الدول الذين تكرههم روسيا • وكان منزعجا من التعاون بين الزعيمين فى انشاء كتلة من الدول اللامنحازة ، اذ انها تعنى منع توسع النفوذ السوفياتى وانتشاره فى الدول الحديثة الصغيرة(١) • يضاف الى هذا ان الاحزاب الشيوعية المحلية كانت تمر بفترة عصيبة مع امتداد الثورة العربية في الشرق الاوسط • ويصدق هذا القول بوجه خاص على العراق ، كما ان الاتحاد السوفياتى كان لا يزال يذكر ان الشيوعيين معتقلون فى الجمهورية العربية المتحدة ، بالرغم من ان سراح عدد منهم قد اطلق منذ عام ١٩٦٠ • وراحت الصحف السوفياتية تحمل على سياسة الجمهورية العربية المتحدة المناهضة للشيوعية ، ورد محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير الاهرام ، والمقرب من الرئيس عبد الناصر ، بان روسيا السوفياتية شيء والشيوعية شيء آخر ، وان على روسيا أن تنأى بنفسها عن التدخل فى الشئون الداخلية للدول الصديقة • وعلقت صحيفة البرافدا فى شهر يونيو ، فى لهجة تنطوى على الوعيد ، بأن على مصر أن تتذكر ان من حق من يدفع لنافخ البوق أن يطلب منه اللحن الذى يريده (٢) •

وكانت الصحف السوفياتية قد شرعت في توجيه النقد الى سير العمل فى السد العالى منذ مطلع صيف عام ١٩٦٠ ، وكان المهندسون المصريون يردون على هذه النقدات ، بنقد الاساليب السوفياتية فى العمل،

---

(١) أعتقد أن المؤلف هنا يخطىء كل الخطأ فى تقييم سياسة عدم الانحياز • فالمعروف بوضوح أن الدول الغربية كانت أكثر تضايقا من سياسة عدم الانحياز من الاتحاد السوفياتي ، لانها كانت تعتبر «ان من ليس منا فهو علينا» • يضاف الى هذا أن الاتحاد السوفياتي كان قد شرع فى عهد خروشوف فى تفهم حقائق سياسة عدم الانحياز وتقديرها •

(٢) نحن لاننكر ماوقع من توتر فى العلاقات السياسية فى تلك الآونة ، ولكن كان من الواضح فى بيانات الجانبين السوفياتى والمصرى آنذاك ، ان لاعلاقة لهذا التوتر فى سير العمل فى السد العالى ، اذ ظل هذا العمل رمزا للتعاون الاقتصادى والفنى بين الدولتين •

(المعرب)

واتهاما بالافتقار الى الفاعلية (١) • وكان التوتر السياسي الذى طرأ بين الدولتين عاملا فى عدم تحسين الوضع • وبالرغم من عدم وجود علاقة مباشرة بين هذا التوتر والعمل فى السد ، اذ استمر هذا العمل كالعادة بالرغم من تهديد «البرافدا» ، الا انه اسهم فى تورية الشكوك التى لم تكن بعيدة عن السطح قط ، وذلك في وقت كانت الحاجة ماسة فيه الى توفير كل جهد للتغلب على عيوب الاسلوب والتنظيم • وراحت الشكوك تساور بعض المصريين بان الروس يتعمدون الابطاء فى تسليم المعدات ، بينما أبطأوا هم في تنفيذ برنامج تأهيلى تم الاتفاق عليه فى ربيع عام ١٩٦١ ، وقيل ان السبب في ذلك كان ناشئا عن تردد مصر فى السماح للشيوعيين بحرية العمل فى أسوان تحت ستار المدربين (٢) •

وكان من الطبيعى أن تنشأ مثل هذه العراقيل فى وجه التعاون بين المصريين والروس ، نظرا لعدم وجود لغة مشتركة للتفاهم بين الجانبين من ناحية ، ولأنهما لم يكونا قد خبرا العمل معا فى الماضى • وكان فى الامكان تذليل هذه الصعوبة لو ان السوفيات سمحوا باستخدام بعض المهاجرين الروس البيض ، الذين كانت لسبعة منهم تجارب نافعة وكانوا يعرفون اللغتين (٣) • ولقد نبعت معرفة المصريين بالمبادىء التى تحكمت فى مخطط السد العالى ، من روسي أبيض يدعى جريجورى تشيبوراريف ، الضابط السابق فى الجيش القيصرى ، وأحد أنصار كارل تيرزاجى بعد الثورة ، والذى كان يتولى ادارة مختبر تركيب التربة فى الجيزة ، وذلك بالاضافة الى خمسة آخرين من المهندسين الروس البيض ، كانوا يعملون فى مصر ، وأحدهم الدكتور سيرج ليليافسكى ، الذى كان الخبراء المصريون يقدرونه كل التقدير • ولكن السوفيات رفضوا الاستعانة بهؤلاء •

---

(١) يعتمد المؤلف هنا على الشائعات التى يبدو انه كان قد سمعها ، عن مثل هذه الانتقادات المتبادلة بين الجانبين • ولكن هذه الشائعات لم تغير شيئا من صورة الحقيقة ، وهى أن العمل فى السد العالى تم حسب الخطة المقررة ، بل وقبل المنهج الزمنى المقرر للمرحلة الاولى •

(٢) لاشك فى أن مثل هذه الشائعات التى يعتمدها المؤلف ، والتى يستخدمها وكأنها حقائق مقررة ، تدل على اتجاهاته الغربية ، وهى اتجاهات ، ماكانت لترضى طبعا عن أى تعاون بين مصر والاتحاد السوفياتى • ومن هنا تبرز دوافعه لتوجيه النقد الى سير العمل فى السد العالى •

(٣) لم يكن من الطبيعى أن يستخدم السوفيات أعداء ثورتهم فى أى عمل لهم ، ولاشك فى أن اشارات المؤلف وانتقاداته فى هذا الصدد مغرضة • (المعرب)

وكانت لغة الهندسة المدنية على نهر النيل وأساليبها بريطانية • فلقد درب المهندسون المصريون على الاســـاليب الغربية ، وكان معظم المهندسين من ذوى المناصب العـــالية ، قـد حققوا خبراتهم الى جانب زملائهم البريطانيين فى مشروعات النيل المختلفه • وكان الوزير موسى عرفة ، ورئيس المهندســين ابراهيم زكى ، ونائبه أحمد ســـعيد ، قد اشتركوا فى التعلية الثانية لسد أسوان القديم ، وكانوا قد ألفوا طرازا من العـــلاقات الاجتماعية لا يستسيغه الروس • فلم يكن الروس ليألفوا الاحاديث الودية عن متاعب العمل ، أثناء تنـــاول كأس من الشراب بعد انتهاء العمل • ولذا فقد ظلت العلاقات المهنية قائمة على المستوى الرسمى، وكانت المشاكل تبحث بصلابة وجمود فى المكاتب • ويبدو ان هذا هو ما كان الروس يتطلبونه ، اذ لم يبذلوا أى جهد لاحداث أى تغيير ، اذ لما كانوا كثيرى الحساسية كشأن الروس فى الخارج دائما تجاه الاجواء السياسية ، فقد ظلوا نائين بأنفسهم أثناء النزاع السياسى الذى وقع فى عام ١٩٦١ •

ولكن الفنيين والميـكانيكيين الروس ، راحوا يتفـاهمون تماما مع العمال فى الموقع • وكانوا ينتقلون معا بينه وبين أسوان جيئة وذهابا فى « الاوتوبيسات » وقد جمعهم احساس مشترك بحب النكتة ، مما اضفى على هذه الرحلات المشتركة أجواء من المتعة • وكان النوبيون بوجه عام يجدون صعوبة فى فهم الروس• وكانوا يدهشون من رؤية هذه المجموعات من السوفيات تصل بالقطارات ، فيقوم أفرادها بحمـــل حقـــائبهم الى الاوتوبيسات ، ثم يمضون فى طريقهم الى «كيما» التى اطلقوا عليها اسم «موسكو الصغيرة» دون أن يدفعوا قرشـــا واحدا • وكان سقاة حانات الفنادق فى أسوان ، يشكون من ان الروس لا يؤمون حاناتهم ، ويقولون انهم لو كانوا من البريطانيين لاشتغلت تلك الحانات ليل نهار • وبالرغم من تفاهة هذه العوامل فى المشروع المشترك ، الا انها أضافت شيئا قليلا الى سوء التفاهم بين الجانبين •

وكان اسهام الســـوفيات فى العمل فى السد ، يتقرر مرحلة اثر مرحلة ، فى سلسلة من العقود التى حملتهم المسئولية عن نسبة عالية من أعمال الهندسة الفنية والاعمال الميكانيكية كبناء الانفاق وقناة التحويل، وتقوية الجدران بالاسمنت المسلح • وكانوا يتـــولون ادارة الحفـــارات الضخمة ، كما كانوا يقودون فى البداية الشاحنات الهـــائلة ذات حمولة الخمسة والعشرين طنا ، ويقومون بالاشراف على عمليات التفجير والحفر ،

ويؤمنون الكادرات العمالية فى المشاغل للصيانة والاصلاح • وبالرغم من عدم الوصول الى الرقم الاقصى من العمال الفنيين فى عام ١٩٦١ ، فان رئيس المهندسين كومزين ، كان يعرف ان الحاجه ستزداد اليهم ، ولذا فقد راح يطلب ايفاد ثلاثة آلاف منهم • ولم يكن فى وسع الجمهوريه العربيه المتحدة أن تقبل هذا العدد الضخم من العمال ، لكثرة تكاليفهم ، ولذا فقد أصر كومزين على اعطاء الأولوية المطلقة لبرنامج واسع النطاق لتدريب المصريين ، وراح يتهم المسئولين عن التأهيل الفنى بالابطاء فى العمل •

وكانت مصر فى البداية مفتقرة الى العمال الفنيين المصريين • وكانت الصورة الغالبة على المجتمع المصرى قبل الثورة ولبضع سنوات بعدها ، تمثل فى قيام المتعلمين المصريين اما بزراعة أراضيهم التى يملكونها أو بالانضمام الى المهن الحرة • وكانت الجامعات تغص بطلاب الحقوق والصحافة ، مع ان البلاد كانت مليئة بالمحامين والصحفيين ، بينما لم تكن كليات الهندسة ، التي تخرج من تحتاج اليهم البلاد ، قادرة على مواجهة متطلبات العمل • ولقد انقلب الميزان الى حد ما فى السنوات الاخيرة ، وكان السد العالى ، يمتص ما تخرجه الجامعات من المهندسين فور تخرجهم • ولكن كان لا بد من انقضاء وقت طويل قبل الانتفاع منهم ، اما بسبب الافتقار الى الخبرة من ناحية ، أو بسبب ولوعهم بالمناقشات النظرية أكثر من ولوعهم بالعمل فى الآلات • ولم يكن الوقت قد ازف بعد ، لاعتبار لطخة الزيت فى ثيابهم من الآلة التى يعملون فيها ، وساما من أوسمة الشرف •

ولكن هؤلاء المهندسين الشبان ، ما كانوا ليعوضون على أى حال ، عن الافتقار الى الرجال الذين يديرون الآلات ، ويشحمونها ، ويقودون الشاحنات الضخمة ، ويفككون الماكينات ويزيتونها ، أو بكلمة أخرى الى أولئك الذين يستطيعون تشغيل ذلك العدد الضخم من الآلات والماكينات ، التى بدأ موقع السد ومشاغله يغصان بها • وكان القادمون الروس يعملون كمراقبين ، ولكنهم كانوا فى حاجة الى الرجال الذين يعملون تحت رقابتهم • ولم يكن لهذا النقص مطلقا علاقة بما يقال عن افتقار العمال المصريين الى الكفاية ، وانما يعود الى جذور وأسباب تاريخية • فالعمال المصريون ذوو هوايات ميكانيكية ، وفى وسعهم أن يتفوقوا على غيرهم فى ادارة الآلات ، اذا أتيحت لهم فرصة التعلم على العمل فيها • ولا شك فى ان كبار المهندسين في السد ، قد ذهلوا فيما بعد من رؤيتهم عمالا أميين

لا يعرفون القراءة ولا الكتابة يصنعون بعض القطع الصغيرة ، مستخدمين في تصنيعها أبسط الآلات والمواد • ولكن النزعة الغالبة لدى المصريين كانت في المـــاضى تعتبر العمل اليدوى محطا بالكرامة ، وانعكست هذه النزعة فى توسع التعليم الجـامعى في البـداية ، دون أن يرافقه توسع مماثل فى المدارس المهنية ، ومعـاهد التأهيل المهنى لتخريج الميكانيكيين والعمال الفنيين الذين تحتاج اليهم ثورة مصر الصناعية(١) • ولا ريب في ان المرء يذكر ان الحرف الصغيرة في مصر كانت في الماضى فى أيدى اليونانيين والايطاليين والمالطيين ، الذين غادروا البلاد بعد عام ١٩٥٦ • ومن هنا كان الروس على حق فى مطالبتهم بتحقيق برنامج واسع النطاق للتدريب المهنى •

وكان المصريون ينحون بالملامة على الروس لما وقع من ابطاء فى العمل في السد العالى ، ويقولون ان تقديرات قدرات المعدات السوفياتية على العمل كانت محاطة بكثير من المبالغة • فلقد كانت رءوس الحفارات تتلف بسرعة ، وكانت أسنان هذه الرءوس ، تحترق بسرعة أكـبر • وكانت « محركات » الشاحنات الثقيلة تتحطم تحت ضغط جهد الصعود وهى محملة فوق أراض مرتفعة ، بينما كانت دواليبها التى يكلف الواحد منها ثلاثمائة جنيه تنفجر من جراء المسامير الصخرية المنتشرة فى الطرق • وكان الروس لا يزالون يقوون دواليبهم بالقطن الذى سرعان ما يتلف اذا تعرض للماء ، ويصبح فاقدا لأى نفع بعد عمل يوم واحد • ويبدو ان استهلاك المعدات كان أكبر مما هو متوقع ، ولذا فقد عجز الروس عن مواصلة تدفق حاجات الآلات وقطع الغيار عبر الطريق الطويل من موانىء البحر الاسود ، مما أدى الى توقف بعض الآلات مدات طويلة • وتأزمت المشكلة فى صيف عـام ١٩٦١ ، اذ ان ما يلحق بالآلات من تلف ، كان يؤدى الى تأخر العمليات المتعلقة بها ، والى سريان هذا التأخر فى الموقع كله • فلو توقفت أسنان احدى الحفارات عن العمل ، لتوقف عمل كثير من الشاحنات فى نقل ما تخرجه هذه الحفارات من ركام ورمال ، ولتوقف

---

(١) أدت الخطة التعليمية التى وضعتها الثورة الى تبدل الصورة تماما • فلقـد أكثرت حكومة الثورة من انشاء المعاهد الصناعية ومراكز التأهيل المهنى التى تخـرج مهندسين عمليين ، وعمالا فنيين • وقد أدى هؤلاء أدوارا رائعة فى المراحل اللاحقة فى بناء السد العالى • يضاف الى هذا أن الخبرات الفنية التى اكتسبها العمال المصريون فى السد العالى ، جعلتهم قوة فنية ضخمة يمكن الافادة منها فى أية أعمال فى الخارج تنتدبهم الحكومة لادائها •

(المعرب)

عمل كثيرين من العمال ، وضاع الكثير من الوقت • وبالرغم من ان رافعات «اولانشيف» التى تزن ١٨٠ طنا ، والتى تستطيع الواحدة منها أن ترفع خمس ياردات مكعبة أو ستة أطنـان من الصخر فى رفعة واحدة ، وان تملأ شاحنة (٢٥) طنا فى أقـل من دقيقتين ، كانت قديمة الطراز فى تصاميمها الا انها كانت ممتازة فى أدائها • ولكن كان لا بد من نقلها كلها الى روسيا لاجراء أى تصليحات رئيسية فيها اذا ما تعرضت الى التوقف•

وكانت ضخامة هذه المتاعب ، تؤلف العبء الملقى على المؤسسات المشرفة على العمـل من الجانبين • وكانت هنـاك ثلاث هيئات مصرية ، يرأس أولاها السيد زكريا محيى الدين نائب رئيس الجمهورية ووزير الداخلية ، وثانيتها الدكتور موسى عرفة وزير الاشغال العامة ، وثالثتها المهندس حسن زكى • وكثيرا ما كانت مسئولية هذه الهيئات الثلاث فى مراقبة العمل تتداخل وتتشابك • وكان التنظيم السوفيـاتى فى مصر أكثر بساطة ، اذ كان يضم الدكتور فازيل كوكانابييف الملحق التجارى فى السفارة السوفيـاتية كممثل لمؤسسة التصـدير التقنية ، وايفان فاسيليفيتش كومزين بانى سد كوبيشيف على نهر الفولجـا ، كرئيس الخبراء الفنيين وجورج رافشينكو ككبير المهندسين فى الموقع • ومع ذلك فقد كان ثمة شبح بيروقراطى يلقى ظله على أعمالهم • فلقد كان عليهم أن يرجعوا فى كل مشكلة رئيسية الى المهندسين المصممين فى موسكو ، وكان هذا الرجوع ، يخلق ابطاءات حتمية • والمعروف ان التصميمات النهائية للمرحلة الاولى لم تصل الى القاهرة الا بعد ثمانية أشهر من بدء العمل بصورة رسمية ، ولم تكمل التصميمات النهائية للسد كله ، وتقر الا فى خريف عام ١٩٦٣ •

وكان هناك كثير من القضايا الفنية التى تعرضت للحـوار بين المصريين والروس أثناء تبادل الاتهامات عن أسباب الابطـاء فى العمل ، وجاءت المنازعات السياسية فزادت الطين بلة • ولكن خروشوف ما لبث ان وضع حدا لهذه المنازعات ، بما صدر عنه من بيانات ملطفة • وكان هذا التطور أمرا منطقيا بالنسبة الى السد العالى ، اذ كان البلدان قد انفقا الكثير من الاموال على المشروع ، وأصبحت سمعتهما مرتبطة به ، بحيث لم يعد فى وسعهما أن يتقبلا أى فشل فى مثل هذا المشروع العظيم الذى تعلقت به أنظار العالم • وكان يمثل بالنسبة الى الروس الرمز العظيم الاوحد للتقنية السوفياتية وللقدرة على مساعدة الدول النامية ، كما كان

يمثل لمصر ، رمز التقدم الثورى ، وأحد القرارات الخلاقة الاولى والعظيمة التى اتخذتها الثورة ٠

ودفع الاحساس بالازمة الناشـــئة عن الابطاء فى تنفيذ البرنامج الزمني الروس والمصريين في النهاية الى البحث عن وسائل جديدة جذرية للاسراع فى العمل ٠ وكان أول ما عملوه تأليف لجنة مصرية ـ روسية مشتركة تتولى حساب متطلبات العمل من المهندسين والميكانيكيين ، وتقوم باعداد برنامج جديد للتأهيل المهني٠ ووقعت الحكومتان في شهر أغسطس عقدين جديدين يقضيان بانفـــاق ما يزيد على ثمانية عشر مليونا من الجنيهات منها خمسة ملايين لمزيد من المعدات السوفياتية ونحو من أربعة ملايين ونصف المليون كرواتب واجور لنحو من خمسمائة من الاخصائيين السوفيات الجدد ٠

وأخذت قوة دينامية جـديدة ، تظهر أثرها فى هــذه الآونة فى المشروع ، وكانت المناقصة للقيام بعمليات الحفر ملء الســـد بالرمال والصخور التي عرضت قبل عام ، قد أدت الى التقدم بعرضين ، أحدهما من شركة تضم اثنتى عشرة شركة مصرية من شركات المقاولات ، والثانى من شركة المشاريع الهندسية العامة المعروفة في مصر بشركة عثمان أحمد عثمان ، والتى أسسها اخوان شقيقان فى عام ١٩٥٠ ٠ وحصلت هذه الشركة على المقاولة الخاصة بالحفر ، بينما أعطى عقـد تسليح الانفاق بالاسمنت ومحطة التوليد الكهربية الى شركة متفرعة من مؤسسات بنك مصر ٠ وبلغت قيمة هاتين المقاولتين ستة عشر مليونا من الجنيهات ، ثم رفعت بنحو من أربعة ملايين فيما بعد لتغطية تكاليف الاسراع فى العمل٠ وتلقى المقاولون فور توقيع العقد مليونى جنيه فى نهاية شهر مارس ، ثم شرعوا في العمل فى أول مايو ، ولم يحلّ شهر أغسطس حتى كان نحو من ألفى عامل يعملون لحسابهم فى الموقع ٠

وكانت شركة عثمان أحمد عثمان التى أصبحت تسمى بالمقــاولين العرب بعد انضمامها الى القطاع العام ، من أضـــخم شركات المقاولات الهندسية فى مصر وأكثرها خبرة ٠ وكانت قد تولت عملية توسيع قناة السويس ، وتحسين ميناء بورسعيد وتكبيره ، وبناء مصانع الصلب فى حلوان ، ومطار القاهرة الدولى الجديد ، كما قامت بمشاريع كثيرة ضخمة فى الكويت والعربية السعودية وليبيا ٠ وبالرغم من ان هــذه التجارب الوفيرة الغنية ، جعلت الشركة أحق من غيرها فى التقدم الى عطاء السد العالى ، الا ان هذا السد مثل تحديا عظيما للغــاية من ناحية المجــازفة

المالية ، ومن ناحية السمعة الوطنية للبلاد المهددة بالفشل • وقال عثمان أحمد عثمـــان انه أراد «أن يؤلف جزءا من المشروع العظيم ، وأن يأخذ مكانه في التاريخ مع السد العالى » • ومع ذلك فقد تقدم الى العطاء وما ينطوى عليه من مجازفة مالية ضخمة بكثير من الحذر والحيطة ، فأوفد فريقين مستقلين ، لا يعرف احدهما شيئا عن الفريق الآخر ، وليضع كل منهما تقديراته عن المشروع ، بينما قام هو واثنان من شركائه بحســاب ثالث للتكاليف • ولم تتجاوز نسبة التباين بين الحسابات الثلاثة الاثنين فى المائة • وبعد أن قدرت الارباح بنصف مليون جنيه ، كان العرض الذى انطوى عليه عطاء الشركة أقل باثنى عشر مليونا من الجنيهات عن ذاك الذى تقدمت به الشركة الأخرى • وكان هذا الفرق من الضخامة بحيث انقضى وقت طويل قبل ان تصدق الهيئة العليا للسد العالى ، بان شركة عثمان أحمد عثمان لم تخطىء فى حساباتها •

وصدر العطاء باسم « المقـاولين العرب » ، الذين توافرت جميـع امكانيات المؤسسة تحت تصرفهم • وكان بين هذه الامكانيات دائرة خاصة فى الشركة ، خبرت أمر تجمع العمال ، للعمل فى المشروعات الكبرى ، وهو أمر فى منتهى الاهمية فى المراحل التمهيدية • وأقامت هذه الدائرة، مكاتب لتشغيل العمال فى مختلف ارجاء البلاد ، وعرضت الاجور العالية ، للعمال المؤهلين ، بحيث لم ينقض العام حتى كانت المؤسسة تجند العمال بمعدل الف فى الشهر الواحد • وبذلت الجهود الجبارة فى الوقت نفسه لتأمين الاسكان ولطائف الحياة التى يتطلبها العمال فى هذا الموقع الثانى المهجور • ولم يظهر أثر الشركة فى العمـل بصـورة فورية ، ولكن روح العمال المعنوية مالبثت ان ارتفعت من جراء تتابع وصول الشاحنات تحمل العمال الجدد وهم ينشدون « حانبني السد العالى » •

لكن الحماسة والاثارة لم تكونا كافيتين على أى حال ، لاحداث تبدل جذرى فى الوضع العصيب • وكانت هناك معدات سوفياتية قيمتها أربعة ملايين جنيه فى الموقع ، وبينها الشحنة الأولى من الآلات الرئيسية كرافعات اولانشيف ، وكشـاحنات « زيسى » ذات حمولة ٢٥ طنـا ، وكحافرات الصخور القوية ، ولكن أمين الشريف رئيس مهندسى الشركة والذى تولى توجيه عمل المقاولين العرب ، سرعان ما تبين ان هذه المعدات غير كافية فى كمها وكيفها • وقال ان شركته لا تسـتطيع الوفاء بتعهـدها الا اذا استخدمت معدات أكثر كفاية وبسرعة هائلة • ولم يكن هذا القول وليد حدس أو تخمين ، اذ ان الشركة استخدمت مهندسين مدربين فى الوقوف

الى جانب الآلات الروسية ، اياما طويلة ، يحسبون قدرتها الانتاجية ، وقد ذكر هؤلاء فى تقريرهم ان هذه الآلات تقل فى كفايتها بنسبة ٢٣ فى المائة عن تلك التى الفت الشركة استخدامها فى الماضى • وكانت حفارات أولانشيف الهائلة ، ناجحة فى الاختبار ، لكن الشاحنات التى تعتمد عليها عملية شركة المقاولين فى نقل ملايين الياردات المكعبة من الصخور كانت لا تزيد فى نسبة كفايتها على ٧٧ فى المائة •

وتبين عثمان أحمد عثمان ان العمل فى السد لن يتم وفق البرنامج الزمنى فى هذه الاوضاع ، فقرر الاستعانة بعدد من الشاحنات البريطانية التى الف استخدامها فى أعمال شركته فى الماضى والتى يعرف طاقتها • ولم يكن ليهتم بالجو السياسى ، وانما كان همه محصورا فى أن ينجز هذا العمل الانشائى الضخم الذى يعتبر أعظم عمل فى تاريخ مصر ، وقرر أن لا يضيع سمعته أو يخسر أمواله فى هذا المشروع • وقوبل رأيه الذى لقى التأييد الكامل من أمثال ابراهيم زكى واحمد سعيد الخبيرين فى هندسة النيل ، بالمعارضة الشديدة من الروس ، وراح يدعى للتغلب على هذه المعارضة ، وبانه فى حاجة الى هذه الشاحنات فى مشروعاته الاخرى ، وانه سيستخدمها بصورة مؤقتة فى أسوان ليس الا •

وكانت جميع الحقائق تقف فى مصلحة عثمان أحمد عثمان فى رأيه هذا • فلقد كان هناك نحو من ثلاثة عشر مليونا من الياردات المكعبة من مجموع أربعة عشر مليونا فى حاجة الى النقل عندما تولى العمل ، وكان لابد من حفر هذا القدر الضخم ، ونقله الى مناطق التجمع ، ثم حمله الى النهر لملأ السدين المؤقتين به قبل صيف عام ١٩٦٤ • وكان الجدول الزمنى فى هذه المرحلة المبكرة متوقعا على الاسراع فى عمليات الحفر • ولم يكن فى الامكان تحقيق العمليات الثلاث وهى اكمال قناة التحويل وبناء الانفاق ، والسدين المؤقتين ، الا اذا سارت عمليات الحفر للوصول الى المستويات المطلوبة بسرعة بالغة ، فلم يكن فى الامكان على سبيل المثال تقوية الانفاق بالاسمنت المسلح قبل حفر هذه الانفاق ، أو ملء السدين المؤقتين بالصخور قبل توفير هذه الصخور نفسها • ولم يكن عثمان أحمد عثمان، قد وقع مجرد عقد ، وانما كان قد ورط نفسه ايضا فى سباق مع الزمن •

ولو عدنا بنظرنا الى الوراء الآن لتبين لنا ان صيف عام ١٩٦١ ، مثل نقطة التحول حتى ولو كان ذلك فى تبين العيوب والنواقص ، وفى ممارسة الجهود للتغلب عليها • واعترف المهندسون فيما بعد بان الافتقار الى الفاعلية استمر حتى عام ١٩٦٢ ، ولكن النواقص فرضت شيئا من المنطق على الاحداث • اذ لما كان العمل قد سار بصورة ابطأ مما كان متوقعا ، فقد أخذت طرق التموين ، تمشى فى أغذ سيرها مع العمل ، ولما كان العاملون على طريق التموين من موسكو حتى أسوان ، قد تعلموا عن طريق التجارب ، كيفية الابقاء على تدفق المعدات على موقع السد ، فقد أصبح فى الامكان حشد المعدات أخيرا فى الموقع • وبدأت قاعدة التخزين الرئيسية التى يبلغ اتساعها عدة أميال مربعة ، والواقعة الى الشمال من الموقع ، تمتلىء ببطء بالآلات والمعدات ، وأصبحت قطع الغيار اللازمة لاية آلة معطلة متوافرة • ولم يحل شهر ديسمبر حتى كان هناك نحو من اثنين وثلاثين ألفا من المعدات السوفياتية فى الموقع •

وبلغ عدد العمال المصريين فى هذه الاونة تسعة آلاف أى بزيادة ثلاثة الاف عن العدد المقرر لذروة العمل فى المشروع من قبل ، وارتفع عـــدد المهندسين والفنيين السوفيات من ٩٦ فى شهر آبريل الى ٢٦٨ فى نهاية العام • وبينما لم يستخدم أكثر من ثلاثمائة طن من المتفجرات فى تفجير الصخور حتى منتصف صيف عام ١٩٦١ ، فجر نحو من الف طن منها فى الاشهر الستة الاخيرة من ذلك العام • وتم حفر ما يزيد على اربعمائة ألف ياردة مكعبة من الصخر فى شهر ديسمبر وحده • وكان بناء المشـــاغل وغيرها من المنشآت السطحية التى وصفها كومزين بانها كانت تمثل لباب المشكلة العاجلة يسير قدما وبسرعة متزايدة • وتم انشاء ميناء نيلى مؤقت، وأصبح طريقا اضافيا للتموين فى خريف ذلك العام •

ولكن هذه المنجزات ظلت آمالا ، ولم تفلح فى استبعاد الاحســـاس بالأزمة من عقول المسئولين المصريين والسوفيات على الســـواء • ولما كان الحفر لم يتعد أكثر من نصف القدر المقرر حتى نهاية ذلك العام والبالغ ستة ملايين ونصف المليون من الياردات المكعبة من الصخر ، فان المعدل الذى وصل اليه العاملون فى شهر ديسمبر كان أقل من المعـــدل اللازم للمحافظة على الجدول الزمنى الذى يقضى بانتهاء المرحلة الأولى فى عام ١٩٦٤ • وكان الموقع نفسه يقف شاهدا على ضخامة العمل الذى لم يتحقق بعد • وتمت تسوية قمة الهضبة وكانت حفارات أولانشيف التى بلغ عددها الآن سبعا ، تحفر فى نقاط متعددة ، وتشرع فى حفر « تهوية » نفق

النقل المؤقت ، ولكن العملية كلها ظلت بدون معنى ظاهر ، ولا ترمز الى شيء واضح ، وكان هناك كثيرون من المهندسين يجدون من العسير عليهم ان يصدقوا أن في امكانهم التعويض على الوقت الضائع • وكانت المدة الباقية لاستكمال المرحلة الأولى لا تعدو ثلاثين شهرا ، يجب أن يتم فيها شق الهضبة باخدود ضخم يمر فيه النيل ، ويتم حفر الانفاق وتثبيتها بالاسمنت المسلح ، وبناء بواباتها ، وانشاء محطة التوليد الكهربى والسدين المؤقتين • وكان المسئولون يعلنون ان العمل يسير وفق الخطة المرسومة ، ولكن كان ثمة خبراء لا يترددون فى ابداء رأيهم بان المرحلة الاولى لن تتم في موعدها المقرر •

٩ ١٩٦٢ سنة التحول

وحل موعد الاحتفالات بالذكرى السنوية فى عام ١٩٦٢ . وكان هذا الموعد فرصة لتأكيد الايمان بان العمل سيتم فى الوقت المقرر ، ولتأكيد العلاقات الودية التى تقوم بين المصريين والروس . وكان المظهر البارز لهذه الاحتفالات فى التاسع من يناير ، قيام الرئيس عبد الناصر ، بوضع الحجر الاساسى ، لمنشئات محطة التوليد الكهربية ، والقاؤه خطابه السنوى الذى خصصه هذا العام للرد على شائعات الخلافات بين المصريين والروس والشائعات عن الافتقار الى الفاعلية . واكد الرئيس ان السد نفسه رمز للصداقة بين مصر والاتحاد السوفياتى وان التعاون بينهما كامل وودى . وراح الرئيس يرد على الاتهامات التى توجه الى المعدات السوفياتية ، فأكد انها قادرة على اداء جميع المهمات الموكلة اليها . وبعث نيكيتا خروشوف برسالة الى الرئيس عبد الناصر ، نشرتها الاهرام فى عددها الصادر فى الواحد والعشرين من يناير ، واكد فيها ثقته بان المرحلة الأولى من بناء السد العالى ستتم فى عام ١٩٦٤ . ورد الرئيس العربى على هذه الرسالة قائلا انه بالرغم من ظن الامبرياليين بأن فى وسعهم احتكار تنفيذ المشاريع الضخمة ، الا أن التقدم التقنى والعلمى الذى حققه الاتحاد السوفياتي لحسن الحظ ، قد أضعف هذه القدرة على الاحتكار ، ونقل ظنون الامبرياليين من حيز الخيال ، الى حيز خداع النفس والوهم .

وكان الرسول الذى حمل رسالة خروشوف الى القاهرة ، ايجنان نوفيكوف وزير الطاقة الكهربية فى الاتحاد السوفياتى ، وكان هدفه الرئيسى من هذه الزيارة ، اكتشاف الوسائل التى تؤدى الى الانتصار على الازمة التى تواجه العمل الانشائى . واعلن فى مؤتمر صحفى أن الاربعة ملايين ياردة مكعبة من الصخر التى تم حفرها فى عام ١٩٦١ ، كانت اضخم من أية كمية تم نقلها فى أى مشروع آخر فى العالم فى مثل هذا الوقت ، ولكنه كان يضيف مليونا على الرقم الذى تم حفره فعلا . وراح يحذر على أى حال ، من ان عام ١٩٦٢ ، سيكون حاسما وان

المهندسين يتوقعون مواجهة بعض المتاعب • وطاف مرة أخرى بالموقع ومعه الدكتور موسى عرفة الذى استبد به القلق ، وكثير من مهندسيه قبل أن يعود الى موسكو • ولم تظهر آثار هذه الزيارة على الفور ، ولكنها تركت نتائج حاسمة قبل ان ينقضى العام .

ودخل السد العالى سنته الانشائية الثالثة ، وقد ظهرت قاعدته كمدينة من مدن « التهافت على الذهب » تبرز الى حيز الوجود ، عند حدود بعيدة نائية . وكان البناء يسير على قدم وساق فى كل مكان . وتشمل الابنية التى تشيد ، البيوت الصغيرة ذات الهياكل الخشبية ، التى سيستخدم الاسمنت فيها لتدعيمها ، والعمارات الكبيرة الضخمة والمشاغل التى يلمع حديدها تحت ضوء الشمس الساطعة . وتم بناء نحو من ستة آلاف غرفة للعمال فى مجموعات طويلة ذات طبقة واحدة ، وكان المتعهدون قد اقاموا لعمالهم ابنية مؤقتة كانت خيرا من الخيام والاكواخ التى سبق للعمال أن اقاموها لانفسهم . وكانت هناك بعض الكماليات التى لم يسبق لكثيرين من سكان المدينة الجديدة ان تمتعوا بها ، كمكيفات الهواء ، وأنابيب مياه الشرب والكهربا ، وتوزيعات الثلج من مصنع قريب للثلج . وانفقت الحكومة نحوا من ثلاثة ملايين جنيه على الخدمات الداخلية ، ومع ذلك فقد ظلت الاوضاع بعيدة عن الكمال • وكانت الخيام والاكواخ لا تزال تنتشر بين الصخور حول القاعدة ، وقد اكسبتها صورة مخيم الدخلاء على اكناف مدينة جديدة من مدن الحدود، أكتشف الذهب فيها . وكان المرء كثيرا ما يرى مجموعة من الرجال يطهون ذبيحتهم التى اشتركوا فى شرائها على نار مكشوفة . أو جرابا جلديا للماء يغلى فى حرارة الشمس • انها مدينة الرجال وحدهم • وفى كل يوم يفد اليها المزيد من الرجال ، لتكتظ بهم شوارعها وليضيفوا المزيد من الجلبة الى ضجيجها • وكانت الشاحنات المحملة بالرجال تختفى فى الصحراء ، وكأنهم ذاهبين الى حفرياتهم . وكانوا يمضون بالفعل للقيام بعملية من أكبر عمليات الحفر التى شهدها العالم فى تاريخه، ولكن ما يتطلعون اليه من جائزة لم يكن الذهب المكنوز فى الارض ، وانما مياه النيل الغنية الوافرة .

وكانت المدينة قد أصبحت واقعا فى شهر ابريل • فلقد أخذت فى الانتشار بصورة غير منظمة فوق الهضبة الى أن وصلت الى موقع السد نفسه . وكانت المشاغل الميكانيكية لتصليح السيارات وصيانتها بساحاتها الواسعة تغطى اثنى عشر فدانا من الارض ، وتضم اكثر من ثمانمائة آلة ، ويشتغل فيها نحو من ٣٥٠ عاملا فى نوبات ثلاث لمدة

ثماني ساعات . وبرزت احواض الميساه لمحطة الضغط الجوى ولمركز ترشيح المياه وتنقيتها فوق ارض الهضبة وكأنها مداخن مصانع قائمة ، وقد نافست فى ارتفاعها الرافعات التى تحمل خمسة عشر طنا . وكان هناك مشغل لتصليح الازاميل لآلات الحفر ، وآخر لتسليح الاسمنت . كما كانت هناك مصانع لهرس الصخور ، ومطاحن ، ومخابز ، وعلى النهر نفسه ، وعلى مقربة من منطقة العمل ، محطة ضخ عائمة . وكانت المخازن فى القاعدة نفسها أو على الضفة الاخرى الى الشمال ، وكانت تضم فى هذه الآونة كميات كبيرة من الوقود ، والزيوت المحركة ، والمواد على اختلاف انواعها والآلات والمعدات الاخرى . وكان هناك مشغل عند الطرف الشمالى يعد نحوا من سبعة اطنان من الصلب فى كل نوبة من نوبات العمل ، لتسليح الاسمنت ، كما كانت هناك باحة واسعة لتجميع الصلب ، مهمتها تجميع الصلب اللازم لبوابات السد الفولاذية . وهكذا برزت بلدة صناعية صغيرة الى عالم الوجود ، ولا هدف لها الا بناء السد. واظهر ما فى هذه البلدة كما وكيفا ، وما تستلزمه من متطلبات ضخامة العمل الجارى فى السد . ولم تكن مهمة هذه المشاغل والمصانع تحطيم الهضبة وشق اخدود فى صخورها الجرانيتية فحسب ، وانما انطوت أيضا على خلط كل هذه المواد وادخالها فى المشـــئات التى ســتؤلف السد .

وحقق استكمال القاعدة تقدما فعليا فى العمل ، وتجاوز عدد العمال الآن العشرة الاف ومعهم ١١٥ من المهندسين المصريين و ٤٥٠ من المهندسين الروس يعملون فى احدى عشرة حفارة « أولانشيف » ، ومائة شاحنة ضخمة من حمولة ٢٥ طنا (١) . وكان معدل الحفر يسير فى طريق الارتفاع ، ولكن هذا المعدل لم يكن يرتفع ، فى رأى نوفيكوف وموسى عرفة ، بالشكل السريع اللازم للحاق بالبرنامج الزمنى ، وتعويض التأخير السابق.وكانت الآلات والعمال فى عمل دائم لحفر ونقل خمس عشرة ألف ياردة مكعبة من الصخر فى اليوم ، وكانت الجهود تبذل

---

(١) دللت الارقام الرسمية التى نشرت فى تقرير مؤقت عن العمل فى السد العالى ، على أن المعدات اشتملت على احدى عشرة حفارة كهربية ، ومائة شاحنة من حمولة (٢٥) طنا ، وأربعة مناخل كهربية ، وثلاثة عشر غربال ديزل ، و (٣٦) كراكة و ١٠٧ شاحنات ديزل من حمولة خمسة أطنان و (٢٠٠) لورى ، و (١٢٥) حفارة حلزونية من مختلف الاحجام و (٤٠) رافعة مختلفة الطاقات وأربع خلاطات ومائتى مضخة وأربع محطات للتحويل الكهربائى . وبلغ مجموع ثقل هذه المعدات سبعة عشر ألف طن كما بلغ مجموع ثقل المواد المستورد من الاتحاد السوفياتى (٢٣) ألف طن بلغت تكاليفها تسعة ملايين جنيه .

(المعرب)

لرفع هذا الرقم الى ثمانية عشر ألفا ، ولكن الشهور المعتدلة الصالحة للعمل فى السنة كانت قد أنتهت تقريبا ، واطلت شهور الحرارة الفائقة، التى كان من الصعب على العمال القادمين من شمال مصر ، احتمال وطأة حرارتها . وكانت شعلة الحماسة الأولى ، قد أخذت تذوى فى نفوس هؤلاء العمال ، الذين لم تستطع عقولهم الساذجة البسيطة ان ترى نهاية لهذه المتاعب (١) . وكانوا يسائلون انفسهم ، وهم يتطلعون حولهم ، عما اذا كان السد سيبنى حقا ، لا سيما وان ما يرونه لم يكن يعدو منظرا يسوده الاضطراب ولا يفهمونه . وكان ردهم على هذا التساؤل دائما « ان شاء الله » . وكانت هذه الروح القدرية التى فقدت الهام الايمان السابق . قد جعلت العمل اكثر صعوبة عليهم ، وبدأ التذمر يظهر ليحدث الاضطراب فى العمل فى نفس اللحظة التى كان يطلب فيها من كل أنسان المزيد من الجهد .

وعندما ازداد هذا التذمر فى الربيع ، تقرر ان يتحرك الجيش ليشترك صف الضباط فى العمل كرؤساء للمجموعات . وكان الرئيس عبد الناصر قد توصل فى هذه الآونة الى الاستنتاج بان لابد من احداث تبدلات جذرية فى تنظيم العمل وجهازه . وعزز الطلب الذى تقدم به موسى عرفه الذى كان قد غدا وزيرا للسد العالى . ايمانه هذا . وكانت هذه الحالة النفسية قد بدأت تسود الاوساط العليا من المهندسين المصريين والروس . وكانت المتاعب الهائلة التى واجهها كومزين فى السنتين الاوليين ، قد جعلت مزاجه حادا ، وزادته وفاة زوجته وآلامه حدة طبع . وراح بعض المهندسين المصريين ينتقدون زملاءهم الروس صراحة، ويقولون انهم من الهواة . ولذا فقد اتفقت الحكومتان على احداث تبدل فى قمة العمل ، على ضوء ما تصوره الوزير نوفيكوف عندما كان فى مصر . ولم يحل شهر يوليو حتى استدعى كومزين الى الاتحاد السوفياتى ، وحل محله ، اليكساندروف . وبعد فترة قصيرة نقل موسى عرفة الى الهيئة العليا للسد ، ليحل محله المهندس العسكرى صدقى سليمان كوزير للسد العالى .

وكان صدقى سليمان من خيرة المهندسين حتى قبل أن يلتحق بالجيش ، وكان عدد من المهندسين العاملين فى السد ، قد زاملوه فى

---

(٢) لم تضعف روح الايمان التى سادت العمل فى السد العالى على الاطلاق ، وكان هذا الايمان هو الذى أدى الى انهاء العمل فى المرحلة الاولى فى الوقت المحدد طبق البرنامج الزمنى ، بل تجاوز هذا البرنامج . (المعرب)

الجامعة . وكان له سجل عسكرى رائع اثناء عمله فى الجيش الذى وصل فيه الى رتبة العميد ، ونقل بعد الثورة الى مجلس الانتاج القومى ، الذى كان يمثل فى ذلك الوقت السلطة المركزية للتخطيط . وكان المجلس قد أقر الاولوية لانشاء محطة التوليد الكهربية فى اسوان التى تولى ابراهيم زكى ، رئيس مهندسى السد ، المسئولية فيها عن العمل الهندسى . وقد عرف عن صدقى سليمان انه شعلة من الحيوية والنشاط ، وكان من المنتظر منه ان يبعث فى العمل الجارى فى السد حيوية جديدة ، تماما كما فعل محمود يونس ، عندما أنقذ فى عام ١٩٥٦ عمليات الملاحة فى قناة السويس وحافظ عليها بنجاح عظيم منذ ذلك الحين . ولقد اجريت المقارنة بين الرجلين فى عام ١٩٦٢ ، لتبرير التعيين الجديد . يضاف الى هذا ان صدقى سليمان جاء الى منصب القيادة فى السد العالى ، بأمر شخصى من الرئيس عبد الناصر نفسه ، وقد حمل معه سلطات فردية لم تتوافر لأى رجل عمل فى السد من قبل . وكانت اللجان العليا للسد لا تزال قائمة ، ولكن عملها الآن اقتصر على المجال الاستشارى ، اذ اصبح الوزير ، هو الرئيس الفعلى . وكان أول عمل قام به بعد توليه الوزارة ، نقله لمكتبه من القاهرة الى العمارة الجديدة التى انشئت فى اسوان على الضفة الغربية للنيل ، للاشراف على الاعمال الانشائية . وهكذا انعكس الوضع التنظيمى ، فاصبحت وزارة السد العالى ، تمارس سلطتها الفعلية فى الموقع . بينما انتقلت الادارة المدنية الى القاهرة . واصبح صدقى سليمان على اتصال دائم ومباشر بمهندسيه وبالمتعهدين ، وقد سمح له بالاتصال الهاتفى المباشر مع الرئيس نفسه لحل أية مشاكل عاجلة قد يواجهونها . وكان لا يعود الى القاهرة ، الا لفترات قصيرة ، وعندما تضطره بعض المشاكل للعودة . أما فى الايام الاخرى ، فهو هناك فى السد ، يعمل فى مكتبه اثنتى عشرة أو اربع عشرة ساعة فى اليوم يقضى الكثير منها فى الموقع ، واصبحت قامته الطويلة الفارعة ، تعلوها قبعة من « الفلين » منظرا مألوفا عند قناة التحويل أو فى الاتفاق ، شأنه فى ذلك كشأن أى مهندس عادى . وكانت لهذا التبدل اهمية تفوق المجال النفسى ، وذلك لانها حررت العمل من كثير من المناقشات النظرية فى القاهرة ، وجعلت التفوق للمهندسين فى اسوان .

وكان اليكساندروف من ناحيته كثير الاهتمام بقطع الشريط الأحمر الذى كان يقيد يدى سلفه كومزين . وبعد أن درس الاوضاع دراسة سريعة فى اسوان ، راح يسرع عائدا الى موسكو ، طالبا المزيد

من الرجال والمعدات • واعترف فى مؤتمر صحفى عقــده فى القــاهرة ، بانه كان لايزال ملزما باحالة أية متاعب يواجهها الى موسكو لتأييده فى العمل الذى يقترحه لحلها ، ولكنه كان على ثقة من ان سرعة القرار يجب أن تكون مقدمة لسرعة التنفيذ . واضاف ان اهم شىء فى الموضوع هو ان يتشاور مع المهندسين المصريين فى موضــوع المعدات التى يحتــاج العمل اليها ، تم ان يعمل على أيصالها الى الموقع بأقصى سرعة ممكنة • ولاشك فى أن هذه الملاحظة تركت آثارا فعالة على المصريين •

وكان الرئيس عبد الناصر ، قد اقنع الروس بتجاوز القاعدة التى وضعوها باستخدام المعدات السوفياتية • وحدها فى العمل ، وامر وزارة السد العالى باستيراد ما قيمته ثلاثمائة ألف جنيــه من المكابس ومن حفارات الصخور المكسوة بالمطاط من شركة « اطلس كوبكو » السويدية، واستقدام بعض المهندسين السويديين للاشراف على عملها • وكان بعض المهندسين يرى أن الحفارات الســوفياتية أصــبحت قديمة الطراز فى المعايير الغربية ، وانها لا تصلح لبعض جهات العمل فى صخور اسوان . ووافق الرئيس ايضا على ان يستورد عثمان احمد عثمان لحســـابه عشرين شـــاحنة بريطانية من حمولة (٣٥) طنـــا ، وذات موتورات « رولس رايس » ، من شركة الفلينيج ــ بارفورد البريطانية ، وكانت نتائج هذه الشـــاحنات كبيرة حتى ان وزارة السد العالى استوردت عشرين اخرى منها لحسابها • واســتخدمت حفارتان بريطانيتان من شركة رستم ــ بوكيروس لرفع الرمال من الشلال ، وعــادت حــكومة الجمهورية العربية المتحدة فى عــام ١٩٦٣ فطلبت من شركة الفلينيج ــ بارفورد اعطاءها الاولوية فى توريد مزيد من الشاحنات التى كانت فى البحر وفى طريقها الى مكان اخر ، لتحول الى مصر • وهكذا بلغ عدد هذه الآلات فى ذروة العمل ابان المرحلة الاولى اربعا وخمسين تنجز من العمل أكثر مما تنجزه مائتــا آلة سوفياتية (١) • وأتى بخبير بريطانى من شركة دنلوب ، عندما طلبت اطارات دنلوب لهذه الشاحنات الثقيلة ، وتم تأليف مجموعات من العمال ، لتحسين الطرق ، والقضــــاء على الاسنان المدببة فيها التى كانت تفجر اطارات الشاحنات .

---

(١) يبدو واضحا أن المؤلف يحاول التقليل من أهمية الآلات السوفياتية ، ونسبة الفضل فى العمل العظيم الذى تحقق فى السد العالى الى الآلات البريطانية • لكن هــذه الاقوال تخالف الحقيقة والواقع ، كما أكد السيد الرئيس فى الخطاب الذى اشار اليه المؤلف • ولم يعد ما حققته بعض الآلات البريطانية شيئا طفيفا للغاية فى منجــزات السد العالى • (المعرب)

وهكذا تم اخيرا الوصول الى الغد السريع فى هذه العملية الضخمة، وكأن الدولاب قد بدأ يتحرك بأقصى سرعته من نفسه فى النهـــاية بعد ان تعبت الايدى فى تحريكه . وكانت ساعات الحر الشديد فى النهار ؛ تخصص لاعمال الصيانة ، ولوضع المتفجرات فى الثقوب التى تم حفرها فى منطقة الحفر . ويقوم الخبراء السوفيات فى ساعات بعد الظهيرة ؛ بتفقد فتائل هذه المتفجرات ، ثم تنطلق صافرات الخطر . لابعاد جميع العمال وســـياراتهم ومعداتهم من مناطق التفجير ، لينفجر نحـــو من عشرين طنـــا من الديناميت فى نحو من عشرين ثقبـــا ، فتنتشر الهزات لتصل الى اسوان نفسها ، بينما يســـمع صوت التفجرات من مناطق بعيدة .

وكانت الليالى متشابهة فى الموقع . وكانت الشمس تختفى بعـــد الظهيرة وراء الافق الارجوانى فوق تلال الضفة الثانية من النهر ، حاملة معها حرارة النهار الشديدة ، ومعلنة هبوب أولى نسائم المساء . وتبدو الصحراء لفترة قصيرة ، لطيفة الطقس . وينطلق جيش لجب من العمال الى الهضبة ، تحملهم السيارات ، وينتشرون على سطحها ، وكأنهم افراد فصائل عسكرية يتخذون مواقعهم استعدادا للمعركة ، ولا تكاد خيوط الظلام تســود المنطقة ، حتى تســطع الانوار فجأة ، لتظهر آخر جهود الانســان وأعظمها فى حوض النيل . وتلقى أقواس المصـــابيح الكهربية بحيرات من الضوء فى غمرة الليل ، بينما يمتد شريط باهت طويل فى هذه المصابيح الى بلدة أسوان نفسها ، فى الوقت الذى تسطع فيه كشافات الســـيارات والشـــاحنات على الطريق متتابعة وكأنها الحباحب ، وتتدفق أنوار المدنية على الصحراء القريبة .

وهـــكذا يبدأ العمل ، الذى ابطأته حرارة النهـــار ، فى معزوفة موسيقية تشترك فيها الآلات والرجال . ويعبر العمل الرئيسى الدائر فوق صخور قناة التحويل عن نفســه فى حركات الاشباح الضخمة وكأنها ترقص « البـــالية » . وتغرق الغرابيل الكهربية خراطيمها الطـــويلة فى حطام الصخور ، بينما ينطلق لهيب الاحتكاك مع الصخور فى شعلات زرقاء ، وتئن الشاحنات بما تحمله من الجرانيت ، وهى تصعد التل ، ويبدو الرجال فى هـــذا المنظر الرهيب وكأنهـــم حشرات تهرب فى كل مكان .

وكان البون شاسعا بين ما يدور الآن وما كان يدور من قبل فلو وصل انســانٌ الى هذا الموقع فى الليل قبل عامين ، لرأى الخواء فى كل

مكان ، ولما سمع شيئا سوى الحفيف الذى يحدثه قارب صغير ، يجرى فوق النيل ، ولما ابصر سوى ذلك النور الخافت المنبعث من نافذة المختبر الواقع على الضفة الغربية . ولم يكن العمل حتى قبل سنة واحدة ، عندما ارتفع تمثال الرئيس عبد الناصر عاليا مطلا على النهر ، قد حقق نتائج ملحوظة ، اذ كانت اشهر العمل الطويلة فى ركام المخلفات الجيولوجية للعصور الطويلة ، تبدو وكانها غير كافية للمهمة الجلى . وبالرغم من ان القلق لم يكن قد فارق الرجال العاملين فى مكاتبهم بين التصميمات والحسابات والجداول الزمنية ، الا ان ما وقع من تحول فى الميدان وعلى الارض كان واضحا كل الوضوح . وكان فى امكان المرء ان يقف فى نافذة المختبر ، وان يعبر ببصره النهر . ليرى حقيقة ما هو حادث الآن . فقد اصبح خط القناة الممتد من المدخل الخلفى ، عبر الانفاق الى خوركوندى ، واضحا كل الوضوح .

وكان قد تم تحطيم الهضبة وتجزئتها بسلسلة من الاخاديد العميقة، التى كان فى وسع المرء أن يرى انها تختلط ببعضها مع مضى العمل فى سيره . وكان التحويل قد اتخذ من الجانب الخلفى صورة واد عميق ، وان كان الحفر لا يزال دائرا فيه على مستويات مختلفة ، وكانت هناك كتلة طبيعية من الصخور تقف فى مدخل هذا الوادى ، لتحول دون تدخل مياه النهر فى العمل الدائر . وكانت الطرق التى تم شقها على منحدرات على مختلف المستويات تؤدى الى الحفارات التى كانت تلوك الصخر وهى تحدث ازيزا ، بعد ان كانت التفجيرات قد هشمته . وكانت الحفارات تملأ الشاحنة ذات حمولة خمسة وعشرين طنا فى غضون دقيقة ونصف أو دقيقتين ، وتنقل نحوا من ١٣٠ ياردة مكعبة من الصخر فى الساعة الواحدة . وكان الفن فى عملية الحفر يعتمد على وجود شاحنة جاهزة فى كل لحظة ، بينما تجرى تعبئة الشاحنة الاخرى ، وذلك لضمان عدم توقف نقل الصخر من الموقع . وكانت لكل حفارة مجموعة من الشاحنات ، تعود الفارغة منها فوق المنحدرات ، بينما تئن المثقلة بالاحمال منها وهى تمر الى جانبها لتصل الى حافة الطريق ولتلقى بحملها فى الوادى تحتها .

وكانت مستويات الحفر عند الجانب الامامى للقناة ، الذى يبدأ عند المنخفض الطبيعى فى الهضبة الذى يمتد من خوركوندى ، اكثر انخفاضا منها عند مستويات الحفر فى الجانب الخلفى ، وكانت تمتد عميقا من المدخل الى السطح الصخرى ذى المائتى قدم الواقع عند القطاع الاوسط ، حيث كانت التجويفات التى بدت فى السطح تبين

مداخل الانفاق المقترحة . وكانت حمـاية هذا العمل تتم عن طريق سد رملى مؤقت ارتفاعه ٦٥ قدما وطوله ٢٧٠ يارده . وقد تم بنـاؤه فى غضون شهر عن طريق ضغط ما يزيد على ثلاثمائة ألف ياردة مكعبة من الرمل عبر أنابيب على الضفة الغربية ، وذلك طبقا للاسلوب الذى اقترح المهندسون الروس تطبيقه لبناء السد الامامى للسد الرئيسى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يستخدم فيهـا هذا الاسلوب على نهر النيـل وكانت على نطاق ضيق ، وان بينت ان فى الامكان تحقيق درجة كبيرة من الصلابة . وكان هذا السد الرملى من الصلابة بحيث كان صـالحا كطريق تستخدمها الشـاحنات الثقيلة الملأى وهى تدور حول الحفارات وظل كذلك طيلة بقائه فى الموقع .

وكان العمال فى غضون ذلك يعملون جاهدين عند بطن الهضـبة فى شق الانفاق . وكان قد تم فتح طريق جوفية اسطوانية طولها ٦٥٠ ياردة وعرضها خمس وعشرون ياردة ، تبدأ عند جانب النهر على أرض ممهدة الى ان تقطع عرضا خط الانفاق ، فلا تكاد تصل الى كل منهـا حتى يبدأ العمل فى حفر النفق على الفور فى الاتجاهين الامامى والخلفى فى وقت واحد . وكان قد تم الآن حفر نصف الانفاق . وكان العمل يجرى فى أربعة انفاق عن طريق حفر النصف العلوى فى اسطوانة النفق، بينما ترك النصف الآخر فى قعر الاسطوانة كطريق مؤقتة للشاحنات ، وكأرض صخرية لعمليات الحفر المتحركة وكأرصفة لتسليح الاسمنت . وكان الشطر الشاق من هـذه العملية يتمثل فى النفاذ الى الجرانيت الصلب ، اذ ان ازاحة النصف الادنى من الانفاق كانت امرا عاديا وفى منتهى البســاطة ، ويمكن ان تتم بسرعة بالغة عنـدما يحين العمل للشروع فيها .

وهكذا لم تكن لحظة واحدة من الوقت تتعرض الآن للضـياع . وعندما يتم الحفر فى أى قطاع تتحرك فرق العمال على الفور لتثبيت الصخور ، اذ يقوم الفنيون السوفيات بثقب هذه الصخور لوضـع القضبان الفولاذية فيها ، ثم توضع اطارات الصلب التى يزن الواحـد منها سبعة اطنان بشكل متقاطع فوق الارض لتتلاحم مع بعضها تحت الارض ولتكون مناسبة للسقف نصف الاسـطوانى ، واخيرا يصب الاسمنت المسلح فوق هذه الاطارات بسمك لا يقل عن ياردة واحدة .

وبينما كان هـذا العمل يجرى فى جوف الارض ، اكتسب قلب الهضبة صورة كابوس من الضوء والظلال والهدير . فهناك الق طوفان

من الاضواء ، تظهر أمامه تجويفات قائمة من الظلال ، وبينهما ، الاضواء البنفسجية والزرقاء النابعة عن آلات اللحم بالاوكسيجين وآلات الحفر بالصخر ، وانعكاساتها الزاهية على برك الماء الآسن ، والظلال العديدة من الرجال والآلات ، وهدير الآلات وازيز الحفارات ، و « قعقعة » الشاحنات وهى تصعد المنحدرات أو تمر فى الطرقات المغلقة . وكان السباق مع الزمن تحت الارض كما فى العمل فى قناة التحويل على سطحها ، يقوم على قدم وساق . وبأقصى سرعة ممكنة .

ومثل الخريف على أى حال ، فترة عصيبة من فترات السنة . وكانت فتحات السد القديم ، مفتوحة الآن على مصراعيها ، ليهبط منسوب المياه فى البحيرة وراءه الى ادنى معدل سنوى له لمدة اربعة اشهر ، وكان على المهندسين ، وهم يحسون بضغط الوقت ، ان يكملوا فى هذه المدة القصيرة جميع الاعمال على ضفتى النهر وفى القناة ، بعد ان اصبحت مكشوفة فى المياة . ولم يكن عام ١٩٦١ قد شهد الكثير من الحفر ، والتثبيت والتسليح بالاسمنت ، ولذا كان خريف عام ١٩٦٢ عصيبا ، وكان لابد لخريف عام ١٩٦٣ من ان يكون حاسما .

وكان ايجنات نوفيكوف قد صرح منذ مستهل عام ١٩٦٢ ، ان السنة ستكون حيوية فى تاريخ السد ، وقد برهنت الايام على صدق قوله . وبالرغم من انه كان من الواضح ان اقصى الجهود وعلى اوسع نطاق هى وحدها القادرة على اعادة العمل الى نطاق البرنامج الزمنى المحدد لتحويل النهر فى شهر مايو من عام ١٩٦٤ ، فقد اصبح المهندسون على ثقة فى النهاية من أن فى وسعهم بذل مثل هذا المجهود . فلقد تم العمل فى القاعدة والمنشئات ، وكانت الآلات تدور بفاعلية اكثر من ذى قبل ، وكان اصلاحها يتم الآن بمنتهى السرعة فى حالة تعرضها لعطل أو توقف ، كما كانت تموينات المعدات تتدفق الآن بغزارة اكثر على الموقع الذى اصبح يضم الآن اكثر من ١٥٠٠ من الخبراء السوفيات ومائتى مهندس مصرى وتسعة الاف من الفنيين المصريين واثنى عشر ألف عامل . وتمكن المقاولون العرب فى شهر ديسمبر من حفر ونقل (٥٥٠) ألف ياردة مكعبة من صخور الجرانيت التى لا مثيل لها فى الصلابة فى العالم ، وهو رقم يربو بنحو من مائة وثلاثين ألفا على اقصى ما حققه الامريكيون والروس والكنديون فى بلادهم . وراح رئيس المهندسين زكى يقول فى نهاية العام .. سنحول النهر فى الوقت المحدد ، ورفع المهندس احمد سعيد غليونه من بين شفتيه ليقول بصورة قاطعة .. « وانا على استعداد لشنق نفسى . ان لم يتحقق ذلك » .

وكان هناك كثيرون من الرجال ، عملوا جاهدين ولمدة طويلة لتحقيق هذا النصر فى شهر ديسمبر ، وتحملوا اعباء ثقيلة . وكان فى مقدمة هؤلاء ، أمين الشريف ، كبير مهندسى المقاولين العرب ، والمسئول عن عمليات الحفر التى كانت متأخرة جدا عن المعدل المقرر عندما تسلم العمل فى السد ، والتى مثلت مفتاح العملية كلها فى هذه المرحلة . ولقد ظل يعمل ليل نهار فى موقع السد اكثر من عام كامل ، ولا ينام الا لحظات خاطفة فى مكتبه . وظل بعيدا عن اسرته فى القاهرة التى لم يرها طيلة هذه المدة . وكان ينقل فى كل يوم ، وعن طريق الهاتف الى عثمان احمد عثمان تقريرا عن كمية الصخر التى تم حفرها ونقلها ، ويرسم الزيادة المستمرة فى معدل الحفر الى ان ابلغه فى شهر ديسمبر المعدل القياسي الذى وصل اليه ، والذى بشره بان العمل سيتم بنجاح فى المرحلة الأولى فى الوقت المحدد له . وقام عثمان احمد عثمان فى هذه الظروف السعيدة برحلة من رحلاته الدورية الى الموقع فى شهر ديسمبر ، وراح يطوف مع أمين الشريف فى سيارة « فولكسفاجن » سوداء . أماكن العمل ، ليتبادل مع العمال كلمات ضاحكة . وبينما كان فى احدى النقاط يمازح بعض العمال ، وانتهى من الحديث معهم التفت الى أمين الشريف الجالس وراء مقود السيارة ليقول له .. هيا بنا يا أمين . ولكنه لم يحظ برد من أمين . فقد توقف قلبه عن الحركة ...

وهكذا توفى أمين الشريف بعد ان قام بواجبه ، وانهى مهمته . وكان فى الخمسين من عمره .

١٠ ١٩٦٣ سنة النجاح

رفعت فى اليوم الأول من شهر يناير من عام ١٩٦٣ لوحة كبيرة فى مكان بارز يطل على المدخل الرئيسى للطريق المؤدية الى موقع السد، كما رفعت نسخ اصغر منها فى كثير من المواقع وبينها مكتب الوزير السيد صدقى سليمان ومكتب كبير المهندسين السوفيات اليكساندروف تعلن بالعربية والروسيه ، انه لم يبق على اكمال المرحلة الاولى الا خمسمائة يوم . وقد عنت هذه اللوحة ، ان المرحلة الشاقة الأولى من العمل ، وان تحويل مجرى النيل ، يجب أن يتما فى الخامس عشر من مايو من عام ١٩٦٤ • وهكذا تم تحديد الهدف • وكان الرقم يغير فى كل مشرق شمس ، بحيث لا يستطيع أى انسان أن ينسى خطورة مرور الوقت .

وأصبح المهندسون الذين يشرفون على توجيه العمل ، لا يحظون بأى قسط من الراحة اذ اخذ غذ السير فى العمل يسرع الخطى ، وازدادت العملية تعقيدا وتركيبا . وكان الوزير وكبير المهندسين زكى والمهندس أحمد سعيد واليكساندروف • ورادشينكو ، وغيرهم ، يبدءون عملهم اليومى عند شروق الشمس ، فيطوفون بأماكن العمل والمشاغل ، ثم يعودون قبل انقضاء الصباح الى مكاتبهم ليعقدوا الاجتماعات ولاجراء المشاورات وتولى القيادة والادارة • وكانوا يتناولون الغداء فى ساعة متأخرة . يرتاحون بعدها لفترة قصيرة قبل ان يبدأ غزو العمال العظيم لمواقع العمل عند الغسق ، ليعود المسئولون الى الموقع يشرفون على ساعات العمل المسائية الطويلة ، دون ان تقطعها الا فترة استراحة قصيرة لتناول العشاء . ولم تعد قاعات فندق كاتاراكت ، تراهم الا فى أوقات متباعدة ، بينما أصبحت القاهرة لا تراهم الا لماما • وكان طه ابو الوفا وكيل الوزارة الجم النشاط والفاعلية . يقف عند الطرف الثانى فى الخط الهاتفى فى مكاتب الوزارة فى القاهرة باستمرار آناء الليل وأطراف النهار • وكان التعب قد بدأ يظهر فى خطوط الوجوه وفى

استشاطة الامزجة غضبا أحيانا، ولم يكن القلق يبعد كثيرا على السطح. ولكن الثقة اخذت تزداد مع مرور الاشهر ، ويزداد معها الاحساس بالقدرة على التحقيق . وكان المصريون والروس على السواء يحسون بالاعتزاز . فهناك على سبيل المثال ديمترى زركايليشوف ، خبير المتفجرات ذو الثلاثين عاما ، والذى كان قد اعاد زوجته الى بلاده منذ عام ١٩٦٠. فقد مدد هذا الرجل اقامته فى عام ١٩٦٣ ، وهو يقول .. « هنا تتاح الفرصة ليضاعف الانسان عمله » . وكان يعنى حقا ما يقوله .

وكان المهندس جمال البطراوى قد حل محل أمين الشريف ككبير لمهندسى المقاولين العرب فى عملياتهم . وكان من الذين يثق بهم عثمان احمد عثمان ، وقد تولى له ادارة عملية توسيع ميناء بور سعيد وتوسيع قناة السويس ، وكلتاهما من اكبر العمليات فى جميع المعايير . وكان هذا المهندس وهو فى اربعينات عمره ، ومتوسط فى طوله، وهادىء فى حديثه، شديد الاخلاص فى عمله ، وقد جعل من مكتبه مسكنا له ، فلم يغادر الموقع شهورا عدة متتابعة ، حتى لرؤية اسرته فى القاهرة . وكان عدد المهندسين العاملين تحت امرته ، قد ارتفع الى مائة بينما زاد عدد عماله عن الاثنى عشر ألفا ، أو ضعف الرقم الذى خيل الى المسئولين فى وقت ما أنه سيكون كافيا للقيام بالعمل .

وتحسن نظام الصيانة والاصلاح كل التحسن حتى ان العمل ظل يستمر اربعا وعشرين ساعة فى اليوم عن طريق ادخال « نوبة » ثالثة للعمل . وقد عنى هذا ان العمال اخذوا يتحملون حرارة اسوان التى لا تطاق ، والتى كان حتى أولئك الذين الفوها ، يشعرون بوطأتها . وقال أحد المهندسين « لعل من المدهش ان عدد الذين انهاروا من وطأة الحرارة كان قليلا » . ولكنه لم يذكر رقم هؤلاء .

واستمر العمل بالرغم من المتاعب المضاعفة ، دون ان تتكرر المشاكل السابقة . ولم يكن هذا بسبب وجود مراقبين من ضباط صف الجيش فحسب ، بل لان الروح المعنوية وأوضاع العمل المادية قد تحسنتا الى الحد الذى دفع العمال الى تقبل العمل حتى فى اقسى الظروف . وكانت شركات المقاولات قد أمنت المساكن لعمالها اما فى الموقع نفسه ، عندما يكونون من العزاب ، أو فى ضواحى اسوان عندما يكونون من المتزوجين ، كما أمنت لهم ايضا النوادى الترفيهية ، حيث يستطيعون ان ينعموا بالحياة بصورة لم يألفوها من قبل . وكان نادى المقاولين العرب على سبيل المثال ، يضم بركة سباحة ، وقاعة للسينما

واجهزة للتلفزيون ، وغرفا للألعـــاب ، ومكتبة ، ومطعمــا ، ومشربا للمرطبات . ولم يكن يسمح بالمشروبات الروحية فى أى مكان فى موقع السد العالى . وكانت الاجور مرتفعة الى الحد الذى اجتذب العمــال برضاهم الى الموقع ، ولذا فقد زالت الضرورة الى استخدام اســاليب الالزام . ولم يكن ليرفض العمل أى عاطل ، أو أى عامل يستهويه الاجر الطيب . وكان الحد الادنى لاجر العامل يصل الى العشرة جنيهات فى الشهر ، مع المسكن المجانى ، والغذاء والتسلية . وكان هناك عمال تبلغ مرتباتهم حدود الثلاثين جنيها وترك هذا التطور أثره فى القاهرة ، اذ قل عدد المتوفرين للخدمة فى المنازل ولم تحل نهاية العام حتى كان أكثر من ثلاثين ألف عامل يعملون فى السد ، وهو رقم يبلغ خمسة اضعاف الحد الاعلى الذى كانوا قد قدروه للعمل فى السد .

ولعل اهم ظاهرة برزت فى هذا العام ، الاعتزاز بما تحقق . وقد انتشر هذا الاحســـاس حتى وصل الى اكثر العمــال جهلا ، اذ كانوا يشعرون بانهم « بناة السد » ، وانعكس لدى المثقفين فى صورة رسالة يؤدونها . وكانت الاثارة تزداد يوما بعد آخر لدى الكثيرين منهم ، وهم يرون الابعاد الضخمة للعمل ، ويبدو ان هؤلاء ما عادوا يحسبون حسابا أو يقيمون أى وزن لا للمتاعب ولا للمتع الحياتيــة . وكان فى وسـع الانسان أن يحس بأنهم سيزهون بالحديث الى ابنائهم واحفادهم عن الدور الذى قاموا به فى بناء السد . ولقد اسكت سائق « اوتوبيس » انجليزيين كانا يحاولان السخرية منه ، فى حديثهم عن السد العالى عندما تطلع اليهما وقال بمنتهى الهدوء والكبرياء باللغة الانجليزيه .. « اسمعا أنا مصرى عادى بسيط . وكان يخيل الى اننا لن نستطيع بناء هــذا السد العظيم ، وهانحن نبنيه الآن . ولا يضيرنى بعد ذلك مايصدر عنكما من كلام فارغ » .

وكان المئات من الطلاب الجامعيين تحفزهم عوامل القناعة ، يتطوعون للعمل فى السد فى عطلات عام ١٩٦٣ ، ويتقاضون أجورا لا تقـل عن الخمسة عشر جنيها للواحد منهم . وقد اطراهم المهندسون لحماستهم . ويبدو ان عملهم كان مصدر اشعال للروح المعنوية ، ولكن كثيرين منهم كانوا يعودون للعمل فى اسوان بعد ذلك العـام للتدريب اذا كانوا من طلاب الجامعات .

وكان كامل شنوده ، الموظف فى المختبر ، نموذج الانسان المصرى الذى يعتز بالرســالة التى يؤديها . وكان قد نشــأ وتعلم فى اجواء

الاسكندرية المفرقة فى ترفها قبل الثورة ، ولكنه كان قد قضى الآن ، وبعد تخرجه من الجامعة سنوات طويلة فى بلاد النوبه ، حتى ان النوبيين اصبحوا يعتبرونه مواطنا فخريا فى عالمهم الواقع على الحدود . وكان قد قضى سبع سنوات فى اعادة اسكان النوبيين ووضع التصاميم لقراهم واستصلاح اراضيهم فى مشاريع اسكان الفلاحين الذين جلوا عن ديارهم بعد التعلية الثانية لسد اسوان القديم . وكان قد قضى ثلاث سنوات فى الاسكندرية بعد استكمال هذا العمل ، وقبل ان يستدعى ثانية للعمل فى بلاد النوبة ، تمهيدا لبناء السد العالى هذه المرة ، وهو السد الذى سيغرق فى بحيرته كل بيت وحقل وشجرة فى بلاد النوبة القديمة .

وعمل شنوده فى المختبر منذ انشائه ، ولسنوات طويلة قبل ان يصبح السد نفسه اقتراحا عمليا قائما ، وفى أوضاع كانت من الصعوبة بحيث تكفى للقضاء على كل احساس بحب المغامرة . وكان قد اصبح رئيسا لمجموعة من ثلاثة موظفين كانوا يشتركون فى غرفة واحدة كالصندوق ، ولقد قضى فى هذه الغرفة معظم ساعات عمله ، ولسنوات طويلة . ولقد رأيت الى جانبه وخلفه على جدران الغرفة ، مخططات ملونه لتركيب أرضية النهر ، ويمثل احدها مقطعا عرضيا لهذه الارضيه جمعه من رسوم الاخصائيين الالمان والفرنسيين كما يمثل مخطط آخر ، مقطعا عرضيا اعده المصريون فيما بعد عن خط السد الذى اختاره الروس . وكانت سنوات المشقة والعرق قد انقضت الآن، فلقد اصبح مكتبه مكيف الهواء ، وبات يعيش فى منزل مكيف ، فى بلدة سكنية صغيرة اعدت للمهندسين والموظفين ، وسط تلال الضفة الغربية . وكان يقضى ساعات راحته يرقب جهاز التلفزة الذى اقيمت محطة ارسال له فى اسوان للترفيه عن عمال السد ومصنع كيما للاسمدة الكيماوية . ولا شك فى انه كان لهذه المتع الصغيرة اهميتها فى ارض اسوان القفر ، وكان شنوده يتحدث عنها بكثير من البهجة . ولكن ذكرياته عن السنوات الطويلة التى قضاها فى مكتبه العارى ، والتى خلت من هذه المتع لم تحطم فهمه التصورى للدور الذى أداه مهما كان صغيرا فى هذا المشروع العظيم الخلاق .

وكانت النسوة اللائى لم يلعبن دورا فعليا فى العمل ، واللاتى انعزلن فى اسوان عن الصديقات والحياة الممتعة ، يجدن من الصعب احتمال مشقات العيش هناك . وهناك زوجات لم يفكرن قط باللحاق بأزواجهن فى أسوان ، وكان يغضبهن اذا ما اقمن بيوتهن هناك . يقضين معظم ايام السنة بعيدا عنها فى القاهرة اما اللواتى عشن هناك

واسهمن فى العمل عن طريق احتمال ساعات الوحدة الطويلة بعيدا عن ازواجهن العاملين فى السد ، فكن يتغلبن على مشاعر الضيق بالتطلع الى شاشة التلفزيون ، انتظارا لعودة الازواج من العمل . وروى لى شنوده ، ان زوجته لم تتذمر قط ، ولكنه عاد فقال انه لم يتزوجها الا بعد أن بدأ العمل فى السد . وأصبحت تعرف البيت الذى ستعيش فيه سنوات عدة قادمة .

وكان معظم الروس الذين يعيشون مع عائلاتهم فى مساكن مصنع كيما المكيفة الهواء ، والذين يؤمون ناديهم الاجتماعى الخاص الذى أقامته الحكومة المصرية ، يبدون راضين كل الرضا عن حياتهم فى أسوان وكانت العقوبة التى تحل بالروسى اذا ما ارتكب خطأ خطيرا فى عمله أو فى خارجه ، أن يعود الى بلاده . ولقد شوهد الكثيرون منهم وهم يذرفون الدموع عندما تنزل بهم هذه العقوبة . ومع ذلك لم يكن فى وجودهم فى أسوان الكثير من المتع . فقد انحصرت حياتهم هناك فى مجتمعهم الروسى الصغير ، وكانت لا تنطوى على اكثر من تبادل القصص والاحاديث أثناء تناول وجبة طعام روسية . أو فى ظلال بيوتهم ، أو أثناء تناولهم بعض أقداح الفودكا وهم يشهدون فيلما روسيا ، أو ابان لعبهم « تنس الطاولة » فى النادى . ولم يشهدهم أحد ينعمون بحياة فندق كاتراكت أو يسهرون فى الملهى الليلى الوحيد ، أو يمخرون فى القوارب فى نهر النيل فى ضوء القمر . ولكن حياتهم البيتية كانت مريحة وممتعة ، اذ كانت مساكنهم واسعة وجديدة ومكيفة الهواء ، وتكفى للاحتفاء باصدقائهم . ولا شك فى ان الحياة فى ضاحية كيما الصناعية على اكناف المنطقة الاستوائية كانت مريحة وممتعة لهم .

وكان الروس يقيمون حفلة سنوية لزملائهم المصريين ، ولكن هذه الحفلة كانت تمثل الحد الاقصى للمرح والاختلاط . اذ لم يكن ثمة اختلاط كبير بين المصريين والروس خارج ساعات العمل . ومع ذلك فقد تحسنت العلاقات بين الجانبين تحسنا كبيرا فى غضون عام ١٩٦٣ ، ولا سيما بالنسبة الى المهندسين الذين جمعهم الاحساس بالقلق فى السنوات الماضية ، واخذوا الآن يشتركون فى الاحساس باقتراب النجاح . وكان جدول العمل يقترب بسرعة وثبات من المستوى المطلوب ، فينفى احاسيس القلق السابقة ، ويبعث الادراك بالنجاح القريب . وكان اليكساندروف قد بذر بذور التحسن فى عام ١٩٦٢ ، عندما تمكن من الاسراع فى ارسال المعدات والآلات والرجال . فلقد

استطاع ان يستقدم فى غضون اسبوعين من شهر نوفمبر نحوا من مائتى خبير سوفياتى اخر ، وان يأتى باحد عشر ألف طن اضافى من المعدات اللازمة . وكان المصريون بدورهم قد تبينوا ضرورة تحقيق برنامج التأهيل المهنى ، واعيد النظر فى شهر ديسمبر فى الاتفاق ، ولم تهل السنة الجديدة ، حتى وصل من موسكو المدربون والمعدات والافلام السينمائية لتدريب نحو من خمسمائة من الفنيين المصريين . واوفدت مجموعات من المصريين الى روسيا لاعدادهم للعمل فى محطة التوليد الكهربية .

وتمكن عمال المقاولين العرب من حفر ٦٥٤ الف ياردة مكعبة من الصخور والرمال فى شهر يوليو من عام ١٩٦٣ ، وكانوا قد تخطوا آنذاك ذروة العمل المطلوب فى القنوات المفتوحة . وتم فى الثالث والعشرين من نوفمبر حفر الصخور الأخيرة فى الجانب الامامى عند مدخل الانفاق على الطرف الغربى من قناة التحويل ، وهكذا لم تبق هناك فى الجانب الامامى الا نحو من ١٥٧ ألف ياردة مكعبة من الصخور والرمال ، يمكن رفعها فى غضون عشرة أيام ، وقد تركت لتمثل الطريق المؤقتة الموصلة الى مداخل الانفاق . وكان الشطر الاكبر من الحفر يجرى الآن فى الانفاق ، ليتم على الفور تسليحها بالاسمنت جزءا بعد جزء ، وبسرعة هائلة ، لتمكين المسئولين من استكمال العمل وفق الهدف المقرر فى مستهل عام ١٩٦٤ . ولم يعد الآن ثمة وجود للانفجارات العظيمة التى بلغت الذروة فى عام ١٩٦٢ ، عندما كانت تشمل ٢٦ طنا من المتفجرات فى وقت واحد ، فتهز الهضبة كلها . أما الآن ، فكانت كميات المتفجرات التى توضع فى الاماكن الواضحة المحددة لاتعدو الكيلوجرامات المحدودة .

وكانت هناك نحو من ٣٤ ألف رجل يعملون فى السد الآن . وكانت شركة المقاولين العرب قد اتمت حفر ثلاثة عشر مليونا من الياردات المكعبة قبل نهاية العام ، واتجه الضغط الى شركة تسليح الاسمنت لاستكمال عملها فى المائة والخمسة والثلاثين يوما الباقية على موعد التحويل . ولا شك فى أن شركة مصر لتسليح الاسمنت اخذت تعانى الآن عقوبة الابطاء فى العمل فى الشهور الاولى ، اذ لولا هذا الابطاء ، لكان فى امكانها ان تقوم بعملها ببطء مرحلة اثر مرحلة . وكانت معركة الصاعقة التى شهدتها الشهور الثمانية عشر الماضية ، وقد وصلت بالعمل فى مختلف القطاعات الى الحد الاعلى ، مما أرغم شركة مصر على العمل فى تسليح الاسمنت فى هذه القطاعات فى وقت واحد . وكان

مصنع « الخلط » الكبير الذى اقيم فى الموقع قادرا على انتاج كل ما يحتاج اليه العمل وهو ٢٤ ألف ياردة مكعبة من الاسمنت المسلح ، ومع ذلك فقد تم بناء مصنع صغير آخر : شرع فى الانتاج فى شهر نوفمبر من عام ١٩٦٣ ، وذلك للتأكد من أن الانتاج اليومى سيكون كافيا للمتطلبات الاستثنائية التى تقتضيها المرحلة الختامية .

وبدأ العمل فى اعداد منشآت محطة التوليد الكهربية فى الجانب الخلفى للانفاق فى شهر أغسطس ، ولم تمض ثلاثة أشهر ، حتى شرع المقاولون العرب فى نقل خمسة ملايين ياردة مكعبة من الصخور وقلبها فى موقع السد المؤقت الأمامى . وكان هذا العمل ، يمثل الصورة الاخيرة للمرحلة الأولى من العمل فى السد العالى ، واذا عرفنا ان هذا السد المؤقت سيدمج فى البنيان الرئيسى للسد ، كان فى وسعنا ان نفهم ما كان المهندسون يعنونه ، عندما شرعوا فى القول بأنهم بدأوا العمل فى السد نفسه .

وكان من المقرر ان يشرع فى العمل فى السد المؤقت الامامى فى خريف عام ١٩٦٢ ، أى عندما كان منسوب المياه فى البحيرة الواقعة وراء السد القديم منخفضا ، ولكن لما كان العمل فى قناة التحويل قد تأخر عن البرنامج الزمنى ، فقد تأخر الشروع فى اقامة السد الامامى الى خريف عام ١٩٦٣ . وقام الروس بدفع الرمال بالمضخات وعن طريق الانابيب الى النهر . وهو اسلوب كان المستشارون الدوليون قد نظروا اليه بكثير من الحذر ، اذ ان السد المؤقت كان يبنى فى خزان السد القديم ، حيث يتجاوز عمق الماء ١١٥ قدما ، وحيث يبلغ جريان النهر اربعمائه ألف ياردة مكعبة فى الثانية ، وهى أوضاع لم تسبق مواجهتها من قبل فى أى مشروع استخدم فيه نظام دفع الرمال بالانابيب . وكان الروس قد استخدموا هذا الاسلوب على أى حال فى بناء سدود نهر الدنيبر ، وفى اقامة محطة توليد الكهرباء فى دنيبر ودزيرشينسك ، وكان الدكتور موسى عرفه ومجموعة من المهندسين المصريين قد تأثروا بسرعة العمل فى هذا الاسلوب عندما رأوه فى الاتحاد السوفياتى ، ورخص تكاليفه . واستخدم الاسلوب نفسه ولكن على نطاق ضيق فى بناء السدين المؤقتين فى قناة التحويل ، وهكذا اصبح اسلوب ضخ الرمال بالانابيب فى خريف عام ١٩٦٣ أمرا حيويا لتحقيق البرنامج الزمنى ، اذ كان من المتعذر بدونه اتمام بناء السد المؤقت الرئيسى قبل شهر مايو التالى .

وكان فى الامكان رؤية هذا الاسلوب بصورة واضحة على الضفة الغربية للنهر ، حيث كان الماء يدفع بالمضخات عبر خراطيم هائلة الى حوض رملى قائم فى الكثبان الطبيعية لعمل « مجبول » رملى ، يدفع بعد ذلك فى الانابيب الى موقع السد المؤقت فى النهر . وكان رمل الشلال الذى لا يتيح بعده نقله عن طريق الضخ يحمل فى القطارات عن طريق الرافعات الثقيلة ، فتسير هذه القطارات فوق الخط الحديدى الذى تم انشاؤه مؤخرا . وكان هناك نحو من اربعة عشر قطارا تسير فى اليوم ويحمل الواحد منها خمسين طنا من الرمل فى عشرين حافلة ، تشكل كثيبا رمليا صناعيا عند الطرف الشمالى لموقع العمل على الضفة الشرقية ، فينقع الرمل بالماء عند قاع الكثيب ثم يضخ الى الموقع المطلوب فى النهر . وكان الرمل اذا ما وصل الى النهر يثبت عن طريق أعمدة عملاقة رجراجة .

وكان عرض النهر قد ضاق عند نهاية العام ، من ناحية الضفتين . ولكن السد المؤقت كان لا يزال تحت سطح الماء . وكان عمال المقاولين العرب يحملون الصخور من مناطق معدة للتحميل فى شاحنات تنقلها الى احواض كبيرة عائمة وغرابيل على جانب النهر فتقوم بغربلتها بطرق ميكانيكية لتفصل الصخور وتجمعها وفق أحجامها وتدفع بها الى المراكب . وتقوم هذه بحمل الصخور الى النهر فى مواقع تحددها لها الصوات النهرية .

واصبح فى مكنة الزائر ان يرى اخيرا التصميم العظيم . وبينما كان بناء السد المؤقت الرئيسى يجرى بسرعة فى النهر ، كان العمال قد شرعوا فى تطهير قناة التحويل وانفاقها بصورة متدرجة وراء السدين المؤقتين . وكانوا قد رفعوا منذ أمد بعيد الكتلة الصخرية الطبيعية فى الجانب الخلفى للقناة ، وأصبحت السدود الرملية تصد مياه النهر عن العودة الى القناة ، منتظرة تدميرها النهائى فى اليوم العظيم الذى حدد لتحويل النهر .

وأقيمت دعامات هائلة من الاسمنت المسلح لفصل مداخل الانفاق الستة عن بعضها وحمايتها . وقد صيغت بشكل يحمل بوابات للسيطرة على المياه . وكانت هذه البوابات التى تعتبر من اضخم ما عرفه العالم قد وصلت الى مصر ، وبدأ نقل أجزائها من الاسكندرية الى أسوان لاعادة تجميعها عند موقع السد . وكان العمل فى تأمين مواقع محطة التوليد الكهربية عند مخارج الانفاق قد قطع شوطا بعيدا من ناحية التسليح بالاسمنت ، واصبحت جاهزة لتجميع « التوربينات » فيها .

وبدأ المرء يشاهد فى الجانب الامامى للانفاق مداخل جديدة فوق مستوى المدخلين الغربيين من المداخل الستة التى تم حفرها ، وبدأ حفر أنفاق جديدة من هذه المداخل بشكل منحدر ، لتتصل بتلك الانفاق التى تقع تحتها مباشرة • وستكون للانفاق الأربعة الأخرى مداخل مماثلة وعلى مستويات أعلى • وكان المقصود من الطرق الخفيضة فى الجانب الامامى أن تؤمن القنوات للنهر فى السنوات الاربع الاولى التى يتم فيها ملء الخزان ، وستفقد نفعها عندما يتجاوز التخزين المستوى المطلوب فقط لتخزين الغرين ، اذ انها ستؤمن المرور فقط للماء « الآسن » • وستسد آنذاك بالأسمنت المسلح بحيث ينفذ الماء « المتحرك » فى المناسيب العليا الى « التوربينات » عن طريق المداخل العليا . وستثقب البوابات بصورة مشابهة عند الانفاق السفلى ثم ترتفع فى الوقت المناسب الى مجار من الاسمنت المسلح يجرى فيها الماء على المستويات العليا والدائمة . ولا شك فى أن الانفاق العليا تعتبر فى الواقع جزءا من المرحلة الثانية من البناء ، وكانت تعتبر دليلا على ما تحقق من تقدم فى نهاية عام ١٩٦٣ ، اذ كان العمل فيها قد بدأ بالفعل •

ولا شك فى ان النجاح كان قد اصبح محققا فى هذه الآونة ، بالرغم من جميع الاخطاء السابقة فى الحسابات والادارة ، وبالرغم مما سببته هذه الاخطاء من ابطاء فى العمل فى السنوات الاولى . ولا شك فى ان الفضل فى التغلب على هذه العقبات فى النهاية دون حدوث أى كارثة يرجع الى المصريين والروس . ولقد حلت آونة فى منتهى الخطورة بالفعل ، عندما بدأ الرمل فى السد المؤقت فى الانهيار ، وهو تطور لو سمح له بالمضى فى طريقه مدة طويلة ، أو لم يكتشف فى الوقت المناسب، لحطم جزءا كبيرا من العمل الذى تحقق ، ولجعل من المتعذر ، مجاراة الجدول الزمنى ، ولكن تمت تعبئة جميع العمال والآلات لاصلاح العيب فى الوقت المناسب . ولا شك فى ان هذا الحادث الخطير اشار الى التجربة الكبرى التى سيتعرض لها العمل كله، عندما تبدأ مياه فيضان عام ١٩٦٤ كلها فى الاندفاع بكل قوتها على السد المؤقت الأمامى ، وهى ظاهرة كان الخبراء الدوليون قد لفتوا النظر اليها فى تقريرهم النقدى الأول للتصميم الألمانى • ولكن المهندسين من مصريين وروس كانوا على ثقة من قدرة السد المؤقت على الصمود امام النهر • ولا شك فى أن النهر عرض هذا الحكم للاختبار القاسى فى النهاية •

ولقد ضحى الكثيرون من الرجال بأرواحهم ، وسيضحى كثيرون آخرون بها قبل ان يقف السد العظيم بكل روعته عبر نهر النيل • فلقد

قتلت صخور سقطت من المرتفع عند مدخل الانفاق نحوا من احد عشر رجلا ، وقتل ستة رجال من انفجار ، عندما تعطل جهاز الانذار عن اعطاء الاشارة ، وهوت عدة شاحنات في الوادي ، وهي تعبر الطرق الخطرة عند المنحدرات . وهوت أخشاب أحد المراكب التي تنقل الصخر الى النهر ذات مرة ، وغرق معها أحد العمال النوبيين . وراح رفاقه يطالبون باخراج جثته من بطن النهر ، فتوقف العمل في النهر بينما كان الغطاسون يبحثون عنها الى مسافات بعيده ، دون ان يعثروا عليها . وكان لابد من وقوع مثل هذه الحوادث في عمل يضم عشرات الالوف من العمال غير المتعلمين الذين يعملون في آلات هائلة وسط قفر من الارض وذكر المقاولون العرب أن نحوا من خمسين رجلا فقدوا الحياة ابان العمل في كل عام ، من جراء مثل هذه الحوادث او من جراء الانهيار الناتج عن الاجهاد وقد يثير هذا الرقم الدهشة ، ولكنه ليس بالرقم العالي . ولا شك في ان الذين فقدوا ارواحهم كانوا شهداء عمل جبار خلاق ، لا أثر فيه لنتائج الحروب الهدامة ، وسيكون السد نفسه النصب التذكاري الذي يقوم لتخليد سقوطهم في ميدان الشرف .

فلقد لعبوا دورهم المتواضع في الوصول بالمشروع العظيم الى عتبه الانجاز والتحقيق في السنة الرابعة من العمل . ولقد قيل منذ البدايه ان موعد تحويل النهر سيقرر الموعد النهائي لاستكمال العمل . ولن يكون هناك أي ابطاء في الجهد في الشهور الأولى من عام ١٩٦٤ اذ وقفت الهضبة المهشمة وما تحقق فيها من أخاديد وأنفاق صنعها الانسان ، وما شقها من نفق للنقل ، وما يرتفع فوقها من بنيان يضم الصخور والرمال ، يوما بعد يوم ، فوق مياه النيل ، كدليل حي على يوم النصر الذي تحقق في الخامس عشر من مايو . ولم يعد سائحو ذلك العام ينظرون الى خطوط بيضاء على المرتفعات الصخرية ، اذ عندما كانت القوارب التي يستقلونها توجه عبر القناة التي تضيق في النهر ، كان في استطاعتهم أن يروا بأنفسهم الوادي الذي سيضم المياه التي يمخرون فوقها عما قريب . وتحت مجاذيف هذه القوارب كان السد العظيم يتخذ شكله النهائي .

القسم الثالث

الأرض التي حكم عليها القدر

١١ النوبيون

تسمى المنطقة الواقعة على ضفتى نهر النيل ولمسافة ثلاثمائه وخمسين ميلا تمتد بين أســوان وبين نقطه تقع الى الجنوب من شــلالدال فى السودان ببلاد النوبة ويعرف القسم الشمالى من هذه المنطقة الواقع فى مصر بالنوبة السفلى وكان المصريون القدامى يعرفونه باسم واوات • أما المنطقة التى تمتد من وادى حلفا نحو الجنــوب ، فكانت جزءا من بلاد كوش القديمة ، وكان الاغريق والرومان يطلقون عليهــا اســم الطرف الشــمالى للزاويه الافريقية التى سموها بلاد الأحبــاش أو بلاد السمر الوجوه • ولقد ظلت حدود هذه المنطقة دائما طبيعية وواضحة • ويتالف الوادى فيها من جبال صخرية قاسية تتخللها سهول من الرمال تنحدر نحو طرف الماء ، وينساب النهر فوق ارضيتها الصخرية المهشمة ، الى ان يصل الى الشلال الأول فى السودان ، ليبدأ رحلته الهادئة المتزنة باتجاه الشمال • ويقف سكان هذه المنطقة في عزلة عن غيرهم • ولقد حافظوا منذ بداية تاريخهم الغامض على لغات خاصة غير مكتوبة يتكلمون بها ، كما ترمز بشرتهم السوداء الى بداية افريقية السوداء •

ولقد كانت هناك شعوب فى أفريقية أبدت منذ أقدم عصور التاريخ مظاهر الكبرياء الانســانية ، فترفعوا على غيرهم من الاحياء باكتســاب مهارات خاصــة ، وبتأليف مجتمعات ذاتيــة الوعى ، وبتعهد أحاسيس روحية جنينية • ولقد جعل المزيج من الأرض القاسية والنهر الوعر من بلاد النــوبة ، منطقة فاصلة بين هذه الشــعوب • وكانت هذه المنطقة دائما وعبر قرون طويلة وغير مرسومة فى التــاريخ ، ممرا غير أليف ، سواء بالنسبة الى البدائيين الاول الذين كانوا يتجهون نحو الشــمال ، أو فيما بعد بالنسبة الى المتحضرين الذين كانوا ينتقلون في اتجاهى الشمال والجنوب ، بحثا عن الثروة أو الفتح ويمثلون دائما زبدة العزلة على النيل بين الشلالين الأول والثالث اللذين سجلا تحركاتهم •

وكانت الروابط بين الانسان وأخيه الانسان تصاغ فى هذه المنطقة

وسط حرارة لا تطاق ، وفي بيئة يغلب عليها الجهد • فلقد فصلت هذه البيئة بين الحضارة والبدائية ، وحالت دون زحف المتحضرين على البدائيين وكانت الروابط التى صاغها الافريقيون السود والمصريون القدامى والاغريق والرومان ، قد سجلت عند النوبيين فى شكل صور على الصخور أو معابد رائعة تؤلف كتابا عظيما عن التاريخ القديم ، وتمكننا من فهم الكثير من اللقاءات بين الناس والعقول فى منطقة حدود فى العالم القديم •

ونسى العالم هذه البلاد الخشنة مع تقدم الحضارة الى أوروبا وانتشارها فى العالم • وغطت الرمال المتحركة التى نقلتها القرون المتعاقبة تماثيلها الكثيرة ، تاركة ظلالا من العظمة تشير الى الماضى العريق تماما كالرءوس الضخمة التى رآها سائح مغامر فى نهاية القرن الماضى تطل من بحر من الرمال ، لتشير الى موقع ابى سمبل ، الذى يضم أعظم تماثيل هذه الناحية • وأكب المؤرخون المجدون منذ ذلك التاريخ على اكتشاف الكثير من اثار الماضى منذ ذلك التاريخ وعلى تفسيرها وشرحها ، بحيث أصبحت بلاد النوبة متحفا ضخما فى الهواء الطلق لآثار الماضى المنتشرة على الرمال ، والتى تلقى اشعة الشمس ضوءها عليها • وظل سكان هذه المنطقة يعيشون حياتهم البسيطة التى لم تتبدل فى هذا الجو الغريب على ضفتى النهر •

ولقد قضى السد العالى على بلاد النوبة هذه بالاختفاء حتى الابد ، وقضى معها على تماثيلها ومساكنها وحقول مائة الف من السكان يعيشون فيها • فستختفى فى بطن الخزان المسمى ببحيرة ناصر ، مدينة وادى حلفا السودانية كلها ، ومعها القرى ببيوتها النظيفة البيضاء ، وبنخيلها . وبمحصولاتها القليلة وتقاليدها وحياة الكفاف الشاقة التى يعيشها شعب من الحفاة المتكبرين الذين تعلقوا بضفتى النهر من جيل الى جيل •

وتمت هذه الاشارات كلها الى النوبيين الذين عاشوا فى ايام الفراعنة ، ولكن من أين جاء هؤلاء الناس ومتى جاءوا فأمر لم يتضح بعد حتى للعلماء والمؤرخين ولا يعرف أحد أيضا متى بدأ الناس يتحدثون بلغة النوبة على ضفاف النيل • فلقد عثر على نقوش تمت الى القرن الثامن الميلادى وفيها كتابات باللغة النوبية القديمة ، ولكن هذه اللغة كمخطوطات لم تعمر اثناء غزو مملكة دونجولا النصرانية فى القرن الرابع عشر ، وحلت محلها اللغة العربية عند ما اعتنق النوبيون الاسلام • وما زالت هناك لغتان نوبيتان تستخدمان فى الكلام وأولاهما كينوزى ، ويستعملها

الناس الذين يعيشون على ضفاف النهر من اسوان ولمسافة تسعين ميلا تقريبا • والثانيه « مهاسى » ويستخدمها أولئك الذين يعيشون الى الجنوب حتى دنقلة فى السودان وتنفصل هاتان اللغتان عن بعضهما بنحو من خمسة وعشرين ميلا من ضفاف النهر ، يتحدث فيها الناس الذين يمتون الى شعوب بدوية وسودانية متداخلة ومختلطة بالعربية • ولا يستطيع المتحدثون بلغة كينوزى فهم مايقوله اولئك الذين يتحدثون بلغة « مهاسى » وهؤلاء اقرب فى لغتهم الى لغة اهل دنقلة فى السودان •

ومع ذلك فهناك صلة ثقافية وعرقية كاملة بين النوبيين من أسوان الى دنقلة ، ولا يظهر الخلاف بين من يتحدثون باللغتين عند الحدود ، وانما داخل اراضى مصر • ولقد ظل النوبيون دائما معزولين عن مواطنيهم فى مصر ، لانهم يعتبرون انفسهم ، ولان الناس يعتبرونهم منفصلين • اما فى السودان فتنبع عزلتهم عن الحقيقه الواقعه ، وهى انهم يؤلفون احدى المجموعات القبلية والاقليمية المنفصلة واطلق عليهم الفاتحون المسلمون منذ أقدم العصور اسم البربر وعلى منطقتهم اسم بلاد البرابرة • وظلوا حتى بعد تحولهم الى الاسلام ، يحتفظون بطريقتهم الخاصة فى الحياة ، وظلوا ولقرون طويلة لا يختلطون بالمصريين الا على نطاق ضيق • وكانت المرأة النوبية حتى قرن من الزمان تسير عارية تقريبا ولا يغطيها الا ازار من الجلد على النقيض من شقيقتها المصرية ، التى تسير متحجبة بالعباءة السوداء ، ولا تظهر يديها ، وقدميها الا عندما تضطر الى العمل فى الحقول وكان السائحون حتى عهد قريب يسمعون من ادلائهم ويقرأون فى كتبهم ان النوبيين يحملون طرازا من الكره للمصريين ، وكانتلهذا الكره جذور عميقة تعود الى مستهل القرن الماضى ، عندما كان جنود محمد على ، يجرون الشبان النوبيين رغما عنهم ، ومن قراهم ، ليجندوهم فى جيش الخديو • ولقد اختفى هذا الكره فى السنوات الاخيرة ، واخذ المهاجرون النوبيون الى المدن والقرى فى مصر السفلى يتزوجون من المصريات • ولم تكن مثل هذه الكراهية قائمة بين أهل النوبة العليا وبين السودانيين المجاورين لهم •

ويبدو التبدل للمسافر على النيل جنوبا من المنطقة المصرية الى بلاد النوبة واضحا كل الوضوح • فالقرى المصرية المبنية على الارض الثمينة الغالية على ضفة النهر أو فى الدلتا ، كثيفة ومتقاربة فى بيوتها ، بينما كان النوبيون الذين تتسع لديهم الأراضى التى لا حقول فيها يبنون قراهم على الصخور والرمال ، فتتوافر لهم السعة والنظافة ويطلى

النوبيون جدران بيوتهم واسوارهم بالجير الابيض ، ويزخرفونها برسوم زاهية زرقاء ، بينما يرســمون على جدران البيوت الداخلية والخارجية لوحات زاهية ، تتشابه فى اشكالها التى يقال انها تعود الى عصور قديمة كتصاميم أصص الازاهير التى تظهر فى كل مكان . وكثيرا ما يرى المر- فى زخارف البيوت من الداخل صورا اقتطعت من المجلات المصورة .

ولم تشيد اية سكة حديدية قط بين الشلال القريب من اســوان ووادى حلفا ، ولذا فقد اعتمدت قرى النوبة فى مواصلاتها دائمــا على النهر أو على طرق وعرة تسير محاذيه للنهر . وتعيش هذه القــرى مع بعضها عند ما يكون الاتصال سهلا بينها ، وتكون مع الزمن اسرة واحدة أو مجموعة قبلية ، تمارس فيها طرز الحياة الاجتماعية للمجتمعات كلها . وتكون هذه المناسبات التى تشترك القرى فى احتفالاتها ممثلة فى موالد الاولياء والصالحين ، اذ تحظى كـل قرية على الاقل بضريح لاحد الاولياء الذى يجله اهل القرية ، وعندما يحل موعد المولد فى قرية من القرى ، تهرع نســوة القرى القــريبة والمجــاورة . فيحملن متاع أسرهن فى « المقاطف » والسلال ، ويمضين مع رجالهن ليخيمن فى ضواحى القرية المحتفلة بالمولد ابان ايامه . ولا يقــوم أى اتصــال مع العالم خارج بلاد النوبة الا فيما ندر ، ويعتمد هذا الاتصال ايضا ، على الطرق الوعرة ، أو على مراكب البريد الاسبوعية التى تتوقف عند بعض القرى ، وتؤمن الخدمات البريدية لهذه القرى كلها . ولا شك فى ان هذه العزلة النسبية قد شجعت ســكان بلاد النوبة على الاحتفاظ بتقاليدهم القديمــة ، وهى تقاليد ستضيع بالنســبة الى المؤرخين الاجتماعيين بسبب اختفاء القرى نفسها (١) .

ولا امطار فى بلاد النوبة على الاطلاق ، وظلت البــلاد عاجزة عن تأمين القوت لأهلها اكثر من قرن كامل . وعندما يكون فى امكان النوبيين زراعة بعض المحصولات فى الاراضى المجاورة للنهر ، ورييها من مياهه ، فان الحرارة تصبح أحيانا من الطراز الذى لايطاق ، ويضطر الزارعون الى

---

(١) كتب جاكيتا هوكز فى صحيفة الاوبزرفر فى عدد السادس والعشرين من فبراير من عام ١٩٦١ بعد رحلة نيلية يقول ... «يبدو أن ليس ثمة من يجد الوقت الكفى لتسجيل فن النوبة الشعبى أو طرائق النوبيين فى الحياة قبل تحطيم هذه التقاليد الحية التى لاتقل فى مأساتها عن تحطيم التماثيل القديمة» . ومع ذلك فقد أجريت دراسات انسالية (اثنوغرافية) فى ذلك العام ، بتوجيه من عدد من العلماء ، واشترك فيها الدكتور روبرت فيرنيا ، العالم الانسالى الامريكى والدكتورة ليلى شكرى الحمامصى : مديرة مركز البحوث الاجتماعية فى الجامعة الامريكية فى القاهرة . (المؤلف)

جنى محاصيلهم حتى قبل ان تنضج لاستخدامها لعلف للماشيه • وقد يتصور المرء ان اناس هنا يعملون فى صيد الاسماك ، ولكنهم ليسـوا كذلك ، وما زالت طراتقهم في صيد الاسماك والزراعة بدائية تشبه تلك التى كانت معروفة في عصور الفراعنة • وتعيش المنطقة على النقود التى تحملها مراكب البريد من النوبيين الذين يعملون في مدن الشـمال فى مصر ، كسفرجية فى البيوت ، أو بوابين للعمارات ولا تضم ايه قريه نوبية اكثر من نصف سكانها من الذكور ، ومعظم الباقين فيها منهم ، من الشيوخ او الصبيان • وهناك قرى لا وجود للذكور فيها على الاطلاق وهكذا فمعظم سكان بلاد النوبة من النساء والاطفال والشيوخ • وكثيرا ما يعود الشاب الذى ارتحل الى الشمال طلبـا للرزق ، الى قريتـه او مجتمعه • ليتزوج فتاة من بنات هذا المجتمع ، فاذا ما حملت منه ، خلفها وراءه ، ليعود الى عمله في المدينة • وقد تنقضى سنة أو سنتان او ثلاث، قبل ان يعود لرؤية زوجته من جديد ، او لرؤية طفله للمرة الأولى ، ولا يقضى فى اوبته هذه الا فترة قصيرة ، يرى فيها والديه ، ويحمل زوجته طفلا آخر قبل أن يعود الى المدينة • ويقضى معظم النوبيين حياتهم على هذا النحو ، ثم يعودون فى النهاية وبعد ان يصلوا سن الشـيخوخة الى قريتهم ، ليشتروا قطعة من الارض يقضون عليها ما تبقى من الحياة • وكثيرا ما يتزوج الواحد منهم فى المدينة التى يعمل فيها امرأة أخرى ، أو يحمل اليها ، كما بات يحدث مؤخرا زوجته النوبية ، وتصبح الصلة بينه وبين قريته الاصلية متراخية وضعيفة مع مضى السنين • وبالرغم من هذه الحياة اللاطبيعية فى العزلة والفاقة فان تعلق النوبيين ببلادهم ظل قويا ، وبالرغم من ان المستقبل قد يؤمن لهم رزقا يفضل رزقهم فى الماضى • فان نسبة قليـلة من النوبيين فارقت بلادها القديمـة راضية الى الابد •

ولقد تم تهجير النوبيين المصريين ثلاث مرات ، أولاها عنـدما بنى سد اسوان القديم فى عام ١٩٠٢ والمرتان الاخريان عنـد تعلية النهـر لتشكيل الخزان الضخم الذى يجرى بناء السد العالى فيه الآن • وكانت كل عملية توسيع لبحيرة الخزان تغرق المزيد من اراضى النوبيين ، مشجعة اياهم على الهجرة الى المدن المصرية وكان بعضـهم لا ينتقل الا الى اسوان القريبة ليجد عمله فيها ، بينما هجرت الحكومة بعضهم الآخر الى منطقة قصب السكر فى كوم امبو • اما الباقون فقد ارتفعوا فى مناطقهم الاصلية الى المرتفعات العالية ، حيث عثروا على أراض جديدة يرونها من النهـر عند ارتفاعه • واستسلمت الحكومة مع مضى السنين الى رغبتهم الساعرة

فى البقاء فى منطقتهم ، فأقامت لهم مجتمعات جديدة وهم يعيشون فى أواخر الصيف والخريف والشتاء اى بين ارتفاع مناسيب النهر وهبوطها فى عالم فقر ، اذ تختفى اراضيهم كلها ، ويظلون متعلقين بقراهم على أكناف الصحراء ، ولا يرون من اراضيهم الا اعالى اشجار نخيلهم المرتفعه فوق مستوى النهر الذى غطى فى فيضانه كل شيء .

وتنطبق أوضاع الفاقة والهجرة الى المدن التى عاشها النوبيون المصريون على اخوانهم فى السودان ، وان كانوا أقل تأثرا منهم بتعلية سد اسوان القديم . وكان الكثيرون منهم يجدون مجالات العمل فى وادى حلفا والخرطوم . وكان هناك ايضا نحو من خمسة آلاف نوبى مصرى فى وادى حلفا ، التى تقف وحدها فى معزل عن صورة الفاقة العـامة التى تجتاح المنطقة كلها . فهى تقع الى الجنوب قليلا من حدود السـودان الشمالية ، وهى كعاصـمة للاقليم ، وكنقطة النهاية للسـكة الحديدية القادمة من الخرطوم ، وللمراكب النيلية القادمة من الشـلال ، تتمتع بشيء من الثراء الذى حرمت منه بلاد النوبة كلها . وتعتز البلدة بفندق لا بأس فى حجمه يقف وسط حدائق واسعة تقف على شاطىء النهر ، وترسو عندها البواخر النيلية فى نهاية رحلتها فى مصر ، وفيها شوارع واسعة ، تقف على جانبيها بنايات خفيفة مشـيدة على طراز الوحدات المنفصلة الذى يؤثره البريطانيون فى المنشئات التى اقاموها فى منطقة شرق السويس .

وعندما وافـق الرئيس عبود على قبـول خمسة عشر مليونا من الجنيهـات كتعويض عن بلاد النوبة ، قرر بموافقته مصير وادى حلفا وفندقها وشوارعها . وكانت المياه قد شرعت فى الارتفاع داخل المدينة وفوق القرى الواقعة الى شمالها حتى السد العالى ، عندما بدأت بكتابة هذا الكتاب . وهكذا انتهى بالنسبة الى النوبيين عالم العزلة الذى كانوا يعيشون فيه ، وحلت هجرتهم العظيمة الاخيرة التى لا عودة منهـا ، الا اذا حاولت بعض الارواح المتعودة على خشونة العيش ، قد حياتهـا من الصخر فى الشواطىء المرتفعة لبحيرة ناصر الجديدة .

وابطأ النوبيون السودانيون فى تقبل حتمية مصيرهم ، فقد اصروا على الاعتقاد حتى وقت قريب جدا ، بأن السد العالى لن يبنى ، أو بأن معجزة سـتحدث لابقائهم فى بلادهم . وقلت لاحدهم .. « وما تنوى يا محمد ؟ فقال وهو يهز كتفيه ويشير الى التلال الرملية وراءه ، موحيا بأنه سيرتقيها ليبنى مسكنه الجديد فوقها .. كل شيء بأمر الله..وقلت

له ٠٠ « ولكن الماء سيغطى تلك التلال يا محمد » فقال « الله كريم » ٠٠ وكان محمد كغيره من ابناء وادى حلفا ، لا يصدق حتى عام ١٩٦٢ ، ان مياه النيل ستغرق البلدة ، وكان يقول ، انه سيظل فيها الى جانب النهر ولا شك فى انه كان يسخر من كل حديث عن غمرها بالمياه ٠

ولكن بعض الحلفاويين واجهوا واقع الوضع ، وثار غضبهم ، عندما تبينت لهم الحقيقة، فسارعت الحكومة السودانية الى تهدئة ثائرتهم سلفا بتأليف لجنة خاصة لتقرر للنوبيين مكان اسكانهم الجديد ، ووعدتهم بأن لايرغموا على الذهاب الى أى مكان رغما عن ارادتهم ٠ ولا شك فى ان الحكومة السودانية قد اخطأت فى وعدها هـذا ، اذ أن كل انسـان كان يعرف انهم سيؤثرون الهجرة أقصر مسافة ممـكنة على جانب النيـل ، وهذا يعنى بالنسـبة الى المواقع المحتملة ، اعادة اسكانهم على مقربة من الخرطوم ٠

وكانت الحكومة السودانية قد وضعت مخططاتها لبناء سد على نهر عطبرة على بعد ثمانمائة ميل الى الجنوب الشرقى من وادى حلفـا وفى مكان يسمى خشم الجربا ٠ ورأت الحكومة ان الفرصة مواتية الآن لاسكان هؤلاء الفـلاحين المـدربين فى الارض المحيطة بالسـد المقترح ٠ ولـكن النوبيين ما كانوا ليختاروا مثل هذا المكان الذى يبعدهم عن نهرهم أولا، والذى ينأى بهم ثانيا عن اقاربهم فى مدن السـودان ومصر ، والـذى يختلف فى طبيعته ثالثا عن وطنهم ٠ فنهر عطبرة من الأنهار الموسمية ، وتجف مياهه فى بعض ايام السنة ، ثم لا يلبث ان يغص بمياه الفيضان المتدفقة التى تسير باتجاه النيل ٠ يضاف الى هذا ان منطقة خشم الجربا تتعرض لامطار استوائية عنيفة ٠ وبالرغم من أن النوبيين كانوا قد الفوا عواصف النيل ورياحه الشديدة ، ولكن وادى حلفا اذا ما قورنت بأرض الطحالب فى عطبرة ، تبـدو جنة من السـماء ٠ ومع ذلك ، فقد اصرت الحكومة السـودانية بالرغم من هذه الاعتراضات على اسـكانهـم فى خشم الجربا ٠

وقد يكون من العسير اجراء معادلة بين القضايا المادية والانسانية التى انطوى عليها هذا القرار ، ولكن ثمة كل ما يبرر الاعتقاد بأن أهل وادى حلفا سيمارسون فى المدن البعيدة حياة أفضل من تلك التى كانوا يعيشونها فى النوبة ٠ ولا شك فى ان أولئك الذين سينقلون من القرى النوبية التى عضتها الفـاقة بأنيابها ، لن يكونوا أسـوأ حالا فى أماكن اسكانهم الجديدة ٠ ولا شك ان قرار الحكومة كان حكيمـا بالنسبة الى

هؤلاء ، ولكن كان عليها لسوء الحظ أن تعالج موضوع أهل وادى حلفا ، وهم اكثر سكان بلاد النوبه ازدهارا ونجاحا ، واكثرهم اطمئنانا الى حياتهم ومسالكهم ، ولم يكن فى وسع هؤلاء ان يروا فائدة فى انتقالهم من اماكنهم ، ومن المحتمل انهم توقعوا فى البداية ان تبنى لهم وادى حلفا ثانيه فى مكان أخر على نهر النيل • ولقد عارضوا قرار الحكومه معارضه شديدة ، لانهم رأوا انه يطلب اليهم تبنى طراز جديد من الحياة فى جو معاد لم يألفوه • وقصد اربعه من الوزراء فى اواخر عام ١٩٦٠ الى وادى حلفا لمناقشة اهلها فى الموضوع ، وليصححوا الراى السائد لديهم بأن من حقهم اختيار الموقع الذى سيعاد اسكانهم فيه • وعندما اتضح للناس ان خشم الجربا ، قد اختيرت مكانا لاسكانهم بصورة قاطعه ، تفجرت الاضطرابات فى البلدة ، واحتفظ اهلها بالوزراء الاربعة بصورة مؤقتة كرهائن حتى تصدر الحكومة السودانية قرارا جديدا • وبالرغم من سرعة اخماد الاضطرابات واطلاق سراح الوزراء ، الا ان المتاعب سرعان ما انتشرت الى عطبرة والخرطوم وام درمان ولقد باتت الاصطدامات تقع فى كل يوم بين النوبيين والطلاب الجامعيين الذين يعطفون عليهم ، وبين رجال الشرطة ، مدة اسبوعين ، اعتقل ابانهما نحو من اربعين شخصا ، ونقل عشرون الى المستشفيات لمعالجتهم من اصاباتهم • وكان بين المعتقلين محمد توفيق ، مدير دائرة العمل ، وهو من اهل وادى حلفا • وفرضت الاحكام العسكرية فى غضون ذلك على وادى حلفا ، وانقطعت الاتصالات بينها وبين بقية ارجاء السودان • وانتشرت الاضطرابات قبل نهاية الاسبوعين بين عمال السكك الحديدية فى عطبرة ، وطالبوا بانهاء الحكم العسكرى ، وبالتخلى عن مشروع السد العالى • وتأزم الوضع كل التأزم بعض الوقت ، مما دعا الحكومة الى تأجيل زيارة كان الرئيس عبد الناصر يعتزم القيام بها فى الشهر التالى للسودان (١) •

وانقضت السنوات الثلاث التالية فى اقناع النوبيين بأن انتقالهم الى عطبرة ، أمر كثير الجدوى والفائدة • وكانت اعتراضاتهم متعددة الجوانب تتردد بين الاحتجاج على جو خشم الجربا غير الصحى ، وبين

---

(١) يتعارض قول المؤلف هذا مع الحقيقة التى شهدها كل من حضر مؤتمر القمة العربى الاخير فى السودان ، والتى دللت على شدة تعلق الشعب السودانى بالرئيس عبد الناصر وحبه له • فقد ذكر كل من حضر مؤتمر الخرطوم أن أكثر من ربع مليون انسان قضوا أكثر من عشر ساعات فى حرارة النهار الشديدة ، فى انتظار وصول الرئيس العربى الى الخرطوم لاستقباله استقبالا شعبيا منقطع النظير •

(المعرب)

القول بأن التعويضات المعروضة عليهم قليلة وغير كافية ولا سيما بالنسبة الى اشجار نخيلهم التى كانوا يعتزون بها ، وبين السخط العاطفى على اعراق اضرحه أوليائهم بالمياه • واثارت النقطة الأخيرة الكثير من القلق الذى لم يخمت ، كما ذكر فوميل ببيب فى عدد مجله المصور الصادر فى السابع من فبراير من عام ١٩٦٤ وذلك عندما اكتشفت بعثة من علماء الآثار ، ان راهبا من رهبان القرن الرابع عشر ، كان موضع التقديس فى ضريح الشيخ القربى الذى يجلونه كل الاجلال • وكان الاطباء يصرون على ان خشم الجربا من اصلح المناطق فى السودان للاوضاع الصحية ، وانها تخلو من البعوض والذباب وغيرهما من الحشرات الناقلة للأمراض وقامت الحكومة بنقل جماعات من النوبيين الى المنطقة ليروا بأعينهم وقامت الحكومة بدفع التعويضات عن سبعة وثلاثين الف شجرة نخل فى منطقة حلفا ، وسلمت بألا يدفع النوبيون الفرق فى الثمن بين بيوتهم الجديدة فى الجربا ، وبين البيوت التى سيخلفونها فى النوبة ، بحيث يتم انتقالهم دون ان يحتملوا عبء الديون • وبلغ مجموع التعويضات فى النهاية نحوا من ثمانية ملايين جنيه أى بمعدل ١٥٠ جنيها للفرد الواحد بالاضافة الى ما سيمتلكه من ارض ومسكن فى خشم الجربا •

ولكن التحول كان بطيئا للغاية ، وعندما حلت نهاية عام ١٩٦٢ ، كان عدد الراغبين فى الانتقال لا يعدو الخمسة آلاف • ولم يعرف عدد الذين افادوا من الخيار الوحيد المتاح لهم ، وهو ان يأخذوا التعويض النقدى، وان ينتقلوا من وادى‌حلفا على حسابهم والى المكان الذى يشاءونه ولكن كان هناك نحو من خمسة آلاف نوبى مصرى يقيمون فى وادى حلفا وقد تذكروا فى عام ١٩٦٤ انهم من المصريين وان فى وسعهم ان ينتقلوا الى كوم‌امبو طبقا لبرنامج مصر لاعادة اسكان النوبيين • واختار نحو من ٣٨٣ من مجموع ٥٢٥ من اصحاب البيوت فى منطقة حلفا ــ دغيم ، الانتقال الى خشم الجربا اما الباقون فقد طالبوا بالتعويضات النقدية ، وتقدم اهالى قرية « الحسة » بمطالب « غير معقولة » على حد تعبير الحكومة فى اللحظة الاخيرة ، واضطرت الحكومة الى تحذيرهم من المتاعب التى سيواجهونها ، اذا لم ينتقلوا فى الوقت المناسب وكانت حتمية التبدل فى النهاية هى التى استخلصت الموافقة المقدمة من معظم النوبيين الذين عندما ادركوا أن ليس أمامهم الا خيار واحد ، وهو تحلل مجتمعاتهم الملتحمة • قرروا الانتقال سوية الى عطبرة للابقاء على تماسك هذه المجتمعات •

وأتمت الحكومة السودانية وضع مخططاتها لاعادة اسكان النوبيين

على ضوء الحفاظ على مجتمعاتهم ، باقامة وادى حلفا الجديدة ، كمـــركز لبلاد النوبة الجديدة ، واحاطتهـا بست وعشرين قرية ، حملت اسـماء القرى التىخلفوها وراءهمفى النوبة، وضمت الواحدةمنها (٢٥٠) أسرة. وكانت الاحتمالات الاقتصادية هنـا خيرا منها فى بلاد النوبة القديمه ، وذلك لان الاراضى السهلة المجاورة لعطبرة ، كانت تؤمن فرصا افضل للرى من المساحات الضيقة من الاراضى التى كانت تقـع على طول نهر النيل • واشتمل موقع الاسكان الرئيسى على مائة وثمانين الف فدان من الارض ، وعندما بدأت عملية التهجير فى عام ١٩٦٢ ، كان نحو من تسعين الف فدان منها قد اعد لزراعة المحصـولات الرئيسـيـة كالقطن والحنطة والفول ، والتى تجرى زراعتها تحت اشراف الحكومة وعلى نظام التناوب وشرعت الحكومة ايضا فى تنفيذ مخططها لزراعة قصب السكر ، كمـا أقامت مصنعا للسكر • ومنحت الحكومة كل اسرة فدانا من الارض لتقوم بزراعته بصورة فردية بالفواكه والخضروات •

وعندما رأى الحلفاويون منطقة تهجيرهم الجديدة لأول مرة ، سادهم الامتعاض والتذمر • اذ أنهم كانوا قد الفوا رؤية بساتين نخيلهم الخضراء وضفافهم الصحراوية ، وجزرهم وخلجانهم النيلية ، والـكثبان الرملية التى تحيط بعالمهم الخاص ، وقراهم المتفرقة التى تبدو وكأنها نبتت فى الارض • ورأوا فى هذه المنطقة المسطحة والمكشوفة التى نقلوا اليها ، ارضا لا يجدون فيها الحماية ، كمـا وجدوا فى هذه القرى المستطيلة المتشابهة بشوارعها المستقيمة وابراج مياهها النقية ، وميادينهـا التى تتوسطها ، شيئا يفتقر الى تلك الفوضى الاليفـة التى عهدوها فى قراهم السابقة • وبالرغم من وجود قرية قديمة فى خشم الجربا ، يسكنها اهلها الاصليون ، الا أن منطقة التهجير كانت غير مأهولة ولذا فقد بدت ببيوتها الجديدة التى تشبه البيوت المقامة فى أية بلدة حديثة ، والتى خلت من كل نبات ، مكانا مفتقرا الى الانسانية فى مظهره •

وكان هذا التذمر الأولى ، أمرا لا مفر منه ، ولكن الزمن والحيـاة المجموعية ، وموهبة النوبيين الطبيعية فى زخرفة بيوتهـم ، وتلوين محصولاتهم فىالحقول ، كلهـا عوامل لا بد وان تؤدى الى التخفيف من غلواء هذا القفر القاسىالذى واجهوه• وقدمت لهم الحكومة فىغضون ذلك الفرصة لحياة مادية أفضل ، واحتملت العناء الكبير فى سبيل تأمين ذلك وكان المشروع الذىاعدته حكومة السودان لهم سيكلفها قبل اكماله نحوا من خمسـين مليون جنيـه حصلت منها على خمسة عشر مليونا من مصر

كتعويض على اغراق بلاد النوبة بالمياه ، فستكون هناك فى النهاية اثنتان وثلاثون مدرسة ، ومثلها من المستشفيات والعيادات والمراكز الصحية . وسيكون لكل قرية مسجدها . كما سيؤمن معدل خمسة عشر فدانا من الارض لكل أسرة مستويات حياتية أفضل للنوبيين. وستؤدى هذه المشروعات فى النهاية الى اعادة جميع المهاجرين من الحلفاويين الى أسرهم، فقد صمم المشروع على ضمان الاسكان لجميع الحلفاويين الذين كان نحو من ٣٨ر٤٧٨ شخصا منهم يعيشون فى منطقة وادى حلفا فعلا ، بينما يعمل ١٤ر٧٩٦ شخصا آخرين منهم فى مناطق أخرى ، بالرغم من احتفاظهم ببيوتهم فى وادى حلفا .

ويعتبر السد الجديد الذى تعتزم حكومة السودان اقامته فى خشم الجربا ، الاساس الاقتصادى لمشروع اعادة اسكان النوبيين وسيتولى هذا السد تخزين نحو من ١٥٠٠ مليون ياردة مكعبة من الماء ، وهو قدر كاف لاستصلاح نحو من نصف مليون فدان من الارض ، وريها بالمياه ، وتوليد سبعة آلاف كيلو واط من الكهرباء . وهكذا اقبل نحو من ثلاثمائة من المهندسين والفنيين الايطاليين الذين يمتون الى شركات المقاولات الايطالية ومعهم نحو من ١٣٠٠ عامل سودانى على العمل ليل نهار لاكمال المشروع فى الوقت المحدد . وبالرغم من كل هذا فقد وقع ما يشبه الكارثة فى عام ١٩٦٣ ، عندما حطم الفيضان غير العادى الذى وقع فى عطبرة ، السد المؤقت الامامى ، وجرف حطام السد كله الى بواباته الامامية .

وبدا مشروع تهجير النوبيين كله مهددا بالخطر ، اذ لم يقتصر الأمر على التأخير الذى طرأ فى بناء السد من جراء الكارثة ، بل تعداه الى مواجهة برنامج البناء فى مواقع التهجير بمصاعب بالغة ، بحيث بدا من المستحيل اكمال الابنية لاسكان المهجرين من وادى حلفا ، قبل أن تغمر بحيرة السد العالى بيوتهم على نهر النيل وكان عطاء بناء القرى فى خشم الجربا كلها قد رسا بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات الاسترالينية منذ عام ١٩٦٢ على شركة بريطانية تدعى شركة «تاريف الانشائية المحدودة» وقد بادرت الى وضع الاسس فى الموقع ، بينما اخذت فى اعداد المساكن الجاهزة فى انجلترا . وبدأت المتاعب تظهر فى وجه الشركة بعد توقيع العقد ، من جراء فصل الحكومة السودانية للخبراء والمهندسين الالمان . وعندما شكت الحكومة السودانية فى الصيف التالى من أن الشركة لاتؤدى عملها بسرعة كافية ، كان رد هذه بان الحكومة تطلب منها معدلا فى سرعة البناء لم ينص عليه فى العقد . وهنا بادرت الحكومة الى تحويل

٤٢٠٠ من المساكن الى تسع عشرة شركة من شركات المقاولين السودانيين وتركت لشركة تاريف اكمال بناء ٢٣٠٠ مسكن (١) وكان الاضطراب الذى وقع فى المخطط من الخطورة ، بحيث طلبت حكومة السودان من الجمهورية العربية المتحدة ، تأجيل اغراق منطقة وادى حلفا بالمياه ، وهو طلب كان تحقيقه يتطلب تأجيل العمل فى المرحلة الاولى والمهمة من بناء السد العالى • ورفضت الحكومة المصرية تلبية هذا الطلب لان المصريين والروس العاملين فى السد ، كانوا قد اوشكوا على الانتهاء من العمل فى هذه المرحلة ، لتأمين تحويل النيل فى الموعد المحدد بعد سنتين من العمل المتواصل ليل نهار •

وكانت شركة تاريف البريطانية على استعداد للاسراع بالشطر الموكول اليها من البرنامج ، ولكن الشركات السودانية ، وكان بعضها دون سابق تجربة فى مثل هذا العمل، وعلى هذا النطاق الواسع، وبمثل هذه السرعة ، لا سيما وقد برزت فى الصورة فى وقت متأخر ، اضطرت الى بذل جهود تفوق طاقة البشر ، لتحقيق ما أوكل اليها فى الاشهر القليلة المتبقية قبل الشروع فى تهجير النوبيين • ولا شك فى ان مستويات البناء كانت ضحية هذه الظروف غير العادية ، وعندما هطلت الأمطار الغزيرة فى منطقة عطبرة لأول مرة تضرر نحو من أربعين بيتا ضررا بالغا فى القرية الأولى التى تم الاسكان فيها بحيث وجد ساكنوها انفسهم بلا مأوى •

وتعذر تحقيق العزم الاول على الشروع فى عملية التهجير المنظم من وادى حلفا فى مستهل عام ١٩٦٣ ، نتيجة ما استغرقته عمليات التخطيط من وقت طويل ، ولكن لم يكن فى الامكان اجراء أى تأخير بالنسبة الى عام ١٩٦٤ ، اذ سيكون الجزء السفلى من وادى حلفا نفسها والقرى الواقعة الى الشمال منها قد غمرت كلها بمياه البحيرة التى سيشكلها السد العالى فى ذلك العام • وكان لا بد فى مثل هذه الظروف من تحويل المستحيل الى ممكن • وهكذا غادرت الدفعة الأولى من أهالى وادى حلفا ، وعدد أفرادها ١١٧٥ شخصا ، البلدة بالقطار فى شهر يناير من عام ١٩٦٤ الى مساكنهم الجديدة فى عطبرة • ولم تكن منطقة التهجير قد استكملت تجهيزاتها بعد ، ولكن كانت المساكن قد توافرت وأصبحت الحياة ممكنة فيها •

---

(١) طالبت الشركة البريطانية حكومة السودان بثلاثة ملايين جنيه لنقضها للعقد ، واحيل موضوع التسوية المالية الى التحكيم •

وهكذا بدأت « أضخم عمليــة منظمة للتهجير الانســانى » على حد تعبير الحكومة السودانية • وتم نقل سكان قريتى فاراس وسره الخصبتين والقريبتين من الحدود المصرية ، مع جميع متاعهم وماشيتهم فى شاحنات الى وادى حلفا ، حيث استقلوا القطار الى خشم الجربا • ولم يخلص من متاعب الرحلة البرية الطويلة والشاقة الا المرضى والشيوخ الذين تولت الطائرات نقلهم • ورافق أحد الأطبــاء وقابلة قانونيــة المهــاجرين فى القطار ، كما رافقهم الادلاء لارشادهم على الاوضاع فى منطقتهم الجديدة ، وعما يجب عليهم أن يفعلوه عند وصولهم اليها• وتم تحميل ثلاثة قطارات بالمهاجرين، قبل حلول شهر رمضان ، اذ توقف التهجير فى شهر الصيام كله• وعندما انتهى الشهر استؤنفت عملية التهجير بمعدل ثلاثة قطارات فى الاسبوع تحمل النوبيين عبر دنقلة الى الخرطوم ومنها الى عطبرة عبر ٢٥٠ ميلا أخرى من الاراضى الصحراوية •

وتسلل الموت الى وادى حلفا• وتوقفت فى نهاية شهر مايو المراكب التى كانت تمخر النهر بينها وبين الشلال جيئة وذهابا • ولم تعد تظهر فى شوارع البلدة الصامتة الا قلة من الناس ، اذ هجرها الجميع باستثناء أولئــك الذين خططوا مستقبلهم بأنفسهم • وهــكذا تركت قرى كاملة خاوية ، لتغمرها ميــاه النيل التى أخذت فى الارتفــاع بصــورة بطيئة ومستمرة ، متسلقة ضفاف النهر وصاعدة الى العلا •

***

وكانت عمليــة تهجــير النوبيين فى مصر ، أكثر تنظيمــا ، اذ أن المخططين فى الجمهورية العربية المتحدة ، كانوا قد افترضوا منذ البداية، أن بناء السد العالى ، سيتم فى الموعد المقرر ، ولذا فلم يضيعوا أى وقت، وانما شرعوا فى الاعداد للتهجير منذ عام ١٩٦١ • واختاروا كموقع لاعادة اسكان النوبيين قوسا من الارض على شــكل هلال ، يبلغ طوله نحوا من أربعين ميلا ، ويحاذى نهر النيل فى منطقة كوم امبو التى تبعد نحوا من خمسة وثلاثين ميلا الى الشمال من اسوان • ولم تلجأ الحكومة المصرية الى الاجراء الســخيف الذى اتبعتــه الســودان ، وهو استشارة النوبيين ، واكتفت بعد اتمام مخططات العملية بكل تفاصيلها ، بدعوة ممثلى القرى النوبية الى البحث فى تصاميم البيوت التى ستبنى لهم ، ولرؤية ما يمكن عمله لتلبية طلباتهم ضمن الاطار العام للمخطط • وتم تصميم البيوت فى الصورة التى الف النوبيون اســتخدامها فى بلادهم ، اذ يتــألف البيت من باحة تحيط بها جدران عالية ، وفى جانب منها أبواب متعددة تؤدى الى غرف البيت • وبنت ســلطات التهجير ، بيتا واحدا ، ليكون نموذجا

يقوم النوبيون بدراسته وفحصه ، ولم تحدث الا تبدلات طفيفة فى هذا النموذج لتلبية رغبات السكان ·

وكان هناك ولا شك الـكثيرون من النوبيين المصريين يرغبون فى الانتقال فى ديارهم القديمة الى أوضاع أفضل الى الشمال على نهر النيل، وذلك لأن التبدل فى أوضاعهم لم يكن كبيرا ، كذلك الذى حدث بالنسبة الى اخوانهم فى السودان ، بالاضافة الى أن رحيلهم الى الشمال ، يجعلهم أقرب الى أبنائهم المهاجرين فى القاهرة· ولاينكر المرء أن انشيوخ كرهوا الانتقال ، فهذا أمر طبيعى ، ولكنهم كانوا قد ألفوا تهجير مواطنيهم ثلاث مرات من قبل نتيجة ارتفاع ميــاه النهر ، وتعلية خزان اسوان القديم ، ولذا ارتضوا مصيرهم هــذه المرة بشىء من التسليم · ولا شك فى أنهم عرفوا أيضا أن جلاءهم النهائى عن بلادهم القديمة كان بمثابة اسراع فى عملية طبيعيــة ، اذ كان عدد النوبيين الذين يعيشون بصورة دائمة أو مؤقتة بعيــدا عن موطنهم الاصلى لا يقل عن عدد أولئــك الذين ظلوا فى قراهم · وعندما جرى الاستفتاء لنحو من ثمانية وأربعين الفا من انوبيين وافقت خمس عشرة ألف عائلة من مجموع ستة عشر ألفا على تجهيرها ، ولم تختر الا ١٧٢ أسرة تسلم التعويضــات العينية بدلا من التعويضات النقدية · وهكذا لم تجد حكومة الجمهورية العربية أى مصدر للقلق من اتمام العملية ·

وقد أطلق على منطقــة اسكان النوبيين اسم النوبة الجـديدة ، كما أطلق على كل قرية من القرى الثلاث والثلاثين اسم القرية القديمة التى كان أهل القريةالجديدة ينتمون اليها· وقد اقيمت القرى أيضا فى نفس الترتيب الذى كانت مقــامة فيه فى النوبة القديمة ، بحيث مثلت دابود الجديدة الطرف الشمالى للهلال ومثلت فيريج الجديدة طرفه الجنوبى ، اذ كانت فيريج القديمة قريبة من حدود السودان · وهكذا تم الحفاظ بهذا الأسلوب على العــلاقات بين القرى ، وعلى التجمعات العــائلية فى القرية الواحدة ، وكثيرا ما تعززت هذه العلاقات من جراء قرب القرية الجديدة من جاراتها ·

وبنيت البيوت من الحجارة دون أية ســقوف من الخشــب تكون معرضة للتآكل والانهيار من النمل والحشرات الأخرى · وهكذا كانت البيوت الجديدة أكثر قدرة على الصمود من البيوت التى حلت محلهــا · وضمت الوحدات السكنية بيوتا يتردد عدد غرفهــا بين الغرفة الواحدة والاربع غرف ، وكل وحدة منها ضمن أسوارها ، وقد بنيت على الطراز

النوبى ، تواجه الشمال للحصول على النسائم اللطيفة العليلة · ولم يكن فى الامكان دائما ابقاء بيوت الاقارب ، قريبة من بعضها ، ولكن الجهود البالغة بذلت لتحقيق هذا الهدف على قدر الامكان· وقامت الحكومه أيضا باقتلاع بعض أشجار النخيل من جذورها من أماكنها القديمة ، واعادت زراعتها فى الموقع الجديد ، للحفاظ على بعض النفع الاقتصادى من المنطقة القديمة من ناحية ، ولاخفاء صورة من صور النضج على المنطقة الجديدة · ولكن هذه القرى كانت منذ البداية ثمرة جهود المخططين اذ روعى الحد الاقصى من القدرة على الافادة الحريصة من المساحة المتوافرة ، واعتبر ذلك أمرا فى منتهى الأهمية ، مما أدى فى النهاية كما حدث فى خشم الجربا ، الى ظهور القرى الجديدة كصورة هندسية لاتحمل بالرغم من كل الجهود التى بذلت أى شبه للنوبة القديمة ·

وتمكن واضعو التصاميم وهم يعملون فى صحراء عذراء من تأمين بعض لطائف الحياة لهذه القرى التى ما زالت قرى كثيرة فى مصر محرومه منها ، وكان النوبيون أنفسهم فى بلادهم القديمه مفتقرين اليها · ففى كل قرية مدرستها الابتدائية ، ووحدتها الصحية ، ودار الضيافة فيها · وسوقها ومخبزها ، وملعبها الرياضى ، ومسجدها · ونقلت مياه الشرب الى القرى عبر الانابيب، وربطتها الطرق المعبدة بالطريق الرئيسى وكانت هناك بالاضافة الى ذلك خدمات اقليمية عامة تدار من مركز المنطقة الادارى فى النوبة الجديدة ، وهى مدينة العصر ، وتضم هذه الخدمات أربعة مجمعات ريفية من الطراز الموجود فى كثير من أنحاء مصر والتى تضم مراكز التأهيل المهنى والتدريب الزراعى والاشراف الصحى والخدمات الريفية الاخرى ، والمستشفى المركزى والمدرسة الصناعية ، ودار المعلمين ومركز الشرطة · وبلغت تكاليف اقامة النوبة الجديدة أكثر من ثلاثةعشر مليونا من الجنيهات، ولكن البرنامج لم يكتمل بعد· فلقد وضعت الحكومة برامجها لتأمين الاسكان والخدمات للنوبيين الذين لم يكونوا يقيمون فى قراهم فى عام ١٩٦٠ ، والذين يعدون نحوا من ثمانية وأربعين الفا ، أملا منها فى انعكاس اتجاه هجرة النوبيين ، واعادتهم الى بلادهم ، بعد تأمين الفرص الحياتية لهم فى مجتمعاتهم الجديدة · وينص القانون الاساسى الذى وضع لهم على أن يعمل صاحب الارض فى البقعة التى يملكها ، وبذلك أصبح محظورا على النوبيين الذين يملكون قطعا من الارض فى النوبة الجديدة أن يهاجروا مدات طويلة الى مدن مصر ، أو أن يبيعوا أراضيهم الى غيرهم من المصريين ·

وعندما حل موعد تهجير النوبيين من بلادهم الأصلية فى عام ١٩٦٣

كانت الاستعدادات لاعادة اسكانهم فى مناطقهم الجديدة ، قد قطعت شوطا بعيدا كما امنت المياه لبعض الاراضى التى تم استصلاحها تمهيدا لريها • ولكن بعض المشاكل حدثت فى هذه المرحلة بين السلطات وبين المهاجرين• ولم يكن عدد الذين سينقلون من ديارهم كبيرا كعدد اخوانهم في السودان ، وكان أقصى مسافة سينتقلون فيها ــ وذلك بالنسبة الى سكان القرى النائية فى الجنوب ــ ثلاثمائة ميل ليس الا ، ولكن النوبيين كانوا قد امتعضوا من القواعد والنظم التى وضعت للتحكم فى التهجير• فقد كانوا وهم يواجهون احتمالمغادرة أماكنهم المألوفة الى الابد ، يثيرون بعض المتاعب ، عن طريق التقدم بطلبات الى الموظفين، لم يكن فى الامكان قبولها ، ولا سيما في مثل هذه المرحلة المتاخمة ، ولكن ذلك لم يحل دون توجيههم التهم الملفقة الى الموظفين •

واستخدمت اللجنة المسئولة عن عمليات توطين النوبيين ست مراكب كبيرة ، وعشرة « اوتوبيسات » وعشرين شاحنة كبيرة ، ولكن وسائط النقل لم تكن جاهزة دائما فى الموعد المحدد أو فى الايام التالية، بحيث يضطر القرويون بعد أن غادروا بيوتهم الى البقاء فترة دون مأوى ، أو ليجدوا عند وصولهم الىقريتهم الجديدة انالخدمات لم تكنقد استكملت فيها بعد ، بحيث يضطرون الى البقاء فترة دون ماء أو علف • وكثيرا ما ازدادت هذهالاوضاع سوءا من تصرف النوبيين أنفسهم، اذ كان اقرباؤهم المهاجرون من مدن مصر يعودون فجأة ليساعدوا ذويهم فى عملية النقل فتكتظ بهم وسائطه ، ويستولون على كميات الغذاء المحدودة للمهاجرين الفعليين •

وكان لا بد من نقل نحو من مائة ألف طن من المتاع والحاجيات والماشية مع الأسر النوبية ، وكانت اللجنة تعمل على نقل الناس فى مراكب خاصه، وامتعتهم ومواشيهم فى مراكب أخرى الى اسوان• وكانت الحيوانات هناك تحال الى المحجر الصحى ، بينما تتولى الاوتوبيسات نقل الناس والمتاع الى منطقة كوم امبو • وكانت الحكومة تؤثر لو تولى النوبيون ذبح مواشيهم مقابل التعويض بدلا من نقلها ، ولكن معظمهم كانوا يضنون بمواشيهم ويصرون على نقلها معهم ، بالرغم من المعلومات المبكرة التى تسربتاليهم عن أن اعدادا كبيرة من هذه المواشى كانت تنفق اما فى المحاجر الصحية أو فى القرى الجديدة • وكانت السلطات قد حذرتهم من مثل هذه الاوضاع ، وكانت تبين لهم أن محجر اسوان الذى شيد للاوضاع العادية وللاشراف على تجارة الحيوانات فى الظروف

المألوفة، لم يكن مجهزا بحيث يستطيع استيعاب اعداد كبيرة من الماشية، وان مناطق الاسكان الجديدة التى تضم كميات كافية من العلف للسنتين القادمتين • ولما كان معظم النوبيين لا يستطيعون شراء العلف من خارج المنطقة ، فلقد كان من المتعذر ـ الاحتفاظ بهذا العدد الوافر من الحيوانات مدة طويلة •

ولقد خصص فدان من الارض في البداية لكل رب أسرة ، على أن يرتفع هذا الرقم بعد توفير المياه اللازمة من السد وبعد اكمال حفر الاقنية والقنوات الصغيرة ، الى ثلاثة أو خمسة أفدنة طبقا لنصوص قانون الاصلاح الزراعى • ولن يسمح للفلاحين النوبيين بأن يزرعوا ما يشاءون من أراضيهم ، كما كانوا يفعلون فى النوبة القديمة ، اذ تقرر تطبيق نظام التعاونيات الزراعية المطبق فى مناطق الاصلاح الزراعى ، وكان عليهم بعد توزيع الحصص الكاملة من الارض عليهم ، أن يزرعوا نسبة أربعين في المائة منها بقصب السكر • وتعتبر كوم امبو مركز زراعة قصب السكر فى مصر •

وتقرر أن تقوم الحكومة بأود كل أسرة نوبية لمدة ثلاثة أشهر بعد وصولها الى النوبة الجديدة ، وان كان بعضهم قد اعتقد بأن الحكومة ستقوم بأودهم الى أن يجنوا أول حصاد لهم • وبالرغم من أن هذا الاعتقاد لم يكن صحيحا ، الا أن النوبيين كانوا على أى حال الآن أحسن وضعا مما كانوا عليه فى بلادهم القديمة حيث كانوا يعتمدون فى سبعين فى المائة من دخلهم على الأموال التى يبعث بها أقرباؤهم العاملون فى مدن مصر •

***

ولو غيرنا عملية تهجير النوبيين على ضوء المشاكل التى انطوت عليها فان اجلاء نحو من مائة ألف انسان مع متاعهم وماشيتهم كان عملا ضخما ، وقد تحقق بأقل حد ممكن من المتاعب مما يثير الدهشة ، ودون التعرض لأية كارثة • وقد يظهر هذا الحادث فيما بعد فى صورة تطور اجتماعى بارز ستتحول فيه حياة الشعب النوبى الغريبة والمعزولة تحولا كليا • فستتوقف الهجرة الملحة التى يقوم بها الرجال النوبيون الى المدن والتى تفرضها عليهم الضرورات الاقتصادية فى المرتبة الأولى ، اذ أن فرصا اقتصادية أعظم ستتاح لهم في كوم أمبو وخشم الجربا • ولن يظل النساء يعشن حياتهن الغريبة مفصولات عن أزواجهن ، وكحراس على الشيوخ والأطفال من أقاربهن •

لكن هذه الفوائد الحتمية للسد العالى ، لن تتحقق بسرعة على أى حال • فليست هنـــاك بوادر تشـــير حتى الآن الى أن النوبيين الذين يعيشون فى المدن ، راغبون فى المجىء الى كوم امبو ، اذ أصبحت الهجرة لهم طريقة من طرائق الحياة ووسيلة أساسية من وسائل كسب المال ، ولكن البعد عن تلك القرى النائية المعزولة فى النوبة القديمة ، والاتصال بالحياة المتحضرة نسبيا فى كوم امبو ، قد يؤديان الى توسع الاتجاه الذى لوحظ فى السنوات الاخيرة لدى النوبيين ، الهجرة بصورة كاملة ، حاملين معهم نساءهم وأسرهم الى المدن التى يعيشون فيها •

وتمثل الزراعة الأساس فى برامج اعادة توطين النوبيين فى كل من مصر والسودان ، ولكن النـوبيين الذين كانوا يستخلصون عيش الكفاف من الاراضى القليلة التى كانوا يملكونها ، لم يكونوا قط من كبار الزراع ، وان كانوا قد دأبوا على الزراعـــة دائمـــا • ويتميز النوبيون بالأمانة والنظافة ، وفى وسعهم أن يكونوا مجدين فى عملهم ، ولكنهم كانوا فى قراهم القديمة يمثلون أكثر مجتمع فى العالم يعيش على ما يحول اليه من أموال من الخارج •

وهاهو عـــالمهم يختفى الآن على أى حـــال الى الأبد • ولن تمضى سنوات طويلة حتى تغطى البحيرة التى يتم تشكيلها وراء السد العالى ، وادى النيل فى بلاد النوبة كلها ، ولن يعدو المنظر آنذاك ، آفاقا فسيحة من الرمال والصخور ، تتيح لمشاهدها احساسا بالعظمة وليس الا • وسيرتحل أولئك الذين سيستقلون المراكب فى الســنوات القادمة من السد الى السودان عبر عالم خال ، وقد ذابت القرى التى كانت مبنية من الطين تحتهم ، ودب التعفن الى أشجار النخيل التى غطتها المياه ، بينما قد يعتمد بعض الأبنية القـــوية كفندق وادى حلفا تحت المياه ، مأوى لأسماك النيل ، بعد أن كان مأوى للسائحين •

***

وبينما يكون الموت مصير النوبة القديمة ، يدب الانتعاش فى مدينة أسوان المحتمية بالسدين الكبيرين ، والمتطلعة الى الجنوب عبر خواء من البحيرة ، وتجد فى هذا الانتعاش ، أسلوبها الجديد فى الحياة • ولما كانت هذه المدينة هى المنتفعة المباشرة الأولى من القوة المحركة ، فانها تنمو وتكبر بسرعة الآن لتغدو مدينة صناعية •

وتمثل أسوان بوابة بلاد النوبة • وكان الجزء الرئيسى من المدينة مشيدا ولعدة قرون على جزيرة الفيلة فى وسط النيل ، وكانت تعرف

فى القدم بأرض الأفيال أو « ييبو » • ولعل هذه التسمية نشأت عن أن جزءا منها يشبه الفيل فى شكله • أو لأنها كانت المركز التجارى لبيع جلود الفيلة وأنيابها العاجية المستوردة من أراضى السود • وكانت دائما مدينة من مدن الحدود تقف فى البداية كحارس لحدود العالم المعروف ، ثم أصبحت فى العصور القديمة المتأخرة ، تمثل آخر خطوط الدفاع عند الشلال الشمالى ضد الغزاة ، ونهاية خط التجارة فى الذهب والعاج وريش النعام والقرود والجلود • وأدى انحلال مصر الفرعونية وتدهورها ، وغرق النوبة فى سباتها الطويل العميق ، الى خسارة أسوان لأهميتها العسكرية ، ولكنها ظلت على أى حال تمثل حدود مصر ومركزها التجارى فى الجنوب ، وأخذت تكبر وتتسع على الضفة الشرقية فى المكان الذى تقوم فيه أسوان الحالية • واختفت تجارة الذهب ولكنها ظلت منتعشة وحتى نهاية القرن الماضى بتجارة العاج وريش النعام والقرود والجلود المستوردة من السودان والحبشة •

وعندما طغت ثورة المهدى على السودان ، عادت أسوان من جديد ، مركز الدفاع فى الحدود ، حيث كانت القوات البريطانية والمصرية تقف على أهبة للدفاع ضد قوات المهدى • ومازالت هناك وراء المرتفعات العارية التى تقف خلف فندق كاتاراكت ، آثار الحصون التى أقامها كتشنر عندما كان قائدا هناك • وامتلأت أسواق أسوان فى تلك الأيام بالغنائم من الدراويش وبينها السيوف والرماح التى غنمت من معركتى قسطى وابوكليا ، و « القفطانات » الملطخة بالدماء ، والدروع من الزرد ، والدروع الجلدية التى اخترقتها العيارات النارية البريطانية • وكان الدليل فى عام ١٨٩٨ يقول للسائحين المتجهين الى الجنوب عبر النوبة ، انه لم يعد من الضرورى أن يخشوا من أتباع المهدى ، اذ أن القوات البريطانية ترابط فى وادى حلفا ودنقلة • ولكن ثورة المهدى ، وتشييد ميناء بور سودان الذى بناه البريطانيون على البحر الأحمر ، حرما أسوان أخيرا من تجارتها فى العاج وريش النعام والقرود والجلود • وأصبحت المدينة تعيش على الأثرياء والمرضى الذين يقضون فصل الشتاء فى جوها الدافىء الجاف • أما فى الصيف فأصبحت البلدة تغفو فى سبات عميق تفرضه الحرارة الشديدة •

وبالرغم من أن أسوان كانت مدينة كبيرة فى العهد العربى المبكر حتى أن عشرين ألفا من سكانها ماتوا مرة واحدة نتيجة الطاعون ، فان عدد سكانها فى مستهل هذا القرن ، لم يكن ليربو على ٦٥٠٠ • وتضاعف

عدد السكان فى هذا القرن وما نعم به من هدوء ، وأصبح عند الثورة فى عام ١٩٥٢ ما يبلغ نحوا من ثلاثين ألفا يعيشون على السياحة والزراعة · ولكنها ظلت على أى حال واحة هادئة وسط ريف أصفر رتيب ، وقد امتد شارعها الرئيسى على شاطىء النهر ، وهو يضم دائرة البريد والفندق ودار المحافظة فى نفس المواقع التى كانت فيها فى عهد كتشنر ، كما يضم حوانيت تحمل نفس الأسماء التى كانت لها قبل خمسين عاما ·

ويزيد عدد سكان المدينة الآن وباستثناء أولئك الذين يعملون فى السد العالى على الأربعين ألفا ، ومازال هذا الرقم آخذا فى الارتفاع اذ أصبحت أسوان محور منطقة صناعية ترتكز على القوة الكهربية التى يولدها السدان ، وعلى خامات الحديد المكتشفة فى المنطقة · ويتم استخراج مايزيد على نصف مليون طن من الحديد الخام فى العام ، وقد تم بناء ضاحية كبيرة وجديدة تحيط بمصانع كيما للأسمدة الكيماوية · وستتوسع هذه المصانع بعد توافر القوة الكهربية المتولدة من السد العالى ، ويجرى الآن بناء مصانع أخرى جديدة تستورد آلاتها ، وبينها مصنع للورق العادى من نفايات قصب السكر · وسيواصل السائحون الذهاب الى أسوان طمعا فى مناخها ورغبة فى مشاهدة آثارها ، وفى رؤية السد العالى نفسه ، وسيكون فى امكانهم فى وقت قريب الابحار عبر بحيرة ناصر الى السودان ، فوق حطام قرى النوبة القديمة وبلدة وادى حلفا وأشجار نخيلها · ولكن النقطة التى يبدءون منها هذه الرحلة تغيرت تغيرا كبيرا ، فلقد أفاقت أسوان من سباتها الطويل ·

١٢ مادة التـــاريخ

لم تكن أرض النــوبة ذات كبير فائدة لأولئــك الناس الذى نحتوا قوتهم واستخلصوه منها ، ولكنها كانت ذات قيمة فريدة للمؤرخين فى منحوتاتها الصخرية ورسومها • وتكتظ هذه الأرض بالأدوات البسيطة التى استخدمها البدائيون المجهولون ، كما تجمل معـــابدها وقبورها الرسوم والكتابات والنقوش التى خلفها المتحضرون القدماء • وتشير هذه الرســوم التى صمدت لأعاصــير الزمن الى الطرائق التى كان النـــاس يستعملونها فى عيشهم وحروبهم • ويسجل البناء عمله ، والتاجر رحلاته ، والمحارب فتوحاته ، ونائب الملك حكمه ، والامبراطور تفوقه على الجنس البشرى ، بينما يسجل الانسان التافة تفاهاته تماما كما يفعل السائح العادى ، اذ ينقش اسمه على عمود يراه ، فيترك ظله الخافت فوق صفحة من صفحات التاريخ • وهناك نحو من ١٢٠٠ من النقوش الاغريقية فى بلاد النوبة ، ولا يعدو معظمها ، بضع كلمات عارضة ، ولكنها اذا ضمت الى بعضها ألفت اسهاما ضخما فى معرفة عصر البطالسة • وكثيرا ماترفع طبقة من الرسوم أو الجلد المصمغ عن جدار قديم • فيكتشف العلمـــاء وراءها طبقة أخرى تعود الى عصر أكثر قدما ، وهكذا يقوم فى كل مكان موقع فوق آخر ، بحيث تحول الطبقة القيمة الظاهرة دون رؤية طبقة أخرى مجهولة أكثر قيمة • وهذه هى مادة التاريخ وقد قضى عليها أن تغرق فى البحيرة التى ترتفع مياهها وراء السد العالى •

وكانت العواصف الممطرة من المحيط الأطلسى تصطدم فى العصر الجليدى الأوروبى ، بجبال الشـــمال الافريقى ، ولذا كانت تقوم فوق الصحارى الحالية مراع وحدائق وأنهار • ولكن الجفاف مالبث أن شرع فى الزحف على شمال افريقيا ببطء ، مع انحسار الغطاء الجليدى عن أوروبا قبـــل نحو من خمســة عشر ألف عام ، وراح سكان هذه المنطقة ينتشرون بحثا عن الماء الذى يهب الحياة ، وبعضهم عبر الجزر التى تؤلف نقط الوثوب الى أوروبا ، والبعض الآخـــر الى وادى النيل واستؤنفت

دورة التقدم الانسانى ولكن فى بيئة جديدة • ففى أوروبا كان هناك تآكل مستمر ومتدرج للبدائية الوحشية ينتشر من الساحل الجنوبى باتجاه الشمال • أما فى وادى النيل ، فكان هذا التآكل على الصعيد التاريخى سريعا الى حد يثير الاجلال فى عهد الحضارة الفرعونية التى عاشت ثلاثة آلاف عام • ولكنها مالبثت أن تعرضت لاجتياح الاغريق والرومان القادمين عبر البحر ، واختلط الفكر الانسانى والمهارات الانسانية على ضفاف النيل وعن طريقه •

ولقد ظلت بلاد النوبة ، أى المنطقة التى تحتل ذلك الجزء من النهر الواقع بين أسوان والشلال الثالث والذى ستغطيه مياه خزان السد العالى ، تمثل والى قرون طويلة حدود العالم • ولقد عثر على آثار الصناعات الانسانية الأولى قبل التاريخية فى شرق افريقيا ، ولكن عثر على آثار لصناعات مماثلة فى مصر وعلى مقربة من الخرطوم ، ولعل من الفرضيات المعقولة ، أن نقول ان بلاد النوبة لم تكن مجرد منطقة فراغ قائمة بين شعوب ماقبل التاريخ • ومن المحتمل أن يكون هناك طراز واحد من الناس قد عاش الى جانب النهر على طول المسافة الممتدة من الشلال الثالث الى البحر ، الى أن أدت الحواجز الطبيعية التى زحفت على الحدود مع الوقت قد مارست مفعولها وقطعت العلاقات بين هؤلاء الناس عند نقطة قريبة من أسوان • وهكذا تخلف الناس الذين يعيشون فى الجنوب عن اللحاق بسير الحضارة المصرية فى الشمال ، وان حملت شعوب جديدة اليهم صور الحضارات الافريقية البدائية الأولى • وتوحى الآثار الواهية التى خلفتها عهود ماقبل التاريخ بأن الشعوب الأولى ، كانت تلتقى على النيل فى بلاد النوبة ، وتختلط دماؤها ، كما تختلط لغاتها وثقافاتها ، وان من المحتمل أن تكون الحلقة الضائعة المهمة فى المعرفة الانسانية والتى تمثل الخطوة البارزة من حياة الانسان البدائى الى حياة الانسان المتحضر ، مختفية هناك • ولعل من الاستنتاجات المنطقية أن نقول ان دور المنطقة كان منسجما آنذاك مع دورها فى فترة التاريخ المعروف ، عندما كانت ولاشك نقطة الذوبان والامتزاج للشعوب والثقافات •

وتلقى الآثار القبلية فى الصحراء بعض الضوء على التقدم الذى تحقق قبل الحضارة الفرعونية ، وعندما شرعت القصة الفرعونية فى اكتساب شكلها المتميز ، كان التقدم الذى تحقق مهما وكبيرا • ويبدو ان ضفتى النهر كانتا تضمان مجموعة من المقاطعات الصغيرة ، كانت كل

منها تعبد آلهتها الخاصة ، ولكنها تشترك كلها فى ثقافة واحدة • وليس ثمة من شك فى أن بعض الحـــكام الأقوياء كانوا قد وحدوا بين الآونة والأخرى هذه المقاطعات ، الى أن قام مينا قبل نحو من ستة آلاف عام فوحد لأول مرة مملكتى مصر العليا والسفلى فى مملكة واحدة تقع حدودها الجنوبية عند أسوان • وضاع الاتصال ولقرون عدة مع بلاد النوبة أو بلاد كوش كما كانت تدعى ، وان كانت ثروات مصر المتحضرة ، أمنت السوق التجارى لمنتجات بلاد كوش ، كما أقامت حلقة تجارية • وأصبحت طريق القوافل ، طريق الغزو والفتح ، عندما قــرر ملوك مصر ، وقــد استهواهم ذهب المناطق الجنوبية وعاجهــا ومنتجاتها الأخرى الى اتخاذ القرار بالاستيلاء على هذه المناطق •

وهكذا كان مد التاريخ يطغى وينحسر على نهر النيل فى بلاد كوش ولم يتمكن الفراعنة من النفاذ الى ماوراء الشلال الثالث لاحتلال كوش الا مرة واحدة أى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن ملوك النوبة مالبثوا أن استولوا على مصر واحتلوها مدة مائة عام • وكانت حدود مصر الحقيقية فى ضواحى أسوان ، ولم يتمكن الفراعنة من حكم كوش الا عن طريق القلاع المنيعة التى شيدوها والتى امتدت حتى الشلال الثانى • وانشطر زحف الحدود عند فاراس التى تقع الآن على حدود الســـودان الحديثة ، وكانت فى تلك الأيام ، محور الفتوح والانســـحابات • وكانت قوات الشماليين تزحف الى ماوراء فاراس عندما تحس بقوتها ، وبثبات قاعدتها ثم لا تلبث أن تتراجـع الى أسوان عنـــدما تضعف قواها • (١) وكان الكوشيون أنفســـهم ــ كما تبين مناعة الخطـوط الدفاعية المصرية ــ من الشعوب القوية • ولكن قوات زاحفة من الحبشة هى التى أطاحت فى النهاية بمملكتهم ، وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه الاغريق والرومان يحتلون مصر ، وكان الامبراطور الرومانى ديوقلتيان قد سحب قواته الى الأبد من المنطقة الواقعة الى الجنوب من أسوان •

وما يقال عن الحروب ، يقال أيضا عن الشعوب • ولا نعرف حتى الآن الكثير عن الحضارات التى ملأت الفجوة فى بلاد النوبة بين عصور ماقبل التاريخ ، وعصور الأسر الفرعونية التـــاريخية فى مصر ، ولكن

---

(١) أعاد التاريخ نفسه فى نهاية القرن الماضى عندما تقهقرت القوات البريطانية والمصرية الى أسوان أثناء ثورة المهدى ، ثم مالبثت ان تقدمت الى وادى حلفا ، ومكنتها الاساليب الهندسية الجديدة من اقامة سكة حديدية حملتها الى أبعد من حدود الزحف التاريخى على النهر .
(المؤلف)

المعروف أن شعبا أطلق عليه اسم شعب « العصر النحاسى » عاش فى المنطقة • ويسميه علماء الآثار شعب « أ » ، اذ أنهم لا يعرفون شيئا عن أصوله • وكان هذا الشعب متزامنا فى التاريخ مع الأسر المالكة الأولى فى مصر ، وكان يسير فى طريق الحضارة • ولقد عثر على سلع تجارية من مملكة مصر القديمة فى قبور هؤلاء الناس ، وهى توجد جنبا الى جنب مع الأوعية الخزفية ، والمنحوتات والأدوات النحاسية • وهناك شعب مجهول آخر أسماه علماء الآثار خطأ شعب « ج » ، اذ ظنوا أنهم كانوا قد اكتشفوا شعب « ب » ، كان يحتل الجزء الأدنى من بلاد النوبة حتى حدودها عند فاراس ، فى العهد المتأخر من المملكة القديمة ، ولم تختف آثار هذا الشعب كلية حتى أعاد فراعنة الأسرة الثامنة عشرة احتلال بلاد كوش • واحتل شعب من الرحل مكانه فى تاريخ كوش النيلية فى فترة احتلال الرومان لمصر ، وكان رجاله يضايقون الحاميات الرومانية ، مما دفع الامبراطور ديوقلتيان الى الانسحاب الى ماوراء أسوان • واجتاح شعب آخر عند انحطاط دولة البطالسة ، بلاد النوبة ، وأطلق عليه علماء الآثار اسم شعب « س » ، وترك هذا الشعب الآثار التى دلت على وجوده فى كثير من الأضرحة ولعل هذا الشعب هو الذى أسماه الرومان بالنوبيين ، وهو الذى كان يشتبك فى حروب دائمة مع الرحل ، ويعبد ايزيس فى معبد الفيلة ، الى أن طردهم الرومان من الجزيرة فى عهد الامبراطور جوستنيان •

وأغفت بلاد النوبة فى سبات عميق ، ويبدو أن مطامح الملوك والأمراء قد نسيتها ، ولكنها ظلت تمثل على أى حال حدودا حقيقية ، وان تحولت فى هذه المرة الى حدود للمعتقدات الانسانية • وكانت ديانة المسيح الجديدة قد وطدت أقدامها فى الحبشة ومصر ، وارتحلت مع حاميتها على طول نهر النيل ، ولكنها استغرقت نحوا من أربعمائة عام فى فرضها لنفسها من الشمال على الشعب الذى يعيش وراء الشلال الأول • واستغرق انتشار الاسلام فى هذه المنطقة مدة أطول ، ولم تتمكن الجيوش الاسلامية التى اجتاحت شمال افريقية ووصلت الى الأندلس وفرنسا من اخضاع شعب بلاد النوبة اخضاعا كاملا ، ولم تتحول المنطقة كلها الى الاسلام الا عندما غزتها جيوش الخديو اسماعيل بن محمد على قبل نحو من ١٥٠ عاما • وظلت هناك مملكة نصرانية تزدهر على ضفاف النيل طيلة العصور الوسطى • وكان النوبيون قد تحولوا الى النصرانية فى القرن السادس وشيدوا الكنائس والأديرة ، وحولوا المعابد الوثنية

فى النوبة الى معابد نصرانية ، وحصنوها ضد غزو المسلمين الذين كانوا قد احتلوا مصر ٠

ولكن العظمة التى صاحبت بلاد النوبة أمدا طويلا ، اختفت بعد ذلك واشتركت الرمال مع الزمن فى الاعفاء على كثير من آثارهم ، ولم تخلف الا بقايا أبنية مشيدة من الآجر والطين ، تحمل قصة أكثر تواضعا عن زحف الحدود عبر التاريخ حتى العصر الحديث ٠ ولكن أهمية هذه القصة بالنسبة الى تاريخ الانسان ظلت ماثلة ٠ وكانت قبائل قبل التاريخ تتحرك الى المنطقة فتترك آثارا باهتة عن مهاراتها الساذجة ، وعن طرائقها فى الحياة ٠ ولم يفشل الا كبار الفاتحين فى التردد جيئة وذهابا فى البيداء القائمة بين الشلالين الأول والثالث ٠ وهكذا كانت الحضارات تلتقى وتمتزج ثم تعود الى الافتراق ، مخلفة آثار مبانيها فى نتف من الصخور والنقوش والصور والتماثيل ٠ وكانت الديانات تعيش مدة أطول فى عزلتها عن التبدلات الروحية التى كانت تقع خارج المنطقة ٠ وهكذا ارتفع مد الأمور وانحسر فى هذه المنطقة مدة طويلة ، مخلفا وراء مدنها المحتويات المادية لتاريخ البشرية منذ العصور البدائية حتى عصور الحضارة ٠

وأدرك علماء الآثار والانسال البشرية والتاريخ الاجتماعى أهمية بلاد النوبة ٠ وتقول كريستيان ديسورش - نوبلكورت أمينة القسم المصرى فى متحف اللوفر بباريس فى مقال نشرته فى مجلة « كورير » التى تصدرها منظمة « اليونسكو » فى عدد فبراير من عام ١٩٦٠ ان « مصر مهد حضارة البحر الأبيض المتوسط ، والكتاب التاريخى الحى لعلماء الآثار » ٠ ولقد جمعت « صفحاته المتفرقة التى اكتشفت واحدة اثر أخرى ، ثم قرئت بمنتهى الاناة والصبر والاخلاص ، وأصبحت تؤلف الآن أعمق الفصول وأغزرها عن الآثار القديمة العريقة ٠ ولكن مازالت هناك بالرغم من غزارة المادة التى تم اكتشافها ، صفحات كثيرة مفقودة ٠٠ ولم يتم بعد اكتشاف كنوز النوبة كلها ٠ ولاشك فى أن بعض هذه الكنوز التى لم تكتشف بعد ، تعتبر فى منتهى الأهمية ، بحيث يتحتم علينا جميعا ، مهما كانت جنسياتنا أن نعمل على الحفاظ عليها ، اذ أنها تؤلف حلقات فى سلسلة طويلة فى منتهى الأهمية ، ولا معنى لها الا بتلاحم حلقاتها وتماسكها » ٠

ولم تر الا قلة من الناس روائع النوبة وهى تقف مكشوفة بضعة أشهر من السنة ، اذ أن هذه الأشهر هى أكثر أوقات السنة حرارة ،

ولا يستطيع احتمال قيظها الا الأشـــداء من السائحين الذين يغامرون بالارتحال الى الجنوب من أسوان • ففى هذه الشهور ، يبدأ الفيضان فى مصر الى الشمال من خزان أسوان • فعنـــدما تفتح بوابات الخزان على مصراعيها ، وتنساب المياه الحمراء بحرية باتجاه الشمال ، يهبط منسوب المياه فى النهر الى الجنوب من الخزان ، وتظهر مئـــات التماثيل والقبور والقلاع والمعابد التى تفوق الكاتدرائيات القوطية فى حجمها • مرتفعة فوق مستوى خزان أسوان الخالى تقريبـــا • ولاشك فى أن الفضل فى قدرتها على احتمال اخطار الانغمار بالماء بقية أيام السنة يعود الى جاستون ماسبيرو ، المدير العام الســـابق للآثار فى مصر ، اذ كان قد بادر الى تثبيتها وتسليحها قبل التعلية الثانية لسد أسوان ، ولكن عمله ماكان ليكلل بالنجـــاح على الاطلاق ، لولا أن المعـــابد نفسها مشيدة من أروع الحجارة وأصلبها وأكثرها قدرة على المقاومة •

ولكن هذه التماثيل لن تعود الى الظهور بعد اقامة خزان السد العالى العظيم ، وذلك لأن الهدف الرئيسى لهذا الخزان ، الحفاظ على الماء من سنة الى أخرى ، على أساس نظام «للتخزين القرنى» • يضاف الى هذا أن المستوى العالى لبحيرة ناصر ، سيغرق مزيدا من التماثيل الواقعة فى الجنوب وعلى مستويات أعلى ، معظمها مقدود من الصخور الرملية القابلة للتآكل والتى لا تستطيع احتمال اخطار الانغمـــار بالماء ، لاسيما وانها ستغمر به لأول مرة • فلقد ضاعت جميع الأبنية التى كانت مشيدة من الآجر المحروق بالشمس ، عنـــدما أغرقت فى الفيضانات الســـابقة ، وسيتحلل الكثير منها والمزيد الآن فى بحـــيرة السد العالى ، ولا يمكن الحفاظ عليها الا فى صورة تسجيلية •

ولقد أدى ارتفاع مد التاريخ وانحساره فى بلاد النوبة ، الى عدم وجود نسق زمنى للمواقع على نهر النيل،وهناك الكثير منهذه المواقع يضم طبقات تاريخية ولعهود متتابعة • وتربط التماثيل الأولى المقامة على جزيرة الفيلة الجميلة فى أسوان بين العهود الفرعونية فى مصر والعهد الرومانى، وهناك قلعة تقوم فى وسط الجزء المصرى من بلاد النوبة تدعى قلعة قصر ابريم ، وكانت موضعا للاحتلال المستمر واللا متقطع منذ عهود الفراعنة حتى الفتح العربى • وقام الاقباط وهم ينشرون المسيحية فى الجنوب بتحويل بعض التماثيل الوثنية القديمة الى تماثيل نصرانية •

وقد يكون من العسير تعداد آثار الماضى ، وذلك لأن هناك مئات من المواقع الثانوية لا تقل فى أهميتها بالنسبة الى المؤرخ عن بعض المواقع

العظيمة ، ومع ذلك فمازالت بما تضمه من آثار ماقبل التاريخ ، مفتقرة الى التسمية • ومع ذلك يمكن للمرء أن يكون فكرة عن غزارة المادة التاريخية فى هذه البلاد ، من الاشارة الى التماثيل الرئيسية • فلو اتجه السائح الى الجنوب من جزيرة الفيلة لرأى صومعة ــ قرطاس ــ الصغيرة والجميلة ، والتى تغطى النقوش والكتابات الاغريقية جدرانها • وهناك معبد دابود الاغريقى ــ الرومانى ، ومعبد كلابشة الكامل الذى أمر الامبراطور أغسطس باعادة بنائه ، وعلى مقربة منه معبد بيت الوالى بما فيه من صور دينية لا تقل فى وضوحها وصفائها ، عما كانت عليه عندما رسمت قبل ألوف السنين • وهناك تماثيل دندور التى حولها المسيحيون فيما بعد ، ولكنها كانت تخلد فى الماضى بطلين من ابطال الرومان كان الامبراطور أوغسطس قد أمر بعبادتهما • وهناك ستة معابد لرمسيس الثانى على قمة تل صخرى قريب من جرف حسين ، وهناك معبد الدكه المكرس لاله الكتابة • وهناك وادى السبوع بما فيه من تماثيل « أبى الهول » ، وقد قد معظمها من الصخر لرمسيس الثانى ، ثم حولها الاقباط فيما بعد بنقوشهم الى آثار نصرانية • وهناك قلعة ايخميندى التى شيدت للدفاع عن أهل المنطقة ضد الغزاة ، وكورسكو ومعبد عماد الذى يعود عهده الى نحو من ثلاثة آلاف عام • وتمثال دير المنحوت من الصخر لرمسيس الثانى ، وهناك عنيبة عاصمة بلاد النوبة السفلى ، والمدينة التى كان يقيم فيها ملوك كوش وحكامها والتى لم يعثر فيها بعد على أضرحتهم وقصورهم • وهناك أيضا قصر ابريم ،وأخيرا معبد أبى سمبل العظيم الرائع ، والذى يمثل مافى بلاد النوبة من آثار ، ولا يبعد كثيرا عن حدود السودان • ولعل من المناسب أن نبدأ الحديث عن جزيرة الفيلة ، وأن ننهيه بالحديث عن أبى سمبل ، ولكن هناك الكثير من التماثيل والآثار التى تقف على ماتبقى من الطريق الممتد الى الحدود •

وبالرغم من أن عمليات التنقيب التى استمرت قرنا أو أكثر من الزمن قد حسرت النقاب عن الكثير من آثار بلاد النوبة المصرية ، الا أن المعروف لدى علماء الآثار أن هناك مواقع لم تمس ، وأن فى مكنتها أن تعطى الكثير من المعلومات • ولذا فقد برزت هناك مشكلة الحفاظ على تلك الآثار والتماثيل التى لابد من الحفاظ عليها والتى فى الامكان المحافظة عليها • وكان الوضع بالنسبة الى السودان أكثر مدعاة للحزن ، اذ لم تكن الحفريات قد أجريت بصورة جزئية حتى عام ١٩٦٠ الا فى عشرة مواقع على طول ١١٥ ميلا من أرض السودان التى ستغمرها مياه بحيرة السد العالى ، وان كانت الدراسات السطحية قد أثبتت أن هناك مائة موقع

بل وأكثر يمكن التنقيب فيها • وتضمنت هذه المواقع سبع مدن قديمة ، وأربعة معابد فرعونية وعشرين كنيسه نصرانية ، وقبورا حجرية تعود الى الأسرة الثامنة عشرة ، ومعابد صخرية نصرانية قديمة ، ومواقع تحمل نقوشا وكتابات على الصخور • وتضم النوبة السودانية أيضا مجموعة من القلاع فى منطقة الشلال الثانى ، والقاعدة الدفاعية الضخمة فى بوهين المواجهة لوادى حلفا • وكانت الحفريات الكاملة لا تجرى الا فى بوهين ، وذلك لأن الاستاذ وولتر ايمرى شرع فى دراساته فيها منذ وقت طويل• بينما لم تجر الا حفريات جزئية فى القلاع الأخرى كسمته وكوما ومرجيسا ودابافارتى وشيلفاك ، وأورنارتى ، وغيرها • وكانت هنــاك الى جانب بعض هذه القلاع ، ولاسيما الى جانب بوهين ، معابد صغيرة ، أطلق عليها الاستاذ ايمرى اسم كنائس الحاميات •

وجاء الاهتمام بآثار السودان من جانب العلماء متأخرا بالنسبة الى المدة الطويلة التى انقضت على العمل فى مصر ، ولكن سرعان ماتبين هؤلاء ضرورة الاسراع فى العمل ، ولاسيما عندما أدركوا أن السد العالى قد قضى على المنطقة بالزوال • ولاشك فى أن هذه المنطقة تنطوى قبل غيرها على الدلائل التاريخية التى تشير الى اختلاط الحضارات الافريقية بالحضارة المصرية وعن طريق مصر بالحضارة الأوروبية ، وكانت هناك ولاشك ، وقبل ظهور أية حضارة شعوب تمت الى العصرين الحجريين القديم والحديث، أسهمت فى ظهور الحضارة ، وتركت آثارها الواضحة فى الجزء السودانى من النوبة • ولقد ثبت أن هناك موقعا فى هذه المنطقة يرجع فى تاريخه الى أكثر من ثمانية آلاف عام •

وكان العمل يسير ببطء وأناة ودقة فى تجميع آثار الماضى فى بلاد النوبة ، وفى دراستها ،لتأليف قصة التاريخ البشرى هناك ، اذ كان يخيل للعلماء أن الوقت متسع أمامهم ، وكان فى الامكان دائما التنقيب عن الأضرحة والمعابد تحت الرمال ، وتسجيلها ، والحفاظ عليها أحيانا • وفجأة برز مشروع السد العالى ، وهو يهدد باغراق كل شىء • وتبين أن كل شىء سيضيع • ولو ثبت أن فى الامكان فيما بعد ، اجراء التنقيب عن طريق الغواصين فى بطن النيل ، فانهم لن يعثروا على أى شىء ، وان عثروا فعلى أقل من القليل • فستنهار تحت الميــــاه ، الجدران ، وتمحى النقوش والرســـــوم ، فتتآكل الصـــخور ، وتتبـــدد محتويات القبـــور والأضرحة •

وهذا هو القدر الذى يهدد بلاد النوبة ، وهى حدود العالم القديم ،

وحدود العقل الحديث . ومثل هذا القدر تحديا عظيما لجميع علماء العالم ، مما دفعهم الى الاتحاد ، للقيام بأعظم دراسة انسانية شهدها التاريخ حتى الآن .

***

وليس الهدف الأساسى من هذه الحملة ، الحفاظ على الآثار ، بالرغم من كثرة تكاليفها ، ومن اشباعها للأحاسيس الفنية وامتاعها لعقول الجادين من السائحين ، وانما هو كما يبين السجل ، انقاذ أكثر ما يمكن من نتاج المعرفة وحصيلتها . ويكون العالم فى الواقع أقل حساسية من الانسان العادى ، فهو يقدم اذا تطلبت أهدافه ، على اهالة الرمال على الآثار التى عانى الكثير من الجهد فى الكشف عنها اذا اقتنع أنه استنزف كل مافيها من حقائق . وبينما يقف العالم مشدوها أمام الرسوم أو أمام الدهاليز الفرعونية القديمة ، نرى العالم يقف أمام هيكل عظمى متآكل ، لجواد لا مكان له بين الآثار . ولا يكون الغنم الذى يحققه من الحملة ، فى صورة عاديات ذات قيمة ، وانما فى شكل كلمات ورسوم وصور ، قد تنقضى حقبة كاملة قبل استكمالها .

وقد لا تكون هناك قيمة ذاتية أصيلة يحسر عنها النقاب فى دراسات عصور ماقبل التاريخ ، وقد لا يقال عن هذه الدراسات الكثير من الأحاديث التى تستثير اهتمام الجماهير ، ولكن دراسات ماقبل التاريخ فى بلاد النوبة ، تعتبر من أهم الجهود التى تبذل الآن ، لأنها تدنو من أقرب عصور الماضى المعروفة لدينا . فنحن لا نعرف عنها الا القليل للغاية ، ولم يبق الا وقت قصير لاجراء هذه الدراسات المطلوبة عنها . فهناك مصاطب محكوم عليها بالغرق ، وهى تحمل ظواهر تشير الى أن الناس قد عاشوا عليها فى العصرين الحجريين القديم والمتوسط . وعثر على مقربة من الشلال الثانى ، على أدوات حجرية قد تكون معاصرة للآثار الأولى التى اكتشفت فى افريقية الشرقية وهناك أدوات أخرى عثر عليها فى مناطق قريبة ، عرف بأنها تمت الى فترات تاريخية لاحقة ، توحى بأن فى الامكان تعقب صور انتقالية هامة لعصور ماقبل التاريخ فى هذه المنطقة . ولابد من العثور فى بلاد النوبة الواقعة على النيل ، على نفس الأدوات الفخارية وأدوات صيد الأسماك التى عثر عليها فى منطقة الخرطوم وغيرها من المناطق . وتم العثور فى ثلاثة مواقع على أدوات حجرية وفخارية ، وبعض العظام والمحار وقشور بيض النعام ، وكلها ذات ارتباط بالنقوش على الصخور . وكان فنانو عصور ماقبل التاريخ يرسمون مئات الرسوم الهندسية والمطلقة وألوانها ، كما يرسمون صور القوارب

والحيوانات والطيور فى المنطقة الواقعة بين وادى حلفا وأسوان • وتشير هذه الرسوم كلها الى وجود عدد كبير لا يحصى من مجتمعات العصر الحجرى المتأخر ، كانت تعيش فى بلاد النوبة ، وهى تعزز الرأى القائل ، بأن المنطقة تعرضت للاحتلال المستمر منذ أقدم عصور التاريخ •

وكلما غاص الانسان في أعماق الزمن ، كلما قلت معرفته ، وتقل هذه المعرفة فى بلاد النوبة ، كلما اتجه الانسان الى الجنوب • فلقد ترك الاندفاع التاريخى القوى من الشمال ، أعظم الآثار ، ولذا فان كثافة المخزونات التاريخية تقل كلما مضى الانسان الى الجنوب محاذيا النهر ، الى أن تختفى نهائيا عند الشلال الثالث ، أو تضيع وراء آثار حركة الشعوب والحضارات من افريقية السوداء باتجاه الشمال • وبالرغم من أن زحف الحدود عبر التاريخ واحد ، وان القصة لابد من قراءتها الا أن فى الامكان تقسيم بلاد النوبة بين مصر والسودان ، مع وجود أغنى الآثار فى الجانب المصرى من هذه البلاد •

ولقد درس علماء التاريخ بلاد النوبة المصرية دراسة لا تقل فى غزارتها عن دراسة أية منطقة أخرى مماثلة فى العالم • ولعل السبب فى هذا يعود الى أن معرفة مافى آثارها من ثراء قد سبقت غيرها من الناحية الزمنية ، واستهوت قدامى علماء الآثار ، أو الى أن سهولة الوصول اليها كانت متيسرة منذ أيام نابوليون ، أو لأن بناء سد أسوان الأول ، وما تبعه من عمليات التعلية ، قد أرغم العلماء ، على بذل جهود فعالة لدراسة الآثار التى ستغمرها مياه الخزان وتسجيلها • ومع ذلك فهناك صفحات ضائعة من هذه القصة التى لعبت الأصابع كثيرا فيها ، كتلك المتعلقة باماكن نواب الفراعنة فى بلاد كوش بين عهدى الأسرتين الثامنة عشرة والعشرين والذين يعتقد أنهم كانوا يقيمون في عنيبة بين أسوان ووادى حلفا • ولم يعثر الا على ضريح واحد لأحدهم وهو « بينوت » مع أن الغالب أن يكون قادة هذه الممتلكات الافريقية التابعة لمصر ، عاشوا فى قصور وخلفوا أضرحة تناسب مكانتهم وكرامتهم •

وكان مجرد العلم بمواقع معروفة الى الجنوب من الحدود المصرية نادرا ، اذ لم تتناول الحفريات الا قلة من هذه المواقع • ولعل شيئا من هذا العلم قد تحقق بصورة طبيعية من الحفريات التى جرت فى مصر ، نظرا لارتباطها الوثيق بها عبر التاريخ • فالمعروف أن السجل المتعلق بالألفى سنة الأولى من العهد الفرعونى الاول ، يعتمد الى حد كبير على السلع التجارية التى كانت تستخدم فى صفقات التبادل بين بلاد كوش

والمملكة القديمة والتى عثر على الكثـــير منها فى الأضرحة • ولم يبدأ تسجيل تاريخ المنطقة بصورة كثيفة على الحجارة أو بالحجارة الا فى عهد فراعنة الأسرة الثانية عشرة الذين أنشأوا المملكة الوسطى ، والذين شقوا طريقهم الى بلاد كوش ، وان ظلت قلاعهم على الحدود والتى تؤلف مصدرا غنيا من مصادر المعلومات التاريخية ، لم تكتشف الا فى صورة جزئية وقبل فترة قصيرة ، وظلت مخبوءة تحت الحصون المهدمة للاسرة الثامنة عشرة الظافرة • ولا شك فى ان حلقات المعرفة بين فترتى الاحتـــلال ، ما زالت تافهة الى حد كبير •

وتركت الاسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون اسهامها فى التاريخ الحضارى • فى صورة اضرحة ومعابد ذات قيمة تاريخية وجمال رائع • ولا شك فى أن معابد أبى سمبل وتماثيلها العظيمة ترجع الى هذا العصر ، الذى كانت فيه مصر المعروفة تمتد الى بلاد النوبة • وعندما ارتفع شأن النوبيين فيما بعد ، راحوا يبنون معابدهم الخاصة على الطراز المصرى ويحملون معهم حضارتهم التى تعتبر مزيجا من الحضـــــارتين المصرية والافريقية الى الشلال السادس ، ولكن لم يعثر حتى الآن الا على أثار قليلة لملوك النوبة فى منطقة وادى حلفا ، وهى المنطقة التى كان من المنتظر العثور على اثارهم فيها • وترك ملوك ميرو بعض الاضرحة ، ولكن مفتاح حروفهم الهجائية الذى اكتشف الى الشمال من الشلال الثانى ضاع ولم يؤد الى فهم كتاباتهم •

وظل تيار التاريخ يتردد بين المد والجزر ــ بقوة بين الشلالين الثانى والثالث ، بحيث تبدو فى هذه المنطقة العلاقات الواضحة بين الشــعوب والمجتمعات • ولكن لابد من اكتشاف المزيد من الآثار لجعل هذا الموضوع بعيدا عن كل شك • وقد يكون فى الامكان على سبيل المثال ، القاء بعض الاضواء ، على تاريخ افريقية القديم من هذه الناحية من النيل ، اذ يمكن تأريخ الصور المكتشفة للحضارات الافريقية ، على ضوء علاقتها بالتاريخ المعروف لهذه المنطقة •

ولكن بروز السـد العالى ما لبث أن واجه عالم التـاريخ وبصورة مفاجئة بمدى جهله للحقائق بالفجوات فى معرفته عن منطقة كانت معروفة تماما ، اذا ما قورنت بغيرها من المناطق التى تجرى البحوث فيها • وكان هذا العالم يعرف الطريق التى حددها لنفسه على الاقل ، الى ان برز السد العالى ليسد عليه طريقه • فلقد كان يواجه عددا من مشـــاكل الســـير التاريخى ابتداء من العصر البدائى وانتهاء بالعصر المتحضر ، وبينهـــا

الآثار قبل التاريخية والصلات بين مملكة ميرو وافريقيا السوداء ، والشعوب التى تدخلت فى المنطقة • والطرق التى سارت فيها المسيحيه وامتد فيها الاسلام ، والحياة التى عاشها أهل بلاد كوش وحروبهم مع مصر ، وما طرأ على حضارتى الشعبين من تداخل وامتزاج • وكان هذا العالم يحاول ايضاح كل هذه المشاكل بأناة يوفرها له الوقت غير المحدود لدراساته ، وتفرضها قلة الموارد المالية الميسرة له • وفجأة اكتشف ان الوقت لم يعد صالحا للاناة ، فعليه ان يجمع كل ما يمكنه من معرفة ، قبل ان يأتى الفيضان •

وكانت المعرفة بآثار الجزء المصرى من بلاد النوبة أغزر وأوسع منها بآثار أية منطقة أخرى فى العالم ، باستثناء تلك التى تتضمنها الأجزاء الاخرى من مصر • ولكن غزارة هذه الآثار فرضت مشكلة هائلة من مشاكل التسجيل والتوثيق السريعين • وكانت تضم ايضا بعض التماثيل التى تجمع بين الجمال والعظمة والقيمة التاريخية ، بحيث لم يكن فى وسع أى انسان ان يتصور امكان زوالها نهائيا • وخيل الى الكثيرين بأن السماح بزوالها سيدين ابناء هذا الجيل من أهل العالم ادانة واضحة •

وكان على عبد الناصر قبل أن يصنع التاريخ بانشاء السد العالى ، أن يجد المال اللازم لذلك • ولم يكن عالم التاريخ فى وضع أفضل • فلقد كان عليه قبل ان يقوم ببحوثه العلمية ، وقبل ان ينقذ الآثار فى الوقت القصير الباقى ، ان يجد من الاموال ما يفوق أية اموال جمعت من قبل للاعمال العلمية ، وما لا يتحقق جمعه الا اذا تضافرت جهود جميع شعوب العالم • وهكذا فرضت بلاد النوبة الفقيرة والمنسية والمقضى عليها بالزوال فى الايام الاخيرة من حياتها ، على العالم كله ، الاهتمام بها •

١٣ حملة العلماء

كانت السيدة كريستيان ديسورش ـ نوبلكورت امينة القسم المصرى فى متحف اللوفر ، قد ابدت اهتماما كبيرا ، وقبل ظهور السد العالى كفرضية جدية بوقت طويل ، بانعاش البحث عن الآثار فى مصر عن طريق البعثات الدولية . ونادت بانشاء مركز للدراسات والوثائق، تسجل فيه حضارة مصر القديمة وفنونها بصورة كاملة وتفصيلية دقيقة ، تمكن علماء العالم من اجراء الدراسات التى يريدونها . ولقيت جهودها واصرارها كل تأييد وحماسة من الدكتور ثروت عكاشة عندما اصبح وزيرا للتقافة فى مصر . وتمكن فى عام ١٩٥٥ من اقناع الحكومة المصرية بانشاء المركز الذى اقترحته السيدة والانفاق عليه ، وسرعان ما بادرت ادارة الآثار المصرية الى العمل ، بتأييد من منظمة اليونسكو وبدعمها الفنى وهكذا بدأت الحملة العظيمة التى قام بها العلماء لانقاذ الماضى الفنى بالكنوز بمثل هذه الطريقة الفذة النادرة .

وعندما تقرر مصير بلاد النوبة بصورة نهائية فى عام ١٩٥٤ عن طريق الاحداث الحاسمة التى وقعت فى الخريف ، كان من مصلحة مصر والسودان معا ، تأمين التعاون الدولى ، اذ ان مواردهما المشتركة لم تكن كافية لانقاذ أعاجيب بلاد كوش . واحتج وزير التربية والتعليم فى السودان بأنه لم يعرف الا القليل عن الوضع حتى السنة التالية ، ولكن الخبراء فى القاهرة ، كانوا يعرفون ولا شك الاثر الذى سيخلفه بناء السد على هذه الاعاجيب . ولهذا فقد أثارت اقتراحات السيدة ديسورش ـ نوبلكورت اهتمام مصر الذاتى فى النهاية ، وهكذا تحول المركز الذى كان الهدف الأول من انشائه فى البداية أن يكون كأداة دائمة للتسجيل والبحوث والتوثيق ، والذى أقيم فى مبنى حديث على مقربة من المتحف المصرى ، الى مكان لتحقيق المتطلبات الملحة للحملة . ولم يؤد العدوان على السويس والذى اشتركت فيه فرنسا مع بريطانيا واسرائيل ، والذى ادى

الى اخراج الرعايا الفرنسيين من مصر وتأميم ممتلكاتهم ، الى انهاء التعاون الفرنسى فى هذا الموضوع ·

وأدت أزمة السويس من ناحية عرضية أخرى الى الاسهام فى انقاذ آثار النوبة ، وقبل أن تبدأ الحملة العالمية لذلك · فقد اضطر الأستاذ وولتر بريان عضو جمعية التنقيب عن الآثار المصريه فى لندن ، والمعروف لدى الكثيرين من علماء الآثار ، بأنه أعظم مكتشفى الآثار المصرية فى هذا العصر ، الى وقف دراساته التى قضى حياته كلها فيها ، أى فى هرم سقارة المدرج ، وراح ينسحب الى بوهين الواقعة امام وادى حلفا ، عبر النيل ، ليجرى فيها دراسات كان يتطلع اليها منذ أمد بعيد · وكانت بوهين التى أجريت فيها عمليات التنقيب مرتين من قبل ، القلعة الاساسية ومركز الحقبة الفرعونية عند الشلال الثانى · وكانت الاسرة الثانية عشرة قد بنتها ، ثم جاء الكوشيون فدمروها ، الى ان عادت الاسرة الثامنة عشرة فأعادت الاستيلاء عليها وبنتها من جديد ثم وسعت حدودها · وكانت تضم طبقات من التاريخ العسكرى واحدة فوق أخرى ، وكانت البلدة الواقعة خارج اسوار الحصان ، تغطى نحوا من ميل مربع من الصحراء · ولم تكن هناك حاجة لاجراء الحفريات فى البلدة كلها ، كما لم يكن الوقت متسعا لذلك ، ولكن لما كان الأستاذ ايمرى ، قد وجد عند مجيئه العمل وقد بدأ فى البلدة ، فقد اضطر الى اكمال حفريات تعتبر من ابرز ما وقع فى التاريخ ، اذ كشف عن آثار قلعتين قديمتين ، ومكنته هذه الآثار من ان يصور على الورق النظام الدفاعى فى كل من العهدين الفرعونيين · ولم يكن من المعقول ، ان يشرع مثل هذا الخبير العظيم فى عملية تعتبر من أكثر العمليات كمالا فى التاريخ فى مثل هذا الوقت اللاحق من عام ١٩٦٠ · ولكن لاشك فى ان هذين المشروعين أى انشاء مركز الدراسات والوثائق، وعمليات تنقيب بوهين ، كانا من الأمور الرئيسية التى تحققت قبل الحملة الدولية ، ثم ما لبثا ان ادرجا فيها · وكانت ادارتا الآثار فى كل من مصر والسودان تعملان الى أقصى ما يمكن لهما ان تعملا بمواردهما المتواضعة ، وقد اصبحتا جزءا من الجهد الرئيسى ·

وكان من المعروف ان المركز سيشرع أولا فى تسجيل آثار طيبة ، ولكن بعد ان برز المركز الى حيز الوجود فى القاهرة فى عام ١٩٥٥ ، ظهرت الاخطار الضخمة التى تهدد بلاد النوبة من بناء السد العالى ، وأدى ظهورها الى أحداث تبدل رئيسى فى الجدول الزمنى والأوليات ، وعهد الى المركز فورا بمهمة جمع الوثائق الكاملة عن جميع المواقع المهددة بالغرق،

وقام خبراء المركز على الفور بعمليات مسح كاملة لبلاد النوبة ، ونسحوا النقوش ، واخذوا الصور الفوتوجرافية واللوحات الزيتية الملونة ، ولكن بالرغم من قيمة هذا العمل واهميته ، الا انه كان عاجزا عن انقاذ الآثار او دراسة المواقع التى لم تكتشف بعد او تلك التى اكتشفت بصـــورة جزئية • وعندما أصبح المال الروسى متوافرا فى عام ١٩٥٩ للشروع فى بناء السد العالى ، بادر الدكتور ثروت عكاشة ، الى توجيـــه النداء الى اليونسكو نيابة عن حكومته ، لضمان التعاون الدولى فى انقاذ آثار النوبة ولم تمض ثلاثة أشهر حتى كان المجلس التنفيذى للمنظمة يخول مديرها العـام الدكتور فيتورينو فيرونيزى ، اعداد العـدة للشروع فى الحملة الدولية • وكانت اليونسكو قد حصلت فى غضون ذلك على موافقة حكومة الجمهورية العربية المتحدة على قيام المعهد الجغرافى القومى الفرنسى بعمليات مسح مترية تصويرية للمنطقة لاعداد الخرائط اللازمة لها •

وراحت حكومة السودان فيما بعد تطلب من اليونســكو توسيع حملتها لتشمل الجزء السودانى من بلاد النوبة ، وهو بالرغم من انه أقل ثراء بالآثار من الجزء المصرى ، الا أنه يضم مواقع عديدة أثرية وتعود الى عهود ما قبل التاريخ ، ولم تكن اية دراسات قد أجريت فيها بعد وقامت دائرة المساحة فى السودان بعملية مسح جوى فى عام ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، وحصلت على خدمات احد خبراء اليونسكو فى اعداد خريطة اثرية ، ولكنها افتقرت الى الاموال اللازمة لاعداد خريطة مترية تصويرية ، وهذا أمر لا غنى عنه فى الدراسات المقبلة • وذكرت اليونسكو فى تقريرها ، انه ما لم يستخدم الوقت المتبقى قبل اغراق بلاد النوبة الى الحد الاقصى ، فلن يكون ثمة أمل فى تحقيق مزيد من الاكتشافات المهمة فى السودان ، كتلك التى تحققت مؤخرا فى موقع بوهين المحصن بالاسوار • وقال زياده أرباب ، وزير التعليم السودانى آنذاك ، ان الافتقار الى غزارة البحـــوث العلمية فى المواقع الاثرية فى السودان ، والتى تعود الى العصور ابتداء مما قبل التاريخ ، وانتهاء بالعصور الحديثة ، يؤمن الحافز لمزيد من تشـــجيع الدوائر العلمية فى العالم ، لاجراء هذه البحوث •

ودعا الدكتور فيتورينو فيرونيزى الى اجتماع حضره ثلاثة عشر من الخبراء الدوليين فى مختلف مجالات الدراسة • وعقد الاجتماع فى القاهرة فى شهر اكتوبر من عام ١٩٥٩ ، لتقرير الحفريات التى لابد من القيام بها ، والآثار التى يمكن حفظها ، وتلك التى لابد من نقلهـــا الى أماكن جديدة امينة ، وغير ذلك من الاجراءات الضرورية ، وتكاليف ذلك كله • وأعلن

الدكتور ثروت عكاشة بصورة رسمية في هذا الاجتماع وباسم الحكومة العربية ان في وسع بعثات الحفر ان تحتفظ بنصف ما تكتشفه من آثار شريطة ان لا تكون فريدة فى شكلها وصـــورتها ، وان لا تكون ضرورية لاكمال المجموعة المصرية ، وانها ستسمح بعمليات التنقيب فى المستقبل خارج نطاق المنطقة المهددة بالغرق كسقارة مثلا ، وانهـا ستسمح بنقل بعض المعابد الى المتاحف أو المؤسسات العلمية فى الخارج لتراها الجماهير هناك . وازال هذا التعهد جميع العقبـات التى تقف فى طريق التنقيب الدولى عن الآثار فى مصر . واعطت حكومة السودان تعهدا مماثلا .

وأصبح على اليونسكو ان تؤدى مهمة مزدوجة . فعليهـــا أولا ان تشجع الحكومات والمنظمات فى طول العالم وعرضه ، على تأمين الأموال التى لا يمكن للحملة ان تقوم بدونها ، وعليها ثانيا ان تؤمن العون المادى والفنى وأن تؤدى دور الوسيط بين المتبرعين وبين حكومتى مصر والســودان ، لضمان انفاق الاموال بصورة صحيحة . وعهد الى لجنة خبراء اليونسكو بأن تقدم النصح للمدير حول طرائق الشروع فى العمل ، كما شــــكل الدكتور فيرونيزى لجنة دولية من الامناء برئاسة جوستاف السادس ملك السويد لجمع الاكتتابات ، كما شكل لجنة عمل دولية مهمتها اقامة الاتصال مع اللجان القومية . وشكلت حكومتا الجمهورية العربية المتحدة والسودان ولهما القول الفصل فيما يجب أن يعمل وما يجب أن لا يعمل ، لجنتين من الخبراء الدوليين لتقديم المشورة ، وكان اعضاؤهما يشتركون فى الوقت نفسه والى حد كبير فى اللجان التى الفتها اليونسكو .

وكان لابد من اجراء بعض التعـديل فى هذا التنظيم بعد الشروع فى العمل ، ولكنه كان كافيـا على أى حال ، فى الوقت الحاضر . وهكذا بدأت فى الثامن من مارس من عام ١٩٦٠ حملة العلماء لانقاذ آثار النوبة . وذكر الدكتور فيرونيزى المدير العام لمنظمة اليونسكو فى النــداء الذى وجهه الى العالم فى هذه المناسبة ما نصه ..

« سيحمل السد العالى الخصب الى مساحات شاسعة من الصحراء . ولكن فتح حقول جديدة أمام المحاريث الآلية ، وتأمين المصادر الجديدة من القوة المحركة لمصانع المستقبل ، يهددان باستيفاء ثمن رهيب .. وليس من السهل الخيار بين تراث الماضى وبين الرفاه الحاضر لشعب يعيش فى فاقة فى ظلام أعظم ما خلفه التاريخ من تراث . وليس من السهل الخيار بين المعابد والمحاصيل . وانى لأحس بالاسى والعطف على كل رجل يدعى الى اتخاذ مثل هذا الخيار ، اذ انه سيحزم أمره ويتخذ قراره باحساس

من اليأس · وانى لاحس بالاسى تجاه الرجل الذى يتخذ هذا القرار مهما كان قراره ، والذى سيتحمل مسوئيته بكثير من عذاب النفس والضمير·

« وليس من الغريب والحالة هذه اذا كانت حكومتنا الجمهورية العربية المتحدة والسودان قد طلبتا من منظمة اليونسكو الدولية ان تبذل قصارى مفجعة ، ملكا لبلدين اللتين احتفظتا هذه الآثار التى يدنو ضياعها بصورة مفجعة ، ملكا للبلدين اللتين احتفظتا بها وديعة عبر الأجيال وحدهما ، ولذا فان من حق العالم كله ان يضمن بقاءها ·· فهى جزء من تراث انسانى مشترك ·· ولا شك فى ان من حق الكنوز ذات القيمة العالمية ان تحظى بحماية عالمية ·· ·

« يضاف الى هذا ان القضية ليست مجرد الحفاظ على شىء مهدد بالضياع ، وانما هى بعد ذلك كله قضية القاء الاضواء على ثروة لاتزال مطمورة ، لمنفعة العالم كله ·· وهكذا يبدأ عهد جديد من الاثراء الرائع فى ميدان التاريخ المصرى القديم · وفى وسع العالم المهدد بالحرمان من جزء من معجزاته القديمة ، ان يتطلع بأمل الى الكشف عن روائع جديدة لم يسمع عنها بعد · ولا شك فى ان مثل هذه القضية النبيلة ، تستحق عطاء سخيا واستجابة سريعة » ·

ولا شك فى ان هذه الكلمات كانت متواضعة للغاية للشروع فى حملة فاقت فى الاموال اللازمة لها وفى دراساتها العلمية الاثرية ، أية حملة من نوعها شهدها العالم من قبل ، او سيشهدها فيما بعد · ولو استثنينا ما تتطلبه الحفريات والدراسات والتسجيل من أموال ، فلقد تطلبت الحملة لرفع الآثار والحفاظ عليها سبعة وثمانين مليونا من الدولارات وهو رقم يتجاوز ما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا قد وعدتا مصر به لتمويل المرحلة الاولى من السد العالى نفسه ، ويعادل ما دفعه الاتحاد السوفياتى ــ عند الشروع فى بناء السد · وتطلبت الحملة بالاضافة الى ذلك أكبر تجمع للعلماء ، على ان يعملوا معا سنوات طويلة فى المشروع وفى ظروف وأوضاع تشتد فيها الحرارة وتكثر المصاعب ، ويكون لكل ساعة حسابها · وذكر المدير العام فى تقريره الى منظمة اليونسكو ان مثل هذه المحاولة التعاونية لم تجر من قبل على مثل هذا النطاق الواسع فى ميدان علم الآثار · واعلنت لجنة الخبراء الدوليين التى شكلتها الجمهورية العربية المتحدة ، انها تعرف ضخامة العمل فى النوبة · وقالت ان نجاح العمل يتطلب مزيدا من الوقت ومزيدا من الحكمة · فالمهمة ضخمة للغاية

الوقت قصير الى حد رهيب . وكان هذا هو الحكم الذى اصدره عدد من أكبر الاخصائيين فى العالم .

وشنت اليونسكو حملة عالمية النطاق لاثارة اهتمام جميع الشعوب في العالم ، بالعمل المنتظر . وراحت تشرف على اقامة لجان قومية للعمل، مهمتها تشجيع الحملة ، ولم تنقض سنة حتى كانت هذه اللجان تعمل فى اثنين وعشرين بلدا . وقامت اليونسكو بطبع عدد من الكتب والمنشورات وتمكنت من الحصول على تأييد اللجنة الثقافية للمجلس الاوروبى ، كما شرعت بعض الهيئات الخاصة فى مختلف البلاد فى جمع الاموال لهذه الغاية ودفع رجال الصحافة والتليفزيون فى العـــالم الى زيارة بلاد النوبة . لمشاهدة الآثار بأنفسهم وتصويرها . وتبرعت البرازيل على الفور بمبلغ ١٢٫٨٠٠ جنيه اســـترلينى لتمويل المراحل الأوليـــة ، ووعدت بلجيكا وبوجوسلافيا وهولنده والمانيا الغربية اليونســـكو بالاموال ، كما طلب الكونجرس الامريكى من الرئيس الامريكى ان يقدم قبل الاول من مارس من عام ١٩٦١ برنامجه عن المعونة المالية . ومدت اليونسكو يدها الى جيبها لفتح الاعتمادات الاولية الاساسية لضمان الشروع فى العمل على الفور . واختير اغا خان « مستشارا خاصا » للسكرتير العام ، وراح وفق صلاحياته هذه يزور السودان والسويد ويقضى شهر سبتمبر كله ، داعيا فى الولايات المتحدة الى حاجة بلاد النوبة ، الى الاموال . وجندت اليونسكو جميع كبار موظفيها للطواف بأكبر عدد ممكن من البلاد ، كما ارسلت مصر معرضها « خمسة آلاف سنة من الفن المصرى » فى رحلة عالمية بدأت ببروكسل ، كما ارفقت الرحلة بجواهر توت عنخ آمون وغيرها من كنوز الفن المصرى. لتشرع هذه المرة بزيارة واشنطن . واصبحت العمليـــة من الضـــخامة والاتساع ، بحيث قام رينيه ميهيو ، نائب المدير العام لليونسكو بانشاء دائرة خاصة برئاسة جى . كى . فان ديرهاجين ، لتوجيه المشروع النوبى والاشراف عليه . وهكذا ظهرت حملة دعائية على نطاق لم يكن له مثيل فى العالم . ولا يمكن لأى مشروع خاص سابق ان يضاهى بها على صـــعيد العلاقات العامة لا فى النطاق ولا فى التكاليف .

وكان من الممكن تقرير الاولويات بكثير من الدقة ، اذ ان البحيرة التى سيشكلها السد العالى ، ستبدأ فى الارتفـــاع فى عام ١٩٦٤ ، وستغرق آثارا تقف على مستويات عليا على ضفتى النهر ، ثم تنتشر باتجاه الجنوب حتى شلال دال ، الى ان تصل الى الحد الاقصى لارتفاعها بعد عام ١٩٧٠ ، ولكن الاحكام التاريخية والاذواق الفنية والحاجة الى الاكتشاف

فى بعض المواقع ، كلها عوامل لعبت دورها فى تحديد الدور والبرنامج الزمنى لعملية الانقاذ • وكانت المهمة الاولى الملقاة على لجنـــة الخبراء فى الجمهورية العربية المتحدة تقرير ما يجب عمله ، والترتيب الزمنى لهذه الاعمال •

واختير الاستاذ ايمرى رئيسا للجنة الفرعية للمخططات والاولويات كما اختير عضوا فى اللجنة الفرعيـــة الاخرى التى تشرف على الموظفين والمعدات ، وكان بين القرارات الاولى التى اتخذتهـــا اللجنة الام ، تأليف حملة فنية لمسح الجزء المصرى من بلاد النوبة • وغادر الاستاذ ايمرى ، الذى اعد لهذه الحملة برنامجها المتضمن لطرائق عملها ومبادىء هذا العمل موقع بوهين بصورة مؤقتة للشروع فى عملية المسح فى شهر يناير من عام ١٩٦١ • وكانت الحملة بقيادة الاستاذ اش • اس • سميث ، وتضم اربعة من الخبراء وثلاثين عاملا • وبدأت الحملة عملها من حدود الســودان ثم اتجهت شمالا على ضفتى النهر ، الا ان اكملته فى شهر نوفمبر من ذلك العام • وتميزت الحملة بالسرعة والاتقان الفنى ، مما دفع لجنة الخبراء الى توجيه الشكر الى جمعية الآثار المصرية • وتمت طباعة تقرير الحملة فى مستهل عام ١٩٦٢ •

وقامت الحـــكومة المصرية بتشـــييد المقر الرئيسى لمركز الوثائق والدراسات بشكل يحقق هدف دراسات الآثار وتسجيلها • وقد اصبح للمركز الآن مركبه ذو الخمس «كابينات» ، واطلقوا عليه اسم «حور» ، لايواء فرق العمـــل فى الميدان ، ومختبره العائم ، الذى شيدته الحكومة المصرية وفق مواصفات معينة وفيه المشاغل والمكاتب والمـــكتبة والمخزن وأماكن السكن ، وفى الامكان قطره كوحدة قائمة بذاتها للرســو عند المواقع التى يجرى فيها العمل • ويتم تجميع السجلات أخيرا فى المركز حيث يتم استنساخ صور منها حرصا عليها من الضـــياع • ولم تكن العمليات قد وصلت فى عـــام ١٩٦٠ الى هذه المرحلة المتقدمة ، ولكن المكتب تمكن بفضل بعد نظر صاحبة الفكرة الاولى فيه السيدة نوبلكورت احتمال العبء الذى القى عليه • واحتفظ المركز من مقر قيادته فى القاهرة بمجموعة من المراكب النيلية ، وبموظفيه من علماء الآثار المصريين والاجانب وبدورياته الاستطلاعية ، وجماعاته العاملة ، مزودا اياها بكل شىء من الغذاء الى المعدات الفنية التى يحتاجون اليها فى عملهم • وهكذا مثل المركز على هذا النحو سلاحا جديدا كل الجدة من اســـلحة العلم • وقام المركز بدراسة كاملة ودقيقة لمعابد ابى سمبل العظيمة ، وتولى فحص كل تفصيل

دقيق من دقائق هذه الدراسة وتسجيله وتصويره • واحالت فرق علماء الآثار وأصول اللغات والمهندسين المعماريين والمصورين والرسامين ، وواضعي التصاميم والمزودين بآلات التصوير والمولدات الكهربية والأضواء الكشافة والمعابد الى « ستوديوهات » ومراسيم ، وراحوا يجمعون المعلومات والصور الملونة ، وأصول الرسوم المترية ومذكرات المهندسين المعماريين ونسخ الاصول الهيروجليفية ، والنقوش والكتابات التى تمت لمختلف العصور من عهود قدماء الفراعنة حتى العهود النصرانية المتأخرة • وكان المعهد الجغرافى القومى الفرنسى هو الذى يقوم بعملية التصوير المترى التى تنتج نماذج دقيقة للغاية من الصور المجسمة •

وتغير نسق العمل الذى يقوم به المركز بعد ان قطعت الحملة شوطا فى طريقها ، للتكيف مع الاولويات ، وتحول على الفور الى المعابد المهددة أولا بالاغلاق كمعابد دابود وكلابشة ووادى السبوع• وكانت معرفة المركز بميدان العمل سببا فى اضفاء أهمية علمية تفوق حدود التسجيل المجرد وانتدب لويس كريستوف ، الممثل الدائم لليونسكو فى المركز سكرتيرا دائما للجنة الخبراء • وما زال هذا الرجل الهادىء والمتساهل ، والمتواضع والكثير الحيوية ، يلعب دورا هاما ، سيعيش حتى بعد انتهاء الحملة كلها! فلقد وضع المبادىء التى تتحكم فى توثيق المعابد والكتابات والنقوش والرسوم الصخرية والفحمية ، وراح يدرس احتمالات المسح الابيجرافى فى الوقت الذى لم تكن أية جهة من الخارج قد عرضت ما يحتاج اليه من أدوات ، وراح ينسق العمل بنفسه • واصدر فى أواسط عام ١٩٦١ ، أمرا الى جميع العاملين فى الميدان يطلب اليهم فيه نسخ جميع المنقوشات الصخرية التى يجدونها ابتداء من عصور ما قبل التاريخ ، وعبر العصور التاريخية الاولى الى العهد الفرعونى • وتمكن بعد نحو من عام من ان يعلن ان ثلاثة ارباع العمل قد انجز ، وان المركز شرع فى اعداد خريطة أثرية للنوبة المصرية • وكان هناك فى هذا الوقت عدد من الخبراء يمتون الى بلاد مختلفة • منها ايطاليا وبولندة والنمسا واسبانيا وفرنسا ، يتعاونون مع المصريين فى المركز •

وكانت السودان أقل استعدادا لمواجهة هذا التحدى ، وان كان مدير الآثار فيها السيد ثابت حسن ثابت ، ولم يضع أى وقت فى توجيه النداء لتقديم العون للسودان • ولم تتألف اللجنة السودانية الدولية للخبراء الا فى شهر أكتوبر من عام ١٩٦٠ ، وبدلا من ان يكون لها مركز حسن الاعداد والتصميم للوثائق كالذى اقيم فى القاهرة ، أقامت مكتبا

للتسجيل والمعلومات فى مبنى قديم في وادي حلفا ، أطلقت عليه اسم مكتب العمليات • ومع ذلك فقد عمل خبيران من خبراء اليونسكو هما دبليو • واى • أدامز الامريكى واشى • اى • نوردستروم النروجى ، ليل نهار مع الدكتور ثابت فى ذلك المكتب ، وفى الميدان ، واستحقا فيما بعد وصف لجنة الخبراء لهما ، بأنهما من خيرة الاخصائيين فى آثار النوبة ، وانه لا يمكن الاستعاضة عنهما بآخرين على الاطلاق • واتمت مصلحة الآثار السودانية بالاشتراك مع دائرة المساحة ومع ادامز ونوردستروم ، خريطة جوية ضخمة للمواقع ، عرضت فى قاعة المكتب ، التى ضمت أيضا مجموعة من الخرائط والوثائق الكاملة عن الآثار النوبية ، بعضها نشر والبعض الآخر لم ينشر قط •

وحذر خبير الرى السودانى صديق حسن عبد الله • خبراء الآثار من ان جميع المنطقة الواقعة الى الشمال من شلال دال ، ستتأثر بالفيضان وانه لما كانت معظم الآثار من الآجر العادى فانها لن تحتمل وطأة الفيضان الاول • وأوقفت الحكومة السودانية جميع الاعمال الاثرية التى كانت تقوم بها فى ارجاء البلاد ورصدت لدائرة الآثار موازنة تعادل سبعة اضعاف موازنتها السابقة • ولكن هذه الجهود كانت على الصعيد البشرى والمالى ، اقل من العمل اللازم •

وكانت جمعية الآثار المصرية تقوم بالتنقيب فى بوهين ، واذا ما استثنينا ذلك ، كان فى وسعنا ان نقول ان السودان لم يتلق أى عرض بالمساعدة من الخارج • وكانت احتياجات السودان متعددة • فقد كان لابد أولا من انقاذ معابد بوهين (١) وسمنة الشرقية وسمنة الغربية واقشة ونقلها بعد تفكيك أجزائها الى متاحف جديدة مكشوفة ، تشيد فى الخرطوم كما كانت الضرورة ماسة الى انقاذ الصور المرسومة على الجدران فى كنيسة الشيخ عبد القادر وفى ضريح ديبيرة الشرقية الذى يعود الى عهد الاسرة الثامنة عشرة • وكان من المهم نقل المعابد هذه بسرعة ، اذ كانت تخفى تحتها مواقع فى حاجة الى التنقيب • وكانت منظمة اليونسكو قد توقعت هذه المشكلة ، وأوفدت الدكتور بيترو جازولا الخبير فى اعادة بناء الابنية المعمارية ، فشاهد المعابد ودرسها ، وذكر فى تقريره ، ان نقل هذه الابنية واعادة بنائها عملية تكلف نحوا من ٧٧٠ ألف دولار • (٢) واضاف

(١) تم أخيرا نقل معبد بوهين الى الخرطوم ، وقامت بعثة جمعية الآثار المصرية بهذا النقل • وباعادة بناء المعبد فى الخرطوم •

(٢) يشغل الدكتور جازولا منصب مدير الفنون الجميلة فى مدينة فيرونا بايطاليا، ومنصب المفتش العام لدائرة الآثار •

التقرير انه لا يمكن انقاذ القلاع المشيدة من الآجر ، ولذا فهى تتطلب مسحا معماريا بحيث يمكن تصويرها على الورق حتى لا تضيع • واتخذ من العمل فى بوهين نموذجا لما يجب أن يتم ، واقترح ان يتم قطع الجزء الذى يظهر عمليات البناء الحربى المتقدمة فى قلعة بوهين ونقلها الى الخرطوم وكان لابد من اجراء عمليات كبيرة من التنقيب كما دللت دراسات الدكتور أدامز وفريقه ، وبينها التنقيب عن آثار دار المطرانية الأولى فى النوبة فى تل ضخم يقع فى فاراس ، وهو الموقع الأول الذى سيستغرقه المياه فى السودان • وكان الدكتور ادامز ورجال فريقه ، يحفرون بعناية وسرعة عشرات المواقع الصغيرة الاخرى التى لم يكن من المنتظر الحصول على أية مساعدات خارجية لنقلها •

وبدأ العلماء فى الانتقال الى القسم السودانى من بلاد النوبة فى عام ١٩٦٠ ، وبعثت جامعة وارشو بفريق من مركز دراسات آثار البحر الابيض المتوسط فيها الى فاراس ، واشتركت جامعة لابلاتا فى الأرجنتين مع لجنة التنقيب الوطنية الفرنسية عن الآثار فى اعمال الحفريات فى اكشه ومرجيسه ، وبعثت اللجنة الاسبانية الوطنية بفريق ليقوم بأعمال الحفر فى ارجين ، وبدأت بعثة مشتركة من البلاد الاسكندينافية عمليات الحفر فى سلسلة من المواقع تتجه جنوبا من فاراس الشرقية • وشرع المركز الشرقى فى جامعة شيكاجو فى اعمال الحفر فى سرة الشرقية ، كما أوفدت حكومة غانا بعثة الى دبيرة الغربية •لكن جميع هذه البعثات لم تكن كافية لاداء المهمة ، ومع ذلك فقد مثلت ابرز حملة على المواقع الاثرية شهدها السودان طيلة تاريخه •

واعتبرت مصر والسودان عمليات التنقيب عن الآثار قبل التاريخية شيئا منفصلا منذ البداية ، وان كانت لجنة الخبراء قد طلبت من جميع البعثات ان تدرس اية مخلفات أثرية قد تجدها امامها اثناء قيامها ببحوث أخرى • ولم يتعاقد الاستاذ ايمرى مع أى عالم فى آثار ما قبل التاريخ فى بعثته • اذ انه كان يرى منذ البداية ، ان الدراسات قبل التاريخية تتطلب مجموعة كبيرة من الاخصائيين الذين يعملون بصورة مستقلة • ولما كانت لجنة الخبراء لم تتلق حتى شهر يناير من عام ١٩٦١ اية عروض لدراسة آثار العصور الحجرية ، فقد طلبت من الاستاذ جيرهارد بيرسو العالم الألمانى الغربى من مدينة فرانكفورت والعضو فى منظمة اليونسكو والمشرف على اللجنة الدولية للآثار والحفريات أن يكون مسئولا عن هذه المشكلة • كما طلبت الى ادارة الآثار فى الجمهورية العربية المتحدة ، ان

تتولى تنسيق الحفريات قبل التاريخية • واقترح الاستاذ بيرسو فى صيف ذلك العام ان يعهد بهذه الدراسات الى الاستاذين سوليكى وفيربريدج من جامعة كولومبيا ، وقدمت المؤسسة القومية الامريكيه للعلوم مبلغ اربعين ألف دولار كمساعدة لتكاليف المشروع • وتعهد سوليكى بأن يقضى عدة فصول من دراساته عن العصور الحجرية فى الجزئين المصرى والسودانى من بلاد النوبة ، وتطوع روبرتسون ـ ماكاى مفتش الآثار القديمة والمبانى التاريخية فى لندن ، بالعمل معه • واتم سوليكى اعمـــــاله الدولية فى مستهل عام ١٩٦٢ فى منطقة أبى سمبل ، فى نفس الوقت الذى كانت فيه جامعة ييل الامريكية وجامعة تورنتو الكندية قد شرعتا فى اعداد حملة مشتركة لدراسة مخلفات العصرين الحجريين الاوسط والمتـــــأخر • وتم التنسيق بين عملهما وعمل جامعة كولومبيا الذى كان قد بدأ فى دراسة الآثار قبل التاريخية فى المنطقة الواقعة بين الحدود وبين وادى حلفـا فى النوبة السودانية • وطلبت بعثتا ييل وتورنتو اذنا بالتنقيب فى منطقـة كوم امبو أيضا • اذ ان أعمال الاسكان الجديدة فيها ستعرقل عمليـــــات التنقيب فى المستقبل ، وذلك لأن هذه المنطقة تعتبر جد مهمة لدراســات حضارات العصرين الحجريين القديم والأوسط •

واقتحمت بعثة متحف مدينة المكسيك الميــــدان بقوة وعزم فى عام ١٩٦٢ ، ولم يحل موسم عام ١٩٦٤ حتى كان لهـــا نحو من عشرين من الخبراء يعملون فى خمس مجموعات منفصلة تقوم بالحفر فى المواقع قبــل التاريخية • ودهش الاستاذ شاينر رئيس البعثة من وفرة الآثار التى وجدها ، ولم تحل نهاية عام ١٩٦٤ حتى كان قد اتم العمل فى أكثر من مائتى موقع • واشارت جميع الدلائل الى الحقيقة الواقعة وهى ان هضبة بلاد النوبة ، كانت فى وقت من الاوقات مكانا مناسبا ومريحا للحياة ، وان عدة أنهر عظيمة كانت تعبرها • اذ عثر على مناطق مأهولة تبعد أكثر من عشرة أميال عن النيل فى بطن الصحراء ، وهى منـــاطق لا يستطيع انسان العيش فيها فى هذه الايام •

وواجهت بعثات التنقيب عن آثار ما قبل التاريخ ، أقسى صـــور العمل فى الحملة كلها ، وكانت تتعرض الى الاخطار من البدو الذين يعيشون فى بطن الصحراء ، عندما تنتقل من ضفاف النهر الى مسافات بعيدة فى الصحراء •

واستكملت الجهود فى القسم المصرى من بلاد النوبة ، مما دعا لجنة الخبراء فى الجمهورية العربية المتحدة الى أن تقرر فى عام ١٩٦٢ ، عدم منح

أية ترخيصات جديدة للتنقيب الا فى موقع جبل ادا ، وهو الموقع الوحيد الذى لم تكن اية بعثة قد اقدمت على التنقيب فيه بالرغم مما يوحى به من وجود آثار قيمة للغاية • أما الوضع فى السودان ، فكان لا يزال بعيدا عن الكمال • وذكر السيد زيادة ارباب وزير التعليم السودانى ان الحملة الدولية لم تحقق الكثير من المتطلبات ، وان لابد من مزيد من المساعدات الدولية لتحقيق ما تبقى من المهمــــات • وكان عمل التنقيب فى الواقع متخلفا عن اكتشاف المواقع الجديدة • فلقد حدد الدكتور ادامز الذى لايكل ولا يمل نحوا من ٢٥٠ موقعا ، وراح يعمل فيها كلها ، باستثناء تلك التى طلبت البعثات الاجنبية ان تضاف الى مناطق امتيازها • وكثيرا ما فرضت السرعة عدم استكمال العمليات • فقد حددت البعثة الاســـكنديناڤية فى تقدمها السريع نحو الجنوب من فاراس نحوا من ١٧٠ موقعا ، تقلصت فيما بعد فى ثمانين ، ولم تتمكن من تسجيل ما فى كنائسها واديرتها من صور ونقوش على الجدران فى الوقت المتبقى • وزودت دائرة المساحة السودانية البعثات بخرائط ورسوم ممتازة ، أمنت لها الاساس الطوبوغرافى الرائع لاعمالها ، كما واصلت تصوير المواقع التى تجرى الحفريات فيها ، ولـكن الدكتور ادامز وفريقه عجزا عن الاحتفاظ بمكتب كاف للتسجيل فى وادى حلفا نظرا لغزارة ماكانا يقومان به من عمل فى الميدان • وعنــدما حل عام ١٩٦٢ ، كانت لجنة الخبراء السودانية لا تزال تطلب انشاء مركز كامل للموظفين للتسجيل والتوثيق ، واقترحت أن يقوم هذا المركز فى الخرطوم بدعم من فرنسا •

ولم يقدم أى عرض ثابت أيضا لانقاذ المعابد ، بينما كانت عمليـات انقاذ المعابد فى مصر ، وبينها بالطبع معبد ابى سمبل ، تسير على قدم وساق فى اماكن عدة • وذكر الدكتور هارولد بليندر ليث مدير مركز الدراسات الدولية فى روما للحفاظ على الممتلكات الحضارية واعادتها ، والذى اختير مستشارا خاصا فى موضـــوع آثار النوبة فى تقريره ، ان ليس فى الامكان انقاذ القلاع القديمة فى السودان ، وان الصخور الرملية فى معبد اكشه ، كانت قد تلفت الى الحد الذى يحولها النقـــل الى مسحوق ترابى (١) ، ولكن هناك معابد اخرى وبينهــا معبد بوهين ، يمكن نقلهــا كما يمكن انقاذ بعض الفسيفساء من الكنائس والأضرحة ،

---

(١) ومع ذلك فقد تم نقل هذا المعبد بنجاح الى الخرطوم على نفقة الحـــكومة الفرنسية •

وان كان قد اقترح نقل معبد بوهين الى التلال العالية المجـــاورة للنهر بدلا من الخرطوم .

واعطيت الاولوية فى عمليات النقل فى مصر ، لمعبد كلابشة الجميل الذى كان يقوم على بعد أربعين ميلا الى الجنوب من السد العالى . والذى كان أول المواقع التى ستغرقها المياه . وقامت ألمانيا الغربية بنقل هذا المعبد واعادة تركيبه والانفاق عليه ولم تحل نهاية عام ١٩٦٣، حتى كان المعبد يقوم شامخا على تل على الضفة الغربية للنيل ، يطل على العمل الجارى فى السد العالى . ويدعو السائحين لزيارته ، بعد الحصول على اذن بذلك . وقامت ادارة الآثار المصرية بشطر كبير من العمل فى هـذا المجـال ، اذ تولت رفع الحجارة من معبدى دابود وتافه حجرا حجرا ، وكذلك من صومعة قرطاس ، وذلك فى مراكب نهرية حملتهـــا الى جزيرة الفيلة فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦١ . وقامت هذه الادارة فى السنة التالية بنقل الرواق الفرعونى من معبد دكه ، وبنقل معبد المحرقة الصغير ، كما طلبت من شركة سويدية اجراء الدراسات الفنية لنقل بعض الاضرحة والآثار فى عنيبه وبيت الوالى ووادى السـبوع وابى عودة . وتعهدت مجموعة تضم خبراء من الاتحاد السوفيات وهولندة بفك معبد دكة ، ولكن تعذر تحقيق هذا العمل .

وكان انقاذ معبد عمادة الواقع على الضفة الغربية من نهر النيل وعلى بعد ١٢٠ ميلا الى الجنوب من اسوان من ابرز العمليات الهندسية المتصلة بالحملة النوبية . ويرجع عهد هذا المعبـــد الى نحو من ثلاثة آلاف سنة ، وهو يضم سبع قاعات مزدانة بالرسوم والنقوش . وقامت ادارة الاثار المصرية ، بفك واجهة المعبد ، ثم جاءت بعثة من المهندسين الفرنسيين فى عام ١٩٦٤ فتولت نقل ما تبقى معه كوحدة واحدة لمسـافة ميل ونصف الميل ، ورفعته فى الوقت نفسـه نحوا من ٢١٥ قدما بحيث لا تصل اليه مياه النهر مهما ارتفعت . وتمت عملية النقل بوصة بوصة، فوق قضبان حديدية أقيمت لهذه الغاية ، بينما تولت شاحنة كبـيرة تسير بقوة المضخات المائية بدفع هذه الحركة البطيئة . وبلغت تكاليف نقل المعبد ٢٣٧ ألف دولار .

ولن تتعرض مجمـوعة الآثار القيمة على جزيرة الفيلة لأى خطر الا فى وقت متأخر ، أى عندما يمتلىء الخزان وراء السد بالمـاء فى عام ١٩٦٩ تقريبا . ولكن تأكد انقاذ هذه الآثار منذ السابع من ابريل من عام ١٩٦١ ، عندما اقترح الرئيس كنيدى على الكونجرس اعتماد ما يعادل

نحـــوا من عشرة ملايين دولار بالجنيهات المصرية ، لانقاذ آثار النوبة ولا سيما فى جزيرة الفيلة ، واقر الكونجرس هذا الاقتراح . (١)

ولقد غطت العمليات الدولية فى بلاد النوبة على الاعمال العظيمة التى حققتها ادارتا الآثار فى كل من مصر والســودان ، ولكن هاتين الدائرتين ظلتا تبذلان قصــارى جهودهما منذ بداية الحملة ، وكان خبراؤهما لايفارقون ميدان العمل مطلقا سواء فى البحث أو فى التنسيق أو فى تأمين الحاجيات للبعثات العاملة فى المنطقة . وهـــكذا لم تدخر الحـكومتان أى جهد . وسجلت لجنــة الخبراء الدوليين شكرها لحكومة الجمهورية العربية المتحدة ، لماقدمته من خدمات نافعة وجلى لجميع البعثات فى جميع مراحل العمل فى الحملة النوبية . واعدت الحكومة ثلاث مراكب نيلية تحمل الواحدة منها اثنين وسبعين شخصا ، وتقوم برحــلات يوميــة بين أسوان وأبى ســمبل . ومع ذلك فقد تقاعست البيروقراطية عن تنفيذ أوامر الحـكومة بالسرعة المطلوبة . فلقــد كان الخبراء الدوليون يعانون دائما مشقات فى الحصــــول على التأشــيرات اللازمة ، وكان يطلب اليهم ان يدفعوا ضرائب على دخولهم ، ولم يسمح لهم فى البداية بالاعفــاء فى الرســوم الجمركية على معداتهم . (٢) ، وبالرغم من ان الخبراء كانوا يعاملون فى الســودان معاملة افضل ، الا أن هذا لا يحجب الحقيقة ، وهى أن الحكومة المصرية كانت جــد متعـــاونة مع الحملة الدولية واسهمت فى تمويلها بمبالغ تفوق مادفعته اية دولة أخرى فى العالم .

ولم يحل خريف عــام ١٩٦٢ حتى كانت هنــاك بعثــات من اثنين وعشرين بلدا من بلاد العالم ، بالاضـــافة الى ادارتى الآثار فى مصر والسودان بجميع أجهزتهما ، والى عدد من العلماء الذين تطوعوا بصورة شخصية والكل يعمل على ضفاف النيل فى أكبر عملية شهدها العالم . لجنى ثمار التاريخ . وكان العمل يبدأ فى اجتماعات اللجان التى يحضرها أبرز علماء الأثار والحيوان والنبات والمهندسون المعماريون وعلماء قراءة النقوش وراسموا الخرائط ، وكلهم من الذين ألفوا العمل فى بعثات ضيقة

---

(١) رفضت الحكومة المصرية عرضا أمريكيا ، فقد اقترحت شركة أقــلام باركر الامريكية أن تولى فك معبد دندور على ان تنقله الى بلدة جانــفيل الامريكية فى ولاية ويسكونسيين على حسابها . وكان أحد الاثرياء الامريكيين قد عرض منذ نهاية القرن الماضى ، شراء معبد الفيلة بأربعين ألف جنيه على أن ينقله الى مدينة شيكاجو ، فرفضت الحكومة عرضه .

(٢) كان معظم الخبراء ، وبينهم المصريون من أعضاء جمعية الآثار المصرية يعملون مجانا ولايتقاضون الا نفقاتهم المتواضعة .

ومحدده ، ولكنهم تحولوا الآن الى أساطين فى البحوث التاريخية . وكانت الدراسات الاستهلاكية تظهر عادة فى شكل مشروع من المشروعات الصناعية. ومابنطوى عليه هذا المشروع من اعداد قوائم الرافعات والمولدات الكهربية والمضخات والجرارات والثلاجات ومعدات التصدير ، ومن تهيئة الميكانيكيين والسائقين والفنيين . وكان هؤلاء الاساطين يتحدثون فى غرف الفنادق عن مبالغ من المال ، لم يحلموا قط بالحديث عنها . فلقد كانوا يشتركون فى سباق مع الزمن وتتحكم فى كل أعمالهم الأولويات التى يفرضها الفيضان القادم ، والعواطف التى تلتحم مع كل صورة من صور العمل الضخم . ومع ذلك فقد كانوا ، وهم من العلماء ، يجمعون الى ما فى عملهم من أبعاد مسرحية ضخمة ، الهدوء الجاد المثابر ، وكأنهم يقاومون بطبيعتهم السرعة اللاكريمة التى يدفعون اليها ، لاقتحام هذه الآثار الهادئة ، وتعكير صفو سباتها الخالد . وكان الزمن والنهر الخالد يفرضان عليهم ، وهم يعملون فى الميدان ، صمتا طبيعيا ، اذ لا يمكن للعمال هناك أن يسرعوا فى عملهم ، الا اذا سيطر الهدوء عليهم ، لا سيما وان الاستعجال المتهور قد يؤدى الى كوارث . وكانت صفوف العمال . تحمل فى بعض المواقع « المقاطف » الصغيرة المصنوعة من القش وهى ملأى بالرمال والأتربة التى استخرجوها من احدى الحفر ، ليقوم الخبراء بغربلتها بحثا عن أصغر ذرة من ذرات التاريخ ، وكأن لا حساب للسنين لديهم . وكان الناسخ فى موقع آخر ، يجلس الساعات المتوالية، بهدوء ينسخ بعض النقوش ، بدقة متناهية ، كما يقوم المهندسون المعماريون بتوجيه عمليات فك المعابد الحجرية التى ظلت لا يمسها احد الا الزمن ، ألوف السنين . ويضعون على كل قطعة منها علامة خاصة ليعيدوا تجميعها فيما بعد . وكانت مئات آلات التصوير تعمل طيلة النهار ، والطائرات تئز فوق الرءوس على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم لالتقاط صور أفقية وعمودية لاستكمال الخرائط . وعندما يهبط الظلام فى كل يوم ، ينصرف العلماء الى خيامهم ، أو الى المراكب التى يقيمون فيها أو البيوت التى شيدوها ، وقد أضاءوها بمولدات كهربية صغيرة أو بمصابيح جازية ، ليجلسوا الى مكاتبهم يدونون ويسجلون ويرسمون. وارتفعت اكداس الاوراق والتقارير والرسوم فى وادى حلفا والقاهرة ، وفى الجامعات ومعاهد العلم فى طول العالم وعرضه الى حدود لا يتصورها عقل ، وهى توحى بأن العلماء سيقضون الحقب الطويلة ، عاكفين على دراستها بعد أن يكون مسرحها التاريخى الذى استخلصت منه ، قد ضاع الى الابد .

١٤ ثمن التـــاريخ

فى الوقت الذى دأب فيه العلماء على العمل بجد ومثابرة هادئة فى بلاد النوبة ، عكف محاسبو اليونسكو فى باريس ، على حساب التكاليف بكثير من المثابرة المحمومة • وبالرغم من تمويل بعض البعثات مباشرة من بعض الحكومات او المصادر الخاصة الاخرى كبعثـــــات التنقيب الامريكية عن آثار ما قبل التاريخ وكحفريات بوهين ، فقد اتضـــح منذ البداية ان الحاجة ستكون ماسة الى مبالغ اكبر من هذه بكثير ، ان كان لابد للحملة من تحقيق اهدافها • ولقد قدرت تكاليف حماية الآثار التى اختيرت للمحافظة عليها أو نقلها فى عام ١٩٦١ بنحو من سبعة وثمانين مليون دولار ، كان لابد من تخصيص سبعين مليونا منها لانقـــاذ آثار ابى سمبل وحدها • وتعهدت حكومة الجمهـــورية العربية المتحـــدة بتقديم عشرين مليون دولار ما لبثت ان اضافت اليها مليونا ونصـــف المليون ، ومع ذلك فقد ظلت المبالغ التى لابد من جمعها من اماكن اخرى كبيرة •

وتركز الامل على ان تؤدى الحملة الدعائية العالمية النطـــاق التى شنتها منظمة اليونسكو والتى بلغت تكاليفها مليون دولار الى جمع الاموال اللازمة بطريقة اختيارية ، وبتبرعات طوعية ، ولكن الاهتمام الاولى الذى اثارته هذه الحملة ما لبث ان خفت فى منتصـــف عام ١٩٦١ • وذكر المسيو رينيه ميهيو المدير العام لمنظمة اليونسكو بالوكالة فى شهر يونيو من ذلك العام ان النتائج كانت « مشجعة » ، ولكنه لم يستطع اخفـــاء الحقيقة الواقعة وهى ان الاموال التى جمعت كانت أقل بكثير من المبالغ المقررة • واتضح فى الواقع ان التبرعات التلقائية لن تستطيع انقاذ تاريخ النوبة من الضياع ، ومضى المسيو ميهيو يقول ، ان ليس فى الامـــكان ضمان تمويل الحفاظ على آثار النوبة عن طريق التعاون الدولى ، الا اذا وافقت الدول الاعضاء فى منظمة اليونسكو على الاشتراك فى تحمـــل المسئولية بعد توزيعها عليها بنسب تتفق مع اسهامها فى موازنة المنظمة

نفسها • وكان هذا القول بمثابة الطلقة الاولى فى حملة جديدة لضمان جباية التبرعات وان ظهر فى وقت قريب ان هناك دولا عدة تتحفظ فى موقفها من القضية كلها •

لكن هذه الازمة الاولى فى موضوع الاموال اللازمة سرعان ما جددت النداء على الصعيد العالمي • ودعت الجمعية الاستشارية للمجلس الاوروبى لجنتها الوزارية لتوصية دولها الاعضاء ، بأن تفكر تفكيرا جديا وسريعا بجميع السبل التى تمكنها من تأمين المزيد من العون العملى ، وراحت تسع عشرة دولة من الدول الاعضاء فى اليونسكو تتبرع للمشروع بشكل او بآخر ، بينما اعتذرت ست عشرة دولة اخرى عن أى اسهام • وتبرع البابا يوحنا الثالث والعشرين بعشرة آلاف دولار ، كما تبرعت امارة قطر العربية الصغيرة على ساحل الخليج بأربعين الف دولار ، بالرغم من عدم عضويتها فى اليونسكو ، وبالرغم من بعدها الحضارى كما تبدو عن حملة العلماء • وقرر الكونجرس الامريكى فى شهر سبتمبر اعتماد مبلغ أربعة ملايين دولار بالاضافة الى ستة ملايين أخرى اعتمدها لآثار جزيرة الفيلة والى اسهامات أخرى لابى سمبل منها مليونان ونصف المليون من الدولارات لانقاذ الآثار ومليون ونصف المليون للانفاق على البعثات الامريكية فى الميدان • وتعهدت ثلاث وعشرون دولة اخرى لا تضم الجمهورية العربية المتحدة والسودان بعد اثنى عشر شهرا بدفع مبلغ ٠٠٠ر٧١٢ر١ دولار ، لحساب النوبة العام الذى سينفق طيلة سنى الحملة• وكان هذا هو الحساب الذى ترصد فيه جميع الاموال التى لا تخصص لاى مشروع معين • ووعدت المانيا الغربية بثلاثة ملايين ونصف المليون من الدولار ، منها مليون وستمائة الف للانفاق على نقل معبد كلابشة ، كما وعدت ايطاليا بمليون وستمائة الف دولار • ووعدت فرنسا بنقل معبد عماده الذى سيكلف ٢٤٠ الف دولار • واصبح فى وسع المسيو ميهيو ان يعلن فى شهر اغسطس انه « بات من المؤكد الآن ان ثلثى المعابد سيتم نقلها • وهكذا سيظل تمويل عملية رفع ابى سمبل ، يمثل المشكلة الأساسية ••• » وكانت السودان لا تزال على أى حال ، البلد المنسى فى الموضوع ، اذ لم تتلق عرضا واحدا لنقل معابدها الخمسة التى تكلفت كلها كما قدرها جازولا سبعمائة وسبعين الف دولار •

وكان صندوق اليونسكو يتألف من ثلاثة حسابات منفصلة ، اولها لانقاذ آثار مصر وثانيها لانقاذ آثار السودان ، وثالثها ، لضم التبرعات لاهداف لا محددة • ومع ذلك كان هناك بالاضافة الى هذه الحسابات

الثلاثة انفاق ضخم على اعمال المسح والتوثيق والتســجيل والتنقيب ، وكان يدور فى شكل تمويل مباشر للبعثات العاملة فى الميدان • وتجاوزت الوعود التى تقدمت بها المؤسسات لهذا العمل فى عام ١٩٦٢ اكثر من مليون دولار ، تعهدت بها اثنتان وعشرون دولة من مجموع تسع وعشرين اذ ان الدول السبع الباقية لم تتقدم بأية ارقام محددة • وكان التبرع الأضخم لعمل جمعية الآثار المصرية التى انفقت وتقــرر أن تنفق نحوا من ثمانية وعشرين الف جنيه •

وسارعت بريطانيا الى مساعدة السودان عن طريق التعهد بنقــل معبد بوهين واحتمال تكاليفه التى تبلغ ثمانية آلاف جنيه ، اذ لم يكن فى وسعها ان تتقاعس عن ذلك خجلا وحياء ، بعد العمل الذى قام به الدكتور ايمر هناك • وتعهدت هولندة ايضا بانفاق مائة وعشرين الف دولار على نقل احد معابد سمنه ، وبذلك اتاحت الفرصة للسودان لتأمل اخيرا فى سد متطلباتها القليلة • ومع ذلك فقد ظلت الحقيقة ماثلة ، وهى التى اشار اليها ميهيو ، من ان انقاذ آثار أبى سمبل ستظل المشكلة الأساسية بل والكبرى • واتضح لكل انسان فى شهر يوليـــو من عام ١٩٦٢ ان الاموال اللازمة لهذا العمل لن تجمع عن طريق النداءات العامة التى توجه الى الشعوب او الحكومات • وكان هناك كثيرون من النــاس المتحضرين يتساءلون عما اذا كان من المناسب فى عالم مازال فى حاجة كبيرة وماسة الى ابسط ضرورات الحياة ، انفاق مثل هذا المبلغ الضخم على انقاذ معبد تم تسجيل كل تفصيل دقيق من اجزائه •

ولكن اليونسكو لم تأبه بمثل هذه الشكوك ، اذ انها مضــت فى حملتها التى لا تسمح بأية استثناءات • وراح المسيو ميهيو يقول : « ان من واجبنا أن نعترف بأن صيانة معابد ابى سمبل ، ما زالت تواجـــه بالرغم من الجهود العظيمة التى بذلت فى هذا الاتجاه مصاعب بالغة •• ولقد اكتفت اليونسكو حتى الآن بتوجيه النداءات للاسهامات الطوعية •• ويبدو أن الأمانة العــامة للمنظمة ، قد استنفدت جميع الامكانيــات التى يتيحها هذا الاسلوب » • ولم تكن هناك فى الواقع اية مبالغ قد توافرت لانقاذ ابى سمبل ، وكانت اليونسكو قد سلفت الجمهورية العربية المتحدة مبلغ سبعة وثلاثين الف دولار انفقت على المستشارين الاخصائيين لدراسة مشكلة رفع المعبد ، وتأمين المعدات والمواد اللازمة لعمليات التثبيت التى تسبق الرفع ، ثم استردتها من حساب التبرعات للاعمال اللامحددة • ولما كا المسيو ميهيو ، قد حزم أمره على الا يدع الأمور عند هــذا الحد ،

فقد بادر الى شن حملة شخصية لجمع الاموال بطرق أخرى ، وراح يبعث بخبرائه الماليين الى المصارف فى مختلف البلاد ، ليروا اذا كان فى امكان اليونسكو الحصول على قروض منها ٠

وذكر المسيو ميهيو فى احد تقاريره ٠٠٠

« لعل افضل اجراء واكثره عملية ، ان يضمن المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو فى موازنة المنظمة العادية ، ولعدد من السنوات القادمة ، مبالغ لدفع الفوائد اللازمة وتأمين الرهنيات عن القروض ٠٠٠٠ ولعل الصعوبة الوحيدة فى الوقت الحاضر ، تتعلق بمجمل المبلغ الذى لن يحمل طاقات التعاون الدولى ، ما يفوق احتمالها ٠ وسيكون بالطبع من حق الدول التى تقدمت او ستتقدم بتبرعات تلقائية ان تقتطع هذه التبرعات من الحصة التى تقع عليها من الفوائد السنوية وقيمة الرهنيات التى ستفرض عليها فى الموازنة العادية » ٠

وسهلت حكومة الجمهورية العربية المتحدة التى تعهدت بالتبرع بمبلغ احد عشر مليونا ونصف المليون من الدولارات لعملية ابى سمبل ، الموقف اكثر واكثر ، وخففت من حدة الضغط المالى ، عن طريق ما ذكرته لمنظمة اليونسكو من ان عملية انقاذ ابى سمبل يمكن ان تتم على مرحلتين اولاهما رفع التماثيل والمعبد ، وثانيتهما اعادة بناء الموقع ، وان المرحلة الثانية لا تتطلب اى استعجال ، اذ انها ستنفذ فوق مستوى الخزان ، ويمكن تمويلها الى حد ما من تبرعات الشعب المصرى نفسه ٠ وهكذا تقلصت الحاجة الفورية الملحة الى اثنين واربعين مليونا وستمائة الف ، منها احد عشر مليونا ونصف المليون مضمونة من حكومة الجمهورية العربية المتحدة ٠ واصبحت الارقام اكثر سهولة على التدبير ، ولكن لم يكن ثمة مهرب من الحقيقة الواقعة وهى ان « الدول الأعضاء » ،ستصبح ملزمة بتأمين المال طبقا للبرنامج الجديد ٠ وهكذا كانت القصة ملحة للغاية ٠ فلقد طلبت حكومة الجمهورية العربية المتحدة الضمانات بأن تؤمن لها الاموال فى الوقت المناسب بعد شروعها فى العمل ، وهذا يعنى على ضوء الاوضاع القائمة ان يشهد عام ١٩٦٣ عجزا ضخما ، لن يكون فى وسع اليونسكو تأمينه الا اذا سمح لها بالحصول على بعض القروض ٠

وقامت اليونسكو فى نهاية شهر اكتوبر من عام ١٦٩٢ ، باستعراض الوضع المالى ٠ واقترحت أولا خفض اعتمادات الدعاية من مليون وثلاثمائة الف دولار الى ستمائة الف ، تدفع من موازنة اليونسكو نفسها، وقدرت على ضوء التجارب ان تكاليف نقل التماثيل والآثار ، باستثناء

ابى سمبل والفيلة ، ستبلغ ثمانية ملايين وثمانمائة الف دولار بدلا من تسعة ملايين ونصف المليون . وهكذا اصبحت التقديرات الجديدة اثنين واربعين مليونا وستمائة الف دولار - لابى سمبل وستة ملايين لمعبد جزيرة الفيلة ، وثمانية ملايين وثمانمائة الف لانقاذ الآثار الأخرى وستمائة الف دولار للنفقات المتنوعة ، و لاسيما الدعاية .وتعهدت الولايات المتحدة بدفع تكاليف معبد الفيلة بكاملها . أما بالنسبة الى ابى سمبل ، فكان هناك بالاضافة الى تبرع الجمهورية العربية المتحدة ، ١ر٨٤٥ر٠٠٠ دولار من المانيا الغربية ، و ١ر٧٦٠ر٨٠٠ من ايطاليا منها ١٦٠ ألفا من مصادر خاصة . وهكذا ظل العجز بالنسبة الى تكليف أبى سمبل سبعة وعشرين مليوناً ونصف المليون وبلغ مجموع التبرعات لتمويل العمليات الاخرى خمسة ملايين وسبعمائة الف بالاضافة الى مليون وستمائة الف تم التبرع بها دون تحديد الهدف الذى تنفق عليه هذه التبرعات ،وتقلص العجز بذلك الى مليون ونصف المليون (١) . وبلغ مجموع العجز تسعة وعشرين مليونا من الدولارات ، ولكن لما كانت تبرعات الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة بالعملة المصرية ، فان العجز فى المتطلبات بالنقد الاجنبى بلغ ١٩ مليونا وخمسمائة الف دولار ليس الا . وقدر ان فى وسع وكالات الامم المتحدة المتخصصة ، ان تستخدم مليون دولار بالعملة المصرية فى السنة الواحدة لمدة ثماني سنوات ، وبذلك يبلغ رصيد الحاجة الى النقد الأجنبى أحد عشر مليون دولار ليس الا . وحصلت الامانة العامة لليونسكو على تأكيدات من المصارف الايطالية ، بأن تؤمن مبلغ عشرة ملايين دولار فى غضون خمس سنوات ، وبذلك لم يبق الا مبلغ مليون دولار من النقد الأجنبى لابد من تأمينها ، اذا ضمنت الدول الاعضاء فى اليونسكو القروض المصرفية .

وتمكنت اليونسكو بهذه الحيلة الرائعة من دفع الارنب تحت القبعة ولكن عيون اعضائها رأتها لسوء الحظ وهى تفعل ذلك فاكتشفت حيلتها . وراح المسيو ميهيو يقول فى كلمة بليغة ألقاها فى اجتماع لجنة خبراء اليونسكو ان العبء لن يكون ثقيلا اذا وزع على الدول الاعضاء

---

(١) جمعت التبرعات الاخيرة على النحو التالى : ٢ر٣ مليون دولار من الولايات المتحدة للآثار المصرية و ١١٨ر٨٢٥ دولار لآثار السودان ٥ر١ مليون من المانيا الغربية لكلابشه و ٢٤٠ ألفا من فرنسا لعماده ، و ١٢٠ ألفا من هولندة لسمنة و ٢٢ر٤٠٠من بريطانيا لبوهين و ٢٤ ألفا من يوجوسلافيا لعبد القادر و ١ر٢٠٠ من الجمهورية العربية المتحدة . وضمت التبرعات اللامحددة ١٦٠ ألف دولار من السكر الكوبى .

المائة والسبع ، وبين لهم الدكتور ثروت عكاشة انه اذا لم يؤمن هذا المبلغ فلا مناص من تدمير معبد أبى سمبل · وآمن بعض الأعضاء أن تدمير المعبد هو الحل البديل ، ولا حل غيره · وراح الخبراء يثيرون سلسلة ضخمة من الاعتراضات ، مدعين ان نظام القروض سيمثل نموذجا سيئا ، وانه يمثل تراجعا عن اصالة نظام التطوع الاختيارى ، وان تسديد القروض ، وهو ما ستلتزم به المنظمة ، سيترك أثرا معوقا على برامجها ، وان هذا المشروع يفتقر الى الحكمة اذ ينطوى على قرض طويل الأمد ، لا يمكن لاحد ان يعرف مداه ولكنه سيزيد فى التزامات الموازنة السنوية للمنظمة بنسبة مليونى دولار فى العام ·

وراح الخبراء فى النهاية يقترحون البحث عن طريقة ارخص لانقاذ معبد ابى سمبل · وكان اهتمام ايطاليا بالعملية ، وقد بدا فى تبرعاتها السخية وفى عروض القروض التى تقدمت بها مصارفها ، ناتجا ولاشك، والى حد كبير ، عن الحقيقة الواقعة ، وهى ان ايطاليا هى التى وضعت مخطط نقل المعبد ، وان هذا المخطط انطوى على نقل المعبد فى قطعتين من شاطىء النهر الى قمة الجبل ، وهو عمل رائع ، سيزيد من شهرة ايطاليا الفنية الى امد بعيد · ولكن هذا المشروع سيكلف ٦٣ مليونا من الدولارات منها ٣٨ مليونا على الأقل بالنقد الأجنبى · ولا شك فى أن هذه التكلفة الضخمة لهذا المشروع هى التى جعلت حملة اليونسكو تواجه المتاعب ·

ولم يكن من المتوقع بالطبع أن تبحث اللجنة العامة لمؤتمر اليونسكو فى مشروع القرض ، فأحالته الى اللجنة الادارية فى نهاية شهر نوفمبر · وبذل المسيو ميهيو قصارى جهده لاقناع اللجنة بأنه لم يتخل عن نظام التبرعات الطوعية ، وانه انما يحتاج الى القرض ، ليضمن دفع مدفوعاته فى الوقت المحدد لها · ولكن اللجنة لم تكن لتصدق بأن التبرعات الطوعية ستؤدى فى المستقبل الى تخفيض القرض ، واثارت نفس الاعتراضات التى كان الخبراء قد وجهوها الى المشروع ، وعندما انتقلت القضية فى شهر ديسمبر الى لجنة البرامج ، راح المسيو ميهيو وكان قد اصبح مديرا عاما لليونسكو ، يواجهها بصراحة ، طالبا منها ان تقرر ما اذا كانت هناك رغبة بالفعل فى انقاذ معابد ابى سمبل ·

وكان رأى اليونسكو قد انعكس فى سلفة ثمانمائة الف دولار لاعمال المسح الاولية للمعابد من رأسمال المنظمة الدائم ، ولكن نصف اعضاء المنظمة تقريبا ، وبينهم بريطانيا ، لم يكونوا قد كلفوا انفسهم عناء الاستجابة الى النداء السابق · وراح السيد رعادى ، ممثل ايران فى

لجنة البرنامج ، يعبر بطريقة مقنعة عن اعتراضات دول كثيرة ، مدعيا انه يؤمن بضرورة انقاذ أبى سمبل ، ليعود فيحاول مبينا أن لا حاجة لهذا الانقاذ • وراح يقول ان من الضرورى انقاذ آثار النوبة ، ولكن هناك ضرورة مماثلة لانقاذ اشياء كثيرة اخرى ، وبينها ملايين الناس من الجهل والشقاء وهم من الذين لا يعرفون شيئا عن ابى سمبل • واضاف ان ليس من حق اليونسكو ان تؤثر شراء الاثار والتماثيل على تعليم الاطفال ، واقترح ان يكون المدير العام بليغا كعادته فى اقتراح اعتماد مبلغ مليون جنيه او ما يعادل ذلك لشئون التعليم • واقترح فى النهاية ان تؤجل اللجنة البت فى موضوع اقتراح القرض • وقال المسيو كيوبر ممثل بلجيكا ، ان اغراق المعابد بالماء امر كان متوقعا منذ البداية ، وانه كان على الجمهورية العربية المتحدة ان تؤمن القرض لانقاذها بضمان الاراضى الجديدة التى سيرويها خزان السد ، وان تخفف بذلك العبء عن التبرعات الدولية •

وكان اقتراح المدير العام ينص على تبرعات الزامية لسداد القرض، تكون معادلة فى نسبتها لمساهمات الدول الاعضاء العادية فى موازنة اليونسكو ، وان تقتطع من هذه المبالغ التبرعات الطوعية • وكانت هناك بعض الدول التى تفوق تبرعاتها الطوعية هذه المبالغ الالزامية كالمانيا الغربية وايطاليا والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا ، ولذا لم تكن ملزمة بدفع أية اقساط من القرض ، وكانت ميالة الى قبول هذه السابقة عن الجباية الالزامية • وكانت مدفوعات الولايات المتحدة الطوعية اقل من اسهامها السنوى فى موازنة اليونسكو اذ ان هذا الاسهام يبلغ ٣١ فى المائة من الموازنة ، وكان عليها أن تدفع ٣١ فى المائة من القرض عند تسديده • أما بريطانيا وهى التى لم تتطوع بشىء من التبرعات الطوعية ، فكان عليها ان تدفع مليونى دولار من القرض ،، كما كان على الاتحاد السوفياتى الذى رفض التبرع ان يدفع نحوا من اربعة ملايين دولار • واعلنت روسيا بصراحة أنها لن تدفع شيئا لانها تساعد فى بناء السد العالى ، مع ان ما تدفعه لم يكن تبرعا وانما قروضا (١) • ولم يكن من المنتظر أن تدفع روسيا ودول اوروبا الشرقية حصصها من القرض لو أقر ، وبذلك كان من الواضح ان مشروع تسديده يفتقر الى العملية • وهكذا رفضت لجنة

---

(١) محاولة من جانب المؤلف للايقاع بين الاتحاد السوفياتى والجمهورية العربية المتحدة ، والتقليل من أهمية الدور الذى مثله الاتحاد السوفياتى فى مساعدة مصر على بناء السد العالى ، فى الوقت الذى رفضت فيه الدول الغربية هذه المساعدة •
(المعرب)

البرنامج فى النهاية مشروع القرض ، بالرغم من ان امير الكويت كان قد تعهد بتخفيض الفائدة الموضوعة عليه عن طريق التعهد بضمان خمسة ملايين وستمائة ألف من مجموعه • وعلق السنيور بومبيبى ممثل ايطاليا على قرار اللجنة فقال : « ان هذا القرار حكم بالموت ولا شك على معابد ابى سمبل ، ولكن قد يكون من الضرورى اجراء محاولات جديدة عن طريق العودة الى نظام التبرعات الطوعية لرؤية مدى ماقد يحققه هذا النظام من انقاذها » •

وكان هذا بالفعل ما عمله المؤتمر العام لليونسكو فى الاسبوع التالى عندما وافق على مشروع قرار تبنته احدى وعشرون دولة (١) فلم يرفض جهارا اقتراح القرض وانما دعا « الدول الأعضاء وشعوبها الى اتخاذ الخطوات العاجلة ، لضمان اسهامها الأصيل والمناسب عن طريق التبرعات المالية الطوعية ، وعروض المساعدات الفنية بالخبراء فى الحملة لانقاذ المعابد » قرر مواصلة العمل الدولى الى أقصى حد مستطاع بالسبل الطوعية وطلب الى الدول الأعضاء ، والدول المراقبة ابلاغ المدير العام ، عن التبرعات التى تجد نفسها مستعدة للتقدم بها ، وعن صور المساعدات الاخرى التى تستطيع تقديمها لانقاذ ابى سمبل • وطلب المؤتمر من المدير العام ان يعمل على تنسيق الردود قبل الواحد والثلاثين من مارس من عام ١٩٦٣ لوضع مخطط التعاون الدولى ، بحيث تستطيع الجمهورية العربية المتحدة معرفة مدى التأكيدات التى فى وسعها الاعتماد عليها وطبيعتها •

ولكن هذا النداء الجديد منى بالفشل أيضا • فلم يتلق المدير العام أى رد من بريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى ، بينما تلقى اعتذارا من استراليا وكندا عن التبرع والاسهام فى المشروع • وعرضت فرنسا التبرع بمليون دولار على خمسة اقساط ، وأوصلت التبرعات من الدول الصغيرة الاخرى باستثناء الجمهورية العربية المتحدة الرقم الى سبعة ملايين دولار ونصف المليون • وتدخلت الولايات المتحدة فى هذه المرحلة لتعلق أن المشروع الايطالى لرفع المعابد غير عملى بسبب كثرة تكاليفه وارتفاع متطلباته من النقد الاجنبى • واضافت المذكرة الامريكية

---

(١) هذه الدول هى : ألمانيا وبلجيكا والبرازيل وكندا واكوادور وأسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا واليونان وغينيا والهند وايران وايطاليا والمغرب والمكسيك وهولنده وبريطانيا والصومال والسويد وفنزيلا ويوغوسلافيا .

(المعرب) •

ان على الجمهورية العربية المتحدة ان تدرس حلولا اخرى · وان « رئيس الولايات المتحدة على استعداد اذا وجد الحـــــل البديل لان يطلب من الكونجرس الامريكى الاسهام بالعملة المصرية فى الحفاظ على هـــذه الآثار التاريخيه ذات القيمة الحضارية الفريدة · »

وبعثت اليونسكو بنداء برقى ــ عاجل واخير الى جميع الحكومات ، ولكن الوقت كان قد فات على تنفيذ المشروع الايطالى · وكان المهندسون قد حددوا المواعيد « النهائية » المتعددة لتوقيع العقود ، ولكنهم كانوا قد وصلوا الحد النهائى عندما اعلنوا فى شهر مارس ، ان الوقت سيكون قد فات بعد الخامس عشر من مايو على انقاذ المعـابد اذ ان مياه الخزان ، سترتفع بصورة اسرع مما تستطيع الرافعات ان تفعله فى رفع المعابد · ولم يمثل هذا القول اية كارثة ، اذ كانت الحكمة تقضى بالتخـــلى عن المشروع قبل نحو من عام ، عندما اتضح العجز عن تأمين الاموال اللازمة عن طريق النداءات · فلقد كانت تكاليف تنفيذ المشروع باهظة للغاية ، ولا يمكن دفعها فى رأى عدد من الدول ، لانقاذ معبدين فى الوقت الذى توجد فيه متطلبات اخرى من موازنة اليونسكو اكثر اهمية والحـافا · وكان هناك بالاضافة الى ذلك كله شـــعور يسود عـــددا كبيرا من الاعضاء ، بأن هناك محاولة تجرى لخلق حالة من الذعر لديهم ، لحملهم على قبول المشروع · وعزز هذا الشعور نفور الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا من المشروع ، كما دفع عددا من البلاد الافريقية التى ذهبت الى المؤتمر وهى عازمة على تأييد المشروع الى الامتناع عن التصويت ·

وكانت هناك مشروعات اخرى قد قدمت فى وقت لاحق · وعندما اصبح العجز عن تمويل المشروع الايطالى واضحا ومؤكدا ، بادرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة الى اقرار مشروع اقترحه مستشاروها الفنيون (مؤسسة فى · بى · بى) · وهو يقضى بتقطيع معابد ابى سمبل ونقلها الى أعلى الجبل ، واعادة تركيبها هناك · وتنظيم الموقع فى نفس صورته القديمة · وكانت تكاليف هذا المشروع تقدر باثنين وثلاثين مليونا من الدولارات منها سبعة عشر مليونا لابد من تأمينهـــا بالنقد الاجنبى · وكانت هذه الارقام اقل من نصف التقديرات للمشروع الايطالى ، ولكن رؤى من الضرورى رصد مبلغ اربعة ملايين دولار كاحتياطى للتكاليف غير المتوقعة ·

واتضح على الفور أن العالم كان قد كون فكرة ثابتة عما يعتقد انه الثمن العادل الذى يتحتم عليه دفعه لانقاذ ابى سمبل ، بالنســـبة الى

المتطلبات الثقافية والحضارية الاخرى من منظمة اليونسكو • ووفت الولايات المتحدة بوعدها بالمساعدة بمبلغ اثنى عشر مليونا من الدولارات، كما كان هناك العرض الفرنسى بمليون اخرى ، وقدمت بريطانيا (٢١٠) آلاف دولار • وكان العرض البريطانى فى منتهى الشح والبخل ، اذ أن ايطاليا وعدت بدفع اربعة اضعاف هذا المبلغ ، كما تبرعت الهند وهولندة والسويد بأكثر من ضعفى ما تبرعت به بريطانيا •• ووعدت حتى يوغوسلافيا واسبانيا بمبلغ يربو على ما قدمته بريطانيا • وهكذا تبرعت نحو من خمس وأربعين دولة بأكثر من تسعة عشر مليونا من الدولارات وكان هذا اقل بمليون ونصف المليون من المبلغ الذى طلبته الجمهورية العربية المتحدة من اليونسكو ، واصبح من المتوقع جمع مزيد من التبرعات الطوعية ، كما اصبحت عملية ابى سمبل فى حكم المستحقة بالنسبة الى جميع المعنيين • ووعدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بدفع أى نقص اضافى ، وذلك بالاضافة الى مبلغ الاحد عشر مليونا ونصف المليون من الدولارات الذى تبرعت به • وحلت حكومة الكويت فى النهايةمشكلة الضغط على متطلبات النقد الاجنبى باعطاء الجمهورية العربية المتحدة قرضا بثلاثة ملايين جنيه استرلينى (أى ٨ر٤٠٠ر٠٠٠ دولار) ، بدون فائدة يسدد فى غضون عشر سنوات تبدأ بعام ١٩٦٦ •

ووقفت حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى السادس عشر من نوفمبر من عام ١٩٦٣ ، أى اقل من سبعة اشهر من فشل الحملة لانقاذ معابد أبى سمبل طبقا للمشروع الايطالى العقود اللازمة لانقاذ المعابد مع شركات هوشتييف الالمانية وايمبر جليو الايطالية ، وجراند ترافو دى مارسيليا الفرنسية ، وسنتاب وسكانسكا السويدية واطلس العربية • ووقعت فى الوقت نفسه عقدا آخر مع منظمة اليونسكو ، يقرر الطريقة التى ستتسلم فيها التبرعات التى ستقدم الى المنظمة • وكانت هناك بعض النواقص فى الاموال التى مازالت مطلوبة لحملة بلاد النوبة ، ولكنها كانت تافهة ، وكان توقيع هذه الاتفاقات الذروة الناجحة لأطول حملة مالية واكثرها قسوة ، كما عنى ان كل جزء مهم من عمليات الانقاذ والتنقيب فى بلاد النوبة سيتم فى موعده المقرر • وعلق المسيو ميهيو على ذلك قائلا ••• « وهكذا حرك الايمان الجبال » •

ومثل هذا العمل أيضا نصرا آخر للرئيس عبد الناصر وحكومته ، وكانا يستحقانه تمام الاستحقاق • فقد ادركا منذ البداية ان دورهما فى الحملة النوبية سيكون معادلا فى حجمه وتكاليفه للحملة نفسها ،

وكانا يعرفان انهما سيكسبان من المشروع ولذا فقد دفعا الى الميدان باموال ورجال اكثر من اية جهة اخرى ·

وتميزت الحكومة البريطانية فى هذا الموقف بالشح المعيب ، ولم ينقذ الشرف البريطانى من العار الا العمل الرائع الذى قام به الاستاذ ايمرى ورجاله · ويعرف العالم كله ان بريطانيا وفرنسا قد انجزتا أكثر من غيرهما من البلاد فى مجالات العلم عن تاريخ نهر النيل ، بفضل ما حققه الكثيرون من علمائهما بالآثار المصرية ، ولكن عندما حلت لحظة التحدى العظيمة لتمثل ذروة ما تحقق فى الحقب الماضية · بدا وكان الحكومة البريطانية كانت على استعداد للسماح باغراق هذه الاثار العريقة ؛ ترى هل يرجع السبب فى ذلك ، كما قال فيليب كول فى عدد الثلاثين من يونيو من صحيفة الصنداى تايمز ، الى ان جراح السويس كانت لا تزال ملتهبة ومتقيحة ، والى أن الرأى العام المعادى لمصر فى بريطانيا قد شل ارادة حكومتها ؟ ولو صح هذا الاستنتاج ، لظلت بريطانيا متخلفة فى وجودها المادى والمعنوى عن فرنسا · التى كانت اوضاعها مع مصر اشد سوءا من اوضاع بريطانيا معها · ولكانت ، أى بريطانيا ، قد سمحت للاعتبارات المادية المؤقتة ، بان تؤثر على بعثتها فى بلاد النوبة ، وهى البعثة التى اغنت المعرفة البريطانية ، والتى كانت تتفوق فى معانيها على مصالح مصر · ويقول الاستاذ ايمرى فى هذا الصدد ···· « ليست القضية موضوع مساعدة مصر · فأبو سمبل جزء من تاريخ الانسان ، وهو تراث حضارى عالمى » (١) ولا شك فى ان بريطانيا اثبتت فى هذه القضية تخلفها الحضارى ·

وكان السير مورتيمر ويلر والاستاذ ايمرى ، والسير فرانك فرانسيز ، مدير المتحف البريطانى قد اجتمعوا باعضاء « جماعة الفنون ولطائف الحياة » المتفرعة من حزب العمال ، واقترحوا عليهم ان تتبرع

---

(١) اقتبس فيليب كول هذا القول فى مقاله المشار اليه . وليس ثمة من شك فى أنه كان هناك بعض الناس فى بريطانيا يعارضون فى تقديم أية معونة الى مصر · وكتب المستر دبليو الارد الذى عمل أكثر من سبعة عشر عاما على ضفاف النيل فى مستهل هذا القرن رسالة الى صحيفة التايمز فى السادس والعشرين من يونيو من عام ١٩٦١ ، جاء فيها ... «واذا كانت مصر تظن على أى حال أن من الضرورى اجتذاب السائحين عن طريق عرض روائع ابى سمبل عليهم ، وهى روائع لايحتاج اليها العلماء ولا الجماليون أكثر من حاجتهم الى مثيلاتها التى تفوقها فى سلامة وجودها فى أماكن أخرى ، فان على البلاد التى توجد فيها معابد ابى سمبل نفسها أن تتحمل وحدها تكاليف نقلها » ·

(المؤلف)

بريطانيا بمليوني جنيه (٥ر٥ مليون دولار) في مدة تسع سنوات لانفاقها على المعدات البريطانية اللازمة لرفع معابد أبي سمبل • وقرر اعضاء حزب العمال الضغط على حكومة المحافظين للتبرع بمثل هذا المبلغ، بعد ان اعتبروا ، مهما كانت حسنات المشروع ، ان مثل هذا التبرع سيكون بمثابة اعلان عن قدرات بريطانيا الهندسية ، ولا سيما اذا تمكنت من ابتكار المعدات اللازمة لرفع المعابد • ولكن الفريق لم يدافع عن فكرته بحرارة ، ولعل ذلك يعود الى اسباب لا تختلف كثيرا عن تلك التى قررت موقف الحكومة ، وان كان احد نواب العمال ، وهو الدكتور هوراس كينج قد حث الحكومة على ان تتبرع من الاموال العامة للدولة • وعندما رد السير ديفيد ايكليس ، وزير التعليم على اقتراح الدكتور كينج فى الجلسة التى عقدها مجلس العموم فى الثالث عشر من يوليو من عام ١٩٦٢ ، كانت عباراته تكرارا للحجج التى لجأ اليها خصوم المشروع فى مؤتمر اليونسكو • فلقد قال انه لا يفكر فى التبرع من أموال الدولة للحفاظ على معابد أبي سمبل ، اذ انه بالرغم من اقراره بأهمية هذه المخلفات الاثرية القديمة ، وقيمتها ، فان الحكومة ترى ان مساعدة أطفال افريقيا المحتاجين الى التعليم اجدى واكثر فائدة •

ولم يحل صيف عام ١٩٦٣ ، حتى كانت الولايات المتحدة تعد بدفع ثلث تكاليف المشروع الجديد لنقل المعابد ، وكانت بريطانيا هى الدولة الغربية الكبرى الوحيدة التى رفضت تقديم أى عون مالى • وكانت لجنة الخبراء الدوليين الاستشارية العاملة مع الجمهورية العربية المتحدة والتى يشترك الاستاذ ايمرى فى عضويتها ، قد أوصت من قبل ، بأن لاتمنح تراخيص الحفريات خارج المناطق المهددة بالغرق فى بلاد النوبة الا الى الدول التى تبرعت للحملة ، وعلى اساس نسب تبرعاتها • ولما كان مجموع ما قدمته بريطانيا حتى ذلك التاريخ لا يعدو ٢٨ الف جنيه خصصت لأعمال جمعية الآثار المصرية ، فقد بادر السير مورتيمر ويلر الى القول بان ليس فى وسع بريطانيا فى هذه الحالة ، ان تطلب اولوية فى الحصول على تراخيص للحفريات فى مصر ، وان الدراسات البريطانية للآثار المصرية ستعانى نتيجة ذلك • وكان فى امكان مصر أن تحرم الأستاذ ايمرى أعظم الخبراء العالميين الأحياء فى تاريخ الأسر الأولى فى سقارة من العودة الى العمل فى ترخيصه السابق ، ومن ثمار دراساته التى قضى حياته كلها فيها • ولكن مصر كانت اكرم من بريطانيا ، ولم يؤثر تبرع بريطانيا الشحيح للحملة على الموقف ، فقد سمحت له بالعودة الى سقارة ، ومنحته الترخيص اللازم احتراما منها لشخصه ، وتقديرا لما قام به هو وجمعية الآثار المصرية التى يشترك فى عضويتها من أعمال •

١٥ أبوسمبل

كان جيوفاني باتيستا بيلزوني يطوف في عام ١٨١٢ ، مسارح بريطانيا كهرقل الصغير • وكان يرتدى لباسا غريبا ، يحمل شيئا من طابع الشرق ، اذ وضع على رأسه « طاقية » ضخمة من الريش ، ويقوم بأعمال الحواة الغريبة التى تنطوى على ابراز القوة ، قبل أن يصل بتمثيله الى الذروة ، اذ يقطع رأس مساعده بالسيف ثم يعيده الى مكانه • وكان احد المكتشفين البارزين ، وهو جوهان لودفيج بركهاردت يهبط فى السنة نفسها مع نهر النيل قادما من السودان • ولعل أبعد شيء على التصديق ان يحصل التوافق بين حياتى هذين الرجلين •

وكان جيوفاني عملاقاً ، اذ بلغ طوله ستة اقدام وثماني بوصات ، وقد ولد عن اب كان يعمل حلاقاً فى بادوا ، ثم درس الهندسة المائية في مدينة رومة التى ولد فيها ابوه • وتبين فيما بعد ان المعلومات الهندسية البسيطة التى حصل عليها كانت جد مهمة له ، ولكنه لم يفد منها اثناء وجوده فى رومه ، الا فى تسلية الناس ببعض الالعاب التى تؤمن له حياة بائسة يعيش فيها على الكفاف ، مما دفعه فى النهاية الى دخول الدير • وفى وسعنا أن لاندهش فى ضوء حياته اللاحقة من رؤيتنا له يكره حياة الرهبنة ، اذ لم يكد الغزاة الفرنسيون يحولون فى عام ١٧٩٨ بعض الاديرة الايطالية التى احتلوها الى العلمانية ، حتى كان بيلزوني يتخلص بهدوء من مسوح الرهبان ، ويعود الى حياة العالم من جديد • وراح يطوف ارجاء ايطاليا وفرنسا كبائع جوال للآثار المقدسة والصور ، ولعله اثرها على آلات الهندسة المائية ، اذ انها كانت اسهل على الحمل ، ووصل اخيرا الى انجلترا فى عام ١٨٠٣ ، بعد ان فشل فى تأسيس عمل تجارى له مع اخيه فى هولندة •

وافتتح مسرح « سادلرويلز » فى ذلك العام ، موسمه بمسرحية « جاك القاتل العملاق » التى مثل فيها المهرج جريما لدى دور ترامبو ،

ومثل بليزونى فيها دور كورموران العملاق • وعاد الى الظهور فيما بعد على المسرح فى صورة شمشون باتا جويفا الذى يحمل فوق المسرح احد عشر رجلا على قضيب حديدى يضعه على كتفيه • وراح بعد ان قضى عدة اشهر فى هذا المسرح ، يطوف ارجاء بريطانيا وايرلنده ، مؤديا ادوارا عدة فى مسرحية « عواطف الروح » للى برون ، ودور الرجل القوى الذى يؤدى أدوارا شاذة فى الهندسة المائية ، فى مسرحية « الشلال العظيم » تطلبت ابتكارات رائعة وثقيلة فى اسقاط الماء على المسرح ، بالاضافة الى عزف بعض الالحان الموسيقية على الاقداح الزجاجية مما اعتبر أمرا فريدا فى عالم الموسيقى وفى التاريخ المسرحى • واختفى الرجل بعد ذلك ليعود الى الظهور فى اسبانيا ، حيث قيل انه قام بالتمثيل أمام جيش الدوق ويلنجتون ابان الحرب الاسبانية •

وقابل فى طريق عودته الى انجلترا اسماعيل جبل طارق ، احد وكلاء محمد على ، نائب السلطان العثمانى فى مصر وحاكمها ، وعندما سمع هذا ان بليزونى قد اخترع اداة لرفع المياه اقنعه بان يذهب الى القاهرة ليضع تصميمات بعض الآلات المائية لسيده محمد على • ووصل بيلزونى الى الاسكندرية فى التاسع عشر من يونيو من عام ١٨١٥ ، ترافقه زوجته الانجليزية سارة ، وخادمه الايرلندى الشاب الامين جيمس كيرته •وتمكن بعد تأجيلات عدة أوصلته الى حد الفاقة الشديدة ، من عرض آلة الرى التى ابتكرها والتى كانت ترفع من الماء اربعة اضعاف ماترفعه « الساقية » المستعملة فى تلك الايام ، ولكن روح العصابات التى كانت تسيطر على دوائر البلاط حالت دون قبول محمد على للاختراع •

وكان بيركهاردت الذى اشتهر أمره فى مصر وعرف باسم الشيخ ابراهيم بن عبد الله ، بعد ان اعتنق الاسلام وكان أول أوروبى يحج الى مكة ، قد حاول اكتشاف حوض النيل وصحارى السودان ، وقد التقى ببيلزونى فأحبه وصادقه • ولقد عثر عليه الآن وهو لا يملك شروى نقير فبادر الى مساعدته • وكانت هناك منافسة شديدة فى هذا الوقت بين هنرى سولت قنصل بريطانيا العام وبين دروفيتى القنصل الفرنسى الواسع النفوذ الذى ينتمى الى مقاطعة بيدمونت ، اذ كان كل منهما يتطلع الى جمع احسن النماذج من الآثار المصرية القديمة لمتحف بلاده الوطنى ، ولفائدة جيبه الخاص • وكان بيركهاردت وسولت يخططان لحمل رأس تمثال رمسيس الثانى الضخم من مدينة طيبة عن طريق نهر النيل ، اذ كان نصف دفين فى الرمال هناك ، واقترح بيركهاردت ان يقوم بيلزونى بهذه

المهمة • ولم يجد صعوبة فى اقناع بيلزونى ، اذ كانت رغبته فى المغامرة لاتقل عن لهفته الى جمع المال الذى هو فى أمس الحاجة اليه ، ولذا وافق على القيام بالحملة التى كانت تتطلب قوته ، وتثير قدرته على الابتكار وهى قدرة كان لابد له من ممارستها ممارسة كاملة قبل ان يتمكن من حمل الرأس الى الاسكندرية فى طريقه بحراً الى المتحف البريطانى • وهكذا اقتحم بيلزونى مجالا ، تعلق به أشد التعلق ، وبالرغم من غرابة الاساليب التى اتبعها ، فقد حقق نتائج بارزة فى عالم الآثار المصرية ، بلغت ذروتها فى اكتشاف مدخل هرم الجيزة الكبير •

وحقق بيلزونى أعظم أعماله بين نقل رأس رمسيس واكتشاف الهرم • ففى عام ١٨١٢ كان بير كهاردت يمخر عباب نهر النيل عندما توقف لدراسة معبد نفرتارى الصغير الذى كان يعرف بأنه موجود فى أبى سمبل • وكان لا بد له للوصول الى المعبد من هبوط بحر من الرمال يمتد حتى النهر ، وعندما كان يصعد المنحدر ثانية ، سقط كما روى فى يومياته ، ليرى أمامه رءوس أربعة تماثيل هائلة ضخمة قدت من الصخر على بعد مائتى ياردة من المعبد • وعاد البريطانيون بعد خمسة أعوام فأوفدوا بيلزونى على رأس فريق لدراسة الموقع ، وبدأ العمل فى أوضاع صيفية لا تطاق ، وقد تجاوزت درجة الحرارة ١١٢ درجة فهرنهايتية فى الظل • ولم يكن يبدو فى ذلك الوقت فوق الرمال ، الا طنف المعبد وأحد التماثيل النصفية ولكن بيلزونى أفلح فى شق منفذ يوصل الى كهف • وتمكن جيوفانى فيناتى ، وهو أصغر رجال الفريق حجما من دخول المنفذ • وكانت عيناه أول عيون بشرية تلقى بصرها منذ مئات السنين على معبد أبى سمبل الاسطورى • وتمكن أعضاء الفريق جميعا من دخول المعبد فى اليوم الأول من أغسطس ، ورأوا أن داخله الذى ظلت الرمال تغلقه مدة طويلة ، حار كالفرن • واتلف هنرى ويليام بيشى الذى عهد اليه برسم داخل المعبد ، دفتر ملاحظاته ، بالعرق الذى كان يتصبب منه • وعاد بيلزونى الى القاهرة ، ليقدم تقريره عن العمل العظيم الذى حققه فى موضوع رمسيس الثانى ، اذ كان هذا التمثال من أروع المخلوقات الفنية فى العالم وأجملها ، ولكن لحظة النصر العظيمة ما لبثت أن تبددت عندما نقلت اليه الانباء أن صديقه بيركهاردت قد مات قبل أن يعرف بدخولهم الى معبد أبى سمبل •

وظل أبو سمبل يمثل الاعجوبة المختفية طيلة المدة المتبقية من القرن ، اذ كان من خصائص الموقع أن الرمال كانت تندفع دائما لتغطى

وجه المعبد . وبذل بيلزوني جهودا كبيرة لازاحة هذه الرمال ، ولكن من المحتمل ألا يكون أى انسان قد رأى المعبد ثانيـــة قبل عـام ١٨٤٤ ، عندما قام ليبسيوس عالم الآثار المصرية المعروف باعادة تطهـــيره من الرمال . وفتح ما ريبب مدير الآثار فى مصر المعبد ثانية فى عام ١٨٦٩، لتراه الامبراطورة اوجينى . وازيحت الرمال عنه من جـديد بعد ثلاثة وعشرين عاما كما رممت واجهة المعبد ، وقام المهندس البريطانى الكبتن جو نستون ببناء جدران فوق الهضبة لحماية المعبد من هبوب الرمال . وعاد اليساندرو بارسانتي ، ببعض التنظيفات فى عام ١٩٠٩ ، واكتشف أثناء العملية الواقعة باحة صغيرة الى الشمال من شرفة المعبد ، كمـا أعاد بنـاء الجدران الواقعة على الهضبة وحسن أوضاعها . وظل معبدا أبى سمبل منذ عام ١٨٩٢ وبصورة خاصة بعد عهد بعثة بارسانتى مفتوحين أمام أولئك الناس الذين كانوا يغامرون بالرحلة النيلية للوصول الى بلاد النوبة .

***

ويقع المعبـدان الى الجنوب من مدار السرطان وعلى مقربة من حدود السودان ، وكانا بعيدين الى الحد الذى جعل قلة من السائحين أو المسافرين تراهما ، قبـل أن تنتشر الانبـاء بأنهما قد يضيعان الى الابد ، مما حفز الكثيرين على المضى اليهمـا لزيارتهما . وعنـدما يدور المركب المتجه الى الجنوب ، نصف دورة فى نهر النيـل ، يبدأ المعبدان فى الظهـور ، وقد تميزا بالغموض فى عزلتهما أكثر من تميزهما بحجمهما الضخم ، ولكن هذا الحجم يبدأ فى التضـخم عندما يقترب الركب منهما الى أن يظهـرا أخيرا ، واضحين ، منعزلين ، وهائلين ، بحيث لا ينساهما من يراهما ، وقد قام نهر من الرمال بينهما وبين طرف النهر . ويؤلف المعبدان مع موقعهما شيئا واحدا لا انفصام فيه . ويبدو وكان رمسيس الذى واجه التحدى ، لمس بيده الالهية الخلاقة ، هذه التماثيل التى صفت له ، لتسهر على الحدود الجنوبية لعالميه .

ولقد تميز رمسيس الذى حكم ستا وستين سنة أى بين عامى ١٢٩٨ و ١٢٣٢ قبل الميلاد ، بشغف بالغ وجنونى ، فى الحفاظ على سجل اسمه وأعمـاله . واستخدم خيرة فنييـه فى اقامة معبـدى ابى سمبل اللذين يعتبران أعظم ماخلقه من آثار فنية ويبلغ عرض واجهة المعبد العظيم ١١٩ قدما ، وارتفاعهـا أكثر من مائة قدم ، وهى أشـبه ما تكون بالرواق الفرعونى . ويبلغ عمق المعبد أكثر من مائتى قدم . ويبلغ ارتفاع تماثيل رمسيس الاربعة ، وهى منحوتة من الصخر الذى يؤلف مؤخرتها نحوا من خمسـة وستين قدما . أما معبـد نفرتارى فيبلغ تسعمائة قدم فى

طوله وأربعين قدما في ارتفاعه ، كما ترتفع تماثيله الستة ثلاثة وثلاثين قدما • وقد لا تبدو هذه الابعاد ضخمة الآن في عالم انف الابنية العالية كناطحات السحاب في نيويورك ، التي تبدو وكأنها لم تعد جزءا من الارض • ولكن تماثيل ابى سمبل كبيرة للغاية ، اذا عرفنا انها اقيمت قبل ثلاثه الاف عام ، ولم تستخدم في اقامتها الا عضلات الانسان ، وأدواته البسيطه •وهي تقف في مكانها الصحيح ولا شك في أنها تثير ذهول الانسان بروعتها عندما يواجهها • وتتميز هذه التماثيل بظاهرة خاصة تتخطى كل الابعاد ، وهي انها مقدودة من الصخر الحى ، داخل الهضبة الصخرية بمنتهى الدقة والرقه • ولقد قطع رأس أحد التماثيل، وسقط الى جانب قدميه ، بينما تقف التماثيل الثلاثة الباقية متشابهه في شكلها وفي رقه تعابيرها ، ولكل منها نفس الابتسامة التي تبدو آثارها على الشفتين •

أما بالنسبة الى المعبد الاصغر فتقف ثلاثة تماثيل لرمسيس وملكته نفرتارى على كل جانب من مدخله وهي رائعة أيضا في اتقانها ودقتها • وقد نحتت التماثيل داخل الهضبة الصخرية التي كانت تنحدر الى النهر، بحيث تحتم قطع الصخر عند القاعدة في مساحة تسعين قدما مربعا ، وحفره الى ذلك المستوى لتأمين منطقة تتسع لواجهة المعبد العظيم • ويتميز الصخر بلونه الاصفر الشاحب وبنعومة تركيبه الا في الجهات التي تبرز فيها الطبقة الحمراء الصلبة •

وكرس المعبد الأصغر القريب من حافة الماء للآلهة « حتحور » وقد بني لتخليد ذكرى ملكة رمسيس • أما المعبد الاكبر فقد كرس لآمون اله طيبة ولآلهات مصر في عهد الأسرة التاسعة عشرة • ومع ذلك فقد كان رمسيس نفسه و « بتاح » اله ممفيس يعبدان في المعبد أيضا • وتمر الطريق الى المعبد بشرفة مزدانة بصفوف من صور الاسرى وبدرابزين • وهناك فوق الواجهة الضخمة رصيف يحمل صورا منحوتة في الصخر للقرود • وتظهر التماثيل الفرعون وهو جالس على عرشه وقد وضع على رأسه تاج مصر المزدوج ، والى جانبه صور صغيرة لاشخاص يمثلون أفراد أسرته يقفون عند قدميه • ويستند سقف المعبد الى ثمانية أعمدة مربعة ، وقد وقفت الى جانب كل منهما صورة للملك وهو متنكر في زى حوريس • وتتحقق العظمة لهذه القاعة ذات العمد والمحفورة داخل الصخر الصلد ، عن طريق ابعادها الممتازة ، كما يخفي ما فيها من وقار بما فيها من زخارف ورسوم ، تعرض الكثير من الرقة وسرعة الحركة التي لا يستطيع الانسان أن يتوقعها من مثل هذه المادة القاسية • وتغطى الجدران بصور متحركة للاحداث التي وقعت في عهد رمسيس ، والتي

تعتبر ابرزها صورة رمسيس وهو مشتبك فى الحملة السورية ضد الحيثيين ، اذ تبدو فيها حريه الحركة ونشاطها ، مما يشير الى ما فيها من عظمه الفن وجلاله كما نبدو فيها التفاصيل الدقيقه كصورة سائق العربة وقد ربط عنان الجواد حول صدره ليحرر يديه لينتضى قوسه . وهناك صورة أخرى لنفس الحمله على جدار آخر، تظهر كل ما فى المعسكر من ضجيج واثارة . وهناك مئات النقوش والكتابات على الجدران ، وهى ذات قيمة عظيمة للمؤرخ . ومعظم هذه الكتابات مخطوطة بأيدى الجنود المرتزقة الذين عملوا فى جيوش مصر ، وحاربوا فى بلاد النوبة عبر القرون الطويلة ، وسجلوا قصص التاريخ عبر الاجيال المتلاحقة حتى عهود الاغريق والرومان . وهناك فجوة كبيرة فى السجلات عندما غطت الرمال المعبدين ، الى أن نصل الى قبر الرائد تيدزويل الذى مات فى عام ١٨٨٤ ابان حملة بريطانية على ضفاف النيل، ودفن عند الطرف الجنوبى للواجهة على مقربة من التمثال الاخير .

ويضفى اتجاه المعبد الكبير عليه ظاهرة خاصة . فالمحور الطويل لداخل المعبد يتجه من الشرق الى الغرب ، بحيث تنفذ اشعة الشمس الاولى عند الشروق عبر القاعة لتضىء المذبح بصورة تبعث الاجلال والتقديس . وكتب السير مورتيمر ويلر يقول .. « ينطوى التقدير ولا شك على عنصر ذاتى ولا ريب فى أن كل انسان ذا احساس ، راى هذه التماثيل الهائلة للفرعون الجالس ، تخرج بصورة متدرجة من الظلام ، عندما تصيبها اشعة الشمس الاولى ، عبر الدهليز الضخم المحفور داخل الصخر ، ويرى الضوء لفترة خاطفة وقد سطع على أسارير اله الموت ، لا بد وأن يرى وجه مصر ، بشكل جديد ينطوى على التفهم . وليس ثمة فى تاريخ مصر الحضارى لاكثر من ثلاثة آلاف عام، مايضاهى هذا المنظر . فهو ايغال صادق فى العالم السفلى الذى أولته مصر الفرعونية الكثير من تفكيرها . ولسنا فى حاجة اذا أردنا أن نعجب بأبى سمبل الى الاعجاب بما أوحى بالمعبد من خوف وفلسفة . فالمعبد يعبر قبل كل شىء عن أعظم روائع الفن والهندسة المعمارية ، وعن صورة التاريخ . ولا شك فى أن خسارة هذا المعبد تعتبر خسارة لا تعوض » (١) .

***

ذكر المدير العام لمنظمة اليونسكو فى شهر مايو من عام ١٩٦٠ أن الخبراء الدوليين الذين تستعين الجمهورية العربية المتحدة بمشورتهم

---

(١) عدد صحيفة التايمز فى السابع من يوليو من عام ١٩٦٢ .

يرون ان الحفاظ على معابد ابى سمبل وجزيرة الفيلة هو أهم ما يجب على لجنتهم أن تدرسه • ولا شك فى أن هذا الرأى كان صحيحا ، اذ ثبت فيما بعد أن فى الامكان تحقيق كل شىء آخر فى بلاد النوبة بدرجة كبيرة من اليقين• وعقدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، ومنظمة اليونسكو تبعا لذلك عقدا مع « مكتب دراسات اندريه كوين وجان بيليبيه » لاجراء دراسة أولية واعداد تقديرات تفصيلية عن بناء سد ترابى وجدران صخرية لحماية معبدى أبى سمبل اذا تقرر ابقاؤها فى مكانهما •

وكان الدكتور بيير جازولا قد أعد المخططات والنماذج عن طريقة رفع المعبدين الى مستوى أعلى لا تصل اليه مياه السد العالى ، ولكن جوا من الخيال أحاط بدراساته منذ بدايتها ، مما دفع الخبراء الى القول ، بأن مشروع جازولا لا يدرس الا فى حالة تقرير كوين وبيليبيه استحالة تنفيذ بناء السد الواقى • وبالرغم من أن هذا المكتب قدم فى النهاية خطة قابلة للتحقيق الا أن تكاليف بناء السد الواقى من التراب والصخور، بحيث يكون من الارتفاع الى الحد الذى يوقف مياه الخزان عن اغراق المعبدين حتى عندما تصل الى ذروتها ، والذى يترك فسحة كبيرة أمام المعبدين تمكن السائحين من رؤيتهما من البحيرة ، قدرت باثنين وثمانين مليونا من الدولارات • وكانت « مسامية » الصخور الرملية فى المنطقة هى السبب فى ارتفاع التكاليف ، اذ تحتم على المهندسين الفرنسيين بالاضافة الى تصميم سد يكبح جماح الماء ان يؤمنا نظاما كاملا لتثبيت السد بالاسمنت وانشاء خندق لتقليل الرشح عبر الصخور • ونص المشروع بالاضافة الى ذلك على اقامة نظام للضخ مع معداته ، اذ كان فى وسع أصغر كمية فى الماء أن تلحق أكبر الضرر ، وقدرت تكاليف صيانة المضخات بنحو من (٣٧٠) ألف دولار فى العام •

وكانت هناك بالاضافة الى فداحة التكاليف ، ووفرة المخاطر ، معارضة جمالية متزايدة للمشروع ، اذ تبين الناس أن « حبس المعابد » فى منطقة مقضى عليها بالاغراق ، سيضيع منهما روحهما وجمالهما • فالمعبدان منحوتان فى الصخر ، وهما يؤلفان جزءا من منظر لا مثيل له فى اتساع فراغه ، على أهبة دائما لاستقبال فجر كل يوم ، وكان من المعقول أن يتساءل الناس عما اذا لم يكن توثيق المعبدين وتسجيلهما بكاملهما كافيا فى هذه الحالة ، دون الحاجة الى انفاق مبالغ طائلة على مجرد الحفاظ عليهما وحدهما دون المنظر الذى يحيط بهما • واقترح جازولا انقاذ المعبدين برفع الكتلتين الصخريتين اللتين تضمان المعبدين ، واعادة بناء المنظر المرتفع المحيط بهما لينسجم مع منظر جانب النهر

الجديد، بحيث يكون وضع المعبدين، بالنسبة الى مستوى البحيرة الجديدة مشابها لوضعهما بالنسبة الى مجرى النيل العادى • وكان مشروعه يفضى بأن يتمكن زائرهما من الابحار الى الشاطىء ، ليرتقى بقدميه الرصيف ، ويصل الى المعبدين العريقين •

وقدم مدير منظمة اليونسكو العام المشروعين الى المؤتمر العام للمنظمة عندما انعقد في شهرى نوفمبر وديسمبر، وبعد أن تبنت الحكومة الايطالية مشروع جازولا ، وعهدت الى مؤسسة « ايتالكونسالت » باعداد مخططاته التفصيلية • وقدرت تكاليف المشروع الايطالى آنذاك بستين مليون دولار أى اقل من التكاليف المقدرة للمشروع الفرنسى • وطلب المؤتمر من المدير العام ومن حكومة الجمهورية العربية المتحدة استشارة الخبراء الدوليين الذين اجتمع خمسة منهم في القاهرة واوصوا بقبول الاقتراح الايطالى • ولكن لجنة خبراء الجمهورية العربية المتحدة لم تكن بعد واثقة من امكان رفع ثلاثمائة ألف طن من الصخر الهش تؤلف المعبد الكبير ،واقترحت على الحكومة أن تقوم المؤسسة الايطالية باعادة درس بعض المصاعب الكامنة فى المشروع • وكان من رأى علماء الآثار أن الصخور ستنهار عندما ترفع من مكانها ، وان فشل عملية الرفع سيؤدى الى ضياع ابى سمبل• وكان مما يثير قلقهم أن الخبراء لم يكونوا قد رفعوا من قبل بهذا الأسلوب أى شىء يزن أكثر من عشر وزن المعبد الكبير ، ولم يسبق لهم قط أن رفعوا معبدا نحت من الصخر الرملى• ولكن أعضاء اللجنة اقتنعوا فى النهاية بامكان تحقيق المشروع ، ووافقوا فى شهر يناير على وجوب رفع التماثيل والآثار •

وكان مشروع جازولا ينص على رفع كل معبد عن طريق (٢٥٠) رافعة كهربية ـ مائية ، بمعدل ميليمتر واحد فى كل رفعة ولمسافة ٢١٠ أقدام الى قمة التل الواقع خلف المعبدين ، وكانت الصعوبة الاولى التى سيواجهها المشروع ، فصل الكتلة الصخرية التى تضم كل معبد من المعبدين عن الصخور الصلبة والمتعددة الاشكال التى تحيط بها دون تحطيم تلك الكتلة • واقترحت المؤسسة الايطالية ازاحة الصخور فوق المعبد بحرص وعناية ، ودون أى تفجير ، ثم شق اخاديد أفقية وعمودية على الجانبين وتحت المعبد ، ودعمه بعد ذلك ببنايات من الاسمنت المسلح• وكان لا بد من اقامة جدار امامى لحماية الواجهة أثناء عملية الرفع ، ووضع سقف لربط الجدران الجانبية من الاسمنت المسلح وشدها الى بعضها • وكانت النتيجة تهدف الى خلق صندوق قوى يضم الكتلة الصخرية التى يؤلف المعبد جزءا منها •

وتعقدت مشكلة الرفع من جراء الحقيقة الواقعة ، وهى استحالة معرفة توزيع الثقل على منصة الرفع ، نتيجة اختلاف طبيعة الصخر ، والغضون فيه، ووجود التجويف الذى يؤلف داخل المعبد • ولذا كان لابد من تثبيت الحمل على الرافعات لا على المنصة، واقترحت المؤسسة الايطالية السيطرة على جميع الرافعات وهى ترتقى فى حركات محددة لا تتجاوز المليمتر الواحد ، مع التثبت من كل حركة اليكترونية بحيث توقف العملية كلها ، عند وقوع أى خلل فى أية رافعة • ويقاس مستوى كل رفعة فى الوقت نفسه عن طريق سلسلة متصلة من الأحواض الملأى بالزئبق والتى تؤلف مستوى ضخما واحدا • وكان لا بد من ايقاف عملية الرفع بعد كل ثلاثين سنتيمترا ، بعوارض صناعية توضع كدعائم فى أماكن ، حتى اذا ماانتهت العملية كلها ، الفت هذه العوارض أساسا كافيا ، يمكن المسئولين من سحب الجدران الواقية • وسيكون فى الامكان بعد ذلك اعادة بناء المنظر المحيط بالمعبد • وأرادت المؤسسة الايطالية أن يشرع فى العمل فى معبد نفرتارى فى صيف عام ١٩٦٣ ، وأن يبدأ العمل فى المعبد الكبير بعد بضعة أشهر (١) •

• وكان لا بد قبل الوصول الى هذه المرحلة على أى حال من استكمال الكثير من الاعمال التمهيدية • وذكرت لجنة خبراء الجمهورية العربية المتحدة فى شهر يناير من عام ١٩٦١ ، أن الخطوة الاولى والملحة التى لابد من القيام بها ، تثبيت واجهات المعبدين ، وبينما كانت اليونسكو تناضل لجمع الاموال اللازمة شرعت الجمهورية العربية المتحدة فى دفع المقاولين الى العمل فى هذا التثبيت وكأن المشروع أصبح فى حيز التحقيق • وبدأت دائرة الآثار بازاحة الرمال من بين المعبدين، وتولت عدة مؤسسات أجنبية عمليات مسح المنطقة تمهيدا لاجراء الحفريات ، كما راحت تعير تأثير الضغ والتثبيت على الصخور الرملية ، وتختبر الصخور فى المختبرات لتعيير مساميتها ، وقدرتها على الرشح • ونشرت الصحف البريطانية فى الرابع من فبراير من عام ١٩٦٢ ، العطاء الذى عرضته الجمهورية العربية لرفع المعبدين • ونص العطاء على أن يتم الحفر دون تفجيرات ، وأن يشمل ٣٥٠ ألف متر مكعب من الصخر، وتقديم روافع كهربية مائية ذات طاقة على رفع ٤٥٠ ألف طن ، وتغليف المعبدين فى خمسين ألف متر

---

(١) شرح الاستاذ جوستافوكولونينى ، الرئيس الفخرى لمجلس البحوث القومى فى ايطاليا فى عدد السابع والعشرين من ابريل من عام ١٩٦١ من مجلة «نيو سيانتيست» هذا المخطط بشكل رائع ، بدا فيه وكأنه يستحق كل ماسينفق من مال على تنفيذه .

مكعب من الاسمنت المسلح ، وبنـاء تل صـناعي • وكان الموعد المحـدد لتوقيع العقود في شهر يناير ، ولكنه ما لبث أن أجل الى شهر نوفمبر • وكان كل تأجيل الآن يعني زيادة في التكاليف ، اذ كلمـا تأخر موعـد اسـتكمال العمل زادت الضرورة لرفـع السـد المؤقت الذى يتـولى حماية العمل فى المعبدين • وعندما حل شهر نوفمبر، ولم تكن قد ظهرت أية بادرة تشير الى احتمال تقديم أية عقود ، أعلن رسميا ، أن الارتفاع المقرر للسد ، سيزداد بنسبة اثني عشر قدما •

ولكن المشروع الايطالى مات فى هـذه المرحلة الميتة الطبيعية التى يواجهها كل مشروع ضخم لا تتوافر الأموال الكافية لتنفيـذه • وكان الكثيرون من الذين فكروا بمشروعات خاصة لانقاذ ابى سمبل ، قد توقعوا لهذا المشروع الاختفاء والفشـل • وكان بين هذه المشروعات المبتكرة مشروع تقدم به ويليام ماكويتى ، أحد منتجى الافلام فى مدينة بلفاست، اذ قام برحلة نيليـة فى عام ١٩٦٢ ، وكان تفـكيره متركزا على جزيرة «الاطلانتيد» الاسطورية التى غرقت فى المحيط ، ولذا فقد تولدت لديه الفكرة بأن الطريقة المثلى للحفاظ على المعبـدين تكمن فى الاحتفاظ بهما تحت الماء • ولم يبق الرجل على مشروعه فى حيز الخيال • فعندما عاد الى بريطانيـا ، ضمن تعـاون مؤسسة « اوف ارٌوب وشركاه » التى اعدت بالاشتراك مع مؤسسة «فراى ، درو وشركاهما»، مشروعا قدمه ماكويتى الى حكومة الجمهورية العربية المتحدة وقام ايدموند هابولد بشرحه فى عدد العشرين من مارس فى عام ١٩٦٣ من مجـلة « المعمارى » البريطانية • ولو كانت التكلفة هى مصدر القلق الوحيد ، لكان من المحتم قبول مشروع ماكويتى على الفور ، اذ أنه قدر تكاليف المشروع كله ، بما فيه بناء المطاعم فى المعبدين تحت المـاء ، وانشاء المصاعد ، وأجهزة التهوية ، بنحو من مليونين وثلاثمائة الف جنيه ، كما قدر تكاليف الصيانة السـنوية وفقا لما نشرته صحيفة التايمز اللندنية فى عددها الصادر فى السادس عشر من يوليو من عام ١٩٦٣ بنحو من خمسين ألف دولار •

وكتب ايدموند هابولد يصف المشروع قائلا ••

« سيبنى غشاء رقيق حول كل من المعبـدين ، يضم الماء النقى على جوانب المعبد ، ويجعله دائما فى نفس مستوى النيل فى الخارج • ويجعل هذا ضغط الماء على جانبي الغشـاء متوازنا دائما ، بحيث يكون الغشـاء بنيانا خفيفا وقليل التكلفة • وسيكون هذا الغشاء من الاسمنت المسلح،

وقد غلف لضمان الثبات والاستقرار ضد التباينات المفاجئة فى مستوى الماء وقوة الرياح ، وضد أى صدمة قد تصيبه من المراكب النهرية ٠ ٠

٠٠ وسيكون هناك ممر فى السطح يوصل الى مصاعد تهبط الى شرفات مشيدة داخل الغشاء المغلف ، يمكن للزائر أن يرى منها وعبر نوافذ فى الجوانب المعبدين ٠ وسيكون هناك نفق من الشرفات الى أرض المعبد ، يستطيع النظارة السير فيه الى غرف للمراقبة داخل القاعات الداخلية ٠ وستكون ثمة ضرورة للاضاءة بالطبع ، كما لا بد من تهوية الشرفات والنفق ، ولكن ما فى المشروع من جاذبية سيستهوى السائحين من جميع أنحاء العالم ٠ « وستتم تنقية الماء داخل الغلاف عن طريق الترشيح ، كما ستتم معالجة أى اختلال فى التوازن عن طريق اضافة الحامض أو القلوى ٠ وستستخدم المواد الكيماوية فى قتل أية جراثيم كما ستقوم آلات الترشيح بنزعها من الماء ٠ وترى شركة كاندى للترشيح انه لن تكون هناك أية مشكلة رئيسية » ٠

وروى مراسل صحيفة « التايمز » اللندنية فى باريس فى الواحد والعشرين من مارس أن المشروع لم يثر كبير اهتمام ، لما يقضى به من اغراق المعبدين فى ماء نقى مطهر ٠ واثارت فكرة الاستعاضة عن رحلة جدية لمشاهدة الآثار بشىء يشبه «السيرك» للمتفرجين ، تقزز الكثيرين٠ ولكن ماكويتى لم يكف عن فكرته القائمة على تصور جزيرة «الاطلانتيد» الاسطورية ، وراح يشكو من رسالة بعث بها الى صحيفة التايمز فى شهر يوليو ، من أن مشروعه لم يدرس ٠

وكان هناك مشروع آخر درس ، وهو لا يقل فى أهميته ، وان قل فى اتجاهه السينمائى عن مشروع ماكويتى الذى يجعل المعابد أشبه بأحواض السمك الملون التى يتطلع اليها الناس من الخارج ٠ ويبدو وكأن نفس طابع ابى سمبل الذى دفع رمسيس الثانى الى ابتكار اعجوبته المعمارية كان لا يزال يواصل سحره عند جميع الذين عملوا على انقاذه٠ وكان المسيو البرت جاكو ، عضو الاكاديمية الفرنسية، للعلوم ، ورئيس اللجنة الفرنسية لبحوث التربة ، والخبير المشهور الذى نفذ عمليات ضخمة فى رفع المياه فى أحواض سان نازير وحوض نهر رانس ، هو الذى أعد هذا المشروع الجديد الذى قامت اللجنة القومية الفرنسية بتقديمه الى منظمة اليونسكو ٠ ويتلخص هذا المشروع فى تعويم المعبدين ليصلا الى قمة التل ٠

فلقد اقترح المسيو جاكو فصل المعبدين عن الصخور واقامة منشئات

للتعويم تحتها • وقال انهما سيرتفعان نحوا من ٢٠٦ أقدام بعد امتلاء خزان السد العالى بالماء ، ثم يتم بعد ذلك نقله بصورة افقية مسافة ٣٩٣ قدما ، الى مواقع أعدت مسبقا على ضفة البحيرة ، حيث يعاد بناء المنظر السابق حولهما • وقدرت تكاليف هذا المشروع بخمسة وثلاثين مليون دولار ، ولكنه رفض لأن كثيرين من الخبراء اعتقدوا أن التكاليف الفعلية ستتعدى هذه التقديرات الى حد كبير •

وكان المشروع الاخير الذى قدم بعد مشروع جازولا ، ومشروع ماكويتى ، ومشروع جاكو ، هو ذاك الذى قدمته حكومة الجمهورية العربية المتحدة بالاشتراك مع مؤسسة « فى • بى • بى » السويدية ، والذى نص على تجزئة المعبدين ، ونقلهما الى مستوى أعلى من أى منسوب للمياه فى بحيرة السد ، واعادة تركيبهما هناك ، ثم اعداد المنظر على النحو الذى كان فيه فى الماضى ولكن هذا المشروع كان من ناحية تنفيذه ، مماثلا للمشروعات الأخرى فى بروزه وأهميته ، اذ عنى نحت ثلاثمائة ألف طن من الصخر الواهى ، واعادة تجميعها بدقة الصائغ الذى يعمل فى ذهبه ، بحيث يكون أى ضرر قد يلحق بأوجه الصخر تافها ولاأهمية له • وستكون المناشير التى تستخدم فى قطع الصخور ، كالسكاكين التى تقطع الجبن ، أى من الاسلاك الرقيقة المدببة المصنوعة من المعدن الصلب ، والمتصلة بآلات تتولى تحريكها باستمرار (١) وسيقوم المهندسون بقطع الصخور الى مسافة تبعد ثلاثة أقدام وراء السقف الطبيعى ، كما يمضون فى قطعهم مسافات وراء الجدران • وسيجرى بعد ذلك تقطيع المعبدين الى أوصال ، يقرر حجم وصورة كل منها ، ما فى الصخور من تجاويف طبيعية ، وما يبرز فى هذه الصخور من ضعف طبيعى • وسيتم ترقيم كل قطعة ، ثم تؤمن وقايتها من الماء ، لمنع أى تغيير فى ألوانها عند تسليحها بالاسمنت ، وترفع بعد ذلك عن طريق رافعات تحمل ثلاثين طنا ، ويعاد تجميعها ، والصاق الأجزاء القصيرة بالأسمنت المسلح الذى يشبه تماما لون الصخر • وسيكون جزء من العمل الذى سيتم اصطناعيا ليس الا ، اذ ستكون أرضية المعبدين جديدة ، وان كانت صورة صادقة عن الارضية الاصلية ، وذكر الأستاذ ايمرى ممثل بريطانيا فى لجنة النوبة التى الفتها منظمة اليونسكو وعضو لجنتى الخبراء فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ، فى تقرير نشره فى صحيفة « الصنداى تايمز » اللندنية فى عددها

(١) اعلن رسميا فى الثانى عشر من سبتمبر من عام ١٩٦٧ أن عملية نقل المعبدين قد تمت ، وأنه بات فى وسع السائحين أن يروا المعبدين فى مكانهما الجديد .

(المعرب)

الصادر فى الثلاثين من يونيو من عام ١٩٦٣ ، انه سيكون من العسير عند اتمام عملية النقل ايجاد أى فرق بين الصــــورة الجديدة والصورة القديمة للمعبدين ٠

وكان هذا هو المشروع الذى اقر نهائيا ، والذى شرع فى تنفيذه ٠

وكان أول عمل تم انشاؤه ، بناء سد مؤقت حول المعبدين ، واقامة « صقالات » من الصلب ، مغطاة «بالفلين»، ومضغوطة لمنع أية اهتزازات، داخل المعبدين ، لتحمــل ثقل الاعمال الخارجيــة ٠ وبدأت عمليــة قطع الصخور فى شهر مايو من عام ١٩٦٤٠ وسيتم بناء المعبدين فى موقعيهما الجديدين على المستوى المرتفع فى عام ١٩٦٩ (١) ٠

(١) تم هذا قبل الموعد المقرر بنحو من عامين ٠

« المعرب »

١٦ اللؤلؤة والجواهر الأخرى

يتحدث « المراكبيون » الشيوخ فى اسوان وهم يقودون مراكبهم عن قصة انس الوجود حاجب الملم الذى أحب زهر الورد ابنة الوزير الجميلة • ورفض الوزير زواج الحاجب من ابنته ، فبعث بها الى جزيرة محصنة ، عزلت فيها عن العالم كله وراح انس الوجود يطوف الدنيا طولا وعرضا ، بحثا عن حبيبته ، الى أن ارشده ناسك يعيش فى الصحراء الى الجزيرة التى توجد فيها ، فانتقل اليها على ظهر تمساح اليف ، وانقذها من محبسها ، ثم تزوجها ، ليعيشا فى رغد وسعادة بعد ذلك • وتؤلف هذه القصة احدى قصص « ألف ليلة وليلة » ، ويطلق المراكبى على الجزيرة اسم «جزيرة الحصن» أو «جزيرة انس الوجود» لكن معظم الناس يعرفونها باسم « جزيرة الفيلة » ، وهو التعبير الاغريقى لتسمية مصرية قديمة • ويذكر الدليل الذى يقود السائحين الى معبد الجزيرة ، بعد أن يغامروا باحتمال حرارة الصيف الشديدة لزيارة المعبد أثناء هبوط منسوب النيل وراء سد أسوان ، ان غرفة اوزيريس » فى المعبد ، هى التى شهدت زواج انس الوجود ، وزهر الورد •

وجزيرة الفيلة هى آخر جزيرة فى النيل عند اسوان من ناحية الشرق ، وهى حطام رفوف صخرية تمثل بداية الشلال الاول • والجزيرة صغيرة وقريبة من ضفة النهر ، وتفصلها قناة ضيقة من الناحية الغربية عن جزيرة بيجة التى تفوقها اثنى عشر ضعفا فى المساحة ، وعن جزيرة الحسة ، وهى ثلاثة أضعاف بيجة فى مساحتها وتقع على مقربة من الضفة الغربية للنهر •

وكانت بيجة نفسها مقبرة النيل نفسه • فهناك زاوية فى معبد الفيلة يظهر اله النيل وهو قابع فى كهف وسط صخور بيجة ، يبعث بمياه الخصب الى النهر • كتجسيد للعقيدة المصرية القديمة القائلة بأن فيضان النيل السنوى عطية من الاله المختفى تحت أرضية النهر • ويبدو ان الجزيرتين كانتا تضمان معابد منذ اقدم ايام الفراعنة ، ولكن

لم يبق من هذه المعابد أية آثار ، ويرجع أول ذكر لجزيرة الفيلة الى عام ٣٥٠ قبل الميلاد تقريبا ، وهى الفترة التى تمت اليها اقدم الأجزاء فى معابد جزيرة الفيلة • وكان فيلادلفوس هو الذى شرع فى اقامة التماثيل التى تزين الآن الجزيرة ، ثم استمر ذلك فى عهد البطالسة ، واباطرة الرومان من أمثال أغسطس وكلوديوس وهادريان وديوقلتيان • وراح النصارى فيما بعد يبنون بعض الكنائس أو يحولون المعابد القديمة لعبادتهم •

ولم يتحول سكان جزيرة الفيلة الى النصرانية الا فى نحو عام ٥٥٠ ميلادية ، اذ كانت عبادة ايزيس من القوة فى عقول الاغريق والرومان والشعوب الأخرى المقيمة هناك ، بحيث لم يكن من السهل التخلى عنها • وأصبحت جزيرة الفيلة المكان الذى يحج اليه عبدة الالهة ايزيس من الاغريق والرومان ، اذ كانت اهميتهـــا فى تلك الآونة قد فاقت اهميـــة الاله اوزيريس الفرعونى الذى توضح اسطورته جميع المصائب وتوحى بجميع الآمال • وكان يقال ان جثمان اوزيريس مدفون فى بيجة ، التى كانت تضم ضريحه ، وقد لف الجثمان فى صمت دائم فى الغـــابة المقدسة • وكانت ايزيس وهى اخت الاله اوزيريس وزوجته فى وقت واحد ، تمت الى الالهة الاحياء ، وكان تمثالها ينقل فى بعض المناسبات فى المركب من جزيرة الفيلة الى بيجة ، لترأس حفلات سكب الخمر المقدسة على ضريح اوزيريس • وكان هناك قرافة فى جزيرة الحسه ، حيث يدفن المؤمنون على مقربة من الضريح المقدس •

وكانت الفيلة كجزيرة مكرسة للالهة تعتبر « لؤلؤة مصر » ، وذلك قبل ان تشوه مياه خزان اسوان القديم ، منظرها • ويعتبر معبدا ايزيس وحتحور من الهياكل المقدسة التى تضم أروقة فرعية نبيلة ، وتتمتـــع قاعتها الرفيعة الطراز بثمانية اعمدة تجمع بين الجمال والفخامة • وهجر الاغريق طريقة الفراعنة الطبيعية فى استخدام الالوان ، ولـكن ما تبقى من ألوانهم لا يكفى لاظهار الابداع فى استخدام الألوان • وهنـــاك آثار كثيرة فى الجزيرة ، وبينها بوابة هادريان ، وصيوان نيكتانابوس الانيق وبقايا معبد اغسطس •

ولم يكن فى وسع السائح القادم من صحراء اسوان الصخرية قبل بناء السد القديم الا ان يحس بما فى مرأى جزيرة ايزيس من ســـحر وروعة ، بكل مافيها من معابد تحيط بها اشجار النخيل والسنط التى تنعكس ظلالهـــا على مياه النيـــل • وقد عنى بناء خزان اسوان القديم ان يختفى جزء من الابنية وجميع الجزيرة عن النظر بين ديسمبر وأواســـط

الصيف ، وكانت كل تعلية للسد ، تعني مزيدا من الاغراق حتى اصبح رصيف سطح الاروقة هو المكان الوحيد الذى يظل ظاهرا فوق الماء تسعة اشهر من السنة وماتت اشجار النخيل والسنط ، واصبح الطين يغطى جدران الآثار • وهذا كل ما تبقى الآن من الجزيرة ، صورة مشوهة لجمال عريق لا يظهر الا لاكثر السائحين احتمالا وصبرا على قيظ الصيف الحارق •

وكان من المحتمل ألا يبقى ما بقى من الجزيرة للعالم ، لولا ان جاستون ماسبيرو ، مدير الآثار في ذلك العهد ، راح يفرز أسس الآثار بعد ان أخذ نسخا من جميع الاثار والنقوش ، لانقاذ ما يمكن انقاذه منها ، عندما تقررت استحالة نقل المعابد • وكان هناك فى ذلك الحين سخط شديد على البريطانيين لتضحيتهم بجمال جزيرة الفيلة من اجل متطلبات السد القديم ، ولكن المخططين اللذين وضعا لانقاذ الاثار ــ اعتبرا لا عمليين وكان المخطط الأول يقضى ببناء جدار عال وقوى حول محيط الجزيرة ، بحيث تصبح المعابد داخله ، وكأنها اسيرة سجن مرتفع الاسوار ، أما الثانى فكان يقضى بفك الآثار واعادة تركيبها فى مكان آخر ، وهى عملية بدت شديدة الخطورة فى ذلك الحين •

ولعل من حسن الحظ ان المخطط الثانى لم ينفذ فى ذلك الوقت اذ ان بناء السد العالى ، قد جعل فى الامكان اعادة الكثير من الجمال لجزيرة الفيلة بعد ان فقدته منذ مستهل القرن الحالى • وعندما يتم السد الجديد ستجد الجزيرة نفسها فى الحوض القائم بين السدين لا فى الخزان وسيهبط منسوب المياه فى هذا الحوض طيلة ايام السنة ، ويصبح أكثر من نصف المعابد مكشوفا للنظر فى هذه المدة كلها • وسيصبح فى الامكان حجز الماء عن المعابد عند هذا المستوى الرفيع عن طريق السدود الصغيرة ، وضخ الماء من البحيرة بحيث تعود الجزيرة الى الظهور كاملة فوق مستوى الماء •

وكان من الواضح ان لا بد من عمل شيء على أى حال بالنسبة الى جزيرة الفيلة ، اذ انها كانت اكثر تعرضا لخطر الدمار من أى وقت مضى • فهى لا تغرق الآن فى الماء الا مرة فى السنة عندما يرتفع منسوب المياه فى الخزان ، ولذا فلا يصيبها ارتفاع منسوب المياه وانخفاضه فى النهر بأى اذى ، ولكن ستكون هناك وفقا للنظام الذى سيخلقه السد العالى حركة يومية مستمرة للماء بين السدين ، اثناء انطلاقه من السد العالى الى فتحات السد القديم • ولا شك فى ان هذه العملية المستمرة من غسل المعابد قادرة على احداث تآكل سريع فى هذه المعابد وتدميرها •

وكان المصريون قد وجدوا الحل لهذه المشكلة بأنفسهم منذ عام ١٩٥٥ • فقد اقترح الدكتور عثمان رستم بناء قناطر تصل جزيرة بيجة بجزيرة صغيرة اخرى تقع الى الشمال الغربي من الفيلة ، وتصل بين الجزيرتين وبين ضفتى النهر ، بحيث تصبح الفيلة محصورة بأمان فى بركتها الخاصة بها ، وفى نجوة بين بيجة وبين التلال الصخرية الواقعة الى الجنوب من الشلال • ولم يكن فى وسع احد ان يحدث أى تحسن فى هذا النظام ، فقد عنى ان تبرز جزيرة الفيلة كلها من النهر ، وان يتم تنظيف جدرانها ، وأن تعود أشجار النخيل والسنط الى الازدهار ثانية• وستعود لؤلؤة مصر الى لألائها مرة ثانية •

وتعهدت الحكومة الهولندية بأن تقوم بدراسة الخطة المعروضة للتنفيذ على حسابها عن طريق مكتب نيديكو للدراسات فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٠ ، وتلقى المؤتمر العام لليونسكو تقريرا يقول بأن مؤسسة نيديكو ترى ان مشروع رستم قابل للتحقيق ، وانهـا اعدت عددا من المخططات الدولية • وعادت لجنة خبراء الجمهورية العربية المتحدة فاعلنت سلامة المشروع فى شهر يناير ، كان تعليقها الوحيد انها تؤثر الضخ الكهربى للماء من بحيرة الفيلة • وعرض الرئيس الامريكى كنيدى فى رسالة الى الكونجرس فى شهر ابريل تمويل المشروع بستة ملايين دولار ، وكانت التقديرات لتكاليفه آنذاك خمسة ملايين ونصف المليون من الدولارات •

وهكذا أصبحت جزيرة الفيلة أولى الآثار العظيمة التى تأكد انقاذها وان كان العمل لن يبدأ فيها قبل عام ١٩٦٨ ، أى عندما يتم بناء السد العالى ، وتهبط المياه بينه وبين قناطر السد القديم • وهكذا ستستيقظ جزيرة الفيلة الجميلة النائمة على قبلة ستة ملايين دولار ، وستعود الشمس فتبعث الدفء فى جسدها الحى وتعيد لون الحياة الى وجنتيها الشاحبتين •

* * *

ولما كانت آثار أبى سمبل والفيلة هى أعظم الآثار الخالدة فى بلاد النوبة ، فان من الطبيعى أن يؤدى النجاح فى انقاذها الى عقد أكاليل النصر والغار على الحملة كلها ، ولكن ستشير الحسابات الاخيرة الى أن انقاذها لم يتحقق الا بانفاق مبالغ كبيرة من المال على العبقريات الهندسية ولقد لعب عالم الاثار والمهندس المعمارى دورهما فى التخطيط ، ولكن لو لم تكن هناك آلات العصر الحديثة ، والعبقرية الصناعية ، فان انقاذ أبى سمبل ما كان ليتم فى موعده على الاطلاق • ولا شك فى أن مما

يسعد العلماء ان يجدوا في العلوم الهندسيه حليفا لهم ، وكانوا على استعداد دائما وبسرعه لتطبيق اساليب التقنية الحديثة والمعرفه العلمية على مشاكل الحفر وتحليل النتائج وهل كان فى وسع عالم ما قبل التاريخ أن يفعل شيئا الآن لو لم تتوافر لديه المختبرات لقراءة عمر «عظمة» او حجر بألوف السنين ؟ ومع ذلك فقد يكون مما يغتفر ان نرسم فى حملة النوبه خطا فاصلا بين ابى سمبل والفيلة ، وبين اعادة تركيب الآثار الاخرى ، كآثار معبد كلابشه والبحوث التى لا تزال تجرى فى بلاد النوبة فوق منسوب المياه الذى يرتفع ببطء واستمرار • ولقد قامت ادارة الآثار المصريه بمعظم العمل فى فك المعابد • وغيرها من الآثار الموجودة فى منطقتها ، وها هو رفع جميع الاثار التى سيكون فى الامكان انقاذها وبينها آثار السودان حيث تعمل البعثات الهولندية والبلجيكية فى فك معابد سمنة وكومة الحجرية يكاد يتم فى وقت قريب • ولكن أعمال المسح والحفر والتوثيق والتسجيل لن تتم من الناحية الاخرى الا فى اللحظة الاخيرة ، عندما يضع الخزان وهو يبلغ قصارى حدوده ، نهاية الزامية له : وستكون هناك حتى فى تلك اللحظة اعمال كثيرة فى حاجة الى الاكمال ، اذ ليس فى وسع احد ان يعرف ما اذا لم تكن هناك طبقات تاريخية قد اغفلتها عين الباحث ، ولا ان يحدد المختبرات ومراكز البحث فى طول العالم وعرضه التى سيجرى فيها تحميض تلك الكميات الهائلة من الآثار والسجلات بعناية دقيقة طيلة السنوات القادمة •

وستنقضى سنوات طويلة قبل أن تعرف القصة الكاملة للاكتشافات التى تحققت أثناء الحملة ، وذلك لأن العلماء أنفسهم لم يقوموا بعد بتحليلها أو بالبحث فيها بصورة كاملة • ورأت حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى نهاية عام ١٩٦٣ أن الواجب يقضى عليها بتذكير البعثات بأن عليها أن تسمح لمركز التسجيل والتوثيق فى القاهرة بأن يحصل على الأقل على سجلات فوتوغرافية لما عثرت عليه ، وعلى مدونات عن الأماكن التى وجدت فيها • ولكن بعثات كثيرة كانت تعتبر أن مكتشفاتها يجب أن تظل سرا الى أن تضع تقاريرها النهائية وتعدها للنشر ولتسليمها الى ادارة الآثار اما فى الجمهورية العربية المتحدة أو فى السودان • وقد لا يكون لهذه المكتشفات فى بعض الحالات ولا سيما فى ميدان ما قبل التاريخ أى وجود مادى ملموس ، اذ كثيرا ما تتألف من تفسيرات العلماء وتقاريرهم عن مجموعات من الاشياء الدقيقة وعن التربة التى عثر عليها فيها ، ولكنها قد تكون فى المدى البعيد أكثر أهمية فى مجال قراءة التاريخ فى كثير من المكتشفات الكبيرة •

ولقد أصبحت بعض هذه المكتشفات معروفة · فلقد ذكر بينها اسم قلعة بوهين ومدينتها ، حيث تولت جمعية الآثار المصرية عمليات الحفر حتى آثار الاسرة الثانية عشرة ، وكان في وسعها أن تثبت على الورق صور الحصون التي شيدت في عهدي الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة · ومكنت هذه الحفريات الاستاذ ايمرى من تصور عدد كبير من صور الحياة الفرعونية ، وأن يخمن عن طريق طبقات الرسوم على أعمدة القصر الذى حسرت عنه الانقاض طبائع الكثيرات من زوجات الحكام ، كما أدى اكتشاف الهيكل العظمى لجواد في المستويات السفلى من الموقع ، الى ظهور الحقيقة التى لم يكن يصدقها الكثيرون وهي أن مصر عرفت منذ أقدم القرون الخيل فى بلادها · وكان فى امكان البعثة أن تستنتج المكان الذى اخترق الكوشيون منه الاسوار ، والطريقة التى سقط فيها قصر الحاكم ، عندما تم اقتحامه من الناحية الشرقية · ولا شك فى أن هذه القصص والصور تؤلف جزءا من فسيفساء التاريخ التى يعاد تركيبها من الانقاض والآثار ، ولكن الصورة العامة لهذه الاكتشافات أن الفن العسكرى فى مصر الفرعونية وحصونها كان أكثر تقدما منه فى أوروبة القرون الوسطى، كتأمين مجال أفقى وآخر عمودى للنيران من الكوات التى يرابط فيها رماة السهام · وكانت القلعة حصنا منيعا درست وسائله الدفاعية بعناية ، وكان على المهاجمين أن يجتازوا الخنادق العميقة الجافة على مرمى من حملة السهام ، وكانوا اذا ما أفلحوا فى ذلك ، ونجحوا فى ارتقاء الاسوار العالية وجدوا أنفسهم فى طريق ضيقة محاطة بالاسوار تدور حول محيط القلعة وليس لها الا منفذ واحد ، ويكونون فى الوقت نفسه تحت رحمة الرماة · ويستنتج من هذا أن الكوشيين الذين استطاعوا اختراق مثل هذه الخطوط الدفاعية لم يكونوا من الجنود البدائيين وانما كانوا يؤلفون قوة عسكرية منظمة · ولعل أهم الاكتشافات على أى حال أن احتلال الفراعنة لكوش لم يقع للمرة الاولى فى عهد المملكة الوسطى ، وانما قبل ذلك بستمائة عام أى فى عصر الاهرام ، اذ عثر فى بوهين على أختام تحمل أسماء الملوك ، وعلى بعض الاوانى الخزفية النموذجية التى تعود الى ذلك العهد ·

وقام الاستاذ بلوملى والدكتور دبليو · اش · سى · فريند من أعضاء جمعية الآثار المصرية بالحفر فى قلعة قصر ابريم الصخرية التى ترتفع مائتى قدم فوق مستوى النيل ، وتبعد ستين ميلا الى الشمال من حدود السودان · وتمكنا من العثور على كنيسة قديمة الى أن وصلا الى أرضها ، واثبتا فى عملهما هذا الحقيقة الواقعة وهى أن هذا الموقع كان

مركزا مهما من مراكز النصرانية فى النوبة ، وان الزخارف التى يحملها أحد الاعمدة الصخرية الذى كان لا يزال فى موقعه ، لم يظهر مثيل لهـا فى أوربا الا بعد نحو من ستة قرون .

وكتب الدكتور فرنيد فى شتاء عام١٩٦٤ فى مجلة «العالم العربى» التى تصدرها جمعية الصداقة العربية الانجليزية أن العمال عثروا وسط الحطام الذى نقلته الرياح وعلى بعـد قدمين من أسفل القوس القائم عند مدخل القبو ، على بقايا جثة مطران نوبى . وكان ينام فى وضع منحن ، وقد غطيت حلته الخارجية البنيـة اللون بكفن . وكان هنـاك وشاح من الكتان حول رقبة المطران ، وقد تدلى من صدره صليب معلق بينما غطى كتفاه برداء من الصوف الرائع الحياكة . وعثر الاستاذ بلوملى بين ملابسه على لفافتين من الورق ، وقد لفتـا لفـا متقنا . وكتب بلوملى يقول .. « وقام الخبراء فى متحف القاهرة بفتح هاتين اللفافتين ، فتبين منهما ان هذا المطران كان يدعى تيموثيوس ، وانهما تمثلان براءة تعيينه مطرانا لبحر فارس وابريم فى عام ١٣٧٢ . ولا شك فى أنهما تعتبران من أهم الوثائق فى جميع المعايير، ويبلغ طول كل منهما أكثر من ستة عشر قدما، وان أولاهما باللغة الامهرية والثانية باللغة العربية ، وانهمـا تمتازان بخطهمـا الرائع . وكانت المعلومات التى تضمنتها اللفافتان فى منتهى الاهمية ، فقد أظهرت أن شمس الدولة ، شقيق صلاح الدين لم يقض على النصرانية هناك كمـا كان يقال ، بل عمرت مدة قرنين آخرين على الاقل فى المنطقة . وهكذا أضيفت صفحة جديدة الى التاريخ الدينى فى وادى النيل » .

وكانت هناك اكتشافات أخرى فى قصر بريم ، وكان بينهـا باحة مرصوفة لمعبد واسع يشبه ذاك الموجود فى كلابشة . وعثرت البعثة أيضا على بقـايا بيت يعود الى مجموعة « س » التى لا يزال الغموض يلفها ، وهو البيت الوحيد الذى اكتشف حتى الآن لهذه المجموعة .

ولا شك فى أن تاريخ المسيحية فى بلاد النوبة سيثرى بالمعلومات التى تحققت وستتحقق أثنـاء الحملة ، ولـكن لا ينتظر أن يكتشف شىء جديد يبلغ فى اثارته قاعة فاراس الغربية على حدود النوبة السودانية ، والتى اكتشفتها بعثة الاكاديمية البولندية للعلوم بقيادة الاستاذ كازيميرس ميخالوفسكى . وكانت احدى قلاع الدراويش ويطلق عليها اسم الحصن ، تشرف على الموقع الذى عرف منـذ أكثر من قرن ، وجرت فيـه بعض الحفريات ، وقد وقفت هذه القلعة على رأس تل . وكانت البعثـة التى

قامت بالحفريات الأولى قد شكت فى أن هذا التل ليس بالتل الطبيعى ، وتعززت هـذه الشكوك بالبحوث التى اجراها الدكتور ادامز والسـيد كروان فى عام ١٩٦٠ • وقام الاسـتاذ ميخالوفسكى فى السنة التالية بازاحة القلعة ، ثم حفر خندقا فى التل تماما كما يشـطر قرصـا من الجبن • وسرعان ما وجد نفسه فى قاعة مشيدة من الآجر الاحمر ، تقف فوق الصخر الرملى ، وقد ازدانت جدرانها بالرسوم ذات الالوان الزاهية والكتابات باللغتين اليونانية والقبطية • ومثلت الصورة التى ظهرت على الجدار الأخير للمعبد رسما رائعا للعذراء مع السيد المسيح الطفل •

وتم الكشف عن أكثر من مائتى صـورة يعود معظمهـا الى القرنين العاشر والحـادى عشر ، وهى تظهر أن مدرسـة زاهرة من الرسم النوبى الريفى ، قد كيفت لتسد المتطلبات الروحية للمجتمعات المسيحية الأولى، وانها وصلت ذروتهـا فى فاراس فى تلك الايام • وتمثل بعض الصـور نفس المناظر المسيحية التقليدية كولادة السيد المسيح والعشاء الربانى الاخير ، وقد حملت كلها الخصائص النوبية ، اذ ظهر فيها الرجال السود البشرة ، والجواميس النوبية فى الاسطبل المقدس • وهناك صورة رائعة أخرى تظهر النوبيين وهم يهبطون الى الجحيم تمـاما كالخنازير • وهناك صورة علمانية أخرى لنبلاء المنطقة ، ولا شـك فى أن تميزهم مع تميز الشخصيات الدينية ، وتبين الصور الواضحة لعادات العهد وملابسه ، يضفى الكثير على المعلومات القليلة عن الشعوب النصرانية الأولى• وعندما قامت البعثة برفع الفسيفساء بمنتهى الدقة والحرص من الجدران للحفاظ عليها فى متحفى وارشو والخرطوم ، اكتشفت تحتها بعض الرسوم الاقدم عهدا ، والتى تعود الى القرنين الثـامن والتاسع • وبالرغم من استحالة الحفاظ على الكثير منها الا أنه تم انقاذ سجلاتها وصورها • وحملت بعض الحجارة المستخدمة فى البناء ، كتابات فرعونية واغريقية أيضا ، ممايوحى بأن معبدا سبق النصرانية كان يقوم فى هذا الموقع •

وتعدد احدى الكتابات اسماء مطارنة النوبة • ويبدو أن القـائمة غير كاملة ، اذ تعذرت قراءة أسماء المطارنة الأربعة الأول الذين كانوا على الغالب أول من تبوأ كرسى الابرشية بعد تحول المنطقة الى المسيحية على أيدى البعثات التبشيرية من القسطنطينية فى القرن السادس • وتصل القائمة الى عام ١١٦٩ ، وهو العام الذى سيطر فيه شـمس الدولة على الغالب على المنطقة فاجتـاح منطقة قصر ابريم فى منطقة النوبة المصرية وسبى أهلها • وهناك بعض الكتابات باللغـة النوبيـة القديمة ، التى

انبثقت منها لغات اهل النوبة غير المكتوبة في هذه الايام ٠٠ واستعانت البعثة البولندية في نسخ هذا العدد الضخم من الاصول وحل رموزها بالمستر اى ٠اف٠ شور ، من رجال المتحف البريطاني ٠

ولا شك في ان اكتشاف كنيسة قبطية قريبة بنيت في عام ٩٤٠ وقبور عدد من المطارنة الذى تبوءوا كرسى الابرشية ، يجعل من فاراس مركزا لاهم ما تحقق من اكتشافات لافي الحملة وحدها ، بل وفي العصور الحديثة أيضا ٠ وتمكنت بعثة هولندية يقودها الدكتور كلاسين من رجال متحف ليدن من اكتشاف آثار أخرى في منتهى الاهمية للعهود المسيحية ، على ضفتي النيل عند ابى سمبل وتنطوى هذه الاثار على كنيسة تعود الى القرن السابع ، وكانت، كما يقول الدكتور كلاسين ، لا تزال قيد الاستعمال عندما طمرتها رمال الصحراء ٠ وعثرت البعثة الهولندية في هذه الكنيسة على عدد من الصور الجميلة التى تمكن الخبراء المصريون والهولنديون من استخلاصها وحملها على قماش تبلغ مساحته ثلاثمائة قدم ٠ واكتشفت البعثة الهولندية ايضا قرية نوبية تعود الى القرن الثانى ، وكانت الرمال التى غطتها قد حفظتها سليمة لم تمس ٠

واكتشف الدكتور ادامز في جزيرة مينارتى في السودان ، بقايا مجتمع مسيحى ضخم تقوم فيه احدى عشرة طبقة من الناس المتتابعين ٠ وظهرت عند الطبقة الخامسة احدى عجائب التاريخ التى لن تحل قط ٠ اذ تبين ان جميع سكان القرية كانوا قد غادروا بيوتهم ، مخلفين جميع أمتعتهم وراءهم ٠ ولم يعد هؤلاء قط الى ديارهم ، ولكن جاء الوافدون الجدد ، بعد ان كانت الرمال قد غطت هذه المساكن تماما ، وراحوا يبنون بيوتهم الجديدة فوقها ٠ وتمكن الدكتور ادامز نتيجة ذلك من العثور على حشد ضخم وغنى من الادوات البيتية المسيحية الاولى ، وكانت في وضع ممتاز ٠

وقامت البعثة الاسكندينافية المشتركة بتحديد عدد من المواقع، التى اكتشفت فيها الكثير من الكنائس والوف القبور في السودان ، وهى تلقى اضواء جديدة على تاريخ الانسان الاول في بلاد النوبة بعد تمحيص ما تبقى منها ودراسته ولعل من ابرز هذه الاكتشافات عددا من التماثيل من الصلصال اللامحروق ، وهى تظهر امرأة ناضجة وفتاة صغيرة في قبر تلك المرأة ٠ وتعود هذه التماثيل الى نحو من خمسة آلاف سنة ، والى عهد مجموعة «أ» البشرية ٠

واكتشف عمال دار الآثار المصرية عندما كانوا يفكون طريق أبى

الهول في دكة في عام ١٩٦٣ ، معبدا كاملا ، وقد ظهرت الصور جديدة على جدرانه • وقد حلوا باكتشافهم هذا مشكلة طالما ارقت علماء الاثار المصرية • حقبا طويلة ، اذ كانوا قد اكتشفوا اشارات الى أحد معابد مصر المهمة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ولم يعثروا على أى اثر لهذا المعبد ، فى المكان الذى كانت الاشارات ترمز اليه • وكان هذا المعبد مكرسا للاله « حورس » وقد بناه الفرعون العظيم تحتمس الثالث •• ولكن كل ماعثر عليه العلماء من قبل فى منطقة دكة معبد آخر بناه الرهبان النوبيون فى أواخر عهد البطالسة • وهكذا عثر علماء الاثار المصريون أخيرا على معبد حورس الضائع ، والذى ظل مختفيا تحت حجارة دكة أكثر من الفى عام • وتم العثور أيضا على معبد كبير آخر ابان الحفريات التى جرت فى كنيسة منحوتة من الصخر الى الجنوب من وادى السبوع •

وكانت هناك اكتشافات كثيرة أخرى ، اقل أهمية من هذه كمقبرة المملكة الجديدة المعاصرة على الغالب لتوت عنخ أمون ، والتى اكتشفتها بعثة جامعة شيكاجو بقيادة الاستاذ كيث سيلى • ولا شك فى ان هذه الاكتشافات ستحتل مكانها فى سجلات الحملة العظيمة التى قام بها العلماء فى بلاد النوبة ويكفى ان نقول الآن انه عندما بدأ موسم الحفريات فى عام ١٩٦٥ ، لم يكن هناك الا نحو من ثلاثين ميلا ليس الا من بلاد النوبة فى مصر ، كانت لا تزال فى حاجة الى التنقيب عن الأثار فيها ، وان كانت البعثات لا تزال ماضية فى أعمالها فى أماكن أخرى فى المنطقة أما فى السودان ، فهناك نحو من ١٢٠ ميلا على ضفتى النهر تمتد الى الجنوب من « جمايمى » وحتى شلال دال ، كانت لا تزال فى حاجة الى التنقيب عن الآثار فيها ، اذ لم تقم فيها اية حفريات ، باستثناء تلك التى قامت بها جامعة كاليفورنيا • وما زالت هذه البقعة هى المجهولة من أرض النوبة كلها ، على حد تعبير الدكتور ثابت • كما لم يفهم علماء الآثار بعض المشاكل الأثرية ، التى يعنيها التنقيب فيها • ولا شك فى ان هذه المنطقة هى اكثر المناطق صعوبة ووعورة على التنقيب ، وذلك بسبب ندرة المواصلات ، وصعوبة تموين أى فريق عامل فى الميدان ، والافتقار الى العمال اليدويين فيها • وقد تعقدت المشكلة نتيجة اغراق وادى حلفا ، اذ لم تعد هناك قاعدة فى بلاد النوبة تصلح للبعثات للاعتماد عليها ، وبات لزاما عليها ان تجعل من الخرطوم النائية قاعدتها • وستكون هذه المنطقة آخر ما ستغرقه البحيرة ، اذ انها تقع فى أقصى الجنوب ، ويمكن مواصلة العمل فى بعض اجزائها حتى عام ١٩٧٠ وليس

ثمة مايبرر مع وجود هذه الفسحة الطويلة من الوقت ان لا يكمل العمل في القسم السوداني من بلاد النوبة • ولا شك في أن السيدة ديسوروشي ـ نوبلكورت كانت صادقة عندما كتبت في مجلة اليونسكو في عددهـا الصادر في ديسمبر من عام ١٩٦٤ • انه بات في الامكان أخيرا كتابة تاريخ النوبة •

وكثيرا ما تؤدى المشروعات العظيمة الى نتـائج غير متوقعة • فلا شك في أن السد العملاق الذى يجرى بناؤه الآن في أسوان عمل خلاق في حد ذاته ، اذ أن منافعه ، ستتصل مع الوقت الى أكثر المصريين فقرا • ولقد كان من المؤسف حقا بالرغم مما سيحققه السد من فوائد انسـانية عظمى • أن يؤدى الى ضياع الكثير من مواد التـاريخ القديم ، والى بقاء عالم المعرفة والدراسات التاريخية مفتقرا الى الكثير • ولكن قيام السد ، حفز في الواقع على بعث المطامح العلمية في العالم ، وأدى الى شن حملة ، ستعتبر من أعاجيب العصر الحديث ، وستملأ قصتها مئـات المجلدات ، قبل أن يكتمل سردها • ولكنها النتيجة التى كان لا بد من وقوعهـا • فطواف الانسان بالمستقبل ، بل وفى اجواء الفضاء ، والعوالم الأخرى ، لا بد وان يجد ضوءه فى معرفة آثار الماضى •

القسم الرابع

بداية النهاية

١٧ الفيضان الأخير

انفرجت أسارير أسوان في أجواء مايو من عام ١٩٦٤ ، عن ابتسامة جادة عريضة • وكانت هذه الاجواء حارة ولكنها لم تكن مثيرة للعذاب • ولعل ذلك احتراما منهـا لشعيرات خروشوف البيضاء الذى جاء محتملا اياها ليشترك في الاحتفال بتحويل مجرى النيـل الذى اسهمت بلاده الكثير في تحقيقه • ولقد وصل خروشوف الى الاسكندرية بطريق البحر، فانطلقت ابتساماته لتحيي الشعب المتحمس ، الذى اكتظت به الشوارع لتحية الضيف • وعندما وصل الى القاهرة • كان احساسه الضخـم بالمنجزات العصرية العظيمة سواء فى بناء السد العالى أو فى اطلاق الاقمار الصناعية قد دفعه الى اهمال أهرام الجيزة العظيمة(١) •

وكانت الطائرات فى النهار ، والقطارات المنطلقة من القـاهرة فى الليل ، تغص فى هذه الايام ، بالناس والصحفيين ، المندفعين الى أسوان للاشتراك فى الاحتفالات • وكانت اللمسات الاخيرة تتم الآن فى الفندق الجديد الذى بني خصيصا لهذه المناسبة ، وليحل فيه كبار الضيوف ، بالاضافة الى البـاخرتين النيليتين اللتين اخليتا من السائحين لاستقبال الزائرين • وكان السائحون قد وجهوا لتجاوز أسوان بمنتهى الكياسة والادب ، اذ لم تكن هنـاك أماكن لايوائهم فى هذه الفترة ، اذ خصص فندقا كاتاراكت القـديم والجـديد للرئيس عبد النـاصر وخروشوف والضيوف الكثيرين المرافقين لهما •

وكان منظر الموقع الآن قد اكتمل ، وأصبح مفهوما لكل من يراه •

---

(١) ليس صحيحا مايقوله المؤلف هنا عن اهمال خروشوف لاهرام الجيزة وغيرها من آثار مصر الرائعة ، فقد مضى الى زيارتها ، وأبدى دهشته واعجابه بها . ولعل قصته مع الرجل الذى صعد الهرم الكبير فى دقائق ، والتى نشرتها الصحف فى حينه ، مع صورته معه ، خير دليل على مانقول •

(المعرب)

وكانت حفنات من العمال ، تعمل هنا أو هناك فى قناة التحويل ، ولكن أعمالهم القليلة لم تكن لتوقع الاضطراب فى الهدوء الكامل الذى لف الموقع • وبالرغم من خشونة المنظر ، الا انه كان نظيفا كل النظافة • فلقد هوت الجلاميد الصخرية الى الارض • وكانت الفوهات الاسطوانية للانفاق تواجه الناحية الامامية باتجاه خوركوندى ، وكانت أماكن ايواء محطة التوليد الكهربية قد اكتملت ووقفت شامخة وواضحة وثابتة عند مخارج الانفاق الخلفية • وكان فى وسع المرء اذا ما وقف على السقف الصخرى للانفاق أن يرى الهوة المقوسة وقد اكتملت بين الكتل الرملية التى ستعمل والى فترة قصيرة أخرى على كبح جماح النيل •

وكان الضجيج لا يزال يعلو عند النهر ، صادرا عن أصوات الشاحنات وهى تخزن الصخور عند الضفة أو تلقى بها فى الماء • وكان السد المؤقت الامامى ، وقد بنى فى وقت واحد من الضفتين الشرقية والغربية يبدو كذراعين يحاولان الاشتباك ولكنهما لا يستطيعانه بعد • وفوق كل من الذراعين يبدو خط طويل من الشاحنات الهادرة آلاتها ، وهى تتحرك باستمرار لتصب محمولها من الصخور فى النهر • ولم يكن قد بقى على استكمال المرحلة الإولى من بناء السد العالى الا اغلاق تلك الفجوة بين ذراعى السد المؤقت ، وتفجير الكتل الصخرية والرملية ، القائمة فى مدخل قناة التحويل •

وتم اعداد المسرح فى الثالث عشر من مايو • فلقد تم اعداد مائتى ألف ياردة مكعبة من الصخر وتكويمها على ضفتى النهر عند السد المؤقت، وكانت الشاحنات المحملة ، تسير متتابعة باتجاه الطرف الذى لم يكتمل بعد ، حيث تقف ست شاحنات • وهى ملأى ، وعلى استعداد لالقاء محمولها فى النهر • وكان عشرات من الصحفيين والمصورين العاديين والتليفزيونيين قد هرعوا من جميع أرجاء العالم ، ووقفوا على جانبى السد، يطلون على الفجوة المفتوحة ، بينما كان ألوف العمال يقفون على ضفتى النهر ، ينشدون لعبد الناصر وللسد العالى ، وهم فى انتظار وصول الموكب • واخترقت الجماهير الحاشدة والتى نفد صبرها النطاق الذى فرضته الشرطة ، واقتربت من السد ، لتقف فى حشود ضخمة ، تهتف وتنشد وترقص • ورأيت رجلا يجلس على كتفى زميل له ، يهتف بأعلى صوته ، والجماهير تردد هتافه ، وهكذا تتابعت الحلقات ، وانقضت الساعات الاولى من النهار ، بينما أخذت شمس أسوان ترتفع فى كبد

السـماء ، وتلفح بأشعتها المحرقة رجال الصحافة ، والجماهير المهللة الراقصة .

وكان الرئيس عبد النـاصر ، وخروشـوف ومعهما السلال رئيس اليمن ، يمخرون فى هذه الآونة على ظهر اليخت «رمسيس» عباب النيل باتجاه السد المؤقت . وكانوا قد جاءوا بالطائرة من القاهرة ، واستراحوا قليلا فى فندق كاتاراكت ، ثم استقلوا اليخت ، لحضور الاحتفال الاول الذى تمثل فى القاء بعض القطع من الصخور ، وقد نقشت عليها بعض العبارات ، فى النهر عند الفجوة المفتوحة فى السد المؤقت عند مرورهم بها ، ليرمز ذلك الى اغلاق الفجوة . ولم يكن عبد النـاصر وخروشوف الوحيدين اللذين القيا هذه القطع فى الفجوة ، بل اشـترك معهما فى ذلك ، ولسبب لم يفهمه خروشوف ، الرئيس السلال أيضا .

وعندما اطلت «رمسيس» ، انفجرت الهتافات من الجماهير الغفيرة على الضفتين ، واختلطت معها صافرات المراكب الصغيرة التى احتشدت فى المنطقة للاشتراك فى الاحتفال . وظل الضجيج يرتفع ، الى أن توقف لحظة قصيرة ، خيم الصمت فيها ، عندما قذف الكبار الثلاثة بالصخور الثلاث فى النهر ، وعادت الهتافات بعد ذلك تنطلق بشكل جنونى .

وانطلقت السهام النارية . ترسم فى السماء صورتى عبد الناصر وخروشوف ، وعاد هدير الجماهير يدوى من جديد ، وسرعان ماعاد هدير الشاحنات الرافعات ذات حمولة الخمسة والعشرين طنا على كل صوت ، اذ تفجرت الحياة فى محركاتها ، وراحت «أبواقها» تصرخ محذرة الناس من انها شرعت فى الحركة . ولم تنتظر طويلا بعد هذا الانذار ، اذ وقفت ست منها ، عند طرف السد مسندة ظهرها الى النهر ، ثم رفعت ظهورها الضخمة لتلقى بما عليها فى النهر دون توقف . وتفرقت الجماهير فى جميع الاتجاهات فى الفسحة الضيقة المحدودة ، وهى تقفز للنجاة بأرواحها من العجلات الهائلة التى تتحرك بلا توقف فى اتجاهها . وأصبحت النجاة من السد عملية جد خطرة ، اذ انضم الى تيار الشاحنات المحملة والمتقدمة من الجانب الشرقى صف طويل من شاحنات فارغة أكثر سرعة ، تتسابق مسرعة على الجـانب الايمن . وكان الناس يتواثبون ويقفزون وكأنهم يرقصون ، منطلقين أمامها لينجوا بأرواحهم . ومع ذلك لم يصب أحد بأذى ، ولم يصب أى من مصـورى التليفزيون الذين يحمـلون آلات تصويرهم الضخمة وأفلامهم ، ومسجلاتهم الصوتية .

وكان اليخت « رمسيس » قد مخر فى غضون ذلك بهدوء متجها الى الجنوب ، نحو خوركوندى . وسرعان ما لحق رجال الصحافة الذين سارعوا الى الانتقال من السد بالسيارة ، بالكبار الثلاثة وهم فى قناة التحويل . وقاد الرئيس عبد الناصر الطريق عبر أحد الانفاق ، وعندما خرج الثلاثة من الجانب الثانى عند مكان محطة التوليد الكهربية، استقلوا سيارة مروا بها عبر الجماهير الهاتفة الحاشدة .

ولا شك فى ان الاحتفال بالمناسبة كان دراماتيا الى حد كبير ، وقد أعدت المظاهر اعدادا كاملا . وتم اغلاق فجوة السد المؤقت ، وشرع النهر فى الارتفاع أمامه . وكان فى امكان العمال الموجودين وآلاتهم أن يكملوا ما بقى من عمل ، دون الاستعانة بشاحنات الخمسة والثلاثين طنا البريطانية والتى لعبت دورا كبيرا فى المشروع ، وان أخفيت الآن عن عينى الضيف السوفياتى الكبير ورفاقه .

وكان قلق المهندسين يتركز على تحويل النهر الذى تقرر القيام به فى اليوم التالى . فلقد تحتم على كل ما تحقق من عمل فى الشهور السابقة كالانفاق التى بنيت ، ومنشئات محطة التوليد الكهربية أن تواجه ضغط الماء ، وكان لا بد للنهر بعد خروجه من قناة التحويل أن يرجع الى السد فى واديه عند مستوى الماء هناك . وكان تسلسل الاحداث يقضى بتفجير الكتلة الرملية الصخرية التى تغلق المدخل الامامى لقناة التحويل ، ثم فتح البوابات المؤدية الى الانفاق ، وأخيرا تفجير الكتلة الرملية الصخرية فى السد الخلفى المؤقت ، مع اعتماد كل شىء على الدقة فى التوقيت . وكان هذا الحادث سيقع على مشهد من زعماء مصر والاتحاد السوفياتى ، ووراءهم العالم بأسره . وكان من المفجع أن تشوه هذه المناسبة التاريخية بأى خطأ صغير مهما كان تافها ، حتى وان لم يؤد الى ضرر كبير .

ولم يبق هناك أى عمل ينتظر التحقيق فى الساعات الاربع والعشرين الاخيرة التى تسبق التحويل . وكان قد تم نقل نحو من مليونى باردة مكعبة من الماء عن طريق الضخ الى قناة التحويل ، مما ادى الى ظهور بحيرة ضحلة ، تمثل دور الوسادة للنهر عندما يتفجر منطلقا الى القناة . وكانت المتفجرات قد وضعت فى اماكنها فى الكتل الرملية الصخرية ، وقامت الكراكات فى الساعات الاخيرة قبل التحويل ، بشق اخدود عميق فى السد الرملى المؤقت ، لتسهيل مرور الماء عندما يقع التفجير فيمزق السطح . وكان كل ما هو مطلوب احداث شق صغير يمر منه الماء ، ثم يترك لمجرى الماء ان يؤدى دوره فى توسيع الطريق.

وتحولت الهضبة الصخرية التى تؤلف سقف الانفاق الى سرادقات واسعة ازدهت بالاعلام وهى تستخدم فى جميع الاحتفالات سواء المفرحة منها أو المحزنه . وكان طرفها الأمامى فوق مداخل الانفاق يواجه خوركوندى ، وقد وضع على منضدة فى السرادق الاوسط زر كهربى ، سيقوم عبد الناصر وخروشوف بكبسه بصورة متوالية ليعلنا تفجير الكتلة الصخرية ــ الرملية .

ولما كانت الطرق المؤدية الى الموقع قد أغلقت منذ الساعة السابعة من صباح الرابع عشر من مايو ، فقد كان الاربعة والثلاثون ألفا من العمال الذين يعملون فى السد ومعهم الكثيرون من أهل اسوان الذين استطاعوا تأمين وسائل النقل ، قد احتشدوا على التلال والهضاب المطلة على القناة منذ ساعات الصباح الباكر . واتخذ رجال الصحافة مواقعهم عند طرف السرادق الكبير ، بينما نصب المصورون ورجال التلفزيون آلات تصويرهم فوق الانفاق مباشرة . وكانت اقل انزلاقة أو زلة من قدم احدهم كافية لارساله مع معداته الى الهاوية فى بطن القناة على عمق مائتى قدم . وكان المدعوون وبينهم جميع اعضاء مجلس الامة فى الجمهورية العربية المتحدة ، والسفراء الاجانب ، قد شرعوا فى أقتعاد اماكنهم قبل الساعة السابعة ، اذ كانوا قد وصلوا فى طائرة خاصة غادرت القاهرة فى الساعة الخامسة صباحا . ووقف الوزراء وكبار المهندسين على المنصة . واعدت الحمائم البيض فى اقفاصها على شرفة الاسمنت المسلح فوق الانفاق وداخل القناه . ووقف الرئيس عبدالناصر وضيفه خروشوف ومعهما المغفور له الرئيس العراقى عبد السلام عارف ، والرئيس اليمنى السلال . وقد وصلوا فى التاسعة والنصف وسط الهتافات العالية والاناشيد والاغانى .

وكانت الهوة تنتظر وقد لفها السكون والحر الشديد تحت سماء زرقاء صافيه . وتتابعت الخطب فى السرادق ، وهى تترجم الى الروسية أو العربية طيلة الساعات التاليه ، وقد بدأها وزير السد العالى فالرئيس عبد الناصر ، فالرفيق خروشوف فالرئيس السلال ، فالرئيس عارف . وبدا السرادق أشبه بالفرن ذى الجوانب الزجاجية ، كما بدا الناس فيه وكأنهم يتلظون بالحر القاتل . وجمد الحر الشديد عقول السامعين ، بينما احتملت الجماهير على التلال والهضاب الساعات الطوال فى الشمس اللاهبة ، دون أن يصاب أحد باغماء ضربة شمس ، وعندما ردد الوادى وقت الظهيرة شعارات القومية العربية التى اطلقها الرئيس عارف ، رجعت الجماهير فى هتافاتها صدى اقواله .

وانتهت فترة الانتظار الطويلة أخيرا . وساد الصمت عندما تقدم انرئيس عبد الناصر وضيفه خروشوف من المنصة الى جانب السرادق الذى تسطع فوقه الشمس ، وراحا يكبسان الزر الكهربى دون ضجة • وانطلق الانفجار ، وعلت سحابة من الاتربة فى الجو ، وارتفعت الاسهم النارية فى السماء حاملة صورتى الزعيمين ، واطلقت الحمائم من اقفاصها لتحوم فوق المكان ولم تمض ثوان قليلة ، وتهدأ سورة الغبار ، حتى ظهر خيط من الماء الاصفر يزحف ببطء فوق السد المؤقت الامامى الذى تفجر بعضه ، وارتفعت اصوات الجماهير من التلال المحيطة بالمكان تهتف بأعلى أصواتها ، . « الماء ، الماء » . وعلت الوادى نغمة النصر ، وسورة الكهرباء التى فاقت بلاغة الانسان •

وتحول خيط الماء الى جدول ، وبدأت الرمال والاتربة تنهار ، والجدول يتسع الى مجرى مندفع ، واخذ السد يتحلل وينهار . وكان العمال وقد اسكرتهم الحماسة ونشوة النصر يركضون عبر القمة ليتطلعوا الى الماء المندفع ، فيردون على أعقابهم لان القمة اخذت فى الانهيار جزءا اثر جزء ، ولكنهم لا يلبثون ان يعودوا • وكان الماء الذى اصفر لونه من الرمل والاتربة التى يحملها ، قد بدأ يغلى فى مرجل القناة ، وكلما اشتدت قوته ، راح يصطدم بالجدران الصخرية بعنف ويطبق على بوابات الانفاق • وارتفعت البوابات واندفعت المياه فى اتجاه الجانب الخلفى ، وقد جرفت أمامها أحد الرجال الحمقى الثلاثة الذين كانوا قد تسلقوا محطة التوليد الكهربية ليروا الاحتفالات من مكان مناسب . وسرعان ما وقع الانفجار الثانى الذى فجر السد المؤقت الخلفى ، وانطلق النهر يجرى بحرية بعد فتح بوابات السد القديم ، الذى بدا وكأنه قد مد ذراعه عبر الرمال ليجر الماء المندفع اليه • ولم تمض نصف ساعة على هذا التفجير حتى كان النيل قد تحول نهائيا عن مجراه ، وذلك فى غضون نصف ساعة .

وكان الواقفون على التلال قد اندفعوا فى غضون تلك الفترة القصيرة فاخترقوا نطاق الشرطة واحتلوا السرادق ، وهم يحسون بحق انهم وقد عملوا من أجل تحقيق ذلك اليوم التاريخى ، أصحاب الحق فى رؤية نتاج عملهم . وكانت الجماهير تضغط من الخلف على الصفوف الأولى التى اصبح من فيها معرضين للسقوط فى الهاوية وسط الماء الاصفر المتدفق . ولم تضعف شدة الضغط الا عندما اتجه الرئيس عبد الناصر وضيفه خروشوف الى السيارة ، وآنذاك • اختلط الحابل بالنابل بين المدعوين وغير المدعوين ، وهم يحاولون الخلاص من السرادق ،

ليدفعهم التيار البشرى فى النهايه الى الارض العراء تحت نيران الشمس الحارقة ، محاولين الوصول الى أية واسطة للنقل .

وخيم الهدوء فى النهاية على المكان ، وبات فى وسع المرء عند هبوط الظلام أن يرى المكان فى صورته الرائعة الصامتة . فقد ساد الهدوء الماء فى كل مكان ، وراء السد المؤقت وفى النهر وفى قناة التحويل . وكانت المياه قد غمرت الانفـاق ومحطة التوليد الكهربية ولم يبق من السدين الامامى والخلفى الا السنة صغيرة من الرمال . وهكذا أصبح تحويل النيل كاملا وواضحا .

وكانت الاحتفالات اللاحقة التى شهدهـــا الرئيس عبد النـــاصر وخروشوف مجرد شكليات بسيطة بعد هذه الذروة القصوى العظيمة . فلقد مضيا معا لرؤية الصخور الاخيرة وهى تغرق فى الفجوة فى الســد المؤقت ، وراحا يعبران بعد ذلك فى السياره فوق قمة النهر بعد اغلاق الفجوة نهائيا . وازاحا الستار عن العمود التذكارى الذى نصب لتخليد الشروع فى العمل فى عام ١٩٦٠ ، وقد دون عليه الآن تاريخ تحويل النهر وسيدون عليه فيما بعد تاريخان آخران وهما تاريخ اكمال السد نهائيا ، وتاريخ اكمال محطة التوليد الكهربية . واقاما حفلة مشتركة وزعا فيها الأوسمة والمداليات على المهندســين والعمال ، ثم عــادا الى القاهرة عن طريق الاقصر ، حيث اقنع خروشوف بان يلقى نظرة اخرى على مزيد من عجائب الفراعنة .

وظل هناك مع النهر والصـخور ثمانية عشر ألفـا من الروس ، والمهندسون المصريون واربعة وثلاثون ألف عامل . وكان العالم قــد شهد فى اسوان ما حققه هؤلاء جميعا اذ كانوا قد اجهدوا انفسهم فى العمل الطويل الشـاق ، ليل نهار ، وفى منطقة تعتبر من اشد المنـاطق حرارة فى العالم ، لاكمال المرحلة الأولى من السد فى الوقت المقرر . وبات عليهم أن يواجهوا من جديد سنوات اخرى من العمل ، وقد انبروا دون أى توقف للعمل يمضون فيه ليكملوه فى عام ١٩٦٨ وهو الموعد المقــرر للانتهاء من السـد العالى . ويقول بعضهم ، مدفوعا بالثقة التى ولدها النجاح أن العمل قد ينتهى فى عام ١٩٦٧ .

***

ولم يكن من العجيب مطلقا أن يكرس خروشوف أسبوعين من وقته الثمين ليقضيهما فى مصر . وليشترك مع الرئيس عبد الناصر فى التعبير عن ذروة النصر الذى تحقق . وبرزت أهمية هـذا الانتصار على الزمن والنهر ، من الحقيقة الواقعة وهى ان المصريين والروس ، واجهوا فى

البداية الكثير من المتاعب . بسبب افتقارهم الى تجارب العمل المشترك معا . وكان من حق الزعيمين ان يفرحا لنتاج عملهما ، اذ ان ارادتهما المشتركة هي التي جمعت بين الرجال والآلات في أسوان . فلقد أقدم عبدالناصر على الشروع في هذا العمل العملاق الذي يكلف أكثر من أربعمائة مليون جنيه في وقت كان هذا المبلغ الطائل يبدو فيه فوق طاقات دولته المكافحة ، كما أقدم خروشوف على المغامرة بمائة وعشرة ملايين من الجنيهات في مشروع يحمل طابع المغامرة في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا والولايات المتحدة قد سحبتا عرضهما بتمويل المشروع .

ومن المحتمل أن يكون بعض الشحم من جسم خروشوف البدين قد ذاب في فرن أسوان ، ولكن روحه المعنوية كانت في أعظم حالاتها بعد كل يوم من أيام الاحتفالات . فلقد كانت صفقة الاسلحة مع مصر في عام ١٩٥٥ وبناء السد العالي العملين الضخمين اللذين عززا مكانة الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط العربي ، كما كانا بمثابة جس نبض لاغوار افريقيا ، ولا شك في أن السد العالي مثل نصرا عظيما حققه خروشوف على دالاس وايدن .

وكان الاتحاد السوفياتي قد تعهد بان يسهم بنحو من مائة وعشرة ملايين جنيه استرليني في بناء السد العالي . وقد يرتفع هذا الرقم قبل ان ينتهي العمل في السد ، أو قد تتأخر مصر في سداد بعض الاقساط المترتبة عليها (١) ، ولكن مهما وقع فان الاتحاد السوفياتي ، دفع ثمنا قليلا للغاية بالنسبة الى المكاسب التي حققها في نظرة البلاد النامية اليه. ولقد انفق الاسهام الذي سيسدد بفائدة ٥ر٢ في المائة بكامله على الخبراء السوفيات والمعدات السوفياتية التي قدرت أثمانها بصورة مواتية للدولة السوفياتية ، بينما تحتم على الخزانة المصرية أن تدفع من جيبها وبالجنيه الاسترليني اثمان شاحنات الفلينج ــ بارفورد ، والحفارات السويدية ، وحفارات رستم ــ بوكيروسي الانجليزية ودواليب دنلوب (٢) .

---

(١) لاتتأخر الجمهورية العربية المتحدة مطلقا عن الوفاء بالتزاماتها المالية . فهي تسدد الاقساط المترتبة عليها في وقتها ، سواء للاتحاد السوفياتي أو لغيره من الدول ، فقد عرف عنها في الاوساط المالية الدولية الصدق في الوفاء بالتزاماتها .

(٢) محاولة رخيصة للدس بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتي. ويبدو أن المؤلف يريد ان يقول ، ان المساعدات السوفياتية انفقت كلها على الخبراء السوفيات وفي شراء المعدات السوفياتية ، وهو أمر غير صحيح اذ أن السد العالي مثل صورة من صور التعاون الدولي الصادق واللامشروط .

(المعرب)

يضاف الى هذا ان الروس زودوا قبل الشروع بالعمل ، بمخطط ألماني للسد ، أعدته شراكة هوشتيف - دورتموند وأقره مجلس المستشارين الدوليين ذوي المكانة العالمية . وظل هذا المخطط هو الاساس في العمل بالرغم من التعديلات السوفياتية التى أدخلت عليه • يضاف الى هذا ان المصريين هم الذين قاموا بخمسة وتسعين فى المائة من العمل الحاسم والمهم فى المرحلة الاولى .

ولا يعنى هذا اننى أريد التقليل من قيمة العمل الذى تحقق حتى الآن فلقد حقق الروس والمصريون على السواء عملا عظيما . ولكن روسيا تمكنت من أن تقنع العالم بان السد عمل روسى ، وهو أمر بعيد عن الحقيقة كل البعد • (١)

ولعل من المفارقات العجيبة • ان مصر نفسها هى من الاماكن القليلة التى لا يشع فيها المجد السوفياتي كل الاشعاع • فبالرغم من السهام النارية التى حملت صورة خروشوف الى الهواء عند اطلاقها ، وبالرغم من كلمات الاطراء للاتحاد السوفياتي فى الخطب التى القيت ، وبالرغم من اللافتات والشعارات فى مديح روسيا التى واجهها خروشوف اثناء زياراته وجولاته فى مصر فى كل مكان ، فان من المتعذر ان لا يكون خروشوف قد ادرك ، وادرك معه رفاقه ، ان هذه المناسبة مثلت صورة جديدة من صور الفخار لعبد الناصر • ومن المحتمل أن يكون خروشوف كواحد من كبار القادة القلائل فى العالم قد رأى فى زيارته الرسمية لمصر، مظهرا من مظاهر المكانة المهمة التى حققها فى الشرق الاوسط ، الا ان العرب لم يشاركوه هذا الرأى • فلقد رأوا فى هذه الزيارة عرضا واضحا لعظمة عبد الناصر ، الذى بات قادرا على ان يدعو زعيم الاتحاد السوفياتي الى مصر • ولقد حاول خروشوف فى الخطب التى القاها ان يعلم المصريين شيئا عن طرائق السوفيات فى التفكير وسياساتهم ، ولكنه لم يفلح فى التأثير على عقيدتهم القومية العربية او تمسكهم بالاسلام • ولم يكد خروشوف يغادر ارض مصر ، حتى كان الرئيس عبد الناصر ، يصل مع الرئيس العراقى الراحل عبد السلام عارف الى مخطط للوحدة العربية التى كان خروشوف فى خطبه قد حاول التقليل من اهميتها ، وكان عارف قد أوضح انه لا ينوى ان يتفاهم مع الشيوعيين فى العراق • وكان

---

(١) محاولة اخرى للدس • فالاتحاد السوفياتي لاينكر ان السد عمل مصرى عظيم وقد اعترفت بذلك جميع الصحف السوفياتية التى كتبت عن السد العالى .

(المعرب)

خروشوف يبدو دائما متجهما وهو يقف الى جانب عبد الناصر المعتز بنصره والمنطلق بابتساماته (١) ٠

وكان كل هذا ممكنا لان العرب اعتبروا تحقيق السد العالى نصرا لعبد الناصر ٠ ولا يستطيع أحد ان ينكر ان العرب يحسون بمشاعر الاعتراف بالجميل للاتحاد السوفياتي ولا سيما بالنسبة الى ما يقدمه من عون لاضعاف سلطان الغرب ونفوذه ، ولكنهم يعتقدون انهم استغلوا مصالح روسيا الذاتية في تحقيق الاهداف العربية ، وهم تواقون الى ان لا يروا روسيا تحتل مركزا متفوقا في بلادهم ٠ ويعرف عبد الناصر ، ان الاتحاد السوفياتى لا يهدف الى أية أهداف عاجلة كالغرب فى تأييده ، ولذا فقد بات في وسعه أن يمضى مع السياسة السوفياتية بعض الوقت ، وهو يعرف ان عليه أن يكون كثير البراعة فى مثل هذه الظروف فى تعامله مع الاتحاد السوفياتى ، اذ انه مدين له بالكثير ، ولكنه يعرف ايضا ان فى وسعه ان يعتمد على تأييد القومية العربية عندما يريد اتباع سياسة مستقلة عن روسيا ٠ وتمثل سياسة الحياد بين الكتلتين نزعة مسيطرة ذات وجهين على العرب ، فهى من الناحية الاولى استغلال لسياسات المساعدة ، وهم يطرون عبد الناصر لنجاحه فيها ، وهى من الناحية الاخرى عقيدة مخلصة فى كرامة الوطن العربى وفى مواقفه ومجالات نضاله(٢) ٠

وقد لا يعرف خروشوف كل ما حدث اثناء اقامته القصيرة فى مصر ٠ فعندما كان يستقل السيارة الى جانب عبد الناصر عبر شوارع مصر ، كان الشعب يهتف لقائده عبد الناصر وحده ، مما ارغم رجال الأمن العام اخيرا على ان يمضوا قبل وصول السيارة لينبهوا الجماهير الى وجوب الهتاف للضيف (٣) ٠ ويتحدث المصريون دائما « عن سدنة

---

(١) يفضح المؤلف عداءه المتوقع للاتحاد السوفياتى ٠ فهو يريد عن طريق مثل هذه العبارات الماكرة أن يدس بين العرب وأصدقائهم في الاتحاد السوفياتى ٠

(٢) صورة جديدة من صور اتهام الغرب لسياسة اللانحياز التى تتبعها الجمهورية العربية المتحدة ٠ فلقد دأب الكثيرون من كتاب الغرب على وصفها بالسياسة الانتهازية للحصول على المساعدات من الجانبين ، مع أنها فى الحقيقة والواقع سياسة نابعة من مبادىء كانت الجمهورية العربية المتحدة تؤمن بها كأساس فى الحفاظ على السلام العالمى ولكن سياسة اللاانحياز هذه لايمكن أن تساوى مطلقا بين العدو والصديق ، وانما تؤكد الاتجاه الاستقلالى للسياسة العربية ٠

(٣) يرسم المؤلف صورة خاطئة لاستقبال خروشوف عند زيارته لمصر ، فقد كان الاستقبال شعبيا ومنقطع النظير ٠

(المعرب)

العالى » و « عما حققناه » . تماما كما فعل سائق الأوتوبيس عندما راح يوبخ سائحين انجليزيين احمقين بمنتهى الكياسة اذ قالا انهما ما كانا ليصدقا ان فى وسع المصريين ان يحققوا بناء السد • ولم يرد اسم الروس على لسان هذا السائق مطلقا (١) •

***

ولفت الانظار غياب الرئيس السودانى عبود عن حضور الاحتفالات. فالمعروف ان السد العالى سيعمل على اثراء السودان ايضا ، اذ ضمن الحصول على كميات من المياه تكفى لرى المناطق الزراعية الراهنة والجديدة • وقدرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ان السودان سيتمكن من مضاعفة دخله الزراعى ثلاث مرات ، وستتوافر لها موارد جديدة للقوة من محطة التوليد الكهربية التى تقوم ببنائها على السدود التى تشيدها عند اعالى النيل •

والسودان بعد الجمهورية العربية المتحدة ، اكثر البلاد اهتماما بالسد فى الوقت الحاضر وفى المستقبل ايضا ، وهو مشروع ينافس فى ابعاده ومشاكله بناء السد العالى نفسه ، فان هذا لا يتحقق الا بالاتفاق بين السودان ومصر • والمعروف ان الحكومتين تتعاونان الآن فى المحادثات الدائرة حول مشروع المستنقعات ، وفى اللجنة الفنية المشتركة التى تقوم بدراسة اعادة المواصلات التى أدى السد العالى الى ارباكها •

فلقد أوقف السد المؤقت الذى يغلق النيل عند أسوان المواصلات النهرية التى كانت تربط بين البلدين عن طريق منع السفن من الوصول الى ميناء الشلال الذى كانت تستخدمه البواخر المبحرة الى وادى حلفا • ولما كانت وادى حلفا نفسها ستغرق ، فسيختفى الميناءان النيليان ، ولا بد من الاستعاضة عنهما بميناءين جديدين اذا كان لا بد من استئناف عمليات النقل النهرى فى بحيرة ناصر • وتواجه اللجنة الفنية المشتركة هذه المشكلة ، ورصدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة فى موازنتها لعام ٦٤ ــ ٦٥ مبلغ ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه كحصة فى تكاليف المشروع •

وسيشيد الميناء المصرى عند خور كوندى الواقعة فى نهاية السكة

---

(١) بالرغم من ايماننا ببنينا السد العالى ، الا اننا نقر بما كان للاتحاد السوفيتى من فضل عن طريق مساعداته المالية والتقنية ، فى تمكيننا من بنائه . ولاشك فى أن المؤلف يعود هنا الى محاولة الدس من جديد .

(المعرب)

الحديدية الجديدة الممتدة من الشلال ، والتى استخدمت حتى الآن كطريق لتموين العمل فى موقع السد • وستكون الابنية مرتفعة جدا فوق مستوى الماء ، ولذا ستستخدم المصاعد فى حمل الناس والبضائع الى الرصيف ومنه• وسيبنى الميناء السودانى في ضواحي وادى حلفا القديمة ، وسيعاد رسم السكة الحديدية التى انشأها كتشنر ليستعيد احتلال السودان عن طريقها فى نهاية القرن الماضى ، عند طرفها الشمالى ، لتخدم الميناء الجديد• وتضع حكومة السودان الخطط الآن لتنظيم خط للنقل البحرى بين بورسودان وبورتوفيق • والى أن يشرع فى تنفيذ هذا الخط ، أو الى أن تبدأ عمليات النقل النهرى عبر بحيرة ناصر بين الميناءين النهريين الجديدين ، فسيظل الطريق الجوى هو سبيل السفر الوحيد بين القاهرة والخرطوم •

وستغرق البحيرة ايضا خط المواصلات الهاتفية بين البلدين ، وسيستعاض عن هذا الخط بخدمة لاسلكية • وتضع اللجنة الفنية المشتركة والحالة هذه الخطط لاقامة اتصالات برقية وهاتفية دائمة بين البلدين •

وكان من المنتظر فى ضوء هذه الأوضاع أن تشترك حكومة السودان فى احتفالات اسوان • ولكن هذا لم يحدث ، ويبدو ان حسن النية الذى كان باديا فى عام ١٩٥٩ عندما وافق الرئيس عبود على اقامة السد العالى بصورة نهائية فجاءت موافقته اشارة الى امكان الشروع فى العمل ، لم يعد موجودا •

وتغيب ممثلو دول النيل الاخرى عن الاحتفالات، وكان هذا التغيب سببا فى بروز الرئيس عارف والرئيس السلال فى الاحتفالات • وكان الرئيس عبود نفسه ، يتجه شرقا الى بكين عندما تم تحويل النهر ، معتذرا عن حضور الاحتفالات بحجة الزيارات الرسمية التى كان من المقرر ان يقوم بها من قبل للباكستان والهند والصين • ويبدو ان هذا الغياب كان متعمدا ، اذ ان موعد تحويل السد كان معروفا منذ أمد طويل • ويبدو أيضا ان المسئولين السودانيين عادوا فاستاءوا ثانية مما اعتبروه اهمالا لموقفهم الخاص من موضوع السد العالى بوصفهم شركاء فى مياه النيل ، ولأنهم ضحوا بمدينتهم وادى حلفا من اجل بناء السد فقد ذكروا انه بدلا من المركز الممتاز فى الحفلات الذى كان لا بد من ضمانه للرئيس عبود ، فقد وجهت اليه الدعوة متأخرة ، وكان قد أعد ترتيباته للزيارات الرسمية التى كان يعتزم القيام بها • وعندما انتدب وزير الرى لينوب

عنه في الاحتفالات ، رفضت الجمهورية العربية المتحدة قبوله على هذا الاساس ، اذ كانت قد وجهت الدعوة اليه كوزير ، وراح هذا يرفض الذهاب متذرعا «بقصر الوقت على توجيه الدعوة ، وبضغط العمل الشديد» .

***

ولم تكد الاحتفالات تنتهى حتى كان المهندسون والعمال يستأنفون عملهم فى النهر . وكانت المهمة التى تواجههم كبيرة ، ولكنها لم تكن مثيرة للرعب اذا قورنت بالعمل الذى تحقق فى الماضى لاسيما وان المرحلة الثانية من العمل لا تتطلب الا نصف العدد من العمال الذين أكملوا المرحلة الأولى .

وتم بناء السد الخلفى المؤقت ، واصبح الموقع الرئيسى للعمل الآن امتداد نصف ميل من الماء الهادىء الواقع بين السد الخلفى والسد الأمامى، والذى مثل مظهرا من مظاهر الاحتفالات . ويقوم العمال الآن بتثبيت نحو من عشرة ملايين ياردة مكعبة من الرمال كحشية ضخمة على أرضية النهر، ويركزونها مرحلة اثر أخرى بطريقة الاهتزاز ، مستخدمين قضبانا ثقيلة من الصلب علقت فى اطارات معدنية . ويمكن دراسة هذه الطريقة بصورة مصغرة عن طريق هز قلم بصورة سريعة فى كأس ملىء بالرمل .

ولقد استخدمت كميات الرمال التى استخرجت من قناة التحويل فى السدود المؤقتة ، ولذا فقد شرع فى حفر ثلاثة محاجر على مقربة من السد لتأمين ثلاثين مليون ياردة مكعبة أخرى من الصخور لتكويمها فوق الرمال . وتجرى عملية تكديس الصخر فى وقت واحد مع فرش الرمال، مما يؤدى الى انشاء الطبقة التى تؤلف الجسم الرئيسى للسد فى نفس الوقت أيضا . ولا يجد كل من يتطلع الى النهر فى هذه المرحلة من العمل الا تجميعا فوضويا للصخور فوق الرمال ، لا يشبه بحال من الأحوال ، عمليات البناء العادية ، أو الرفع المنظم لسد من الأسمنت المسلح ، ولكن العملية تخلو فى الواقع من أى فوضى أو اهمال ، اذ ان كل حمل يوضع بطريقة علمية فى موضعه وطبقا للتصميمات الموضوعة .

ويجرى بناء صلب السد من الصلصال على طول المحور الأساسى ويرتفع الى علوه الكامل ، أما جناحا السد فيبنيان من الرمال والصخور على الضفتين الى أن يندمجا مع التلال الواقعة على كل جانب من النهر ويصبحا مرتكزين عليها . وسيكون هذان الجناحان مرتفعين الى الحد الذى يدعو الى اضافة ثلاثين ياردة أخرى الى ارتفاع السقف فوق الأنفاق فى قناة التحويل وعندما يتم اعداد كل شىء ، ويمد غطاء من الأسمنت المسلح فوق الجميع ، ستعد طريق واسعة على قمة السد .

ولن يبدأ العمل فى تثبيت أرضية النهر عن طريق تصنيع الغطاء المثبت بالأسمنت تحت المحور الرئيسى للسد والذى يعتبر العنصر الهام وغير المرئى فى البنيان كله الا بعد استكمال الصلب الصلصالى ، وذلك لأن الثقوب التى سيضخ منها مزيج الصلصال والصلصال لتطعيم الأرضية بها ، ستحفر من صلب السد نفسه • وكان لابد من اكمال الثقوب فى صورة دقيقة ، على أن يبعد الثقب خمس ياردات عن الثقب المجاور له ، وقد يتقلص هذا البعد فى بعض الأمكنة الى ثلاث ياردات ، وقد يكون من العسير ان لم يكن من المستحيل ، تحقيق مثل هذه الدقة من المراكب • وستكون هناك مزية اضافية أخرى وهى ان ثقل القلب الصلصالى سيساعد على ضغط الحمأة وتثبيتها • وسيضم هذا القلب ثلاثة ممرات للتفتيش ، يستخدمها المهندسون الذين يتولون فى النهاية حراسة السد فى التفتيش عن أى انحلال أو ضعف •

ويقوم المهندسون فى الوقت الذى يجرى فيه بناء السد فى وضع مولدات الطاقة الكهربية فى المحطة التى أنشئت عند الجانب الخلفى من الأنفاق • ولقد قام مهندسو مؤسسة ايلكتروسولد فى لينينجراد بصناعة هذه التوربينات ، وقوة الواحدة منها (١٧٥) ألف كيلوواط • وهى تعتبر من أضخم التوربينات فى العالم ، اذ تفوق فى ضخامتها وطاقتها تلك المستخدمة فى محطات توليد الطاقة الكهربية كمحطة كويبشيف على نهر الفولجا • وسيتم تسليم خمسة منها قبل نهاية عام ١٩٦٧ بحيث يتم توليد قوة كهربية اضافية تبلغ (٢٥٠٠) مليون كيلو واط فى الساعة ، وستكون التوربينات الاثنا عشر أى بمعدل اثنين لكل نفق ، عاملة فى وقت واحد فى عام ١٩٧١ ، وتنتج ثمانية آلاف مليون كيلو واط ساعة • وستصل المولدات المساعدة بالانتاج فى العام الذى يليه الى الحد الأقصى وهو عشرة آلاف مليون كيلو واط ساعة وبذلك تتضاعف القدرة المحركة فى البلاد •

وسيتم انشاء مصرف للطوارىء أخيرا على الضفة الغربية ، على طول المنخفض الطبيعى الذى ينحدر باتجاه النهر عند الجانب الخلفى للسد • وليست ثمة ضرورة ملحة للاسراع فى اكمال هذا العمل اذ ان هدفه التخلص من الماء الفائض فى بحيرة ناصر اذا ارتفع منسوب المياه فيها فوق الحد الأقصى المسموح به وهو ٥٩٠ قدما ، وهذا أمر لن يحدث قبل انقضاء سنة أو سنتين على اكمال بناء السد فى عام ١٩٦٨ • وستتم السيطرة على المصرف عن طريق قنطرة مائية طولها ٤٢٠ ياردة تبعد

نحوا من ميل ونصف الميل عن السد باتجاه الغرب ، وسيكون فى امكانه اطلاق نحو من ثلاثة آلاف ياردة مكعبة من الماء في الثانية ٠

وستكمل هـذه المشاريع البنيان المركب للسد العالى ، ولكنهـا ستكون عديمة الجدوى اذا لم تتوافر لها الوسائل للافادة من مياه السد والقوة الكهربية التى يولدها ٠ وتعتبر المشروعات المرتبطة بالسد من ناحية حجمها وتوعهـا عملا لا يقـل فى اتساعه عن السـد نفسـه ، وستكلف مصر ضعف ما سيكلفها السد ٠ فستنفق على بناء السد نحواً من ٨٥ مليونا من الجنيهات وعلى انشاء محطة التوليد الكهربية ٥ر٥٧ مليون من الجنيهات ، بينما ستبلغ نفقات مد الخطوط الحاملة للكهربا حتى الدلتا نحوا من خمسين مليونا من الجنيهات ، وستربو تكاليف مشاريع التنمية الزراعية للافادة من الماء وبينها ترع الرى وأقنيته ، واستصلاح الأراضى ، وشق الطرق ، ومشروعات الاسكان والمرافق العامة المطلوبة للمجتمعات التى ستعيش فى الأرض الجديدة ، على مائتى مليون جنيه ٠ وستدفع الحكومة بالاضافة الى ذلك كله نحوا من عشرين مليون جنيـه كتعويض على الذين سيخرجون من مساكنهم الحالية ٠ وبهذا ستبلغ تكاليف السد ومحطة التوليد الكهربية ومشروعات التنمية المتصلة بها نحوا من ٤١٥ مليون جنيه ٠

وعندما يتحدث المهندسون الآن عن اكمال السد فى عام ١٩٦٧، فهم يعنون انه سيصل فى هذا التاريخ الى ارتفاع ١٦٥ ياردة ، وسيصبح قادرا على تأمين التخزين أكثر من سنة ، مما يؤدى الى تغيير شامل فى نظام الرى من النيل ، ويتوقف الى الأبد الاعتماد على الفيضان الذى كان يعتبر شرطا للحياة منذ بدأ الناس فى العيش فى وادى النيل قبل ألوف السنين ٠ وسيصل السد الى صـورته النهائية ، ويتم انشـاء الطريق الرئيسى فوق قمته فى السنة التالية ٠

وبالرغم من ان جلال السد العملاق الجديد سيكسف عظمة سـد أسوان القديم الذى يقع على بعد أربعة أميال منه الى الشمال ، الا أن السد القديم سيظل « العقل » الموجه لعملية الرى السنوى فى مصر ، وكل ما سيحدث من فرق بالنسبة اليه هو انه سيتولى تنظيم الجريان المقرر سابقا للماء بدلا من تنظيم الاندفاع الشارد للنهر ، وها هو السد العالى يبنى الآن فى خزان السد القديم الذى ستبتلعه البحيرة العظيمة التى يصنعها الانسان وهى بحيرة ناصر ٠ أما ما سيتبقى من الخزان القديم فى السدين ، فسيهبط فى منسوبه عندما تبدأ عملية التخزين لأكثر من

سنة ، وسيرتفع منسوب المياه وينخفض فيه يوميا ، على ضوء ما يطلقه السد الجديد من ماء وفقا للخطة المقررة • ولما كان السد العالى لا يضم أية منافذ أو فتحات ، فان النهر سيتجاوزه عن طريق قناة التحويل الى فتحات السد القديم التى تتولى تنظيم تموين الحقول والمزارع فى مصر بالمياه اللازمة لريها •

وتسير بحيرة ناصر الآن فى طريق التكوين ، اذ قام السد المؤقت الأمامى بتخزين كمية اضافية من الماء تقدر بخمسة آلاف مليون ياردة مكعبة من فيضان عام ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ ، وسيواصل عملية التخزين هذه الى أن يتم بناء هيكل السد نفسه فى عام ١٩٦٧ ، فتبدأ عملية التخزين لأكثر من سنة ، بمعدل اضافى قدره عشرة آلاف مليون ياردة من الماء •

وستكفى الخمسة آلاف مليون ياردة مكعبة لاستصلاح ربع مليون فدان من الأرض الجديدة وتحويل نصف مليون فدان أخرى من رى الحياض الى الرى السنوى الدائم • وستزداد الأراضى المستصلحة والمحولة من رى الحياض الى الرى الدائم سنة بعد أخرى الى أن تصل الى مليون فدان لتستصلح وسبعمائة ألف فدان تحول ، وتؤمن لها المياه الكافية من فيضان عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ • وتعتمد سرعة تحقيق هذه الفوائد الزراعية ، على السرعة فى انشاء ترع الرى وأقنيته ، لا سيما وقد تضاعف العمل الذى بدأ فيها منذ عام ١٩٦٢ ، بعد استكمال المرحلة الأولى من بنـاء السد •

وستؤدى الأراضى الجديدة المستصلحة ، وتوسع الرى السـنوى الدائم الى زيادة مساحة الأراضى المروية بنحو من ٢٥ فى المائة ، وهى ظاهرة جد عجيبة فى ثروة بلاد تحتاج الى استغلال كل شبر من أرضها الصالحة للزراعة • ولكن فوائد السد العـالى النهائية ستتجاوز هـذه الحدود • ولعل أهم فائدة للسد انه سيكون فى الامكان ، ولأول مرة فى التـاريخ الطويل للبلاد ، التثبت بصـورة مطلقة من المـاء المتوفر لكل محصول من محاصيل الصيف والشتاء • وستمكن هذه المعرفة المسبقة وزارة الزراعة من التخطيط المسبق لانتاج الأراضى بالنسبة الى احتياجات المصريين أنفسهم والى أحسن السبل الضامنة للتصدير • ولا شك فى ان هذه المجموعة من العوامل الجديدة ، وهى توفير الكميات الاضافية من الماء والتثبت من مقاديرها ، واستعمالها بالتالى فى أحسن السبل لتحقيق أكبر الفوائد ، ستؤدى لا الى مجرد زيادة الانتاج الزراعى للأرض فحسب، بل والى تغيير الصورة الزراعية كلية • فسيكون فى امكان مصر مثلا

تخصيص مليون فدان لأول مرة لزراعة الأرز ، وسيخف بذلك اعتماد البلاد الكلى على القطن الذى هبطت أسعاره فى السوق العالمية نتيجة تطوير المنسوجات الصناعية ٠

وستكون هناك وقاية كاملة من الفيضانات العالية ، ويعنى هذا أن تتحلل وزارة الرى من مسئولياتها الضخمة فى حماية سدود البلاد وتقويتها فى كل عام ٠ فبالاضافة الى خطر الكارثة من الفيضان ، يسبب النهر عندما ترتفع مناسيبه الكثير من الضرر للمحاصيل الموجودة عن طريق ترشيح المياه عبر السدود ، ويضطر ألوف العمال والمراقبين الى العمل لحماية هذه المحاصيل من الضرر ٠ وسيكون الوفر فى الأموال والرجال عن طريق ازالة هذه المشكلة السنوية كبيرا ٠ ولا شك فى أن التبدل فى أوضاع النيل والسيطرة على مجراه طيلة مسيره الى الشمال من أسوان ، سيحدثان أثرهما فى تغيير حياة البلاد فى كل ناحية تقريبا، ويخلقان الكثير من المنافع الثانوية أيضا ٠ فسيتحسن استخدام النهر فى الملاحة أيضا ٠ وتقدر الزيادة السنوية المتوقعة فى الدخل القومى بنحو من مائتين وخمسين مليونا من الجنيهات ، وهو مبلغ كاف لتسديد جميع نفقات السد والأعمال التابعة له فى أقل من سنتين ٠

وقد يكون من العسير فى هذه اللحظة تقدير التنمية المتوقعة لموارد الطاقة الكهربية فى البلاد نتيجة بناء السد العالى ٠ فالانتاج السنوى من محطة التوليد الكهربية الجديدة والمقدرة بعشرة آلاف مليون كيلو واط ساعة ، يعادل خمسة أضعاف الانتاج الحالى من محطة توليد السد القديم، ويضاعف مجموع القوة الكهربية المولدة فى البلاد كلها ٠ ولكن هذا الانتاج الضخم سيكون بداية القصة كلها ٠ فانتاج هذا القدر من الطاقة يحتاج الى مليونين ونصف مليون طن من المازوت فى السنة من المحطات الحرارية ، وهذا يعنى ان السد العالى سيزيل الحاجة الى مثل هذا القدر الكبير من الوقود ٠ وسيضاعف السد العالى عن طريق تنظيم ضغط المياه عند جانبه الخلفى قدرة محطة التوليد الكهربية فى السد القديم ، كما سيزيد من انتاج الكهربا عند المولدات الأخرى المقامة على قناطر النيل المتعددة ، عن طريق تنظيم كميات المياه الواصلة الى هذه القناطر سلفا ، ويشجع على اقامة المزيد من هذه القناطر ، حتى ولو كان الهدف منها توليد القوة الكهربية ليس الا ٠

وسيعتمد مدى افادة مصر من هذه الموارد الجديدة للقوة الكهربية على التخطيط الحكيم للتنمية الصناعية ، ولكن يبدو ان هذه الموارد ،

ستحقق لعبد الناصر الهدف الأساسى لثورته ، وهو بعث الحياة فى بلاده • فلقد قامت ثورة عبد الناصر ، على الاقتصاد الراكد المتعفن كما قامت على الطبقة الرجعية الحاكمة • ولذا فقد أدرك منذ مستهل الثورة ان تحسين أوضاع جماهير الشعب يتطلب زيادة ضخمة فى الانتاج القومى ، كما يتطلب اعادة توزيع الثروة القومية ، وان ليس فى مكنة الزراعة وحدها أن تؤمن ذلك ، وأن تصنيع مصر هو العنصر الأساسى فى المخططات التى يضعها لتحقيق التقدم • واعتمد توسع الصناعة بدوره ، على خلق مصادر جديدة للقوة المحركة ، وهذه تتحقق الآن عن طريق السد العالى •

ولقد أدى وجود القوة المحركة الى خلق الحافز للبحث عن المعادن وعن المواد الأولية الأخرى التى يمكن استغلالها فى التصنيع • فلقد كان من المعروف منذ قرون طويلة ان مصر تضم كميات كبيرة من خامات الحديد ذات النسبة العالية ، وأصبحت هذه الخامات الآن مادة صناعة الصلب • واكتشفت فى سيناء عروق الفحم الصالحة للتعدين ، وهناك اكتشافات معدنية أخرى تكثر الصحف من الحديث عنها • وقد يكون من الصحيح أن يقال ان هناك المزيد من المواد الأولية الصالحة للاستغلال الصناعى فى مصر • ولو فرضنا جدلا ان هذا غير صحيح ، فان من الواضح ان قوة العمالة فى مصر تستطيع أن تحقق زيادة فى الثروة القومية عن طريق العمل فى صناعات قد تبدو غير اقتصادية فى بلاد أخرى ، اذ ان القيمة التى ستضاف الى الانتاج الصناعى ستكون أكبر من تلك التى ستضاف الى الانتاج الزراعى الذى بلغ مداه فى استخدام الأيدى العاملة ، وأصبح التوسع فيه كثير التكاليف ، ولا شك فى أن القول بأن أهداف مصر التصنيعية الراهنة غير اقتصادية ادعاء يقصد منه الابقاء على البلاد فى حالة جمود بل وفى حالة تدهور متدرج •

ومن الصحيح القول بان نهر النيل الذى جعل من مصر بفضل بركته واحسانه أولى بلاد العالم فى الميدان الزراعى منذ وجدت مصر ، لابد وأن يعدل الآن من دوره ليجعله منطبقا مع متطلبات القرن العشرين، اذ يؤمن القوة المحركة اللازمة لدولة صناعية كما أمن فى الماضى وبغزارة الماء للدولة الزراعية • ولابد من القول بأن رياح التبدل قد شرعت فى الهبوب منذ بدأت توربينات محطة التوليد فى الخزان القديم دورانها ، دافعة بالتيار الكهربى الى مصانع كيما ، ولكن محطة التوليد فى السد العالى ، ستضخم هذا الاسهام الى الحد الذى يدفع كل انسان الى القول وهو محق ان النهر ، مصدر القوة الجديدة لمصر • وستنقل خطوط الكهربا

الجديدة القوة المحركة من السد عبر أربعة محولات فى أسوان ونجع حمادى والمنيا والقاهرة الى الدلتا فى الشمال ، وسيؤدى هدوء جريان النهر فيما بعد عن طريق بحيرة ناصر الى اقامة مولدات كهربية جديدة على النيل تؤمن القوة المحركة لكل زاوية من أرض مصر • ولا شك فى أن الشادوف أو الساقية أو غيرهما من أدوات الرى القديمة التى لاتزال قائمة على ضفاف النيل منذ ألوف السنين والتى ساعدت الفلاحين طيلة هذه المدة فى المزيد من الافادة من مياه النهر ، ستحال الى التقاعد أو الى المتاحف ، لتحل محلها مضخات تدار بالكهربا •

ويفترض كل ما نقوله ، تبديد الآراء المتشائمة عن احتمالات التخزين فى بحيرة ناصر ، وهى المستندة الى حسابات التبخر أو الى النظريات التى تقول بضياع المياه عبر الأقنية الجوفية ، واثبات خطئها • أما بالنسبة الى التبخر فقد أثبتت الاختبارات التى قام بها مختبر السد العالى ان التقديرات الرسمية صحيحة الى حد ما ، بينما يفند علماء المياه المخاوف من الضياع الجوفى •

وأجريت تجارب مخبرية عدة لاكتشاف ما اذا كان فى الامكان تقليل الضياع عن طريق التبخر باضافة بعض المواد الكيماوية غير الضارة الى مياه بحيرة ناصر ، أملا بأن تتمكن مصر من توفير نحو من خمسة ملايين ياردة مكعبة من الماء وهو ما يعادل مخزون السد القديم كله • وتم اعداد صهاريج مياه تحت الاشراف الكامل ، لتعيير ماتضيعه من الماء عن طريق التبخر ومقارنته بالكميات التى تضيع بعد اضافة هذه المواد الكيماوية الى صهاريج أخرى توجد فى نفس الأوضاع • وبالرغم من أن التجارب أثبتت ان كميات التبخر قد نقصت ، الا انه اتضح ان المشروع قد لا يحقق فائدة كبرى من بحيرة ناصر • فلقد أجرت لجنة للأمم المتحدة مثل هذه الدراسات فى اسرائيل واستراليا والولايات المتحدة ، كما استخدمت الطريقة فى خزان العبيد فى السودان • ويبدو ان فائدته تظل محدودة فى المساحات الصغيرة من الماء ، اذ تنزل نسبة التبخر بنحو من ٢٢ فى المائة • أما عندما تستخدم الطريق فى مساحات شاسعة من الماء ، فان الرياح تنقل المادة الكيماوية الى منطقة واحدة ، وتصبح الحاجة ماسة الى الاكثار من نشر هذه المادة ، مما يضاعف من التكلفة الى الحد الذى يجعل المشروع غير مجد •

وستزيد كميات المياه فى أسوان فى النهاية عما هى عليه الآن ، اذ ان بناء السد العالى قد يجرى تعديلات فى المشاريع السابقة لتطوير

النيل فى مجراه كله ، ولكنه لا يستبعدها • وتتضمن هذه المشروعات شق قناة عبر مستنقعات جنوب السودان ، التى يضيع فيها نصف مجرى النيل كله • فسيؤدى شق هذه القناة فى النهاية الى زيادة كميات المياه فى موسم الهبوط ، ويكون مهما كل الأهمية لمصر ، حتى بعد أن يحصل السودان على حصته من الماء • وتقوم اللجنة الفنية المشتركة لمياه النيل الآن بدراسة هذا المشروع من جديد ، اذ كان موضع دراسات متعددة من جانب الخبرات مرات عدة منذ عام ١٩٠٤ •

ولم تدع الجمهورية العربية المتحدة فى أى وقت من الأوقات ، كما يزعم بعض نقادها ، ان السد العالى ، سيؤمن الحل النهائى لكافة مشاكلها الاقتصادية • وكانت ترى فيه دائما أكبر وأعظم مشروع مفرد ، اذ سيؤمن الكثير من الامكانيات للتنمية القومية ، سواء عن طريق التوسع الزراعى فى البلاد أو بتأمين القوة المحركة للتمدد الصناعى من محطة توليد القوة الكهربية فيه • ولعل هذا هو الذى دفع الجمهورية العربية المتحدة الى وضع خطة السنوات العشر ، وهى المدة اللازمة للحصول على أكثر الفوائد من السد • ويمكن تصوير تقدم البلاد منطقيا « كلغز الصور المقطوعة » ، على اعتبار ان السد يؤلف الصورة المركزية التى تلمس من جميع جهاتها كافة المشروعات الأخرى التى يجرى تجميعها ببطء عبر سنوات عدة • وشرع فى استصلاح مساحات كبيرة من أراضى الصحراء والمستنقعات بين القاهرة والاسكندرية بموجب الشطر الثانى من خطة التنمية ، ومن المقرر أن يؤمن السد العالى الماء لزراعة نحو من مليون ونصف مليون فدان • وقد يكون هذا التقدير كبيرا ، ولكن فى وسع مصر أن تقترض من حصة السودان فى السنوات المقبلة كميات اضافية من المياه ، طبقا لاتفاق مياه النيل(١) ولاشك فى ان مشروع وادىالريان الذى ظهر لأول مرة فى ثمانينات القرن الماضى ، والذى اعتبر فى وقت من الأوقات منافسا لمشروع السد العالى ، سيحتل مكانه فى يوم من الأيام •

لكن جميع المشروعات الرئيسية فى الجمهورية العربية المتحدة لاتعتبر مرتبطة بالنهر على أى حال • فهناك مشروع رئيسى ضخم بدأ العمل فيه فى وقت واحد مع السد العالى ، وهو يعتمد على المياه الجوفية فى الصحراء الى الغرب من النهر • ولقد شرع مئات العمال بقيادة المهندسين

---

(١) فى وسع مصر أن تقترض نحوا من مليونى ياردة مكعبة من حصة السودان فى كل سنة حتى عام ١٩٧٧ . وتعاقدت شركة بريطانية على تأمين (٣٦٤) جرارا قيمتها ثلاثة ملايين جنيه لتحقيق هذا المشروع •

وعلماء طبقات الارض منذ عام ١٩٦٠ في استصلاح الاراضي في سلسلة من المنخفضات التي تضم واحات الخارجه والداخلة والفرافرة والبحرية وسيوة ، مستخدمين في عملهم هذا الآبار الارتوازية • والمعروف ان هذه المنطقة كانت خصبة للغاية في عهود الاغريق والرومان ، وهناك نحو من ١٢٠ بئرا رومانية تستخدم الآن في الواحتين الداخلة والخارجة • وتبلغ مساحة الوادي الجديد خمسة وثلاثين ألف ميل مربع ، وترى الجمهورية العربية المتحدة ان في الامكان استصلاح ثلاثمائة ألف فدان في هذه المنطقة وريها بصورة دائمة من المياه الجوفية • ولقد تم بموجب المشروع الحالي استصلاح مائة ألف فدان نصفها بات ينتج المحصولات المختلفة • وتم ايصال الواحات بطرق جديدة ، وأقيمت عاصمة الوادي الجديد في واحة الخارجة لاسكان العاملين في المشروع •

وهناك مشروع ضخم آخر تقدر تكاليفه بمجموع تكاليف السد العالي ، وهو مشروع منخفض القطارة في الصحراء الغربية حيث كانت قوات الحلفاء تختبيء أثناء معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية • وكان الدكتور جون بول الخبير في مؤسسة تعمير الصحاري هو أول من اقترح هذا المشروع في عشرينات القرن الحالي ، ثم تولت الحكومة دراسته • واستعانت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بعد سنوات من الدرس المتقطع في التخطيط للمشروع بالمؤسسات في ألمانيا الغربية • وتبلغ مساحة المنخفض الذي يقع في الصحراء الغربية أيضا عشرة آلاف ميل مربع ، وهو ينخفض بنحو من ٣٥ قدما عن سطح البحر الذي يقع على بعد أربعين ميلا الى الشمال من المنخفض • ويهدف المشروع الى ايصال مياه البحر الابيض المتوسط الى المنخفض واقامة محطة أخرى عظيمة لتوليد الطاقة الكهربية قادرة على توليد ٣٢٠٠ مليون كيلوواط في الساعة • ولما كان منخفض القطارة لا يبعد الاخمسين ميلا عن واحة سيوة في الوادي الجديد فان المشروعين سيرتبطان في مشروع تعمير الصحاري •

وليس ثمة من شك في ان مصر تحقق التقدم السريع ، واذا ما تطلع المرء الى المستقبل ، كان في وسعه أن يتوقع تبدلا كبيرا فيها في غضون حقبة واحدة ، أي عندما تكون مشاريع كثيرة يجري العمل فيها الآن قد بدأت تؤتي اكلها • وقد تؤدي بعض العيوب وبينها الافتقار الى قوة العمالة الكافية ، وسوء الادارة أحيانا ، والخطأ في تقدير متطلبات البلاد ، الى تأخير مرحلة التغيير أو تشويهها جزئيا ، والى التقليل من عوائد الانفاق في المال والرجال • لكن الكثير سيتحقق ، وفي وقت قريب

للغاية ، وستؤدى زيادة الطبقة الوسطى وارتفاع مستويات الحياة في الوقت المناسب الى مساعدة البلاد فى التغلب على مشكلة تزايد السكان(١) • فمن الملاحظ الآن ان الطبقة الوسطى على النحو المرن المعروفة به في مصر ، والتى تضم أرباب المهن وضباط الجيش والمراتب العليا من الموظفين ، والتقنيين والعمال الفنيين الذين ارتفعوا عن مستوى العمل العادى ، قد شرعت في تحديد النسل ، اذ ان أفرادها يقللون من أطفالهم ابان كفاحهم للحفاظ على مستويات الحياة الجديدة التى حققوها لاسرهم بعد صعوبة بالغة(٢) • وتشجع الحكومة هذا التطور الاجتماعى ، كعامل أساسى مصاحب لبرامج تنميتها ، فقد استوردت الحكومة كميات ضخمة من حبوب منع الحمل منذ ظهورها فى الاسواق العالمية ، كعامل مهم فى التطور المقبل •

وقد تكون مشكلة التمويل هى التى تلقى ظلالها السوداء على هذا المستقبل المشرق ، اذ ان برامج التنمية الضخمة تلقى عبئا كبيرا على اقتصاد البلاد بالرغم من القروض الخارجية التى تحصل عليها من الاتحاد السوفياتي وغيره ، ومن كميات الحنطة السنوية التى تؤمنها الولايات المتحدة لمصر ، بالنقد المصرى الذى يتحول الى مساعدة مباشرة(٣) • ولقد حار الكثيرون من دارسى الثورة المصرية ، في تحليل الطريقة التى مولت الثورة بها مشاريعها ، والتى فرضت عليها بحثا لا ينقطع عن الاموال والمصادر(٤) • فلقد ارتفعت الضرائب فى مصر فى حقبة واحدة من الزمن بنسبة قضت بريطانيا نحوا من قرن فى الوصول اليها(٥) ، كما ان تأميم

---

(١) و (٢) يخلط المؤلف فى حديثه هنا عن التكوين الطبقى لمصر • فلايمكن بأى حال من الاحوال اخراج العمال الفنيين والتقنيين من طبقة العمال ، لمجرد ارتفاع مستويات الحياة لديهم ، نتيجة التحسن الذى خلقته الثورة فى أوضاعهم المعاشية وأجورهم • وكان عليه الا يقصر الحديث على الطبقة الوسطى ، بل يجعل حديثه عاما عن الطبقة العاملة وعن الطبقة المتوسطة — الدنيا وهما اللتان ارتفعت مستويات الحياة بشكل ملحوظ لديهما .

(٣) أوقفت الولايات المتحدة مبيعاتها من الحنطة الى الجمهورية العربية المتحدة منذ أكثر من عامين ، بعد أن حاولت استخدامها كسلاح من أسلحة الضغط الاقتصادى عليها ، لفرض ارادتها السياسية عليها .

(٤) ليس هناك سر على الاطلاق ، اذ أن هذا السر يمثل فى الشعب العربى فى مصر ، الذى احتمل من التضحيات أبلغها ، لانجاح ثورته وتمويلها .

(٥) مقارنة فى منتهى السخف ، اذ أن بريطانيا سارت فى طريق التطور التدرج ، بينما كان على مصر أن تقطع فى ثورتها فى سنوات ماقطعه غيرها فى اجيال وقرون للحاق بقافلة الحضارة العالمية .

(المعرب)

الصناعة والتجارة مقابل سندات حكومية لمدة خمسة عشر عاما ، كان قريبا من المصادرة • واختفت الفوائد فى الآلة الجائعة للتنمية الصناعية والتطور الاجتماعى • وتوقف استيراد الكماليات والكثير من السلع الاستهلاكية نصف الضرورية ، كما أوقف السفر الى الخارج عند الحد الادنى ، ومع ذلك فان هذه الاجراءات لم تكن كافية حتى ولو أضيفت اليها المساعدات الخارجية والدخل المتوفر من قناة السويس للتغلب على النقص المزمن فى النقد الاجنبى • ولقد تزايدت حدة الوضع من جراء الاصرار على متابعة الثورة العربية بطرق جعلت مصر تتصادم مع بلاد كثيرة ، راحت توقف مساعداتها لها (١) ، كما أقحمتها فى حملة اليمن العسكرية البالغة التكاليف • وقد يؤدى توقف المساعدات الخارجية أو تضييق نطاقها الى آثار مفجعة فى برامج التقدم • ولكن لو تمكن عبد الناصر من الصمود حقبة أخرى فى الطريق الذى اختطه لثورته ، فسيسجل التاريخ انه أعظم من أنجبته مصر فى تاريخها الطويل ، وانه بانى مصر الجديدة • وعندما سترى هذه القصة ، سيحتل السد العالى مكانه كنقطة التحول فى تاريخ مصر الحديث •

***

وسواء انجحت هذه الجهود البارزة الضخمة لتحقيق الرخاء المادى للانسان أم لم تنجح ، فان نهر النيل العظيم ، لن يعود قط الى ما كان عليه من قبل فى مصر بعد عام ١٩٦٧ • ولن تعود مياهه الى الاندفاع عبر فوهات السد القديم لتملأ النهر المصرى ، بالماء الغزير الاصفر اللون • ولن يرى الناس بعد ذلك العام ، والى الابد ، الفيضان السنوى الذى ظل يعتبر «معجزة» تهب الحياة الى أهل مصر عبر الدهور والقرون والذى كان الناس يرقبونه بدهشة حتى فى المدن المنتشرة على ضفاف النهر • وستضيع الروافد فى بحيرة ناصر ، وسيتولى الماء رى حقول مصر وأراضيها ، بارادة الانسان لا بارادة الطبيعة •

وكان للفيضان أثر متفوق فى التاريخ ، اذ انه أسهم أكثر من أى عامل فرد آخر فى الحياة القديمة وحتى بزوغ فجر الحضارة ، وتكوين أول مجتمع قومى عرفه الانسان • ولقد كانت مهمة فهم الفيضان وتوقع

---

(١) يريد المؤلف هنا أن يوحى ، بأن سياسات مصر الثورية هى التى جعلت الدول الغربية توقف مساعداتها له • وهذا أمر طبيعى لان الدول الغربية معادية للثورة العربية من ناحية ، ولانها تريد استخدام معوناتها الاقتصادية كأداة للضغط السياسى وفرض التبعية •

(المعرب)

قدومه ، وقياس مناسيبه ، والسيطرة عليه والافادة منه ، وحساب خيراته ثمارا وحبوبا ، هى التى دفعت الرواد الاول فى حياة مصر الى تكوين عناصر المعرفة التى ما زلنا نعتمد عليها حتى اليوم • فهم الذين اخترعوا تقويم الثلاثمائة والخمسة والستين يوما فى السنة ، كما انهم بمراقبتهم للسماء خلفوا المبادىء الاولية والدقيقة لعلم الفلك • ودفعتهم الحاجة الى القياس والتسجيل ، والى ابتكار علوم الرياضة والحساب ، والى تطوير الكتابة الحديثة • ودفعهم العيش معا على ضفتى النهر المحدودتين ، الى تعلم فن البناء ، واخترعوا لذلك الكثير من الادوات والاساليب المعمارية • ولما كان النيل يتطلب التعاون ، فقد اختفت الحدود القبلية وطمست بصورة متدرجة لتبرز بدلا منها حدود الدولة الموحدة• ولقد عنى الفيضان الكثير للمصريين وللانسانية أيضا ، بحيث يصعب على المرء أن يتصور حادثا أبرز فى العصور الحديثة ، من وصول آخر فيضان للنيل الى القاهرة قادما من أسوان ، ومنها الى البحر •

ويبدو ان آلهة النهر التى عبدها المصريون القدامى قد ادركت خطورة هذه اللحظة التاريخية ، وآثار سخطها أن يتمكن الانسان فى النهاية من تحديد قواها وسلطانها • ولم تكد بضعة أسابيع تنقضى على تحويل النهر ، حتى راح مقياس الروصيرص ينقل الى أسوان والقاهرة ، ان أعظم فيضان شهده القرن الحالى ، بدأ يتدفق فى النيل الازرق ، ليعصف بالخطوط الدفاعية التى لم تكتمل بعد فى السد الجديد • وتلت ذلك أسابيع من القلق فاقت فى خطورتها أى قلق أحس به المسئولون طيلة المرحلة الاولى من بناء السد • وكان خطر الفيضان الآن أعظم منه فى عام ١٩٤٦ ، لا بسبب حجمه فقط ، بل ولان قناطر السد القديم لم تعد صالحة للاستعمال لكبح جماح ذروة الفيضان كما كان الامر فى الماضى • وكان لا بد مهما كان القرار من التضحية بشىء ، اما بما سيصيب القرى والمحاصيل من ضرر عن طريق السماح لشطر كبير من الفيضان بالمرور . أو بتدمير السدود المؤقتة فى السد العالى عن طريق كبح جماح القسم الاكبر من مياه الفيضان •

وكان حجم المياه المندفعة فى الوادى كبيرا للغاية عندما وصل الفيضان الى أسوان • بحيث لم يعد ثمة مجال لاستعمال السد القديم ، كما حدث فى عام ١٩٤٦ ، اذ ان هذا الاستعمال سيعرض القناطر نفسها للخطر دون أن يقلل من قوة الاندفاع على الحصون الامامية للسد العالى ، بل وقد يعرضها أيضا للخطر عن طريق رفع منسوب المياه فى البحيرة الى

حد كبير • وكان فى الامكان بالطبع الحفاظ على سلامة السدود المؤقتة عن طريق السماح للفيضان العالى بالمرور بحرية عبر قناة التحويل الجديدة ، ولكن لما كان من المتعذر بعد ذلك وقف الفيضان عن طريق القناطر الخلفية ، فان الضرر الذى سيلحق بقرى مصر وحقولها سيكون كبيرا للغاية • ولم تكن هذه الطريقة بالاختصار مأمونه فى حجز مثل هذا القدر الضخم من المياه ، ولذا فقد كان القرار النهائى الحتمى ، توفيقيا ، وهو التقليل من الاضرار التى ستلحق بالريف المصرى بقدر الامكان ، دون السماح بتحطيم السدود المؤقتة •

وكانت المؤتمرات التى يعقدها المهندسون الروس والمصريون فى هذه المرحلة تتميز بالخطورة والجدية والتجهم • وكان العمل الوحيد الذى يمكن اتخاذه ، اغلاق بعض البوابات فى الانفاق عند قناة التحويل مما يؤدى الى تقليل اندفاع المياه على القناطر القديمة وعلى الاراضى الزراعية الى الشمال منها ، مع القدرة فى الوقت نفسه على تكوين البحيرة وراء السد الامامى • ولكن ترى كيف يمكن اغلاق هذه البوابات ؟ كانت الحكومة التى تحس بالخطر يهدد شعبها ومحاصيلها ، تريد اغلاق أكبر عدد منها • بينما كان المهندسون الروس جد حريصين على عدم تعريض السد المؤقت المكون من الصخور والرمال الى أى خطر غير عادى ، وكانوا يريدون الابقاء على جميع البوابات مفتوحة • وكانوا يقولون ان المحاصيل ستعود الى النمو ثانية ، وان اعادة بناء البيوت فى القرى لن يكلف كثيرا من الماء ، وطويلا من الوقت •

وكانت كلابشة الواقعة على بعد أربعين ميلا الى الجنوب ، والتى أعدت كمركز للتصريف ، قد هيئت لمواجهة مثل هذا الاحتمال الطارىء ، عن طريق اغراق أحد المنخفضات الصحراوية بكميات كبيرة من المياه ، دون أن يؤدى ذلك الى أى ضرر ، وقبل أن يصل الخطر الى السد العالى• ولكنها لم تكن كافية فى هذه المناسبة • وهكذا اندفعت المياه الفائضة مارة بأسوان ، لتزيل محصولات كثيرة من الذرة وقصب السكر والخضراوات ، ولتدمر القرى فى طريقها الى القاهرة ، حيث غمرت شوارعها وكان الناس على طول مجرى النهر ، يعملون كما يعمل اسلافهم أثناء فيضانات القرن التاسع عشر ، ويلجئون الى التلال المحيطة بالنهر ، ولكن لم تحدث لحسن الحظ خسائر كبيرة فى الارواح والماشية • وتم فى شهر سبتمبر اخلاء عدد كبير من القرى ، بعضها فى الدلتا فى أقصى الشمال ، ومع ذلك لم تظهر أية بادرة تشير الى احتمال هبوط مناسيب

المياه . ولكن هذه المناسيب لا بد وأن تهبط فى وقت قريب . وراح المهندسون الروس يغلقون بوابتين فى الانفاق لتخفيف الضغط ، ثم عادوا فأغلقوا وبصورة جزئية بوابة ثالثة . واعتقد المهندسون المصريون ان فى الامكان اغلاق بوابات أخرى ، ولما كانوا أكثر معرفة من زملائهم الروس، بل ومن كل انسان فى العالم بنهرهم ، فقد كانوا على حق بأن فى الامكان تحمل أخطار المغامرة ، كما تحملوها بالنسبة الى السد القديم فى عام ١٩٤٦ . واعتقد المهندسون الروس ان المغامرة التى قاموا بها حتى الآن تفوق كل تقدير ، وهكذا راحت مديرية الرى فى مصر ، تقف حارسة على طول مجرى النهر ، دون أن تتمكن من تطبيق المزيد من أساليب السيطرة على النهر . ووقفت سيارات المديرية وشاحناتها على استعداد وهى محملة بأكوام من الخشب والاثقال ، وكان المهندسون والعمال يهرعون بأقصى ما يتمكنون من سرعة الى النقاط المهددة على ضفتى النهر وضفاف ترعه وقنواته .

ولم يبدأ الاندفاع فى الهبوط الا فى نهاية شهر سبتمبر ، وأصبح فى الامكان بعد انحسار الخطر الشروع فى تخزين كميات اضافية من الماء . ولم يعد الآن من المتوقع مطلقا أن يعود النهر الى تهديد العمل فى السد بخطر التدمير أو الى تهديد حقول مصر ومزارعها . وهكذا كان فيضان عام ١٩٦٤ آخر هجوم قام به النهر . وبالرغم من ان الفيضان السنوى لن يتوقف نهائيا عند النيل الادنى الى أن تبدأ عملية التخزين من سنة الى آخري بعد عام ١٩٦٧ ، الا آن مقادير المياه التى احتجزت فى عام ١٩٦٥ كانت كبيرة للغاية . وكان السد العالى فى عام ١٩٦٤ قد ضاعف بحيرة الخزان القديم ، كما ستصبح البحيرة فى عام ١٩٦٥ ، ثلاثة أضعاف ما كانت عليه فى السنة السابقة .

***

وما زال فى وسع الانسان أن يرى على جزيرة الفيلة فى النيل عند أسوان ، المقياس القديم الذى استخدمه الفراعنة الاقدمون فى قياس كل فيضان . وهناك درج ضيق يرتفع من الماء عبر الصخر الصلد وقد كتبت المقاييس على الجانبين . وفى وسع المرء أن يحدد عصور استعمالها عن طريق التبدل فى الكتابات من الهيروغليفية الى الاغريقية ، فالعربية والفرنسية . وكان من الضرورى حتى نصف قرن خلا ، عندما بنى السد القديم والقناطر على النيل الاسفل لتوسيع نظام الرى السنوى ، أن يسجل النهر على المقياس الصخرى ارتفاع ١٦ عقدة أو ٢٨ قدما ، لتتمكن مصر من تجنب سنة من السنوات العجاف ، اذ كان ارتفاع الفيضان فوق

هذا الحد ، هو الذى يمكن الفلاحين من رى أراضى الحياض البعيدة عن ضفتى النهر • وكان الخط الفاصل من الوضوح ، بحيث كانت الحكومة تقدم على الغاء الضرائب الزراعية فى أية سنة لا يتجاوز منسوب المياه ذلك الحد •

ولقد جرت عاد المصريين منذ أقدم عهود الفراعنة على ارضاء الاله حابى ، اله الفيضان ، بتقديم عذراء جميلة اليه فى كل عام ، تلقى حية اليه والى التماسيح من مركب مقدس • واختفت هذه العادة الوحشية منذ أيام المملكة الفرعونية القديمة ، ولكن الاحتفال المقدس ببركات النيل ظل قائما عن طريق القاء دمية كاملة اللباس فى النهر من مركب مزخرف كل الزخرفة ، وظل الاحتفال بوفاء النيل قائما فى العصور الحديثة . بالرغم من ان اتساع الاراضى المروية ريا سنويا ، قد افقد المنسوب أهميته • ويجرى هذا الاحتفال فى كل سنة فى القاهرة ، عندما يسجل المقياس الجديد فى جزيرة الروضة عند القاهرة ست عشرة عقدة • وكثيرا ما يقع الاحتفال فى الثانى والعشرين من أغسطس من كل عام •

وعندما ينتهى أمر الفيضان فى مصر ، سيصبح الاحتفال بوفاء النيل فاقدا لأى معنى ، وسيحل الوقت عندما يسأل أطفال مصر آباءهم عن السبب فى هذا الاحتفال الذى لا معنى له فى النهر • فلقد وعد عبد الناصر ، وهو على حق فى وعده ، بأن لا يتوقف الاحتفال السنوى بوفاء النيل • وسيضفى السد العالى نعماءه على الاجيال القادمة ، ولكن سيظل الفيضان الذى فرض بناء هذا السد ، خلاقه اللامباشر •

صور من السد العالي

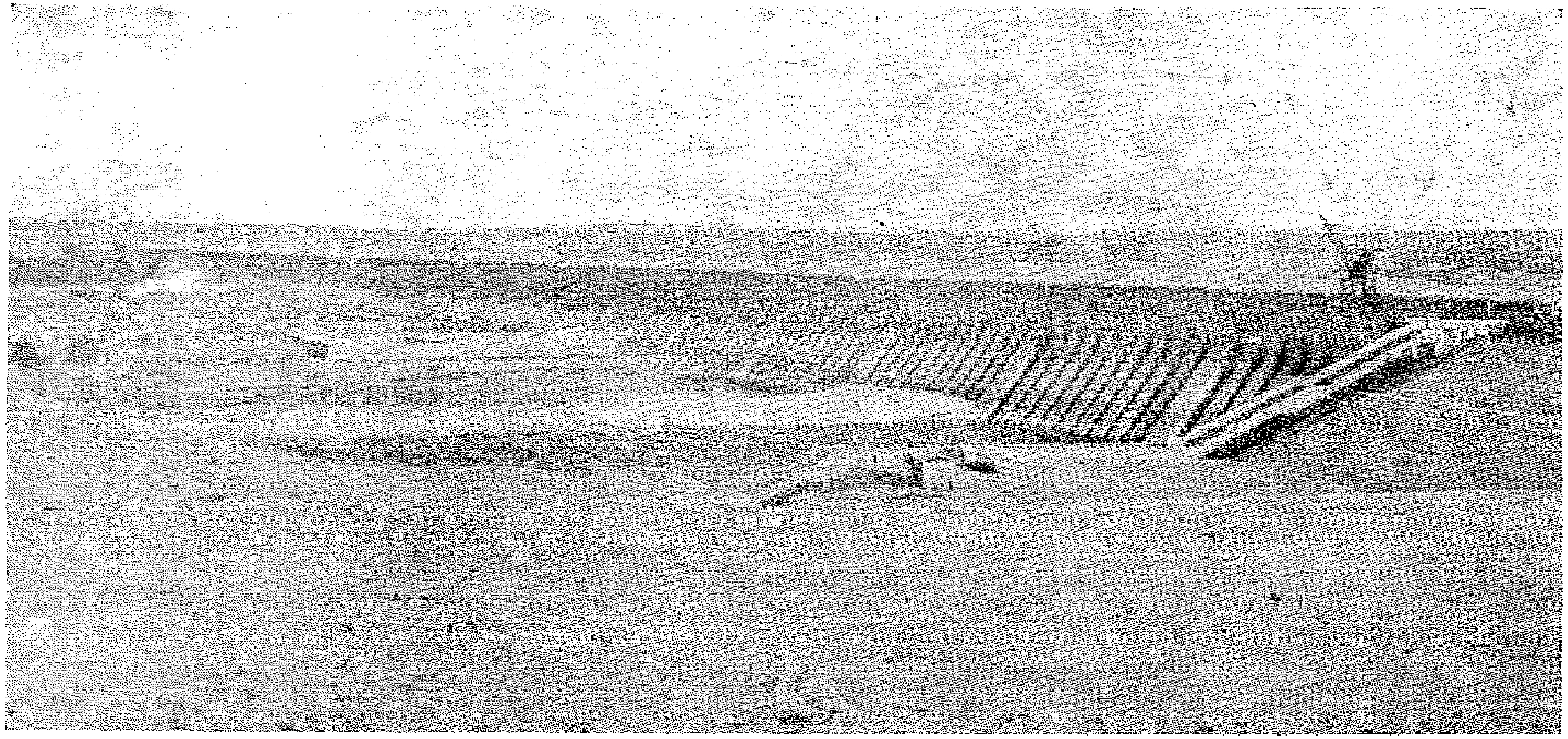

سد أسوان القديم بعد تعليته للمرة الثانية في عام ١٩٣٣

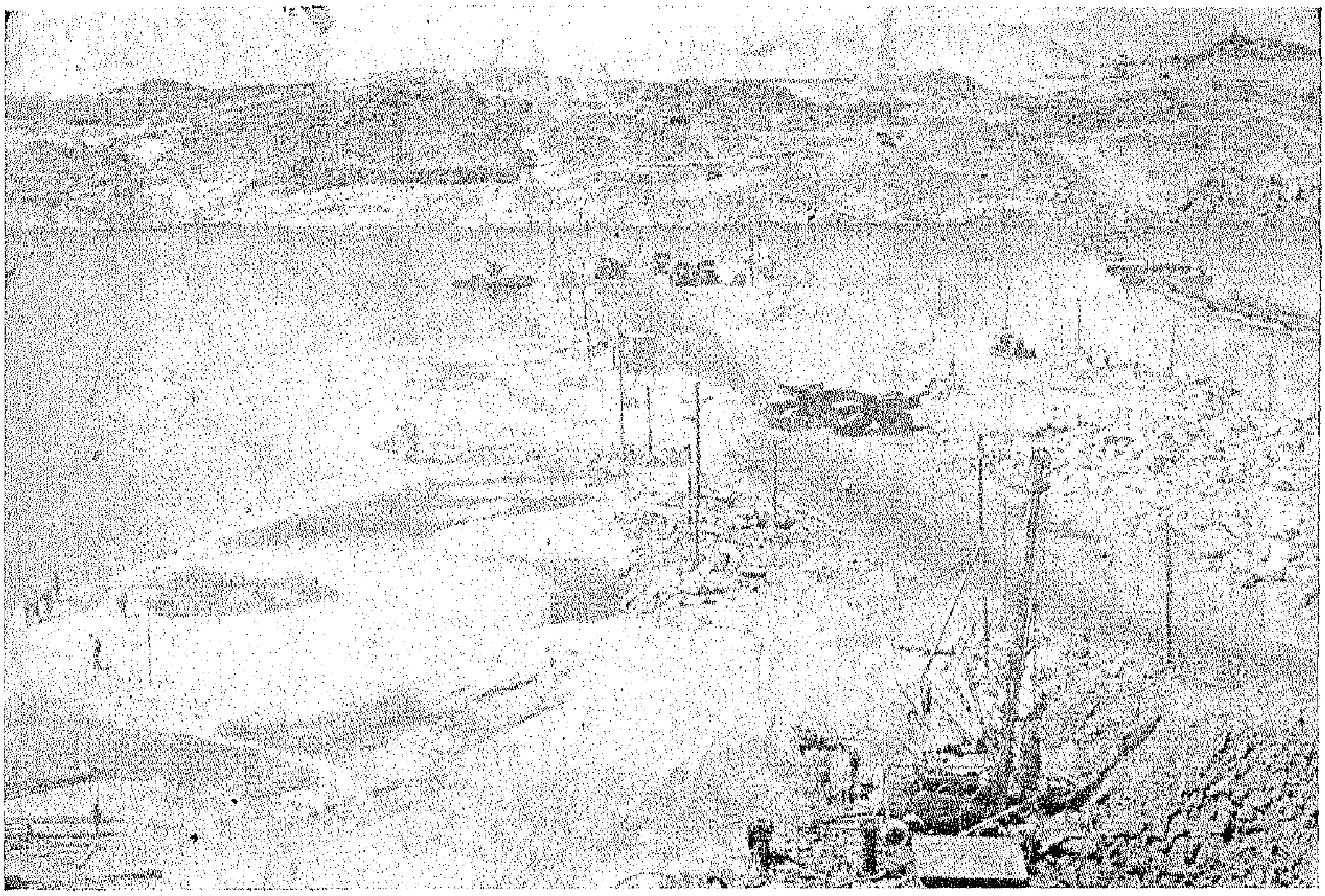

المدخل الامامي لقناة التحويل ، ويظهر عنده السد المؤقت

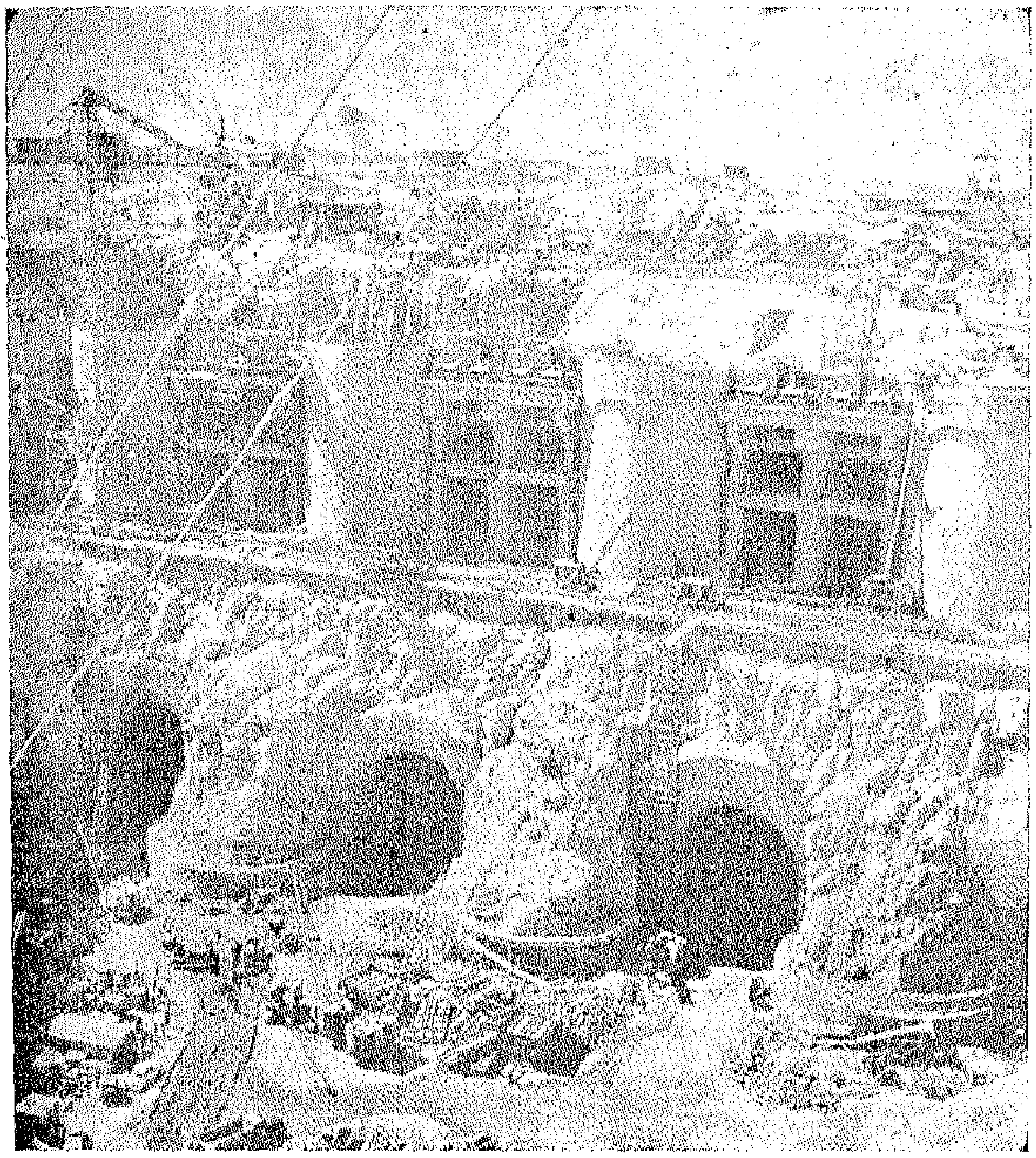

ثلاثة من الانفاق الستة تقترب من مرحلة اتمام العمل فى عام ١٩٦٣

العمال يحتفلون بانتهاء العمل فى السد العالى

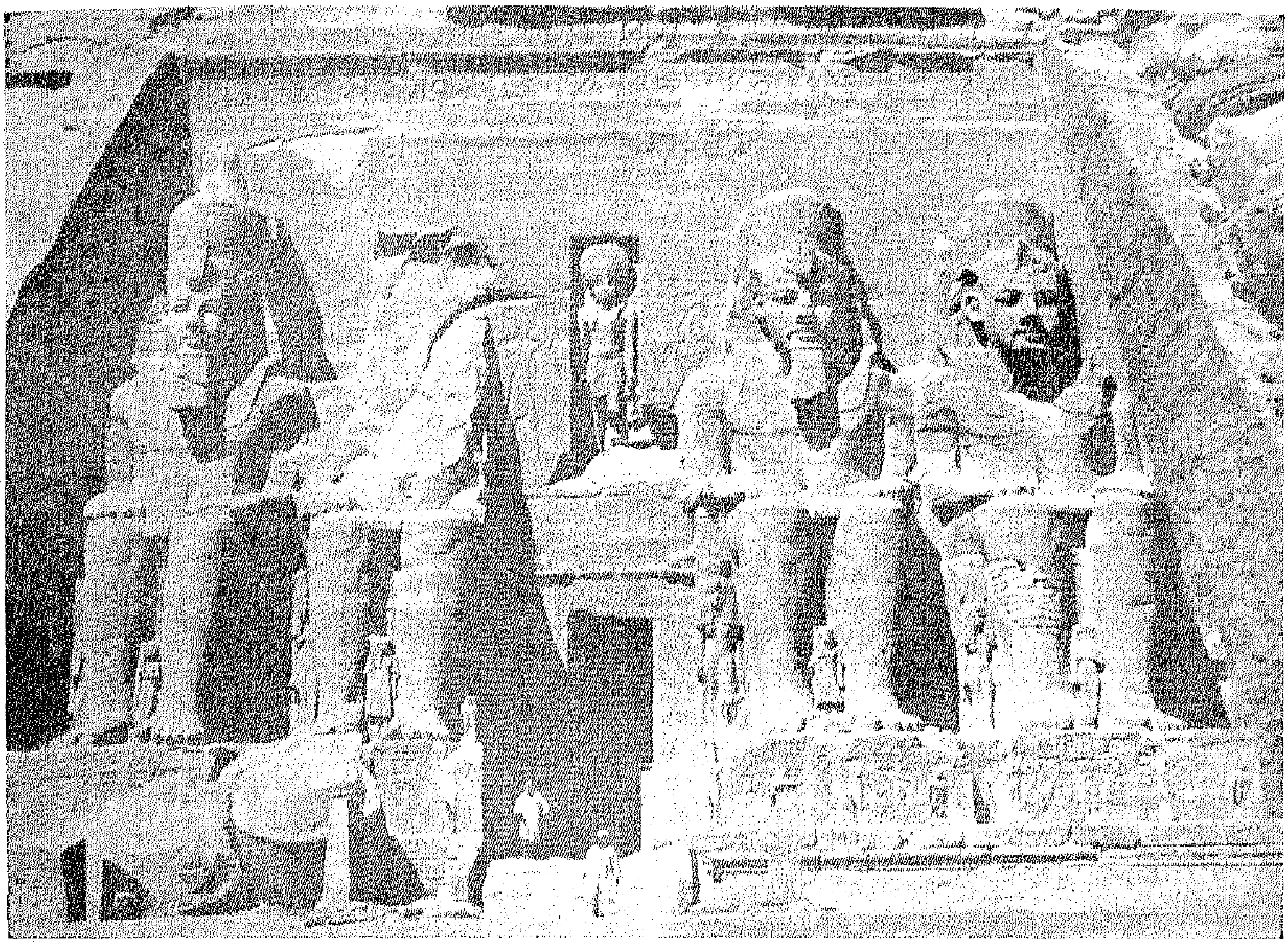

واجهة المعبد الكبير فى أبى سمبل

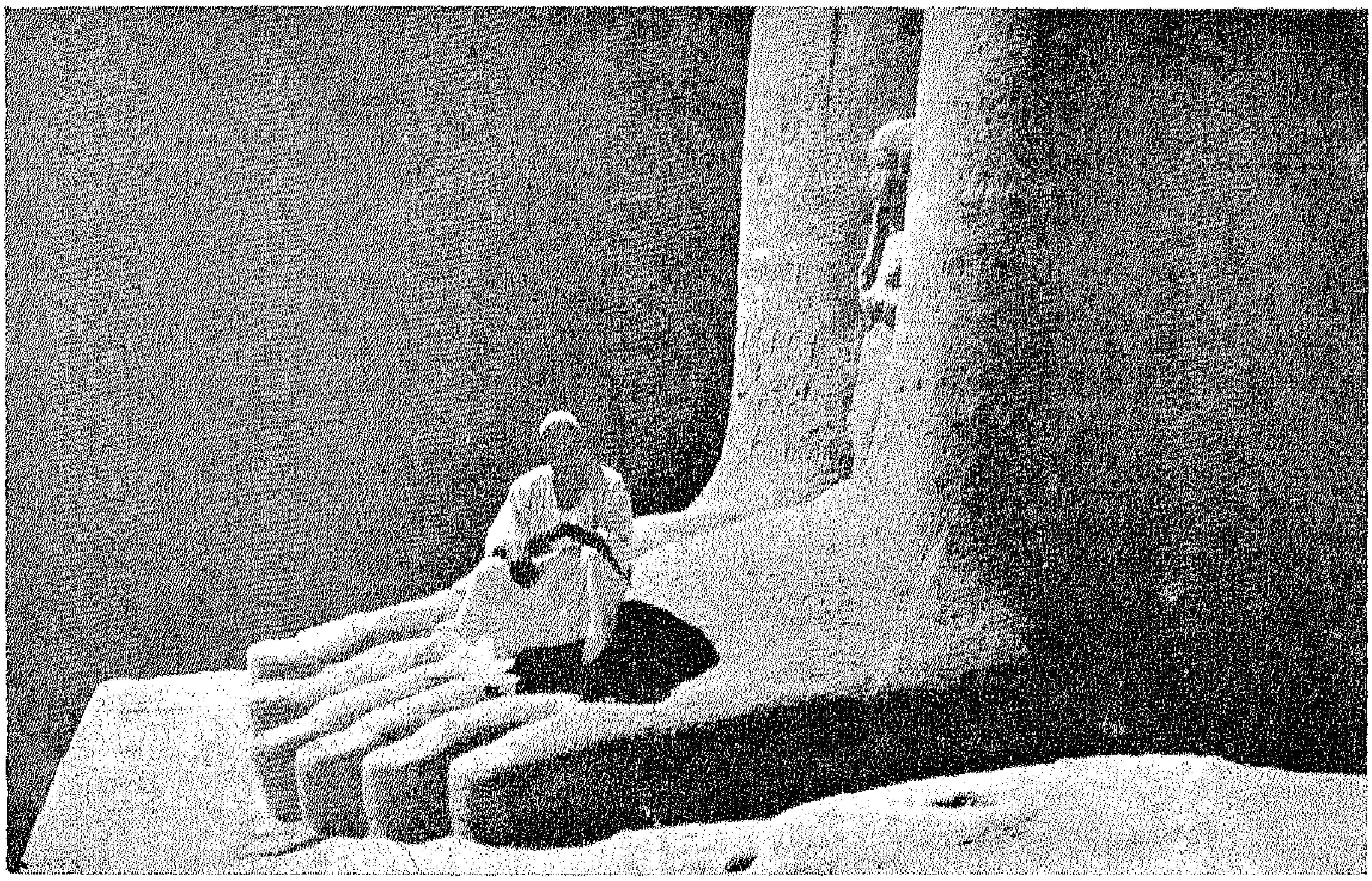

عامل يجلس على قدم تمثال رمسيس الثانى فى ابى سمبل

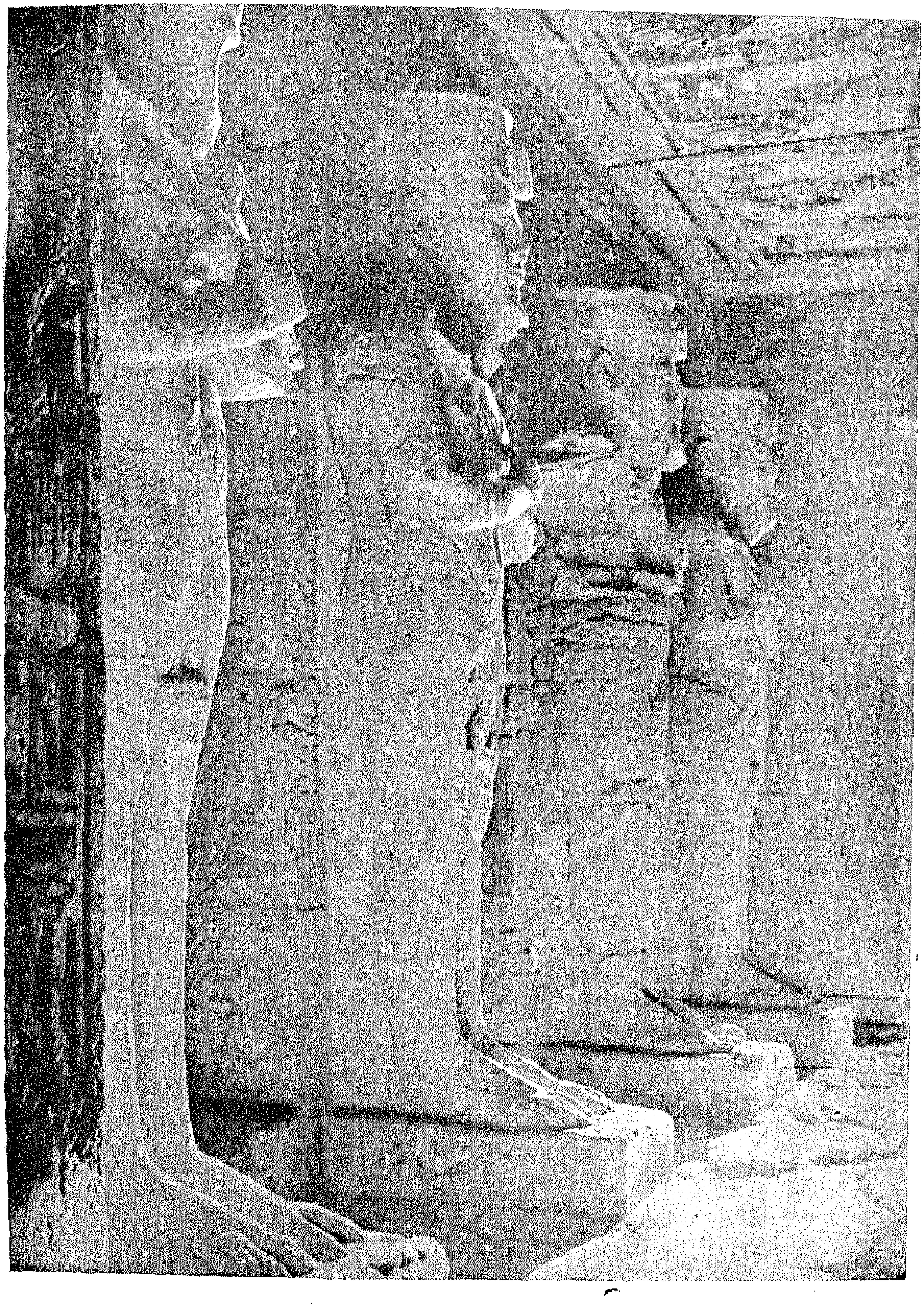

الصالة الداخلية لمعبد ابى سمبل الكبير

فهــــرس

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة
مقدمة المعرب	٣
تقـدمة المؤلف	٩
القسم الأول (النبوءات والسياسات)	١٣
النبــوءات	١٤
(١) والله انه جبل	١٦
موقع السد العـالى وبحيرة ناصر (خريطة)	١٨
(٢) رواد منسيون	٣٦
(٣) القــرار والصراع	٥٢
(٤) روسيا تبـادر الى النجدة	٦٨
(٥) تحية عسكرية	٧٩
القسم الثانى (العمل يسير قدما)	٨٧
(٦) كيف يصمد البنـاء على الرمل	٨٨
مقطع للسد العالى مع مقارنته بالسد القديم (خريطة)	٩٣
صورة قطاعية للسد تظهر أرضية من الرمل المتـــحرك والصلب الصــلصالى الذى تضمه طبقاته الصـــخرية	١٠٠
(٧) ١٩٦٠ سنة التمهل	١٠٣
السد العالى عند انتهائه وتظهر فيه قناة التحويل والأنفاق ومحطة التوليد الـكهربية	١٠٥
(٨) ١٩٦١ ســنة الأزمة	١١٤
(٩) ١٩٦٢ سنة التحول	١٢٨
(١٠) ١٩٦٣ سنة النجاح	١٣٩

الموضوع	الصفحة

القسم الثالث (الأرض التى حكم عليها القدر) ١٤٩

(١١) النـــوبيون ١٥٠

(١٢) مادة التاريخ ١٧٠

(١٣) حملة العلمـــاء ١٨٢

(١٤) ثمن التاريخ ١٩٧

(١٥) أبو ســـمبل ٢٠٩

(١٦) اللؤلؤة والجواهر الأخرى ٢٢٢

القسم الرابع (بداية النهاية) ٢٣٣

(١٧) الفيضان الأخير ٢٣٤

صور من السد العالى (سد أسوان القديم بعد تعليته للمرة الثانية

في عام ١٩٣٣) ٢٦١

المدخل الأمامى لقناة التحويل ويظهر عنده الســـد المؤقت ٢٦٤

ثلاثة من الأنفاق الستة تقترب من مرحلة اتمام العمل فى عام ١٩٦٣ ٢٦٥

العمال يحتفلون بانتهاء العمل فى السد العالى ٢٦٦

واجهة المعبد الكبير فى أبى سمبل ٢٦٧

عامل يجلس على قدم تمثال رمسيس الثانى فى أبى ســـمبل .. ٢٦٨

الصالة الداخلية لمعبد أبى سمبل الكبير ٢٦٩

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
« فرع الساحل »

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٨

Bibliotheca Alexandrina
06557303

الثمن ٢٠ قرشا